يوري تريفونوف

هموم عائلية

قصص



تتناغم مواضيع نتاج الكاتب السوفييتي المعروف يوري تريفونوف (١٩٢٥ — ١٩٨١) مع الاستقصاءات الخلقية–الايطيقية الجارية في الادب المعاصر .

جلبت شهرة واسعة للكاتب قصصه المسماة «قصص المدينة» : «هموم عائلية» و«التبادل» و«الوداع الطويل» المدرجة في هذه المجموعة . ثمة عنصر مشترك يوحد بينها جميعا . جغرافيا الاحداث واحدة : شوارع موسكو وبلدات الاصطياف في ضواحيها . والتعاقب الزمني واحد : سنوات ما بعد الحرب وايامنا الراهنة . وابطال القصص هم معاصرونا ، اناس الستينات والسبعينات .

دار «رادوغا»
موسكو

ترجمة :
غالب طعمة فرمان
طارق معصراني
د . ابو بكر يوسف

Ю. Трифонов
ПОВЕСТИ
На арабском языке

© حقوق الترجمة الى اللغة العربية والتأليف محفوظة

لدار «رادوغا» ، ١٩٨٩
طبع فى الاتحاد السوفييتى

T $\frac{4702010201-462}{031(01)-89}$ 099-89

ISBN 5-05-0020208-X

هموم عائلية

الى «آلا»

ومرة أخرى استيقظت وسط الليل ، مثلما هى الآن تستيقظ فى كل ليلة ، وكأن أحداً يوقظها برجة متكررة . خبيثة : تفكر ، وتمعن في التفكير ، وتجاهد أن تفهم ، فلا تظفر بطائل . فان كيانها لم يكن قادراً إلا على تعذيب النفس . **ولكن الذى كان يوقظها** كان يلح بالمطالبة أن تفهم ، لا بد أن يكون هناك معنى ، ولا بد أن يكون هناك مذنبون ، والمذنبون دائماً قريبون ، حتى لتستحيل الحياة بعد هذا كله ويجدر الموت . فقط أن تعرف بم هي مذنبة ؟ وهناك شيء آخر غامض ومخجل يقلقها ، وهو هل من المعقول أن كل شيء أنتهى بهذا ؟ «أي بلهاء أنا ، كيف يمكن أن أفكر في الموت ، اذا كانت لي إبنة ؟» .

ومع ذلك فقد كانت تفكر في الموت بسهولة ، كما تفكر بشيء منغص ، ولكنه محتوم يجب أن يواجه ، مثل التفكير ، مثلاً ، في وجوب دخول مستشفى لاجراء عملية . وقد كانت أفكار الموت أخف كثيراً من الذكرى . فقد كانت هذه تثير الألم ، بينما هذه الافكار لا تتعدى الاستغراق الرتيب . وها هى الذكرى تبدأ بالتدفق . حين كان يشتغل في المتحف كان يأتي يوم الراتب بعد منتصف الليل ثملاً —

كان ذلك منذ زمن بعيد — من «سيفان» عادة ، وهو مطعم قريب من المتحف ، أو من فيدوروف الذي يصطحبه الى بيته ، ويساقيه هناك ، فكان يستلقي دائماً ، دون أن يتأخر دقيقة واحدة ، ويغفو حالاً . ولكنه كان يستيقظ في الليل حتماً ، في حوالي الساعة الثالثة أو الرابعة ، كما تستيقظ هي الآن . ويعيقها عن النوم ، ويشحط بنعليه الى المطبخ ليشرب الماء ، أو مشروباً آخر من الثلاجة ، فتغضب هي ، وتشتمه من خلل النوم . وفي تلك اللحظات التي كان يوقظها ، كانت تمقته : «أي أناني أنت !» .

أما هو فقد كان يموه سكره ، ويتصرف بفطنة ومكر ويبرع كثيراً في التمثيل . فكانت لا تفطن الى رائحة الخمرة ، ولا احمرار العينين ، وتصدق بكلامه : «أنا متعب كالكلب» ، وتشفق عليه ، وتسرع في اعداد الفراش له ، وكان يتأوه تحت اللحاف ، ويأخذ بالشخير ، ولكنه كان يكشف عن نفسه في الليل حتماً ، حين يستيقظ قبل طلوع الصباح بوقت طويل . والآن يحدث معها ما يشبه ذلك . كانت الذكرى والألم بمثابة الخمرة عندها ، وكانت تموه ذلك ، في النهار ، إذ لا يجوز أن يلحظ أحد ، لا في العمل ، ولا في البيت . لا ايرينا ولا حماتها ، والحماة بوجه خاص ، لأنها إن لاحظت ذلك أشتد الألم ، فكانت توظف كل قواها في النهار للتمويه ، ولكن ليس لها من القوة ليكفي ساعات الليل أيضاً .

أحياناً كان يستيقظ في الليل من دون أي سكر ، بل لسبب غير معروف ابداً . وكان ذلك مجرد نزوة . ذلك لأنه لم يكن شيخاً عجوزاً . والارق يصيب الشيوخ العجائز . فكان

ذلك يثير أعصابها ، لأنها كانت تنام نوماً خفيفاً ، وتستيقظ ، حالما يأخذ بالزفير والتقلب وعلى الأخص ، حين ينظر في الساعة . كان يأخذ ساعة اليد من على سطح صندوق لوازم الفراش ، ليقربها من عينيه ، وكان ابزيمها يرن مصلصلاً على الصندوق دائماً . وكان هذا الرنين المجلجل يثير الكثير من الأخذ والرد في الكلام ، وكانت تغضب كثيراً . وكان ذلك حماقة كبيرة . لقد كان المسكين يجاهد أن يناور بجنون ليتغلب على حركة الساعة ، ولكن مناورته لم تكن تنجح ، فقد كانت تصطدم بالصندوق بشيء ما حتماً ولو بطرف رأسها المعدني الصغير ، فيصدر صوت مجلجل واضح جداً في سكون الليل ، فتجفل مرتعدة ، لأنها كانت قد استيقظت في وقت مبكر (حالما يأخذ بالزفير) ، وتجمد منتظرة صلصلة الساعة بقلب واجف .

بقيت الحماة تسكن معها في شقة واحدة . فأين يمكنها أن تذهب ؟

لقد كانت هذه المرأة تعتقد اعتقاداً قوياً أن المذنب في موت إبنها هي زوجته . وقد مات الزوج في تشرين الثاني من العام الماضي إثر نوبة قلبية ، وهو في الثانية والاربعين من العمر . وكان من الصعب العيش سوية ، وكان بودهما أن يعيشا في منزلين منفصلين ، ويفترقا الى الأبد ، ولكن العائق أن الحماة العجوز كانت وحيدة ، وبانفصالها عن ارينا ، حفيدتها بنت الستة عشر ربيعاً ستحكم على نفسها بالموت بين الغرباء (كانت أختها وإبنة أخيها لا تحبان كثيراً دعوتها للعيش معهما ، كما أن الكسندرا بروكوفيفنا ، وهذا اسم الحماة ، ما كانت ستوافق على العيش معهما ، وفضلاً عن

ذلك فإن اولغا فاسيليفنا (إسم الزوجة المترملة) كان لا بد أن تأخذ بالحسبان إبنتها التي كانت تحب جدتها ، وبدون الجدة ستكون بلا رقيب تماماً . وكل ذلك رزح ككتلة صخرية لا تتزحزح ، بحيث لم يكن يبدو منها اي مخرج . استيقظي وسط الليل ، وتقلبي على الفراش في يأس . وفي النهار اخرجي من البيت ، واركضي ، واغربي . وكانت الآن تهرب الى الإيفاد قدر مستطاعها . وكانت تدرك أن ذلك غير صحيح ، وأنه ضعف ، وأن ايرينا محتاجة اليها الآن اكثر من ذي قبل والى حد كبير ، وكانت هي ايضاً تحتاج الى ايرينا ، وفي سفراتها كان الشوق الى إبنتها يمزقها ، فتتعجل العودة ، وفي كل مساء تتحدث معها بالتلفون ، حتى تصل المكالمة التلفونية إلى خمسة روبلات ، ولكنها حين تعود تكتشف أن إبنتها بدونها قضت وقتاً ممتعاً ، منغمرة بأشغالها الصغيرة ، فكان ذلك يهدئها بعض الشيء ، رغم أنه كان يزيد الألم ، ومن جديد تشتاق الى السفر ، والخلاص ، عارفة ، مقدماً ، أن الخلاص لن يكون . آه ، كم كانت ستأسف ، وكم كانت ستعرف قيمة حماتها العجوز ، لو أن هذه كانت تعيش في مكان بعيد ! ولكن لم يكن ثمة حيز للأسف في هذه الحجرات الصغيرة ، في هذا الممر الصغير ، حيث كانت السنون المعاشة تقف مرصوصة واحدة لصق الأخرى ، مكشوفة ، وبلا حراجة ، مثل ذلك الحذاء البيتي المحكوك في الصندوق الخشبي الموضوع تحت المشجب ، والذي صنعه سيريوجا هنا ، في هذا الزحام ، والضيق . كان في إمكان الحماة أن تقول : «لا اتذكر أنك اشتريت مثل هذا الكعك المشكل من قبل . من أين اشتريته ، من شارع كيروف ؟»

عبارة واحدة قضت في لمحة واحدة على كل الشفقة التي تراكمت نُتفاً صغيرة . فقد كانت تعني أنه لم يكن يكرّم بالكعك المشكّل ، وأنها اليوم صارت تشتريه لنفسها . وكانت مثل هذه التفاهة ، مثل هذه السخافة الحقيرة المدعاة للاضحاك تجرحها كضربة حديد . لأنها في حقيقة الأمر لؤم ، تعذيب .

ومثل التعذيب الذي كان من جراء الكعك المشكل حصل بسبب التلفزيون أيضاً . منذ زمن بعيد ، حين كان سيرغى على قيد الحياة ، كانوا يريدون شراء تلفزيون جديد كبير بدلاً من التلفزيون القديم ذى العدسة الاضافية ، وكانوا يجمعون الفلوس لذلك . وكانت اولغا فاسيليفنا كثيراً ما تستثار — ربما ما كان ينبغي ، ولكن يا رب ، ماذا بوسعها الآن أن تفعل — تستثار بلا موجب ، بلا انصاف ، ولا تستطيع أن تسيطر على نفسها ، لأن هناك ، إذا اردنا الصدق ، اسباباً كانت تدفعها الى ذلك . والآن هذه الذكريات ايضاً تعذيب لأن سيرغى كان لساعات ينسى كل شيء ، ويتفرج على أية تفاهات رياضية . كان يرتخي على الكرسي الأخضر ، والساق على الساق ، والسيكارة بين شفتيه ، والمنفضة على هيأة سمكة بالقرب منه على الأرض ، ويظل مسمراً يصم أذنيه عما يوجه اليه . ولكن لماذا يرى كل شيء بالتسلسل ؟ هل معقول أن كل شيء ممتع على قدر واحد ؟ يقول : أنا استريح ولي الحق في الراحة ، على كل حال . لقد لعب الغيظ دوره الى اقصى حد ، على الجميع أن يعرفوا أنه يتعب في العمل تعباً شديداً .

كان يتعب بالفعل ، وفضلاً عن ذلك كانت هناك

منغصات . ولكن لكل امرئ منغصاته . ولم تكن لديه الكفاية من قوة التحمل . ثم أنه كان يخفي ، ويخفي ، وكان الكثير يكشف فيما بعد . وكانت هي تتحدث عن متاعبها ، وتجد في ذلك تنفيساً عما في صدرها ، بينما كان هو يخفي ، ويخجل من اخفاقاته . وعندها ، كان يتشكى امام التلفزيون بين الصدق والتباله :

— ايها السادة ، أعصابي تحتاج الى راحة . الكلاب تأكل العشب ، والمثقفون يستمعون الى الموسيقى ، أما أنا فأشاهد الرياضة . هذا علاجي ، برومي المهدئ ، مائي المعدني . لعنة على بلاهتكم ، يا سادة . . .

وهذا تهريج معتاد ، ولكن الكسندرا بروكوفيفنا ، كانت تدافع عن إبنها باخلاص . واحياناً ، وبغية مساندته كانت تجلس في الكرسي الى جانبه ، وتشاهد لعبة الهوكي أو الكرة الطائرة ، اذ لا فرق عندها ، بل واكثر من ذلك ، فقد كانت تتبادل مع ابنها الملاحظات التي كانت اولغا فاسيليفنا بسببها لا تكاد تكتم ضحكها . واحياناً كان في هذه الاحاديث عند التلفزيون يتهكم على الكسندرا بروكوفيفنا بشكل مبطن وخفيف ، ولكن بحيث تفهمه زوجته ، إلا أن أمه العجوز كانت تتظاهر بعناد وكأنها تهتم بالرياضة الى أقصى حد . آه ، نعم ، قبل أربعين ، وثلاثين عاماً كانت سائحة متحمسة ! وقبل فترة غير بعيدة كانت ترتدي بنطلوناً بلون الخاكي غاية فى القِدَم ، وجاكته لا يتصورها العقل تعود الى عهد الشيوعية العسكرية ، وتلقي على ظهرها حقيبة جوّاله ظهرية تصلح لجمع النفايات ، وتركب قطار الضواحي إلى مكان ما ، لوحدها تماماً . وكان سيريوجا ينظر الى ذلك بهدوء ، ولا

يتأثر ولا يسمح للآخرين بالتنكيت على العجوز ، بل وكان يبتسم وراء ظهرها بصمت . والظاهر أنها كانت تذهب الى الأماكن التي كانت تذهب اليها في الزمن القديم مع زوجها ، والد سيريوجا ، الذي كان استاذاً في الرياضيات ، ومشاءاً متحمساً ، وسائحاً ومصوراً . وكان منظر الحماة في اللباس الرياضي من زمن قوميسار الشعب كريلينكو تراجيدياً كوميدياً . حتى كان يثير النفور في نفس أولغا فاسيليفنا . أما ايرينا فقد كانت تتعذب حقاً ، لأن منظر جدتها كانت يضحك بلهاوات الحي ، وحارسات مدخل البيت . فى عام ١٩٤١ انضم والد سيريوجا متطوعاً إلى وحدات المتطوعين المدنية ، وصرع قرب موسكو فى الخريف . وكان من الممكن تفهُّم العجوز بغرائبها المحزنة ، ولكن لماذا لم يكونوا يتفهمون اولغا فاسيليفنا ؟ لماذا لم يكونوا يرون بلواها ؟ ما من قوة كانت قادرة على إجبار الحماة ، وهي إمرأة غير قاصرة العقل ، ولها تحصيل حقوقي ، على الاعتراف بحق أولغا فاسيليفنا في المعاناة .

كانت تقول ، حين كانت أولغا فاسيليفنا تقرر ، حماقة ، أن تتشاور معها :

— بالطبع ، اشتري التلفزيون ، اشتريه دون أن تتعبى رأسك بالتفكير .

وكانت إيرينا تتوسل كثيراً أن يشتروا تلفزيوناً كبيراً . وأولغا فاسيليفنا لا فرق عندها ، ولكن في ذلك الوقت ، جلبوا إلى المخزن القريب منهم ، في المبنى المجاور ، حيث كانت ايرينا تحب الذهاب لشراء أي حاجة ، تلفزيونات من ماركة جيدة جداً ، ونادراً ما تعرض للبيع ، وكان يجب البت في الأمر .

— اقول لك : اشتريه ! لماذا تحرمي نفسك من المتعة ؟

قالت اولغا فاسيليفنا إن لها ما يشغلها عن المتع .

— أنا فاهمة ، ولكنك من الناحية الأخرى لا تنوين أن تحبسى نفسك في دير .

— لا ، لا أريد الدخول الى الدير . هذا صحيح .

شددت أولغا فاسيليفنا الآن عن عمد ، لتؤلم العجوز ، لأن هذه كانت بحديثها عن المتعة تريد أن تؤلم كنتها .

— اذن ، لا تعذبـي نفسك ، واسحبـي القلوس من صندوق التوفير ، لأن سيريوجا كان يدخرها لهذا الغرض ، وكانت هذه مشيئته .

وجمدت إبتسامة مجاملة على وجه الكسندرا بروكوفيفنا المسطح البارز الوجنتين كوجه تترية عجوز ، بينما كانت عيناها كعينى سيريوجا شقين صغيرين زرقاوين شفافين تنظران ببرود ، وبلا رأفة .

اغتاظت أولغا فاسيليفنا من هذه اللسعات فقررت ان لا تشترى التلفزيون نكاية بالعجوز . وقد صرخت على ايرينا ، وهذه تبكى . وبعد ذلك أشتد غيظها أكثر ، فصممت على العكس ، واشترت التلفزيون . وخلال اربعة اشهر لم تقعد الحماة مرة واحدة لمشاهدة التلفزيون ، وتقول أنها تحرص على عينيها ، وتخاف الشعاع ، ولكن الى جانب ذلك كان هناك التظاهر أيضاً . وكان أحد المعارف يهدئ قائلاً : لتألف أحداكما العيش مع الأخرى ، ولتتدرع بالصبر . فإن بلواكما واحدة ، ولكما بنت واحدة تحبانها . وأولغا فاسيليفنا أيضاً كانت تتصوَّر أن الأمور ستتعدَّل بشكل ما ، ولكن إلا أن

وقع ما جعلها تفهم أن ذلك لن يكون ابداً .

كان ذلك فى كانون الثانى ، قبل أن ينقضي شهران ، والألم ممض لا يحتمل . عندها زهدت في العيش . وفى الليل ، والافكار لا تتركها تنام ، كانت تذهب الى المطبخ ، تخنقها العبرات هناك ، وتشرب القطرات المهدئة أو الشاي البارد من الإبريق . وفجأة تسمع الكسندرا بروكوفيفنا تشحط بنعليها في المطبخ ، وقد اصابها الأرق أيضاً . طعن هذا الشحيط أولغا فاسيليفنا ، لأنه شحيط مألوف لها ، فقد كان سيريوجا يشحط هذا الشحيط بهذين النعلين البيتيين المفتوحين من الخلف ، وقد أخذتهما العجوز لنفسها لسبب ما ، وراحت تسير بهما . كما أخذت لنفسها بطانيته الخضراء من وبر الجمل . وبدا لأولغا فاسيليفنا وكأن سيريوجا قادم . وسيأتى الى المطبخ ، حين يكون الثلاثة هناك ، ويتوقف عند الباب ، وهو فى طربوشه الذي كان يصنعه من ورق الجرائد ، ويرفع يده ، ويقول : «مرحباً يا أهلي المساكين» . وستنفجر ايرينا ضاحكة ، بالطبع . كان سيرغي دائماً يحاول أن يوحد ويقرِّب بينهم ، ولو للحظة ولو بالنكات ، بالتحامق . وامتلأت نفس أولغا فاسيليفنا بهذا الشحيط ، ولم تستطع أن تسيطر على نفسها ، وراحت تنتحب بصوت مسموع ، وكان ذلك شيئاً لا يغتفر وفظيعاً ، لأنه لا يجوز أن يرى أحد دموعها .

دخلت الكسندرا بروكوفيفنا المطبخ بقميص النوم ، وشعرها الأشيب محلول خصلات ، ووجهها أصفر ، مستاء ، ونظرت الى أولغا فاسيليفنا ، وتقدمت من دولاب الصحون والأقداح ، وأخرجت كوباً ، وسكبت فيه ماء من السخان . ولم تقدم الماء الى أولغا فاسيليفنا ، بل كانت هي نفسها بحاجة اليه .

وبدا عليها وكأنها لم تر ولم تسمع نحيب أولغا فاسيليفنا ، وسألت بصوتها المدمدم المعتاد :

— أين نضع الصودا ؟

خرجت أولغا فاسيليفنا من المطبخ دون أن تجيب .

ولم ينس هذا السؤال عن الصودا والعينين الليتين لا تريان . لأنه قد ظهر جلياً فجأة ، ما كان مخفياً في النهار . في الليل يتعرّى الحقيقي . كانت أولغا فاسيليفنا تبكي ، والعجوز تنظر ببغضاء . وكانت أمرّ الأحاديث تجري في الليل . ذات مرة قال لو لا ايرينا لأنفصل عن أولغا فاسيليفنا ، وقد بدا لها ذلك حقيقة مميتة قاتلة الى حد أنها لم تكد تتصور أنها ستظل حيّة الى أن يطلع الفجر ، وفي النهار كان يحتد ، ويتفوه بالسفاسف ، ولا يدرك شيئاً ، وكان حديث الليل يمحي دون أثر ، كالكابوس . ولكن بعد بضعة شهور جرى حديث ليلي من جديد . ارتأى أن يسافر لوحده في منتجع للراحة ، قبيل العام الجديد ، وأرعبها هذا ، ولم ترد أن تتركه ، وطلبت أن يأخذها معه ، في ذلك الوقت لم يكن من الصعب الحصول على إجازة بدون راتب لمدة عشرة أيام ، ولكن ظهرت صعوبة بخصوص ايرينا ، فقد تمرضت الحماة مرضاً ليس بالخطير اطلاقاً ، ولو ذلك ما كان سيريوجا يحتاجه ، كان من الممكن أن تتركهما الحماة يسافران بالتأكيد ، ولكنها بعد ان فهمت ما تريد كنتها ، رفضت رفضاً قاطعاً . وكان كل شيء مفضوحاً ، تقصدوا دعوة فيرا بروكوفيفنا مع ابنتها تامارا إبنة خالة سيريوجا ، وهي طبيبة أعصاب تعمل في مستوصف مغلق . وكانت أولغا فاسيليفنا لا تحبها ، ولا تصدق بأية كلمة تقولها . وعلى العشاء شرحت

تامارا هذه لوقت طويل وباسهاب مقصود مرض ألكسندرا بروكوفيفنا ، وهي تبالغ بشكل واضح ، وتهوّل الأمر . التزمت أولغا فاسيليفنا الصمت غير راغبة في أن توتر الحديث ورضيت راضخة ، رغم أن ذلك كان مؤامرة مشينة ، ولكنها في الليل كان صبرها قد نفد ، فايقظته بتساؤل وعانت من جديد الحالة الكابوسية التي يحس بها المرء حين يميد كل شيء حوله ، وتنسحب الأرض من تحت قدميه .

— اعترف بأن عندك أحداً ، فمن هذا الذي تريد أن تكون معه ؟

— نعم ، عندي ، عندي ، — تكلم هامساً ، وقد استيقظ لبرهة . — وهذا الأحد هو أنا . أريد أن أكون مع نفسي . أريد أن أستريح منكم ، منك ، من أمي ، من الجميع ، الجميع . . .

في الوهلة الاولى صدّقت به ، كما تعودت أن تصدق دائماً ، ولكنها تحيّرت بعد ذلك . هل من المعقول أنه بحاجة الى الوحدة ؟ لم تتصور وجود أي سبب يحمله على الهروب وحيداً مسافة مائة فرسخ عن موسكو . ولهذا فإن تصديقها واطمئنانها القليل لم يدم إلى النهاية . في الأعماق من نفسها كان يعذبها لغز كان يثير فكرة مقززة عندها : «عنده أحد» .

كان يهوى الشقراوات الصغيرات . وقد اتضح لها ذلك ذات مرة عن طريق المصادفة . كان يميل الى النساء الصغيرات اللواتي يمكن ان يحملن على الأيدى ويهدهدن . وذات مرة قال لأولغا فاسيليفنا برقة :

— خسارة أنك ضخمة ، يا عزيزتي . كنت أود لو أحملك بين ذراعيّ .

كانت جميع نسائه ضخمات . وكان يقول إن ذلك مجرد توافق ، مجرد مصادفة . كانت له خمس نساء . أربع منهن قبلها ، والخامسة هي . ولربما كان له أكثر ، بل ومن المؤكد ، ولا بد أن يكون ، ولكنها كانت تعرف عن الأربع معرفة مؤكدة ، اما عن الأخريات فما كان في وسعها إلا أن تخمن وتشك ، ولكنها بالنسبة للأربع استقصت كل التفاصيل ، وسمتهن باسمائهن — فالكا ، سفيتلانكا — ولم تفوت فرصة لتقرصهن وتقرصه معاً ، وتقول فيهن قولاً محنَّقاً لاذعاً . لقد كانت تكره هؤلاء الوضيعات ، الساقطات ، اثنتان منهن كانتا اكبر سناً منه علمتاه مختلف القبائح ، وكانت احداهن في مثل سنه ، تعتبر نفسها مثقفة رفيعة ، بينما هي ، في الواقع ، حقيرة فاسقة ، كانت تحلم بأن يتزوجها بأية طريقة ، ولكنه ، والحمد لله ، لم يستسلم لشروطها ، وتصرف معها بحزم ، وإن لم يكن بشرف تام ، ربما ، ولكن هذا ما تستحقه ، الحقيرة ، كما كانت إمرأة أخرى بيضاء موردة غضروفية كان يعمل معها في المتحف ، بلهاء متصنعة ، ولكنها جميلة جداً ، كانت تتهرب منه طوال الوقت ، وهو يلاحقها . وذات مرة ضاق بها ذرعاً ، فقد هربت منه تاركة البيت الذي كانا يلتقيان فيه ، ولم يلحق بها . فكانت تلك نهاية علاقتهما . لقد كانت هذه الرابعة ، الغضروفية ، رغم هستريتها ، ذات بنية جبارة ، وكان يسميها برونغيلدا . ويقول أن نهديها ثقيلان ومدوران مثل طاستي حساء . وكانت أولغا فاسيليفنا تكرهها بشكل خاص ، وهي حتى الآن تكرههن الأربع جميعاً ، لأن سيريوجا ما يزال يعذبها . وها هي تفكر بأنه لم تكن لديه شقراوات صغيرات قط ، ولهذا كان يتوق

إلى مثيلاتهن . سافر إلى ما يسمى بيريسفيتوفو ، على الطريق الى مدينة غوركي ليقضي هناك اثنى عشر يوماً . ولكن بعد ثلاثة أيام وصلت منه برقية : «اجلبي ايرينا ، المكان رائع» . فأخذت اجازة ليوم واحد كانت قد اشتغلته في يوم عطلة ، وسافرت الى بيريسفيتوفو مع ايرينا ، وسامحته بالطبع ، على ما بدر منه ، وتزحلقوا على زحافة فنلندية على المنحدرات ، وفي الصباح رافقها الى محطة قطار الضواحي ليودعها ، وغمغم : «إية بلهاء ، إية إمراة بلهاء أنت» حشر وجهه غير الحليق في فمها . قبل حين فقط ، لدى إعداد التقرير الصحي المطلوب لدخول منتجع الراحة كتب الطبيب فيه : «سالم من الأمراض عمليا» . لأن التحاليل وفحص القلب والضغط كانت لا بأس بها . فما الذي كان من الممكن أن يحدث خلال هذا الوقت ؟ لا أحد يستطيع ان يفهم . ومن غير المفهوم أيضاً كيف يمكن ان تعيش بدونه ؟ ولكن هذا ما حصل بالفعل ، وها قد مرَّت خمسة أشهر وخمسة وعشرون يوماً . إنها نفسها لم تكن تفهم ذلك ، لم تفهم كيف استطال كل شيء بلا معنى ، وامتدَّ ، وأنقضى . . .

المنبه يدق في الساعة السابعة . فتظل بعدها ساعة ونصفاً مستلقية في فراشها غارقة في تهويمة — تهويمة حياة تلاشت لا تهويمة نوم — ثم تنهض ببطء ، وتلبس الروب النايلون المدروز ، وهو هدية من سيريوجا في عيد ميلادها ، وأحياناً بقميص النوم فقط ، بدون روب ، فالمسكينة الآن لا تهتم بنفسها . وتتجول في المطبخ ، وتضع السخان على عين الموقد ، وقدراً فيه ماء لتطبخ العصيدة ، وآخر لسلق البيض ، وتخرج من الثلاجة الجبنة البيضاء ، واللبن الزبادي ،

لتخفّ برودتهما في جو المطبخ الدافئ ، بينما تغتسل هي وايرينا ، وترتديان ثيابهما ، وتفتح المذياع الداخلي الموضوع فوق دولاب الصحون . وطوال الوقت ستشعر بالفراغ والبرد على الظهر ، مهما كانت تفعل ، وفي أي شيء كانت تفكر .

كان ثمة شخص يدعى فلاد ، كثير الطيبة ، مستقيم ، ملوم ، يائس ، موهوب ، ذو وجه عريض مجدور ، وعينين ، جاحظتين قليلاً ، فيهما جدية ووفاء . وكان يرتدي نظارة عاجية الإطار . وحين كان يبتسم — وهذا نادراً ما يحصل ، واذا حصل فبشكل مباغت دائماً — كان يغطي فمه بكفه ، لأن شفته العليا كانت تتمطى اكثر قليلاً مما ينبغي . ولم تكن هذه الشفة ارنبية حقيقية في شقها ، ولكن فيها ما يشير الى هذا النوع من الشفاه . وكان أحد الاصحاب القدامى ، وهو شخص لاذع اللسان ، يسمي فلاد «الصلعاوى» في خبث واجداً صلة لفظية بين لقبه العائلي بوليسايف وهذه الصفة * . كان فلاد طالباً في معهد الطب ، وحتى في ذلك الوقت كانوا يتوقعون له مستقبلاً كبيراً في الطب . كانت أم أولغا فاسيليفنا لا تولي للمظهر أية أهمية — سواء كان ذلك في انسان ، أو في معطف ، أو دولاب ، أو ستارة وحتى في باقة زهور — فلم يكن يهمها إلا ذلك الذي كانت عينها الداخلية تلتقطه ، وتسميه بـ«الجوهر» ، وهو شيء تختلف عليه الآراء الى حد كبير . فكانت ترغب كثيراً في أن تزوج ابنتها لفلاد . ولكن أولغا فاسيليفنا لم تستطع أن تقدم على

---

* يعني حرفيا «الاخذ بالصلع» . المترجم .

ذلك ، مهما حاولت ، رغم أنها لا تقل معرفة عن أمها بطيبة فلاد واستقامته . إلا أنها كانت تتصور أنها ستظل ترى ، طيلة حياتها ، الوجه المجدور الضخم ذا الوجنتين البارزتين . . .

ولسنتين أو ثلاث أستمرت هذه المغازلة الباهتة ، هذه الصداقة شبه الطفولية لا تحمل أملاً لفلاد ولا فرحة لأولغا فاسيليفنا (في ذات الوقت كان هناك مغازل آخر مضجر علاوة على فلاد ، هو مهندس يدعى غندلين خائب لا يرجى نفع منه ، رغم أن أمها كانت تميل اليه أيضاً) حتى حلّ الوقت الحاسم — انتهاء الدراسة ، وبدء الحياة المستقلة ، المدرسة فى باليخ ، السن الرابعة والعشرون ، ما من مفر من جميع الصديقات ، اللعينات ، متزوجات ، وفجأة يأتي فلاد مع شاب تعرف عليه منذ زمن قصير ، التقيا شتاء في مخيم الطلبة في زفينيغورد ، وتصادقا على الفور . وكان فلاد ، عموماً ، انسانياً غيوراً ، ميالاً الى الناس ، وإن لم يكن — وهذا ما يجب أن يقال — لامعاً في فهمه للناس . فهو مثلاً ، كان يعتبر ألكسندرا بروكوفيفنا ، أم سيريوجا ، إمرأة غاية النبل ، وكان يرتجف أمامها ، بل ويتملقها ، وكل ذلك لمجرد أن ألكسندرا بروكوفيفنا قامت بشيء ما في الجبهة أثناء الحرب الأهلية ، وتضرب على الآلة الكاتبة في الشعبة السياسية في الجيش . ولكن ذلك كان فيما بعد . قبل سيرغى كان يأتي تارة بطيار ، وتارة ببطل مصارعة شبيه بالقرد ، وتارة بمتاجر في الكتب ، كان يتاجر بالروايات البوليسية من القرن الماضي ، خبير بكل شيء في الدنيا ، مهذار ومدمن على المورفين . أما صاحب فلاد الجديد فكان قد تخرج من معهد التاريخ قبل وقت قصير ، وصار يعمل فى مؤسسة قليلة الشأن ، وبغير اختصاصه .

وكان ، الى جانب ذلك ، وحسب تعريف فلاد به ، البطل المطلق لمنطقة زفينيغورود في لعبة «من الأحمق» وفي قراءة الكلمات مقلوبة .

وبالفعل ، ومنذ المساء الأول ، أبهر أولغا فاسيليفنا بفنه المثير . كان فلاد يهتف في حماس بكلمة تخطر في باله فيقلبها الضيف من حرفها الأخير فتصير كلمة أخرى ، وإن كان فلاد احياناً لا يعرفها . وكان لذلك وقع هائل . وكان فلاد يؤجج الحماس بقوله : «أوه ، عبقري ! عبقري حقيقي تماماً» في ذلك الوقت كان نحيلاً ، ممشوقاً ، غزير الشعر ، لدن الحركات ، مرحاً ، ويتكلم بطريقة غريبة ، ولم يكن يشبه أي واحد من المعارف . وقد شعرت بأن شيئاً قد وقع . تغلبت على انفعالها ، واقترحت كلمة أيضاً ، فصارح فلاد : «أوه ، هذه كلمة صعبة جدا !» ولكن الضيف نظر اليها لحظة ، وكأنما يوافق على ما قاله فلاد . نعم ، كلمة صعبة . ثم نطق بالكلمة العكسية الغامضة بصوت واطئ وثقة .

ووخزتها الكلمة الغامضة كالأبرة . فلكأنها كلمة السر التي حددت حياتها . كانت كلمة عويصة لم تسمعها إذن قط ، ولم تقرأ في كتاب . ولكنها كانت تعكس كالمرآة كلمة أخرى حقيقية كانت تؤمن بها ايماناً لا حدود له ، وهي كلمة «نظرة» . إن هذه اللعبة ، هذا التعارف المضحك غير المعقول ، والتباري بالكلمات الصعبة تحت تأثير الخمرة ومزة السمك الصغير انغرز في ذاكرتها الى الأبد ، لأنها كانت تحس مذهولة في قرارة نفسها ، وتتوجس تغيراً في مستقبلها . ثم أن الربيع قد بدأ ، الربيع المقلق الغامض الذي ما يزال في

طي الغيب ، مثل تلك الكلمة العويصة ، حين كان كل من حولها قد حبسوا أنفاسهم ، وراحوا ينتظرون شيئاً ، ويعزمون ، ويتهامسون ويتجادلون . ولكن الأم لم يعجبها هذا الضيف المخترع للكلمات ، لأنه هرع ليشتري الفودكا في أول أمسية لتعارفهما . وقد حدست أولغا فاسيليفنا ، بعد أن عرفته أحسن ، أن وراء ذلك خجلاً رخيصاً ، عصبية شديدة ذات لون معين كانت تدفعه إلى تصرفات سخيفة ، ولكن ليس حب الكحول اطلاقاً . ولم تستطع أمها أن تنسى خطوة سيريوجا الخاطئة طوال سنين . وكانت تقول حين يذنب صهرها بشيء : «تذكرين كيف هرع لشراء الفودكا في أول أمسية ؟» لم يكن في مقدورها ، وهي التي كانت شديدة اللهفة الى معرفة الجوهر أن تهتدي الى أن هذا التصرف المضحك لم يكن يعبر عن الجوهر . فقد كانت تعتقد اعتقاداً قوياً بأن فلاد يصلح لإبنتها أكثر من الآخرين . وذلك هو الجوهر . مسكينة أمها ، فهي مع كل حبها الى إبنتها لم تستطع ان تتغلب على ما في طبعها من أنانية ساذجة ، وهي ساذجة لأنه لم يخطر في بالها أن تلحظ في سلوكها بعض آثار هذه الأنانية ، بل كان يبدو لها العكس تماماً ، وكأنها مغلفة بغمامة من الإيثار . تعيش للآخرين ، ومن أجل الاخرين ، وكان ذلك يبدو حقيقياً ، ولو اذا امعنا النظر أكثر فإن هؤلاء «الآخرين» ليسوا إلا شخصاً واحداً ، وهو غيورغي مكسيموفيتش ، فقد كانت تتصور أنها تهتم بإبنتها ، باصرارها على أن فلاد أفضل لها ، بينما هي ، في حقيقة الأمر ، كانت تهتم بنفسها ، لأن فلاد كان الأفضل لها . كما لم يعجبها اللعب بالكلمات ، ولا قصة سيريوجا عن تردده وفلاد إلى عيادة الأمراض النفسية .

وكان سيريوجا نابغة في رواية القصص ! وكان غيورغي مكسيموفيتش الذي عرَّج من المشغل ليشرب قدحاً متجهماً أيضاً .

وكان بين الأم وغيورغي مكسيموفيتش تطابق عجيب . كانت الأم تعلن عن حكم ، فيهز غيورغي مكسيموفيتش رأسه مؤيداً مع عبارات من مثل «هذا ما أظنه» أو «أخشى أنك على حق» . توفي والد أولغا فاسيليفنا حين كانت أولغا في السادسة من العمر . تعرفت أمها عند الاجلاء ، على غيورغي مكسيموفيتش ، فقد كانا يعملان في مصنع واحد . أمها في قسم التخطيط ، وغيورغي مكسيموفيتش رساماً في النادي . وكان رساماً قديماً درس قبل الثورة عند يوناني مشهور ، وسافر خارج البلاد ، واشترك في معارض ، ووجهت اليه انتقادات شديدة على فعل ما ، وأعيد تثقيفه ، وتعرض إلى مضايقات وأعتل بالتدريج وتراخى ، وعندما قادته عمليات الإجلاء ليسكن في بلدة أورالية صغيرة كان قد تحوَّل من رسام حقيقي إلى دهَّان رسوم نصف جائع ، يكسب خبز يومه برسم الشعارات والملصقات . إلا أنه حين عاد الى موسكو بعد ذلك ، مع عائلته الجديدة ، مع أم أولغا فاسيليفنا وأولغا نفسها اعطوه مرسما وغرفة في بيت الرسامين ، وأخذوا يحتفون به ، ويذكرون إسمه في الصحافة ، ويعطونه عقوداً وطلبات ، لأنه قد أتضح أنه لم يضيِّع الوقت عبثاً في فترة الإجلاء وعمل كالثور ، لأن الفن يصنعه الثيران ، حسب رأي رينار الكاتب المفضل عند غيورغي مكسيموفيتش ، وأقام رواقاً لرسوم كادحي المؤخرة باسم : «الفولاذ الأورالي» . وهذه الرسوم عرضت أكثر من مرة ، وكانت هناك لوحات منسوخة ، بل وبطاقات بريدية ، وظهر

فى حياة غيورغي مكسيموفيتش ما يشبه النهضة ، ظهر شباب جديد ، أو «فترتى الوردية» على حد تعبيره ، وكان كل شيء ممكن أن يسير سيراً حسناً مرضياً لو لم يأخذ المرض بمعاودة غيورغي مكسيموفيتش في تلك السنوات بالذات ، في نهاية الأربعينات ويمنعه من العمل شيء حصل لرأسه ، وبعد ذلك لعينيه فأخذ يتردد على المصحات ، ثم بدأت اضطرابات في القلب ، وحصلت له جلطة قلبية قبل ظهور سيريوجا بوقت قصير . فكم كان عمره آنذاك ؟ كان في سن متقدمة . أمها أصغر منه بسبعة عشر عاماً ، وكان عمرها عند تعارفها بسيريوجا ثلاثة وأربعين عاماً ، ومعنى ذلك أن غيورغي مكسيموفيتش كان في الستين .

كان يسير منتصب القامة ، ويصافح بقوة ، له عادة التمعن في وجه الذي يتعرف عليه بنفاذ وإلحاح ، وتحسسه بدون كلفة . وكان ذلك ينفر الناس الجدد . وقد اعترف سيريوجا فيما بعد أن لقاءه الأول مع غيورغي مكسيموفيتش أذهله قليلاً .

— نظر اليَّ وكأنني سرقت شيئاً .

صحيح أن لغيورغي مكسيموفتش عادة أخرى ، وهي أنه بعد أن يدرس الشخص الجديد بتفصيل يقول إن لهذا «وجها طريفا» و«من الممتع جداً رسمه» . وكانت في جملته هذه لهجة الحماية من رجل فن متفوق على الناس الآخرين ، وتزلفاً بريئاً في ذات الوقت مريحاً للجميع . ولكن غيورغي مكسيموفيتش لم يقل جملته هذه لسيريوجا . وكان ثمة توجس منذ اللحظة الأولى . وعلى كل حال ، لم يكن غيورغي مكسيموفيتش يتصرف بوحي ارادته ، بل كان يحدس فقط

مزاج الأم ، مثل رقاقة مرهفة لالتقاط الذبذبات . ثم أن أحدهما كان يلائم الآخر . طيب ، وليكن ، والحمد لله أن أولغا فاسيليفنا لم تكن تغار ، أبوها لا تكاد تذكره ، وكان غيورغي مكسيموفيتش يعامل أمها معاملة حسنة ، والظاهر أنه كان يحبها ، بينما هي ، المسكينة ، كانت تعبده ، ومع السنين تكون لهما ذوق واحد ، ونظرات واحدة الى الناس والى الرسم ، والى الكتب والفلوس ، والى كل شيء . وكانت أمها مشغولة في أموره ومرضه دائماً . ولم يكن لها ما يكفي من القوة لتنفقه على حياة شخص آخر . وحين ولدت ايرينا كانت جدتها في البداية ممزّقة بين الحفيدة والزوج ، وكانت تريد أن تكون لازمة مشاركة في كل شيء ، ولكن لم تكن تقوى على ذلك ، واستسلمت ، وتركت المكان لامرأة آخرى . وسامحتها أولغا فاسيليفنا . سكنت بعض الزمن مع أمها وغيورغي مكسيموفيتش في شارع شوتشيفسكيا ، حيث كان المرسم ، في شقة مشتركة مع آخرين ، ثم أن مصيبة حلت في ساحة حماتها ، إذ توفيت ابنتها ، وهي إمرأة غير متزوجة ، خائبة ، مسكينة كانت الحماة تحبها كثيراً ، فقررت أولغا فاسيليفنا أن تنتقل الى شقتها في شابولوفكا ، وهي شقة مؤلفة من غرفتين . كان سيريوجا قد قضى طفولته فيها ، فكان كل شيء فيها عزيزاً عليه ، وقريباً منه ، ولو أن أولغا فاسيليفنا شعرت فجأة أن العيش مع حماتها لن يكون حلو المذاق ، ولكن سيريوجا كان يريد ذلك ، ثم أن العجوز — وأية عجوز كانت آنذاك ، كانت امرأة في سن الكهولة كثيرة الضجيج ، رائحة غادية — كان يجب أن تتنازل أيضاً ، وتلتقي مع كنتها في منتصف الطريق . على الأقل أن تتعهد حفيدتها وكان

من المشجيّ لأولغا فاسيليفنا أن تفارق أمها . ولكن لم يكن من ذلك بد . وكل هذا جرى مجراه الطبيعي ، وبدأ ذلك المساء الذي جاء فيه سيريوجا أشعث الشعر ، في قميص بمربعات ، وجاكتة ذات كتافيتين ، وكان ينطق بالكلمات معكوسة .

وبعد ذلك المساء جاء الربيع ، وأحواش البيوت ، ومنافذ البوابات ، والمقاهي ، والمشارب ، وبداية الصيف ، وفلاد الذي لم يكن يفهم شيئاً ، والبحث عن نقود ، والسفر الى الجنوب ، والحر ، والطراوة ، والانعتاق . كانوا أربعتهم : أولغا فاسيليفنا وريتا صديقتها في تلك السنوات الخوالي والتي اختفت بعد ذلك دون أثر ، وفلاد وسيريوجا . وكان لفلاد صاحب ، والأدق صاحب لأبيه ، يملك بيتاً في مدينة غاغرا . وقد وعد بأن يؤجر غرفاً فيه ، وكانوا بحاجة الى غرفتين . واحدة لريتا وأولغا فاسيليفنا ، والثانية لسيريوجا وفلاد . ولسبب ما صعب السكن في بيت ذلك الصاحب الطيب . كان الصيف قائظاً ، وكان الجو في غاغرا ساكناً وغراً الى حد يثير الاعصاب . ولم يؤجر صاحب فلاد — وهو رجل يدعى بورفيري نيكولايفيتش أو ربما بارفينتي ميخائيلوفيتش اشتغل في وقت ما في مؤسسة مهمة في موسكو ، وهو الآن متقاعد ، يعيش في غاغرا في فيلا مستقلة يملكها — لم يؤجر إلا غرفة واحدة حقيرة جداً ، على الجبل وبعيدة عن البحر ، كما عرض جناحاً صغيراً في بيته . خصصت الغرفة للشابين ، وسكنت الفتاتان في الجناح ، عند البلاج تماماً . وكان الجناح مبنى خفيفاً يشبه الخص أو ما يسمى الآن «بانغلا» ، وشاع في الموضة على طول ساحل البحر الأسود . في البداية كان كل

شيء يثير الاعجاب ، ولكن عيوباً اكتشفت فيما بعد . فقد كان يتعيَّن اجتياز الحديقة كلها الى البيت للتزود بالماء أو الذهاب الى المرافق الصحية . بالاضافة الى ذلك كان سكان القيلا ، وهم اقارب بورفيري ميخائيلوفيتش وأصحابه الأقربون والأبعدون الكثار الذين كانوا يأتون في سيارات جديدة يحيون حياة صاخبة متعبة . كانوا يشربون كل يوم ، ويمرحون ، ويغنون الأغاني بأصوات عالية ، ويرفعون صوت الراديو غرامفون عالياً ، ويرقصون في الشرفة ، ويشوون الكباب في الحديقة ، وفي المساء يخرجون حشداً الى البحر للاستحمام ، وينزلون في درب عبر باب في السياج الى بلاج الحصب . فقد كان البيت على الساحل .

ودعا عشاق الأنس والطرب من بيت بارفينتي فلاد وسيريوجا والفتاتين للانضمام الى صحبتهم ، ولم يرفض الشابان ، فلم يكن لديهما ما يكفي من الفلوس ، وغاغرا غالية الأسعار ، ولا يمكن الحصول على شيء ، بينما كانوا يغدقون عليهم في الضيافة ، وما يشتهون من الأكل والشراب الجورجيين . وريتا الشديدة المكر ، المثقلة بوحدتها في موسكو اندفعت أيضاً الى تلك الدوامة التي كانت تبدو رغم خطورتها مغرية .

ولكن أولغا فاسيليفنا أكدت مصرة : «لا !» كان بين الذين يجولون في الحديقة في الأماسى أجلاف وصادف مرة أو مرتين أن ضغط شخص بثقله على الجناح في ساعة متأخرة ، حتى قرقع الباب ، وكانت ريتا البلهاء تضحك ، ولكن أولغا فاسيليفنا حدست انهم لم يعودوا يرغبون في صحبة ريتا . كانوا يصرخون من الخارج : «هاي ، يا متكبرة . اطلعي

معنا لنسبح !» . وكانت أولغا فاسيليفنا تهدد باللجوء الى الميلشيا .

في الصباح تشكت الفتاتان إلى فلاد ، فهرع هذا الى البيت وجاءت زوجة بورفيري بارفينتيفيتش ، وهي سيدة ممشوقة القوام ، تلبس ثوباً أبيض دائماً ، والشيب قد وخط شعرها الأسود ، وفي أصابعها ذهب ، وفي أذنيها ذهب ، وابتسمت من فمها الأزرق الكبير ، كاشفة عن ذهب كثير فيه ، وقالت : «يا بنات ، أعذرونا على شقاواتنا . إنهم أطفال الجنوب . والشمس تفور في دمائهم . . . الشمس تجعل الناس مجانين . . .» .

كان سيريوجا يجيد السباحة ، ويغوص في الماء ، ويقفز من علو . وكان يسبح وريتا بعيداً وراء طوافات الأمان ، بينما كانت أولغا فاسيليفنا ومعها فلاد تطرطش جنب الساحل . وعلى العموم كان سيريوجا يملك جرأة جسمانية كبيرة ، رغم أنه غير مقتدر وهيَّاب في الأمور الحياتية ، وفي علاقاته مع الناس ومع نفسه . لم يعزم أمره قط ليتحدث مع بورفيري عن أجرة الجناح ، وفي نفس الوقت عن مياه الأنابيب التى كان الساكنون في البيت غالباً ما يقطعونها تاركين ريتا وأولغا فاسيليفنا في وضع صعب كان يخشى أن يكدر صاحب البيت ، ويسوف متهيباً ولكنه لم يكن يرفض المشروب الجورجي والجلوس مع الضيوف في الشرفة ، فكانت أولغا فاسيليفنا تتلمس بأسف شيئاً متزعزعاً غير رجولى في هذا الخلق . في حين كان يقدر أن يشتبك ببساطة في أي عراك على البلاج ، ويقدر أن يقفز مازحاً من ارتفاع عشرة أمتار . فكانت فى كل يوم تدرك بشكل أوضح بأنها خاسرة .

لم تشعر من قبل بمثل هذا الخسران اليائس المقطوع الأمل . انقطعت كل حياة أخرى . اختفت كل الأفكار الأخرى . ولم يكن قد مضى غير بضعة أيام — وماذا كان من الممكن أن يتغيَّر ؟ — ولكن كل شيء حولها يبدو وقد تغيَّر : لون السماء ، رائحة البحر ، طعم الكباب . وفي داخل نفسها تحرك لولب . كل ما في داخلها تقلَّب أسرع بكثير مما كان من قبل . ونبع شيء مقلق جديد في داخلها ، ثقل غريب عنها ، أثار ازعاجها وعذابها . فهي ، مثلاً ، لم تعد تتحمل أن يدخل سيريوجا بيت بورفيري ، ويظل هناك وقتاً طويلاً . إنها سخافة ، ولكن في ذلك عذاب لها . لماذا هو هناك ؟ ومع مَنْ ؟ وضحكة مَنْ تلك التي تأتيها من الشرفة ؟ ضحكة رجل كانت تثير فيها نفس الاحساس الذي تثيره ضحكة إمرأة . يعني أن وجوده هناك أحلى وألطف من وجوده هنا ، معها . كانت تلك عذابات غريبة ، معزولة عن التعقل ، مستسلمة إلى وحي النفس . فهما لم يكونا قد تزوجا بعد ، ولم تنشأ بينهما ، بعد ، صداقة حميمية ، مجرد علامة على ذلك ، حلم في السر ، ومع ذلك فقد كانت أحاسيسها وعذاباتها وكأن كل ذلك قد وقع فعلاً . وذات مرة لم تصطبر ، وصعدت الى الشرفة لتستدعيه . كان قد أخذ معه رقعة شطرنج ، وكان الآخرون يتهيأون للذهاب الى البلاج — بدأت تتعلَّم لعب الشطرنج ، كانت تريد أن تفعل كل ما كان يفعله هو ، وذات مرة ، غالبت خوفها ، وأقدمت حتى على القفز من منصة بعلو ثلاثة أمتار — وحين فتحت الباب الزجاجي رأت عدة أشخاص رجالاً ونساء جالسين حول مائدة عليها أطباق مأكولات خفيفة ينظرون

الى سيريوجا الذى كان واقفاً في ناحية ليكون على مرأى ، يقوم بما يشبه تقليد تعابير الوجه . وكان يحسن تقليد تعابير الوجه بشكل ممتاز . ولا سيما مشهد «الصيدلى العجوز» و«مشجع فريق دينامو» . وعلى العموم ، كانت لديه مواهب كثيرة ، فقد كان يرسم ، ويغني بشكل جيد ، وتعلَّم العزف على القيثار بنفسه .

حينها شعرت في الشرفة بنفور فجائي عنيف ، كنوبة قيء ، نحوه ونحو الجالسين حول المائدة ، الناظرين اليه بمودة مرحة مخمورة ، كما في مطعم . وكم كان حنقها شديداً عند ذاك ! كان هؤلاء يصفقون ، ويهتفون «مرحى !» «قل نخبك يا سيرغو» ، ومدوا اليه الأقداح ، فقالت في حنق :

— والآن أقلب كلمة من مثل «تهريج» ، وقل «مع السلامة» . إنهم ينتظروننا على البلاج .

فثبَّت فيها بذهول عينين ضيقتين زرقاوين ، بل وفتح فمه ليقول شيئاً — ليعترض أو ليقلب كلمة «تهريج» — ولكنها أخذت يده ، فاستسلم لها صامتاً وخرجا .

وفي الطريق الى البلاج كانت تستحثه شاعرة في الوقت ذاته بلذة قوية من إلتزامه الصمت ، وتقرعه بصرامة الأم :

— ليكن في علمك أن ذلك عيب ، هذه حقارة ، فانت تهين نفسك . فقد كنت مهرجاً أمام خِلَق سكرانة . أنت رجل مثقف ، وترفه عن هؤلاء السادة ، عن هؤلاء النصابين . . .

وبعد ذلك أخذ يدافع عن نفسه بقدر كاف من طيبة النفس :

— انت مغالية كثيراً . . . وليكن في علمك أن المغالاة لا تؤدي إلى خير . . وأنا أتحدث معك كمؤرخ . . .

ولكن يبدو وكأن كل ذلك كان يعجبه : اقتيادها له من يده ، وشعورها بالاهانة من أجله . ولربما عند ذلك فقط ، بزغ في وعيها النموذج الذي ظلت ، خلال سنين عديدة ، تتصوره للنعيم الوحيد الذي ينبغي أن تسعى اليه بكل قواها ، أما هو ، المحتال ، فقد تظاهر بالخضوع ، ولكنه في واقع الأمر كان بعيداً وخالياً من التجاوب **مع الانقياد من اليد** ، وارشاده بألم وانسحاق قلب . وعلى البلاج احتدم النقاش . سمع فلاد هجماتها ، فاندفع يحامي رفيقه : «أنت لا تعرفين عادات الناس هنا . لا يجوز هنا أن ترفضي إذا أُستضَفت على شيء» .

وريتا ، التي كانت تخفي انزعاجها منذ وقت طويل ، كانت تتصور بعقلها الصغير أنها ليست موضع اهتمام من فلاد ولا من سيريوجا ، واخذت تكره أولغا فاسيليفنا شيئاً فشيئاً ، فقالت إن أولغا ، على عادتها ، تجعل من الحبة قبة . أما بارفينتي وضيوفه ، فهم ، حسب رأيها ، أناس طيبون ، بسطاء ، ولا ينبغي ازدراؤهم . أو حسب عبارتها : «لا يجوز التعالي» . فماذا يعنيك ما يقومون به ؟ وما هي موارد هذا السخاء الأسطوري ؟ لا يليق اعتبار نقود الاخرين فاسدة . فهم ليسوا نصابين . وإلا لكانوا في السجن ، ولكنهم يحييون حياة رائعة . كان ذلك منطق هذه الحمقاء التي تصادقت معها أولغا فاسيليفنا لفترة قصيرة بأعجوبة . كانت ريتا نحيلة شقراء صهباء ذات بشرة بيضاء منمَّشة وعينين زرقاوين ، وأنف مدبب . ولم يكن قد نضب فيها الاعتقاد بأنها جميلة ،

فكانت الأعوام تمر عليها وهي في حيرة تامة من أن لا أحد يلاحظ ذلك .

كانت حياة الأربعة حياة غريبة . كانوا يذهبون مترافقين في كل مكان ، في السوق ، وفي السينما ، في المطعم الداخن ، حيث كان داتيكو السمين ذو الرأس الصغير يقدم لهم لُقَم «التشيبوريكات» المقلية الناضحة بالسمنة مع النبيذ ، وعلى الكورنيش وفي الشارع الرئيسي ، حيث كان يتمشى جمهور فاتر أبيض ، وفي حلبة التنس في الأماسي ، حيث كان يلعب لاعبون من الدرجة الأولى ، وكان سيريوجا وفلاد ينظران اليهم بنهم لا يشبع ، وبعد ذلك كانوا يسمحون لهما القفز قليلاً ، وكلاهما في بدء تعلمه وكان المدرب أوتو يانوفيتش يعطي ارشاداته . وفلاد بلا موهبة ، بينما كان سيريوجا يوفق ويتحسَّن لعبه في كل مساء . فقد كان في وسعه ، اذا رغب ، أن يصير لعيب تنس حقيقياً ، وفي وسعه ، بما له من موهبة ، أن يصير مَنْ يشاء هو أن يصيره ، سباحاً حقيقياً ، موسيقياً ، رساماً ، عالم ذرة ! وكان أوتو يقول ان «قدرته على القفز رائعة» ولكن لم تكن هناك كرات ولا مضارب تنس ، فقد كان كل شيء يكلف غالياً ، وكانوا يقتصدون في النقود لطريق العودة ، وكانت أولغا وريتا تجلسان على المساطب الطويلة في ظل أشجار الحور ، تنظران الى اللاعبين . وحين كانت تنظر الى سيريوجا في قميص بحاري ، وقبعة بيضاء ذات ظليلة ، والى وجهه الملوَّح ، وساقيه الممتلئتين والثقيلتين قليلاً في جوربين محاكين جلبهما من موسكو ، خصيصاً ليلبسهما تحت الحذاء الرياضي — صحيح أنه لم يكن يعرف أنه سيمارس التنس ، وكان يظن أنه سيلعب الكرة الطائرة فقد

كان لاعب كرة طائرة متحمساً — حين كانت تنظر اليه كان قلبها يرفرف سعيداً . كانت تتلذذ بالنظر اليه ، وترى كل صبواته وتوتره وضيقه وفرحه ، فقد كان كل شيء مكشوفاً ، ولكنه لم يكن يراها . وذات مرة دسَّ أوتو يانوفيتش القزم الملتحي قصاصة ورق صغيرة لها دون أن تلحظ . فتحتها في حذر ، حتى لا تراها ريتا ، وقرأت : «تعالي في الساعة التاسعة من صباح الغد . سأدربك قدر ما تشائين مجاناً ولوجه الله» . وكان القزم يتقاضى مبالغ محترمة من النقود على الساعة الواحدة ، ويقال إنه ثري . ابتسمت له ، وهزَّت رأسها نفياً . قلب أوتو يانوفيتش سحنته يعبر عن حزنه الشديد . آه ، ما أكثر أولئك الذين كانوا يسعون في ذلك الصيف الى تدريبها قدر ما تشاء ولوجه الله !

صحيح أنها كانت جميلة آنذاك . ولم يكن جسمها قد امتلأ . كان كل شيء فيها بالقدر المطلوب ، كل شيء مقبولاً لدناً ، مرصوصاً ، ومع أنها لم تكن تعرف السباحة الا أنها كانت تركض بخفة ، وتلعب الكرة الطائرة ، وتقوس جسمها على يديها ورجليها بلا عناء . والآن ، هيهات ! بينما كان ذلك آنذاك لا يكلفها شيئاً . عشر مرات متتالية بلا إجهاد . وكان الرجال على البلاج يحدجونها بنظراتهم . في تلك الأعوام كان تلويح الشمس قد كسى بشرتها بسرعة وعلى قدر واحد ، وبعد ذلك لم تعرف كيف فقدت هذه القدرة على التلويح . ولكنها كانت آنذاك تستلقي في الشمس ساعات ، غير مشفقة على قلبها ، لشدة حماقتها . كان شعرها يتهدل حتى كتفيها حسب موضة تلك الأيام ، وكان سيريوجا يقول : «رأس الميدوزا» . لكن كان يناسبها تماماً .

فروة من الشعر غزيرة كثيفة داكنة الشقرة والجبين كله مكشوف مدور صافٍ بلا أي تجعيد . ولعل ذلك العام كان أفضل اعوام حياتها ، عام التفتح . وقد لاحظت هي ذلك من نظرات الرجال ، ومن الطريقة التي كان أهل القفقاس يرمقونها بها ، حين كانت تخرج من البحر ، يتمطقون بألسنتهم بوقاحة ، ويتلمظون . ويتحارشون بها طبعاً ، بلا انقطاع . يفرضون عليها أن تصادقهم ، وأن تشاركهم في مسامرة ، ولعبة ورق ، في اللعب في الكرة الطائرة . وكان سيريوجا وفلاد في توقع دائما للدخول في عراك .

كان هناك لينينغراديون ، وضابط برتبة رائد يدعى تسناكيس من ضيوف بورفيري ، ومغنون وموسيقيو متنوعات عرضوا أجسادهم للشمس الى حد الاسوداد اشتبك سيريوجا مع أحدهم في مشاجرة ، بل وضربه بدلفين منفوخ من المطاط ، وسبب له أذى خفيفاً من نوع الخدوش ، فاثار ذلك ضجة وصياحاً ، وجاءت الميليشيا ، وأنقذ بورفيري سيريوجا من العاقبة . ثم ذلك الذي عاكسها في الغابة ، أثناء سفرهم الى بحيرة «ريتسا» ؟ كان الى جانب هذا رجلاً مضحكاً ، كهلاً ، وجهه بلون الزيتون ، وهو من ضيوف بورفيري أيضاً . كان يغازل ريتا وأولغا في آن واحد ، أي واحدة تقع في يده . وكان مهذَّب الحاشية ، خدوماً ، يخرج الى السوق في الصباح ، ويجلب الخضار واللبن الخاثر ، والأعناب البرية ، وكان يعامل فلاد وسيريوجا بمودة أبوية ، ولا يعتبرهما ، كما يبدو ، منافسين جدين له ، ويلاحق في البلاج ، ويرهق بأحاديثه المضجرة ، فلم يكونوا يعرفون كيف يتخلصون منه وقد كان كثير الثقافة . ولكنه ذات مرة أطلع ريتا في السر ومطالباً اياها بالكتمان ،

على مذكرة طبية ذكر فيها أنه رغم احتفاظه بقدرته الجنسية الطبيعية فإنه غير قادر على الانجاب ، والمذكرة مصدقة من قبل كبير أطباء العيادة . وأشاعت ريتا الخبر ، بالطبع ، وكان مادة كبيرة للضحك . وأختفى صاحب الوجه الزيتوني الى حيث لا يعرف أحد ، والى الأبد .

كان سيريوجا يعلمها السباحة . وكان ذلك يلذ لهما كثيراً ! ولو كانت تجيد السباحة كما يجيدها هو ، لكان ذلك مضجراً . كان يسندها على ذراعيه ، فتطبطب في الماء ، وتتعلق برقبته ، وتضحك ، وتغطس ، ويعميها رذاذ الماء ، وطوال الوقت كانت تشعر في الماء بيديه اللتين كانتا جسورتين جداً . وكان فلاد ينظر اليهما مجهداً بصره — كان لا يلبس النظارة ، وهو في البحر — محاولاً أن يتبين ما يحصل هناك ، في ذلك الضحك ، في الطرطشة ، وأحياناً كان يقترح :

— أستطيع أن أعلمك اذا شئت . واذا كان سيريوجا قد ضجر . . .

مسكين ، كان هو نفسه لا يتفوق عليها كثيراً في العوم . ولكنه كان فارساً بين النساء . وكانت صيحات سيريوجا الخشنة المنزعجة ، كما تبدو ، تضلله : «ما أبطأ فهمك ، يا أم اجعلي رجليك ، هكذا ، كالضفدعة !» وكان يحب أن يخاطبها بهذه الصفة الأليفة ، وكأنما قضيا الحياة كلها سوية . ثم ظهرت كلمات تحبب أخرى من مثل : «ايتها الفيلة الصغيرة» «يا بنت الفيلة» . وكان يبدو غريبا على من يعرفها أن تتحمل هذه المخاطبة المنافية للجمال اللغوي ، بينما كان ذلك يعجبها : فقد كانت تعرف اللحظات التي

تظهر فيها . كان فلاد يقترب سابحاً يحاول أن يعلمها ، فكان يتضاحكان . فما أكثر ما كانت الأشياء تبدو مضحكة بكليتها ! وكان فلاد الذي كان ينفخ خديه من الرغبة النزيهة في ابداء المساعدة ، ويضجرهما ، ولا يفهم شيئاً ، وريتا التي كانت تفهم كل شيء تحنق في سرها ، فقد تصورت أن سيريوجا دعي الى الجنوب من أجلها ، فكانت تعتبر كل ما يحدث خيانة — وكان أنفسهما يبدو أحدهما للآخر مصدراً مفرحاً للمرح ، وكل كلمة ، كل نكتة طفولية بلهاء كانت تستدعي الضحك العالي .

في الليل أثارت ريتا شجاراً : طالبت باغلاق النافذة . واحتجت أولغا . فقد كان الهواء ساكناً جداً فعاندت ريتا قائلة :

— ولكنني أشعر ببرد .

— أنفاسي تضيق .

— أنا لا أحب من أجل خاطرك أن أصاب بالتهاب رئوي !

— لا نقدر أن ننام والنافذة مغلقة .

— ستنامين جيداً . أنا لا أقلق عليك .

وهكذا ظلتا تتماحكان وقتاً طويلاً ، وتغلبت ريتا ، بالطبع ، وأغلقت النافذة . وشعرت أولغا بالقوة والسعادة ولم ينضب غيظ ريتا ، فأخذت تعنف أولغا على أنانيتها :

— ما أكثر حماقتي ، حين قبلت السفر معك ! انت لا تفكرين الا بنفسك . العيش معك حتى لمدة عشرة أيام لا يحتمل ، أنت أنانية صرف .

استمعت أولغا هذه الاهانات ، ولكنها لم تشعر بعداء

ولا برغبة في الرد ، بل وأشفقت على ريتا في قرارة نفسها . ولكن كيف كان فى وسعها أن تساعدها ؟ شيء رائع لو أن فلاد بدأ على الأقل بمغازلتها قليلاً ، ولكنه كان يعامل ريتا بطيبة رفاقية لا تثلم ، ولم يكن هذا يحل الإشكال .

وكانت أولغا تقول وهى تتثاءب وتبتسم من خلَلَ النعاس :

ـــ لا أعرف لِـمَ أنا أنانية . هيا لننم . أحب أن أنام .

ـــ طبعاً ، تحبين ، فأنت ما بين قفز وصياح . أنت أنانية لأن كل شيء لك ، ولا تفكرين في الآخرين . لم أسترح افظع من هذه الراحة فى حياتى . . أي كابوس هي ، أي عذاب . . .

وفي النتيجة انفجرت باكية . هرعت أولغا الى البيت لتجلب القطرات المسكنة ، والماء ، وايقظت الناس . رقدت ريتا بلا نَفَس ، وعلى رأسها فوطة مبللة ، وطلبت بصوت بائس أن يحصلوا لها على بطاقة سفر الى موسكو ، ولعنت نصيبها . وكانت أولغا تقول لها ما يهدئها من سخف القول بينما كانت تفكر في سرها : غداً ، في البحر . . . فما في إمكان دموع تذرفها أية عيون ، وأية بلايا أن تغبش وجه الفرح .

وبعد ذلك التقت ريتا صاحبة لها في أعالى ـــ غاغرا وانتقلت اليها . وذات مرة رأوها بصحبة هذه الصاحبة ، وهى امرأة بدينة شقراء بلون التبن فى منتصف العمر . كانتا تسيران تتأبط احداهما ذراع الأخرى ، والى جانبهما سار رجلان يرتديان بيجامتين ـــ فى ذلك الوقت كانت البيجاما فى الموضة فى الجنوب ، فقد كان الرجال يتنزهون فى المدينة فى بيجامات مخططة ، وكأنها بدلات صيفية ـــ وكان الأربعة

يتحدثون فى صخب ، وألقت ريتا نظرة عابرة ، ومرّت لاتكاد تهز رأسها بتحية . ولم يكن المبيت فى الجناح فى اول ليلة ما يبعث على الراحة . فظلت أولغا مؤرقة حتى الفجر تقريبا ، وهى تسمع هدير البحر ، يضنيها القلق حينا ، والفرح حينا آخر ، وأحيانا أخرى لا تعرف لماذا ، يضنيها المجهول . كان الناس يتجولون فى الحديقة والزيزان تصرصر ، وصدر هدير محرك سيارة . وطلعت الى ما وراء البوابة . وفكرت اولغا مع نفسها . الى اين ذهب راكبوها فى هذا الهزيع المتأخر من الليل ؟ الى حانة طلبا للنبيذ ؟ وفى الصباح اشتكت للصاحبين قائلة انها لم تنم قط ، خوفا . وكانت غير صادقة فى قولها . ان عدم شعورها بالراحة مبعثه الانتظار الشديد ، والأفكار المضطربة .

والأصح أنها منذ الليلة الأولى التى بقيت فيها وحيدة فى الجناح كانت تنتظره . قال الصاحبان انهما سيحرسانها ، ويذهبان للسباحة ليلا .

كان الليل حالكا لا ترى العين فيه أبعد من خطوتين . ليل جنوبى ، بلا نجوم . والغيوم مخيّمة ، والهواء ساكن تضيق به الأنفاس . ومن البلاج كانت تتردد أصوات ، وتدق خطوات على الصخور ، والكثيرون من الناس يسبحون فى الليل ، ينتهزون الفرصة أيضا . وكانت الأحاديث تجرى خافتة ، وأحيانا همسا ، والهواء مفعم بسر ، وكانت أولغا تشعر بذلك فى قلق ، الا أنها كانت تتصور أن السر فى داخلها . وبعد ذلك اكتشفت أن الناس يتهامسون بالفعل ، والسر حقيقى لا علاقة له بها . عند ذاك اخذ رأسها يدور ورجلاها ترتخيان من وغرة الهواء ، من الظلام ، وتحسس

السر . وكانت الحلكة من الشدة بحيث كان من الممكن أن يسبح الناس عراة . اقتربت أولغا من البحر وهي لا ترى الماء . لم يحدث فى حياتها قط لا قبل هذه الليلة ولا بعدها أن سبحت فى ماء دافئ كهذا الماء ولعل درجة حرارته بحدود السادسة والعشرين درجة مئوية . وما من موجة تسرى على سطحه ، بل سكون تام ، ولا صوت . لم يكن للبحر وجود ، بل مجرد ماء دافئ ، كما فى حوض سباحة ، وفى طيات الظلام طرطشة خافتة ، وأصوات انسانية غير واضحة .

أدركت أنها ستكون ليلة غير اعتيادية . فلاد خرج الى حيث لا تدرى ، ولربما هو على مقربة ، ولكنه لزم الصمت ، غير كاشف عن نفسه . جذبها سيريوجا من يدها الى العمق ، ولكنها لم تره . توقفا حين وصل الماء الى كتفيها . قال ان ذلك يشبه الاستحمام المقدس اما فى مياه الكنج أو فى نهر الأردن ، فى نهر من الانهار الاستوائية ، حيث الماء كالحليب النازل من الضرع رأسا . والأمير الروسى فلادمير عمد أهالى كييف فى الدنيبر ، وهو نهر أبرد على كل حال .

ضحكت منه قائلة :

— كل هذا تعرفه !

أما هو فسألها :

— هل تحبين أن أعلمك السباحة ؟

واندهشت فانهم فى النهار لا ينشغلون الا بهذا . دنت منه . طوقت رقبته ، وبقيا على هذه الحال وقتا طويلا ، يتبادلان القبل ، وكانت هذه المرة الأولى ، وجرت بشكل طبيعى تماما ، وكأنما تبادلا القبل مرات عديدة قبل هذا ، ولكن الشىء الغريب الوحيد : أن الناس حولهما ، ولا أحد يراهما .

ناداهما فلاد من بعيد . وشعرت بالحراجة ، وأخذت تنتزع نفسها ، وتصارعا ، وخرجا من الماء ركضا ، وارتميا على صخرة .

كانت الصخور دافئة . ولكن أولغا شعرت بقشعريرة ، وارتجفت . صاح فلاد :

— أين أنتما ، أيها الشيطانان !

سدّ سيريوجا فمها براحته . ولم يتمالكا أنفسهما ، فانفجر كلاهما فى ضحك ، وسقطا من الصخرة الكبيرة التى كانا جالسين عليها .

— هكذا ، اذن . . . تخفيتما . . . — وجلس فلاد منهبدا بالقرب منهما . — بينما أنا ، يا اخوان ، اتفقت بخصوص التذكرة .

كانت ترتعش ، وخافت أن تسأل أى تذكرة ، حتى يخونها صوتها ، فيكشف عن ارتجافها . من غير المعقول أن يرتجف المرء فى ليلة خانقة الهواء . ومع ذلك لم ترد أن يحدس فلاد ما هى عليه . قال انه اتفق مع عيادة المعهد الطبى الاول على العمل هناك فى آب . آنذاك كان ما يزال طالبا فى السنة الخامسة ، رغم أنه كان أكبر سنا منها ومن سيرغى بسنة أو سنتين . فقد بدأ التعليم متأخرا .

وأدركت من صوته انه حدس ، وأشفقت عليه كثيرا . كان لسانه لا يطاوعه ، فتمتم فى لعثمة ، عن مهمات بائسة قبيل السفر . وبقوا حتى الساعة الثانية ليلا يتحدثون على الساحل بارهاق ، ثم اعترفت بأنها ناعسة وتريد أن تنام ، ولم تكن ناعسة كثيرا ، كان دماغها ملتهبا ، ولكن شيئا ما كان يدعوها الى أن تقول : من المستحيل أن يجلسوا أكثر من هذا .

سأل فلاد : اتحتاجين الى حراسة ؟ ظل فارسا ، كما هو ، رغم كل شيء . وأى رجل فذ سيكون لولا . . . كانت أم أولغا فاسيليفنا ترى فيه «بعضا من بيير بيزوخوف . وبيير بطلها المفضل ، ولهذا فان «بعضا منه» كان يعنى على لسانها الشيء الكثير ، وكان غيورغى ماكسيموفيتش يقول ان وجه فلاد مثل وجه كيريميت آله المردوفيين ، ومن الطريف رسمه ، وقد رسم فلاد وعذبه مرات عديدة ، وكان يود كثيرا ان تتجاوب أولغا معه فى كل شيء : «لا تتعالى على الآخرين ، لن تجدى أحسن منه» . انه الآن مساعد أستاذ ، ورئيس قسم ، وله ثلاثة أولاد ، وزوجته ، امرأة بدينة شوهاء طيبة القلب لها ظهر عريض سمين ، طبيبة اخصائية فى اشعة اكس . بينما كان آنذاك مسحوقا تعيسا ، يسأل بصوت منهك : اتحتاجين الى حراسة ؟

انصرف الرجلان ، وبقيت هى وحدها ، ولباس السباحة المبلل مطروح على افريز النافذة الخشبى فى انتظار طلوع الشمس . لم ترد أن تنام ، ولم يكن هناك خوف ، ولا وقع خطوات ، ولا أصوات ، ولا أى شيء آخر . استلقت مفتوحة العينين ، خافقة القلب ، وكانت تعرف أن الليل لم يبق منه الا القليل ، وأنه سيأتى عن قريب . وجاء بعد حوالى عشرين دقيقة . ومن جديد أبدت تخوفها من فلاد ، فقد يكون قد لاحظ خروجه ، وحدس الى اين ذهب ، وسألته لماذا لم ينتظر الى الغد ، بعد أن يرحل فلاد على الأقل . فسأل :

— وماذا يعنيك من فلاد ؟

وفى الواقع لم يكن فلاد يعنيها شيئا .

— لا اقدر الانتظار الى الغد .

ولم تجر بينهما أحاديث ووعود وحلف بالأيمان ، مجرد أنها وثقت به الى الأبد .

وبعد ذلك قضيا ليالى اخرى عديدة وبلا حصر فى المدينة ، وفى البيت الريفى ، صيفا ، فى المطر ، وفى الخريف البارد ، حين لم تشغل بعد التدفئة فى البيوت ، فكانت الحجرة تدفأ بمدفئة كهربائية صغيرة عاكسة . وفى كل ليلة تقريبا كانا يمارسان ما يمارس الزوج والزوجة . وكان ذلك هبة نادرة ، والصديقات أحيانا كنّ يتبادلن الأسرار ، أما هى فلم تفعل قط ولو تحدثت احيانا ، لما صدقن بها ، وأعتبر كلامها كذبا كذلك الذى يلفقنه . ولكن الحقيقة تتمثل فى البسيط : ما ينقص واحدا ، يكون عند آخر ، وما يكون عند الاثنين يتحد فى كل كامل بتماسك وامتلاء ، ولكن ذلك لا يدرك رأسا . لا فى الليلة الأولى ، ولا فى الليلة الثانية ، ولا فى السنة الأولى . وبعد ذلك أدركت أن ما حدث له معها ، لا يمكن أن يحدث لها مع شخص آخر . ولكن آنذاك ، فى الجناح ، ماذا كان ؟ ليلة خانقة ساهية .

وقضى فلاد الزائد يوما آخر يتسكع معهما . فى البحر لم يقترب سيريوجا منها ولا مرة ، كان طوال الوقت مع فلاد ، بل بدا وكأنه يتحاشاها . ارتعبت ، وهدأت نفسها بأنه يتعمد ذلك عن قصد الماكر ، فقد كان يعرف ، وهى تعرف أنه سيزورها فى الليل مرة أخرى . ثم أن رجلا دعا فلاد الى البحر ، وسبحا مبتعدين عن الساحل ونقل الرجل لفلاد خبرا . آنذاك كان يدور الكثير من الشائعات المختلفة والأخبار . وقد نسيت فحواها الآن . ولا تتذكر الا أن فلاد

وسيريوجا كانا منفعلين بشكل غير اعتيادى وقد هرعا الى بورفيرى ، الا أن خادمة البيت قالت أن صاحب البيت سافر الى موسكو ، وربة البيت مريضة ، ولا تستطيع أن ترى أحدا ، أما الضيوف فقد سافروا الى أماكنهم . ولم تكن فى الحديقة أية سيارة .

وذهبوا الى المدينة ، والى السوق ، وتجوّلوا فى المخازن . وحين كان فلاد يبتعد أو ينعطف كان سيريوجا يتناول يدها ، ويضغط على أصابعها ، ويجهد ليلتصق بها ، ويمسها . فى ذلك اليوم تناقش فلاد وسيرغى كثيرا وصخبا ، وتجادلا ، بينما كانت هى طوال الوقت تفكر كيف سيكون فى الليل . فى السوق كانوا يبيعون بواكير العنب ، كانت تفهم ، بالطبع ، أن الخبر قد يكون ممتعا ، ولكن حدثا آخر كان يملأ نفسها الى الحافة ، فكان يحيرها قليلا كيف يمكن ان ينشغل سيريوجا فى مثل هذا اليوم بشىء آخر ، بل وكيف يمكن الا يسمعها ، حين تسأله عن شىء .

كانت خادمة البيت اليونانية المشوربة تشحط فى الحديقة بالمجرفة ، وكلب الحراسة تيتان يقبع مستوحشا على مدخل البيت ، وقد وضع بوزه على يديه . الجميع تفرقوا ، اختفوا ، كما اختفت السيدة الممشوقة القوام ذات الشفتين الزرقاوين الشبيهة بالمتوفاة التى وصفها غوغول . وعندها راق المقام فى البيت والحديقة ! أقاموا زهاء خمسة أيام فى الشرفة فى الطابق الثانى ، فقد شعرت اليونانية بالخوف من البقاء وحدها فدعتهم . كان كل ما فى البيت فى حجوم هائلة . الأريكة كأنها قد أعدت خصيصا للتمرغ فى الخطيئة ، وفى الغرف رائحة راكدة لنبيذ حامض مخلوطة برائحة كلاب . ولكن فى

الشرفة كان يرف هواء البحر المرهق الذى يقوى من جديد . كان الحديث يجرى ليالى ونهارات ، يتعرف أحدهما على الآخر بشراهة ، وعند ذاك بدا وكأن كل شىء قد حسم منذ زمان . ولكن فى تشرين الأول ذهل فلاد حين دعى لحفلة الزفاف . فهو ، على كل حال ، لم يكن يتصور أن الأمر يتطور الى هذا الحد ، والأهم من ذلك بتلك السرعة .

ذلك لأن التعارف كان حديثا . واذا هما فى الشرفة المطلة على البحر ، ولا حاجة الى تهامسهما بالاسرار ، فهو أحب انسان اليها . شهر آب ، وأمه بأحاديثها الثقيلة ، ولكن لم يعد فى المستطاع تغيير شىء . وجاءت ضاحية بيرخوشكوفا ، والخريف ، وقطارات الضواحى المسائية ، واللقاءات قرب شبابيك قطع التذاكر الى هذه القطارات . وفى تلك الآونة ظهرت سفيتلانكا ، ذلك الكابوس الذى لم ينقشع بسرعة ، وكاد يخنقها .

متى سمعت بهذا الاسم لأول مرة ؟ من أمه ؟ لا ، فقد نطقت أمه بهذا الأسم حتى ان أولغا فاسيليفنا ارتعدت ، لأنها كانت تعرفها . كان قد استقر فى وعيها بسلاءة صغيرة تلهب النسيج ، وتتورم ألما بطيئا . كان نزيها ، مستخفا ، مثرثرا ، يهذر بالكثير ، وقد سمعت هى بذات النظارتين ، التى لم تتورع عن اى شىء بغية الاحتفاظ به ، ولكن أولغا فاسيليفنا ، فى البداية ، لم تكن تنظر اليها بجدية كبيرة ، لأنه من غير الممكن ألا يكون ثمة ماض ، وهى أيضا لا تخلو من ماض ، ممثلا بغندلين على سبيل المثال . وقد انطمر تماما ، وقبرته السنون ، مثل فرعون توت عنخ آمون . يبدو أنهما تعارفا فى الكونسرفاتور ، وكان مهندسا ، على ما

يبدو ، مديد القامة ، له مشية غريبة ، يكاد يثنى ركبتيه في كل خطوة . وصوت أمها المعنف : «مرة أخرى تلفن غندلين» . يتلوه احساس بالذنب لا نحو غندلين ، بل نحو أمها . ولم يكلفها التخلص من غندلين عناء ، فقد سقط بهدوء ، كما تسقط ورقة من شجرة بفعل هواء الخريف ، ولكنها كانت تقول بأنفة وعظة : «هذا ما فعلته . قلت له بصراحة ان يكف عن التلفنة ، لأنها بلا فائدة . وفهم هو ، وانتهى الأمر . يجب اجتثاثه كالسن العليلة ، دفعة واحدة .» وافق سيريوجا ، قائلا : نعم ، نعم ، بالطبع . كالسن العليلة . ولم تكن آنذاك تعرف تلك الشخصية المشبعة بالخلخلة والنزوات ، ووجدت في هزة الرأس الطائعة ، والموافقة السريعة السهلة سكينة لم تستمر كثيرا جدا ، على كل حال : حتى حديثها الأول مع حماتها المقبلة .

ادهشتها الحجرة في شارع شابولوفكا ، فقد كانت سداسية الأضلاع ، حاشية قاعة ذات سقف غير اعتيادي في ارتفاعه ، وملائك الحب المجنحة البارزة شطرت بالطول دون رأفة وكانت الرجل الأولى والجناح يحميان الحجرة السداسية ، والرجل الثانية والذراع الماسكة بالقوس تتدليان على الممر . ولم تكن لملائك الحب رؤوس . فقد كانت على الحاجز . وكانت الجدران مغلفة بأوراق تزيين حمراء بلون الكرز مع سلال بيض ، وقد علقت عليها صور فوتوغرافية كثيرة . وقد نبهها سيريوجا الى احداها ، وهي تصور هرما من الرجال المشوربين في ستر عسكرية ، وقبعات فرائية عالية ومعاطف عسكرية ، وامرأة لا تكاد تلحظ من جانب ذات وجه غير مميز ، تعتصب بمنديل ابيض .

— هذه أمي في القسم السياسي للجيش . في عام ١٩٢٠

وكان واضحا رأسا أنها تختلف عن الأمهات الأخريات ، وليست عجوزا بسيطة ، مبتذلة ، بل صانعة تاريخ . ولكن أولغا فاسيليفنا راحت تنظر بهذه المرأة الحادة العينين الناتئة الوجنتين ، الكثيرة التجاعيد ، النحيلة الشفتين بتعاطف كبير ورغبة صادقة في أن تحبها ، لا لأنها صانعة تاريخ ، فقد كانت تنظر بعدم اكتراث لكل الاثار والأطلال الدالة على القدم ، بل لأنها أمه . وكانوا يشربون الشاي في أكواب شاي رخيصة جدا ، تكاد تكون للأطفال . وجاءت أخته ملفوفة بشال العجائز ، بدينة ، فتاة محلولة المفاصل ، لا تشبهه اطلاقا ، ذات بسمة مضللة ذات مغزى . كانت تبتسم ابتسامة معوجة ، وهي تتكلم ، وتنظر في ناحية . وكانت أكبر من سيريوجا بحوالي ثلاثة أعوام .

كل ما في هذا البيت — الجدران ، والسقف ، والأواني والأثاث والناس القاطنين فيه — كان يتميّز بسماجة خفية . ومع ذلك فكم أحبت ذلك كله ! هرع سيريوجا الى الحانوت لشراء زجاجة نبيذ جورجي أحمر . في غاغرا أولعوا في النبيذ الأحمر ! وحين ذهبت الأخت الى حجرة أخرى ، وبقيت أولغا فاسيليفنا وحيدة مع حماتها المقبلة ، سألت الحماة فجأة :

— هل تعرفين شيئا عن سفيتلانا ؟

اعترفت أولغا فاسيليفنا بأنها تعرف ، ولكن بشكل غير واضح .

— طيب ، اريد أن أزيل عدم الوضوح منك . — ونفذت العينان ، الشقان الأزرقان بحدقتين بلون الفولاذ . — ان سفيتلانا

هذه التى لم أسمع بها حتى يوم أمس الأول — تنتظر مولودا من سيرغى .

وتبين أن هذه المرأة كانت تأتى الى هذا البيت ، وتتحدث ، وتهتاج (فيما بعد ظهر أن كل ذلك ابتزاز اعتيادى معد ليصدق به ضعاف العقول) وكانوا الآن يستنطقونها . اذ تحولت غرفة الضيوف القبيحة فجأة الى قاعة محكمة عسكرية وهمية ، اذ لم يكن فى هذه العلبة الخشبية سترة جلدية ومسدس موزر المألوفان فى المحاكم العسكرية .

— هل أنت واثقة من أن يكون الانسان سعيدا على حساب سعادة انسان آخر ؟

تمتمت أولغا فاسيليفنا :

— لا أدرى . . وأنت هل تعتقدين أن هذه المسألة صحيحة ؟

هزت ذات الحدقتين الفولاذيتين رأسها ببرود .

وحاولت أولغا فاسيليفنا بصوت بائس أن تقاوم :

— ولكن الحب . . . قد يحب الناس . . ويهجرون وينصرف كل واحد لحال سبيله .

— أنت تتكلمين عن الأوغاد . وابنى ليس وغدا . . مجرد أنه شخص لا يشعر بالمسؤولية .

وظهرت الاخت فجأة ، وقد سمعت كل شىء ، فقالت بعصبية وحدة وهى تعوج فمها بابتسامة :

— لا تعيرى اهتماما لأقوالها ، انها عادة لا تنفذ الى الموضوع ! — والتفتت الى امها فى حنق شديد وجلاء : — ها قد عدت الى الكلام التافه ! لا تطيق الأذن سماعك ! عكفت العجوز جذعها . وصل سيريوجا ومعه زجاجة نبيذ

استنجدت أولغا فاسيليفنا بكل قواها حتى لا تنفجر باكية . فهم سيريوجا كل شىء ، وأخذ يستجوب أمه ، وظهرت الأخت من جديد ، ولكنها الآن راحت تحمى أمها . ولم يكن مفهوما كيف كان موقفهما من هذه الأفعى ، من سفيتلانا ، فلكأنها غير موجودة والمبدأ الذى كان الثلاثة يتخاصمون بسببه كان مهما ، كل واحد كان يدافع عن حقيقته ، ولم تكن أولغا فاسيليفنا تفهم شيئا . ولكن شيئا واحدا بدا لها مفهوما : **جميعهم لا يريدونها** . كانت السماجة تقبع فى هؤلاء الناس ، ومن الاستعجال الوصول الى نتائج من أقوالهم وتصرفاتهم . كان سريوجا يقول أن سفيتلانا تكذب ، وكانت أولغا تصدق به ، ولكن كان من الصعب جدا ، لسبب ما ، قطع علاقاته بها ، فقد كانت تهدد بالانتحار ، وكان يتألم ، ويذهب الى أقاربها ، ويقابل أخاها الملاكم ، ويتردد على الأطباء ، والمختبر ، وكانت التحاليل سلبية ، وكانت هذه تتصرف كنصّابة حقيقية ، وكان المزيفون من الناس يؤثرون فى الحماة دائما رغم أن أولغا فاسيليفنا كانت تحدس ذلك — نفور الحماة من سفيتلانكا كان أكثر من نفورها من أولغا .

استمر هذا الكابوس كله حوالى ثلاثة أسابيع من أيلول ، وفى لمحة بدا وكأن هذه حصلت على ما تريد . انتزعت سيريوجا ، وان لم يكن لها ، بل انتزعته من أولغا فاسيليفنا . قررت أن تفترق عنه — تلك كانت ضربة هذه الكلبة ، ضربة معدة للفتك — ولكن شيئا ما انجاها ، فقد صمدت .

دق جرس الباب فى الساعة الثانية عشرة ليلا . على الباب فتاة دميمة ساقاها النحيلتان معوجتان ، وشعرها منفوش وعلى عينيها نظارة . هل انت أولغا ؟ نعم ، أنا . وفهمت

كل شيء فورا وتتدفق الدم فى رأسها . كانت كراهيتها للرعونة شديدة ، فودت لو تمسكها وتقذفها على السلم لتتهشم ذراعاها ورجلاها . ولكنها بالطبع ، دعتها الى الدخول بأدب ، وتحدثا فى الممر . كانت الفتاة متأكدة من أنه لا يحب أولغا فاسيليفنا ولا يمكن أن يحبها ، ولتكن أولغا على علم ولا تخادع نفسها فأنه عموما لا يطيق «اللواتى من أمثالك» ، وقعت غمامة ، وستزول «ستكونين تعيسة» وما الى ذلك من الهذر . وشعرت أولغا فاسيليفنا كيف أن داخلها كله ينسحق . سرى الخدر فيها ، فراحت تحدق بالوجه المثلث النحيل ذى الحنك الحاد الذى كان يختلج ، وفى عينيها خلف زجاجتى النظارة رقت حدقتان واسعتان ، مثلما يحصل عند المريض . ولكى تثبت الفتاة صدق قولها قالت — ومن أجل هذا جاءت — انه قضى عندها ليلتين ، قبل فترة قصيرة ، فى آب ، بعد عودته من الجنوب . ردّت أولغا فاسيليفنا بصلابة :

— أنت تكذبين .

لم تصدق حتى للحظة واحدة . ولكن الفتاة سردت فى استمتاع تفاصيل ما كان من الممكن أن تعرفها الفتاة ، اذا كانت تكذب .

ومع ذلك لم تصدق ، فأية بلهاء هى ، أية حرمة ساذجة ! وفى اليوم التالى ، حين هرعت تحت المطر الى مكتبة بيع الكتب فى بناية فندق «متربول» حيث كانا قد اتفقا اللقاء — على طرده وصب اللعنات عليه ، كان فى قرارة نفسها هدوء غير معقول . كانت فى سرها تصدق بأنه سيرتبك الآن ، ويوضح شيئا ما ، ويبرئ ساحته ، ويبدد

هذه النازلة التى سقطت رأسا ولم تكن هى فى حياتها قد جابهت حالة كهذه . ولم تتحدث لأمها ولا لزوج أمها أيضا . كانت تكافح وحيدة . وكان يجب أن تتخذ قرارها خلال بضع ثوان . أما هو فقد تكدر وجهه ، وجهم — وهنا صارت تتعرف على طبعه الغريب — وقال : «انها وسخة ، ولكنها تقول الحقيقة . سوى أننى لم أكن عندها مرتين ، بل مرة واحدة» .

أوه ، يا ربى ، ولكن لماذا ، لماذا ؟ لماذا كان عندها ؟ ولماذا يقر بذلك ؟ حتى ولو كان ذلك صحيحا . «أشفقت عليها عرفت أننى سأهجرها ، فأخذتنى الشفقة عليها» . أشفق عليها ، أما المرأة التى أحبها ، فيسلمها للعذابات ، ويكشف لها كل شيء بصراحة . عند ذاك تمشيا قرب فندق «متروبول» تحت المطر ، كمجنونين ، مصطدمين بالمارة ، وظلا يتكلمان ويتكلمان ، ويحاولان ان يفهما — كانت هناك عملية بناء وطلاء ، وكان المبنى فى صقالات من خشب وانابيب ، فكانا ، بين الحين والآخر ، حين يشتد هطول المطر يلوذان تحت لوحة ممدودة ويقفان هناك كانا يحاولان أن يفهما كيف ستكون علاقتهما بعد هذا ، وهل يعيشان سوية او ربما يفترقان الى الأبد . وكانت تتردد فى ذهنها هذه الفكرة وتلك . كانت قوى تحملها للافتراق ونبذه تتضاءل . وفجأة طرأت عليها فكرة : تجربة منزلة ، اذا تصدت له وغلبته فستكون سعيدة . وانتهى الأمر بأن دخلا مطعم «متروبول» وتناولا وجبة غداء جيدة ، وكان سيريوجا فى ذلك اليوم قد تسلّم راتبه من المتحف ، فأنفق نصفه على الغداء .

وجرى الزفاف بعد شهر . أواخر تشرين الأول باردة ومشمسة ، سدوا الشقوق فى النوافذ بورق الجرائد ، حتى لا ينفذ البرد منها الى الضيوف ، وجلبوا الحاكى والاسطوانات من الجيران . حفلة زفاف اعتيادية ، أمسية فيها فـــودكا ومشهيات ، وكفتة من لحم الدجاج على طريقة كييف جلبت من مطعم مجاور . وقد كتب سيريوجا بطاقات دعوة فكاهية وطبعها على الآلة الكاتبة على هذا الغرار : «الصديق العزيز ! اذا أردت أن تريح نفسك ، وتنسى متاعب الحياة العائلية والعزوبة والعمل والدراسة (أشطب على ما لا يهمك) تفضل الى حفلة المتنوعات البيتية بمناسبة عرسنا . . .» وحشر فى البرنامج كل أنواع التوافه المضحكة ، فقد كان أستاذا فى أشياء كالمشاهد الايمائية التى تمثل العريس ، وقراءة الكلمات مقلوبة ، وأغانى الموائد ، ومحاضرة الدكتور بوليسايف عن فائدة الامتناع عن الطعام وما لا يخطر على البال ، وقد نسى كل شىء ، وأمحى ، أو ، لا ، بقى فى الذاكرة : «الملذات الطعامية والمسؤولة هى أم العروسة التى ستسمى بالحماة من الآن فصاعدا» وبسبب هذه العبارة ، وبينما كانت الأم وأولغا وامرأة أخرى جاءت للمساعدة يغسلن الصحون فى وقت متأخر من الليل وغيورغى مكسيموفيتش ، يمسح ، وسيريوجا الشديد السكر يشخر فى أحدى الغرف ، نشأت مشاجرة كلامية خفيفة .

عبر غيورغى مكسيموفيتش عن حيره : ما هى الملذات الطعامية ؟ اذا كان فى ذلك دعابة ، فان فيها ما يضر بالصحة . واذا لم يكن فاسمحوا لى أن أسأل : ما المقصود فى ذلك ؟ غمزات على مرض من الأمراض ؟ ثم لماذا يلمز كثيرا بكلمة

«حماة !» ؟ كل المغامز حول الحماة استنفدت عام ١٩٠٠ . ابتسمت الأم باستهزاء قائلة — أنا لا أتأذى من هذه الدعابة قط ، فتفضلوا ، وأمضوا فى هذا السبيل . ولكنها ما كانت ستعترف لو كانت قد تأذت . وعموما ، وكما أتضح فيما بعد ، لم تكن يهمها ان تحس بأنها حماة ، ولم تحب هذه الكلمة ، وكان الامتياز بالطبخ هو اقل ما يمكن أن تدعيه .

ان أى زواج ليس اتحاد انسانين ، كما يظن الناس ، بل اتحاد أو تصادم بين عشيرتين ، بين عالمين . ان أى زواج هو عالم ثنائى . التقى نظامان فى الفضاء ، فيصطدمان ويلتحمان الى الأبد . فمن منهما يتغلب على الآخر ؟ ومن يوكل له هذا وذاك ؟ ومن بم ؟ جاء أقاربه ، **عالمه** ، وفتحوا عيونهم بفضول جنونى ، ورأوا اقاربها ، **عالمها** . ولربما لم يكن ، خلال الأعوام السبعة عشرة مثل هذا اللقاء الموسع ، مثل هذا التقابل الصريح وجها لوجه ، ومع ذلك فان التصادم بدأ أنذاك ، وامتد طوال تلك السنين كدودا ، غير مرئى أحيانا ، خفيا عن كل واحد . وها هو سيرغى قد فارق الحياة ، والحرب القديمة ماضية .

لم تكن ثمة حرب . كان كل شىء قد رتب بهدوء وسلام ، اذا تغاضينا عن تلك الهزات تحت الأرضية الضعيفة . وكانت أولغا فاسيليفنا تتنرفز : فقد كانت تحدس أبر الحماة المقبلة واشواكها كما أن الاخت ايضا ، ذات الاهواء ، استطاعت أن تفعل شيئا . كما كانت تخشى أخى الأم ، العم بيتيا ، فهو ايضا وعائلته أناس حادون صخابون .

وقبل الجلوس الى المائدة دعا غيورغى مكسيموفيتش الضيوف الى المرسم : وكان يجب اجتياز ممر طويل : الى

اليمين باب المرسم . والى اليسار الحمام المشترك ، والمطبخ المشترك ، والمرحاض المشترك لجميع ساكنى الطابق الثالث . وكان البيت مبنى اهوج من ابنية العشرينات . واصطف الضيوف فى الممر واحدا وراء الآخر ، مطبطبين بأقدامهم ، وكان ساكنو البيت المتطلعون ، زوجات الرسامين وأمهاتهم واطفالهم واقفين على ابواب المطبخ المشترك والحمام ، وكان الرسامون انفسهم يفتحون أبواب مراسمهم ، ويتطلعون الى الضجة . ولم تكن زوجات الرسامين ولا أمهاتهم لطيفات كثيرا مع أولغا فاسيليفنا وأمها ، رغم أن أولاء يسكنن هذا البيت منذ ثمانى سنوات ، وكان من الممكن أن يتعودون عليهما . ولكن زوجات الرسامين وأمهاتهم كن لسبب ما يتذكرن جيدا زوجة غيورغى مكسيموفيتش الأولى وابنه سلافا الذى افترق عنه أبوه قبل بضع سنوات من بدء الحرب .

تقدم طابور الضيوف فى صمت تام ، ومرّت ثوان ضيق ، فقد كان بخار الصابون يطلع من الحمام المشترك حيث كان يجرى غسيل ملابس ، وكان الماء يبقبق فى المرحاض المشترك. وفجأة ضغط سيريوجا على أصابع أولغا فاسيليفنا ، وترنم بصوت عال وقح : «ترام — با — بام» . . . — من مارش العرس لمندلسون . أنضم اليه أحدهم ، وأخذوا يضحكون ، ويضجون ، وزال الضيق . وفى تلك اللحظة ظهرت زيكا الصهباء الشعر ، زوجة الرسام فاسين ، تحمل باقة ورود . دست الباقة بصمت فى يدى أولغا فاسيليفنا ، وانحنت — وهى الطويلة غير المتناسقة — واجتهدت لتقبل أولغا فاسيليفنا من خدها . وكانت أولغا فاسيليفنا لا تكاد تعرف زيكا هذه . ولكنها فيما بعد عرفتها جيدا .

كان نظام غير اعتيادى يسود مرسم غيورغى مكسيموفيتش وهو شىء لم يلحظه أحد ، بالطبع . احتشد الجميع فى منتصف الحجرة الكبيرة ، تحت المصباح ذى المائتى شمعة . وأخذ غيورغى مكسيموفيتش يلقى على الكرسى الذى كان بمثابة قاعدة أعماله واحدا وراء الآخر . لم تعجب أولغا فاسيليفنا هذه الأعمال كثيرا . ولكنها ، على ما يبدو ، كان ينقصها فهم شىء ما ، لأن سكان البيت كانوا يتحدثون عن غيورغى مكسيموفيتش باحترام ، وكانوا يعرضون عليه لوحاتهم ، يسألونه النصيحة . بينما بدا لاولغا فاسيليفنا أن كل هذه البرك ، والخمائل ، والجداول ، والمنخفضات المرسومة بالزيت ، كل هؤلاء الشيوخ والأطفال والكلاب والأيدى والرؤوس المرسومة بقلم على أوراق كبيرة تشبه العديد من اللوحات والرسوم الأخرى التى رسمها رسامون آخرون منذ قديم الزمان ، ولم تكن تفهم ضرورة تكرار ما هو موجود فى العالم بالفعل .

ولكنها كانت ضرورية ، على ما يبدو ، لغرض ما . لأن لوحات غيورغى مكسيموفيتش كانت تقبل فى لجنة الرسامين ، ويشتريها الذين يوصون بها ، فلم يكن غيورغى مكسيموفيتش يعانى ضائقة مادية . كان طيب القلب ، متعلما ، درس فى باريس ، وتعرف على موديليانى ، وشاغال ، ويحب أن يطعّم كلامه بالكلمات الفرنسية ، رغم أن قراءته وكلامه فى الفرنسية سيئان جدا ، وفى وقت ما كان يسمى «فان غوغ الروسي» ، ولكن ذلك بدا غريبا . فهل من الممكن أن يفهم كل شىء عند الآخرين بشكل جيد ، ولا يفهم شيئا مما عنده ؟ كانوا يقولون فى صباه كان يرسم بشكل آخر . ولكن تلك الرسوم لم تحفظ لسبب ما ، وكان غيورغى

مكسيموفيتش ، يحب كثيرا دعوة الناس الى مرسمه ، ويلح عليهم ويضنيهم بلوحاته . والظاهر انه يفتخر عن جد بتلك البرك والجداول . وكل هذا معذور لشيخ لم يؤاته مجد ولا رخاء ، وفضلا عن ذلك فقد كانت الأم تحبه حبا شديدا ، ولكنها لم تستسغ أن يحمل الناس الى زيارة مرسمه ، فان ذلك تجاوز للحد . كما أن أولغا فاسيليفنا غضبت على حماها قليلا . فهو لم يستح من أن يعرض على الكرسى سلسلة من الرسوم — امرأة عارية جالسة على اريكة ، وركين عريضين ، وخصرا وشعرا محلولا ، والوجه محجوب . ولم يعرف أحد أن هذه هى أمها . واشمأزت اولغا فاسيليفنا ، فحاولت أن تصرف بصرها عن الرسوم . وكان كل شىء سيكون لطيفا ، فقد هزّ الضيوف رؤوسهم مستحسنين . وراحوا يقولون بخفوت «أى . . نعم . . .» ولكن ام سيريوجا القت فجأة سؤالا لا يخص ابداع غيورغى مكسيموفيتش :

«ولكن قل لى أيها الفاضل ، ما هذه اللوحة ؟» رد غيورغى مكسيموفيتش بسرعة غير راغب فى أن يصرف الانتباه عن أعماله : «هذه «غيرنيكا» الشهيرة . ليست اللوحة الأصلية ، بل منسوخة» . — «وبم هى شهيرة ؟ هذه أول مرة أسمع بذلك عنها» .

والعبارة الاخيرة التى قالتها ألكسندرا بروكوفيفنا «هذه أول مرة اسمع بذلك عنها» صارت فيما بعد بمثابة شعار او كلمة سر تعنى **نظام** ألكسندرا بروكوفيفنا . أحيانا كانت أولغا فاسيليفنا والأم تتبادلان النظرات وتهمس احداهما للاخرى : «هذه أول مرة أسمع بذلك» وتأخذان بالضحك . ولكن الضحك ما يزال بعيدا عن ذلك المساء . وقد أنتزع

غيورغى مكسيموفيتش نفسه عن لوحاته مكرها ، وأخذ يوضح بنزاهة السبب فى شهرة «غيرنيكا» وعظمتها . وانبهر الضيوف . كان غيورغى مكسيموفيتش يوضح بغيرة وحماس . وشيئا فشيئا عظمت منزلته عندهم ، وكأنهم فهموا ماذا اراد يعبّر بابلو بيكاسو ، ولكن ألكسندرا بروكوفيفنا أصرت على رأيها : «لا ، أعتقد أن استنتاجاتك غير طبيعية . أنا لا أرى فيها غير القحوف المهشمة والجرائد الممزقة» . قالت اخت سيريوجا : «ماما ، هذا شىء يخصك» . وقال سيريوجا : «سأثقفها ، ويرتفع مستواها ، وتفهم» . ردّت الكسندرا بروكوفيفنا على ابنها ردا حادا بما فيه الكفاية . وايدها العم بيتيا بشكل مفاجئ ، وكان قد ثمل قبل الجميع .

قال رافعا اصبعه بعظة : «أنت ، يا عزيزتى ، محقة تماما ، فى هذه المسألة . اما أنت ، يا غيورغى ، فقد ضربوك علقة ، على الشكلية . ولكن ، يبدو أنها قليلة . لماذا علقت هذه التفاهة فى مرسمك ؟»

وأضافت ألكسندرا بروكوفيفنا : «أنت نفسك ، يا غيورغى مكسيموفيتش ، ترسم كواقعى . وعندك المرأة مرأة ، والرأس رأس ، والرجل رجل ، أما هذا ، هذا . . . — وأشارت بأصبعها بجسارة الى الرسم الذى يصور أم أولغا فاسيليفنا العارية .

— كل شىء فى موضعه فى رسمك . فكيف هذا ، تروح لشىء ، وترسم شيئا آخر ؟» .

كان وضع غيورغى مكسيموفيتش صعبا . أمتقع لونه ، وأخرج منديلا بنفسجيا كبيرا ، وراح يتمخط . ماذا كان فى امكانه أن يشرح للضيوف فى خمس دقائق قبل المشهيات ،

قبل الفودكا ، وقبل هتافات «غوركو ؟» * هل كان فى امكانه ان يحكى الحياة ؟ وأحست أولغا فاسيليفنا بالاشفاق عليه . ولكن قبل أن تفتح فمها لتقول ما يسعف حماها ، حتى اندفعت الأم تدافع عنه قالت : «بيتيا ، يا عزيزى ، أظن أنك طوال حياتك تشتغل فى بناء المخارط ، فماذا كنت ستقول لو أن غيورغى طرأ على ذهنه أن يعلمك كيف تصنع المخارط ؟» «ماذا كنت سأقول ؟ كنت سأهشمه سأذيبه . — وقهقه العم بيتيا ، هازا رأسه الأشيب الأشعث . — كنت ساصنع منه كفتة ! واقطعه تقطيع الكرنب ، هذا الوقح !» ضحك الجميع ناظرين الى ألكسندرا بروكوفيفنا بموارية . عند ذاك قالت أخت سيريوجا : «أظن الضجر سيصيبنا ، اذا اقتصر الجميع على الحديث عن اختصاصهم فقـــط» .

ويبدو أن النقاش توقف عند هذا . ومع ذلك فقد كان هناك عالمان ، عشيرتان ، تمتد الجذور فيهم الى عمق سحيق ، وحين كانا يتحادثان كانا يسعيان — لا ارادياً — الى أن يسحق أحدهما الآخر ويضيّق عليه الخناق . دمدمت فيرا بروكوفيفنا ، أخت الحماة ، بشىء ما أيضا ، بخصوص الرسم . ولكن احساسا واضحا بالسعادة والخوف بقى لدى أولغا فاسيليفنا : اذ لم يقل أحد لآخر ما لا يرضيه فسيكدره . وأخيرا جاءت لحظة الاحتفال — التى من أجلها دعى الجميع الى المرسم — وأخرج غيورغى مكسيموفيتش من الرف عند السقف لوحة كبيرة بمؤطر هائل مذهب . هى هدية العرس للعريسين . لوحة حقيقية للرسام الفرنسى دو فيرنوا تصور بطرسبورغ القديمة .

---

* دعوة لتقبيل العروس ، على العادة الروسية . المترجم .

وفيما بعد ، فى لحظات حرجة ، اعتدوا على حياة ديو فيرنوا هذا غير مرة ، بل وفى احدى المرات دعوا مقيما من مخزن للعمولة ، ولكنهم قرروا الابقاء على اللوحة وقد دهشوا من المبلغ القليل الذى حدد لها — ليس بالقليل ، ولكن أقل من المبلغ الذى كانوا يحلمون به طوال حياتهم — وهكذا بقيت اللوحة معلّقة . وعندما خرج الضيوف من باب المرسم الى الممر يدفع بعضهم بعضا باحترام ، قالت ألكسندرا بروكوفيفنا لغيورغى مكسيموفيتش بصوت هامس (وكان فى صوتها نبرة انتصار . وقد سمعت أولغا فاسيليفنا ، وقد تقلّص قلبها) «على كل حال ، يا والد ، لا يمكننى أن اتفق معك . .»

وفى الليل أخذوا يغسلون الصحون فى المطبخ المشترك ، محاولين أن لا يثيروا ضجيجا ، همس غيورغى مكسيموفيتش «قريبتك ، أوياه ! قوية الطبع . . . شىء جيد أن تكونى لاول مرة عندنا . . . — وصمت قليلا ، وأضاف بأريحية : — وجهها لطيف . لطيف لو أرسمها» . كانوا أناسا مختلفين تماما ، من بطنين مختلفين من الأرض .

المرة الوحيدة التى ذكر غيورغى مكسيموفيتش للجميع أنه المؤجر المسؤول ، وأظهر تصلبه حصلت فى أيار : حين تقرر مصير ايرينكا . وكان ذلك الربيع الأول فى حياتهما . ولم يكن قد استقر أى شىء ، كل شىء كان مخلخلا مهزوزا . وكانت ما تزال تعمل معلمة ، ولكنها كانت تبحث عن عمل لتنتقل . كان العمل فى المدرسة مرهقا ، والمدرسة بعيدة عن المسكن . وقد وعدتها زميلاتها فى الجامعة بايجاد عمل أفضل ، ولكنهن لم يجدنه حتى الآن ، فظلت تكدح كدحها ذاك : الذهاب فى الساعة السادسة والنصف كل صباح

الى طرف المدينة الآخر . وافسد سيريوجا علاقاته مع مدير المتحف ، فكان ينوى أيضا تبديل عمله . وكانا فى ضائقة فى النقود . وفى ذلك الحين تبين أن أولغا فاسيليفنا حامل . لم يخبر الزوجان والدتيهما بذلك . وقررا أن يقوما بشىء على عجل ، لأن الحال لا تحتمل أبدا . ولم يكن لهما معارف من الأطباء فى هذا الاختصاص ، لا معارف من الأطباء على الاطلاق ، ما عدا فلاد . وهذا أيضا لم يرياه منذ ستة أشهر . فقد تخرج ، وصار يعمل طبيبا فى عيادة مختبرات طبية .

ولم يرد سيريوجا أن يلجأ اليه . كما أن أولغا كانت مترددة أيضا ، ولكن لما كان فلاد بالنسبة لها **لا شىء** دائما ، وموثوقا جدا . وقديما ، عانى «**اللاشىء**» هذا منذ الطفولة ، فقد قررت عدم الالتفات لسيريوجا ، الذى كان لا يستحسن — وهى أيضا كان عندها **لاشىء** على الاطلاق ، بل وبدا لها ، لسبب ما ، وكأن فلاد سيُسر ، فتلفنت لصديقهما القديم ذاك . ودهشت أولغا لأن فلاد لم يسر ، بل وذهل وانبهر ، ولكنه بعد ذلك أخذ يعمل بحماس وسرعة . ذهبا اليه ، فعالجها بحقنة . وقف سيريوجا قرب الأريكة ، وأمسك يدها ، وابعد بصره فى ناحية .

وقد أقر فيما بعد بأنه فى تلك اللحظة أحس نحو فلاد بكراهية . فقد كان يجب أن يرفض ! ولكن فلاد بنزاهته العمياء . . . ولم تنفع الحقنة . أوصى فلاد بمراجعة طبيب من معارفه ، عجوز ، وكان هذا الأمر حينذاك محظورا . . . وكان يجب القيام به فى البيت سرا ، وراء أبواب مغلقة ، ونوافذ مسدلة الستائر .

واقتضى اخبار الأم ، فأخبرت هذه غيورغى مكسيموفيتش كان من المستحيل اخفاء الأمر ، وحتى الأم فزعت ، ولم تعرف ما العمل . فهى لم تفعل ذلك قط . فقد كانت تتصوره عملية اجرامية مخجلة مزعجة ، وحتى قاتلة . نظرت الى أولغا فاسيليفنا بعينين مملوّتين ذعرا ودموعا ، وهمست : . . «ماذا علينا ان نفعل يا ابنتى ؟» لقد كانت فى كثير من الاشياء ساذجة الى أيامها الأخيرة ، حين تحولت الى عجوز . وفيما بعد فعلت أولغا فاسيليفنا ذلك الشىء عدة مرات فى البيت وفى المستشفى ، وأدركت أنه ليس أفظع ألم فى الدنيا . على الأقل لأن ألم هذا الشىء له نهاية .

ولكن حينذاك ، فى أيار ، كانت كل الأشياء ما تزال غير معروفة . قال غيورغى مكسيموفيتش فجأة مذهلا الجميع : «انا باعتبارى المؤجر المسؤول أمنع هذا !» . وهكذا بقى فى طى الخفاء ما اذا كان يخاف بالفعل مخالفة القانون ، أم وقع تحت تأثير الفزع الذى استولى على الأم ؟

جاءت ايرينكا الى الدنيا بفضل جملة غيورغى مكسيموفيتش : «أنا باعتبارى المؤجر المسؤول . . .» آنذاك كانت أولغا فاسيليفنا تعذب نفسها بذكريات لا تحتمل . ابنتها لم تعرف ان مجيئها الى الدنيا لم يكن مرغوبا فيه . واستطاع الجميع أن ينسوا : سيريوجا ، والأم ، وغيورغى مكسيموفيتش ، وحتى فلاد على الأرجح . ولكن أولغا كانت تعرف ذلك وتتذكره . وحين هرعت فى يوم موحل من الخريف فى بولفار غوغول باتجاه أربات قاصدة أحد المخازن ، أحست فى اسفل بطنها بتقلص مفاجئ شديد جدا جعلها تترنح ، وتكاد تسقط ، لحق رجل أن يمسكها من يدها ، وقادها الى البولفار

لتجلس على احدى مساطبه ، وفكرت فى تلك اللحظة : «هذا جزائى على . . .» لقد ولدت ايرينا فى الشهر السابع . ما ان وصلت من دار الولادة ، حتى فتحت الاقماط . جاء سيريوجا لينظر ، فصاحت حاجبة اياها بجسدها : «لا تنظر ، لا تنظر ! فيما بعد ! ابتعد !» لم ترد أن يرى هذه الهزيلة البائسة . وبعد ثلاثة أيام أرته الجسد الصغير الذى صار يشبه الطفل . أما الآن فان ايرينكا أطول فتاة فى الصف ، على ما يبدو . وسيريوجا لم يعد فى الوجود .

بهذه السرعة مر كل ذلك .

ولكنها كانت حياة طويلة لا تقدر الذاكرة أن تستوعبها . فما الذى جعلها بهذه السرعة ؟ اختلط كل شىء وتشربك فمر خاطفا قصيرا . ما كان طويلا يبدو الآن مثل لمحة ، واللمحة الحالية تمتد بلا نهاية ، بلا معنى . ذات مرة فى كانون الأول ، بعد ذلك اليوم الذى هشّم الحياة ، قالت لابنتها — فى لحظة يأس ، اذ لم يكن بالقرب منها من تحصل منه ولو على قطرة من السلوان ، ولكن كان ضعفا أن تنتظر هذه القطرة من ابنتها — قالت ، بالاحرى لنفسها ، ولِمَ لم يكن قادرا على سماعها : «كم كانت حياتنا مع أبيك جميلة !» . ولم تكن فى هذه النفثة كل الحقيقة ، بالطبع . كان فى هذه النفثة كذب . مجرد حياة ، ولا أهمية فى أن تكون جميلة أو غير جميلة ، سيئة ، حقيرة ، بل حياة ، وفى هذا كل المعنى . حياة ، ولا حياة . ولا يوجد وسط . كل شىء فى العالم ينتمى الى هذه أو الى تلك ، ولعل فى هذا وحده يكمن ليس فقط عذاب أولغا فاسيليفنا الأبدى ، بل وأملها أيضا . آنذاك لم تكن تدرك ذلك ،

والآن تحدسه مجرد حدس ، وبشكل غامض أيضا .

أحست الابنة بكذب العبارة المقالة «لمن لم يكن قادرا على سماعها» . فنظرت من طرف عينها وقالت «الجميل قليلا» .

أحست أولغا فاسيليفنا بطعنة من ذلك . ولم تجد ما ترد به . قالت فاينا المرأة الشديدة الذكاء ، صاحبتها القديمة منذ الطفولة ، منذ أعوام ما قبل الحرب : «ابنتك ، بالطبع ، أنانية قليلة النظير . انت جاهدت مع سيريوجا ، والجدة ، على الاخص . ولكن ليس هذا لب الموضوع . انها الآن تخاف عليك ، فلهذا تنبهك : «الجميل قليلا . . .» وكانت فاينا ترى أن تسرع لايجاد زوج : «لا تكونى بلهاء . سيرغى لن يعود ، بينما تقتلين انت نفسك . أقصد العمر يدركك . اذ ليس امامك غير سنة أو سنتين ، ويفوتك القطار» . وقبل أن يمضى شهران حتى دعيت أولغا فاسيليفنا الى صحبة ، ولكنها رفضت ، فاية صحبة اذا كان الغرباء يزيدون وحشتها . بعد ذلك دعيت الى نوفغورد لأعياد الميلاد ، فرفضت أيضا ، وسافرت مع ايرينكا الى منتجع «بريوزكى» ، ولكن الوحشة لاحقتها حتى الى هناك ، فتركته وابقت ايرينكا مع الشبان ، ولكن فاينا لم تحل عنها — فاينا فتاة عنود ، فتاة ؟ فى الثالثة والأربعين من العمر ، هجرها زوجها ، وابنها فى الجيش ، وأمها فى دار العجزة — دعتها فى عيد رأس السنة القديم الى معماريين من تعرفهم ، لطاف ، مثقفين ، قائلة : لا تخافى ، يا بلهاء ، انهم لن يعتدوا عليك . مجرد أن تستريحى ، وتسمعى موسيقى . لم يكن لها ميل لا الى اللطاف ، ولا الى الافظاظ ، لا الى المثقفين ولا الى غيرهم .

لا لشيء ، لا بتأثير أية مبادئ ، بل مجرد أنهـــا لا تجد رغبة فى نفسها .

بعد كلمات ايرينكا القاسية قالت فاينا أيضا بعد تردد قصير ، حقيقة ليست عذبة كثيرا . والظاهر انها ظنت انها تقدم دواء ساخنا ، ولكنه لازم : «وانت ، اذا أردنا الجد ، أتعتبرين حياتكم جميلة ؟» ردت أولغا فاسيليفنا : نعم . ماذا كان ستجيب ؟ لا أعرف ؟ انتم أعلم ؟ للسنوات الكثيرة التى قضتها جنبا الى جنب مع أحسن صديقة ، أحسن ناصحة ، أحسن محمودة المناقب ، أحسن متجسسة على جميع الافراح والاتراح القصيرة علمتها القاعدة الأساسية فى العلائق مع هذه المخلوقة : اجعلى نفسك فى مكان فاينا ، وحاولى أن تنتظرى من ذلك المكان . طبيعى أن فاينا كانت بائسة جدا . وكانت أولغا فاسيليفنا تشعر دائما ، وهى الى جانبها ، بأنها غنية بلاحياء ومثيرة للسخط . كان هناك أنسكاب دائمى من الطيبة الفياضة ، والنعيم ، والرضى النسوى وهذا ما كان يبدو لأولغا فاسيليفنا احيانا حتى أنها كانت تسحب نفسها — انسكاب من آنية الى أخرى . وعلى العموم ، وبتعبير أدق كانت تصور أن هذا ما يلوح من جانبها ، وفى الدرجة الاولى ، ما يلوح لفاينا البائسة .

وفجأة تكشّف أن فاينا كانت تصوّر نفسها بشكل مغاير . وهى الآن ، عن طريق هذه التصورات المفاجئة والمخفية بعناد شديد كانت تتجرأ عليها ، على أولغا فاسيليفنا ، تشجعها . ولكن كفى ! فهل من المعقول ليس من الممكن وصف حياتهما بالجميلة ؟ ان حياتهما هذه كانت شيئا حيا سليما ، كيانا نابضا اختفى الآن من العالم . كان فيه قلب ، كما

فى جسد حى ، وكانت رئتان ، واعضاء تناسلية ، وحواس ، وقد تطور وازدهر ، ومرض وتضعضع ، ولكنه لم يمت من الشيخوخة ، ولا من المرض ، بل من زوال المادة التى كانت تمده بدفق الدم . لقد كانت **حياتهما** أيضا تكوينا غريبا ! لم يقدر أحد أن يفهم أى شيء : كان الجميع يحدسون لا غير ، يلتقطون أشكالا فى الهواء ، ويتخيلون ، ويفترضون بلا وضوح أن حياتهما تبدو بهذا الشكل ، تتكون من كذا وكذا . أما هما . . . أما هما أنفسهما فما كان فى وسعهما أن يبلورا شيئا بكلمات . فمرة كانت اولغا فاسيليفنا تفكر باخلاص تام أن **حياتهما** جميلة ، ومرة أخرى كانت ترهقها ، وأحيانا كانت تمر ساعات ، وأيام ، تبدو لها هذه الحياة مريعة .

والان لم يكن يصدق أن مثل هذه الأفكار كانت تخطر فى بالها ، وأنها أحيانا كانت تكره حياتهما .

ولكن كان ، كان ! على الاقل فى ذلك الشتاء فى سوشيفكا حين عذبها بزيكا الصهباء ، زوجة فاسين . وانتهى ذلك باهانة ، ولفّه النسيان تقريبا ، فان الذاكرة تكبت هذه العذابات ، وهذا العيب من نفسها ، ولكن ذلك كان منذ زمن قديم — منذ ١٤ سنة خلت — وهو أيضا يعود الى **حياتهما** . كان يبدو لها أنه لم يكن غير مهتم بزيكا . كان طبيعيا أن هذه كانت تتغنج معه ، ولعلها كانت تسعى جادة الى أن تجذبه . فقد كان موضع اعجاب النساء . وكانت أولغا تعرف ذلك وتتعذب . ولكنها كانت تعرف أيضا أنه كسول فاتر الهمة وأنه لم يكن يكترث للنساء الغنجـــات الحمقاوات ، ويفضل الحديث الى الرجال مع الفودكا ومزة

الخيار على صحبة النساء . وذات مرة ، حين حاولت أن تعرف منه ما اذا كان لا يتورع فى أن يخونها ، قال زافرا : «أنت تذكرين ما قاله همنغوى : «يا ليت لا حاجة الى الحديث معهن . . .»

كانت زيكا شابة ناصحة الجسم ذات ذراعين وساقين طويلين ، وردفين ضخمين . وكان النحاتون فى الطابق الأول يطلبون اليها أن تقف لنحت أجزاء من الجسم ، فقد كان لديهم الوفرة من نحوت راميات القرص أو الكولخوزيات حاملات السلال على الاكتاف . كانت قوة جسد زيكا تفزع أولغا فاسيليفنا . فقد كانت تتصور أن هذا الطراز جذاب عنده ، يذكره ببرونغيلدا المنسية . كان وجه زيكا لا بأس به ، مدور ، وغض ، ترتسم عليه بسمة خفيفة دائما ، والشعر كتانى ملتف . وجه يميل الى البساطة . كانت تشتغل فى دار تنشر كتب الاطفال كمصممة كتب ، وترسم بالألوان المائية دون أية موهبة . بينما كان فاسين هزيلا ، دميما ، شائخا — عند ذاك كان يبدو شائخا لأولغا تعدى الأربعين قليلا . اكبر سنا من زيكا مرتين . وقد بدأ كل شىء بالصداقة ، والدعوات المتبادلة ، وشرب الشاى ، واحتساء الخمرة على موسيقى المسجل : وكان ذلك موضة آنذاك . وكان فاسين قد اشترى مسجلا ضخما ثقيلا كصندوق من حديد ماركة «دنيبر» . سُجلت أصوات الجميع ، وطلب الى الكل ان يغنوا ، ويتحدثوا ، ويقرأوا الأشعار ، وكانوا يستمعون الى السخافة المسجلة فورا ، وبانشراح .

وكان فاسين يكسب الكثير من المال من رسمه للصور الرسمية الذى كان يرسمها مع شريكه أركاشا . كانا يخططان

الخيشة بالمربعات ، ويرسمان على الطريقة المصنعية بسرعة وخفة . وكانت زيكا تساعدهما أحيانا . وكان فاسين ، الى جانب ذلك ، يعمل لنفسه ، او كما كان يقول . «لمصممة قبعات» فيرسم تخطيطات ، لا بأس بها أبدا . وكان غيورغى مكسيموفيتش يعتبره موهوبا ومستهترا . وكان يقول : «بمثل هذه المواهب رصف شارع دروغوميلوفسكيا» . لقد كان فاسين سكيرا .

وكان يستشهد بشعر ساشا تشورنى بخصوص مصممة قبعات للجسد ، وطبيبة اسنان للروح . وكان يقول : «الآن سأعمل الأسبوع كله لمصممة القبعات» أو «اليوم قضيت نصف النهار مع طبيبة أسنان . يا حلاوة ، يا لطف !» وكان هذا يعنى أنه انطلق مع عدة الرسم فى قطار الضواحى ، حيث تجمد ، وتبلل ، ورسم وتمتع . وعلى العموم مات فاليرى فاسين مأسوفا عليه ، وهو لم يبلغ الستين ، سن الشيخوخة ، فان السكر قد أطاح به وزيكا هجرته . لقد كان رساما أصيلا ، عاش كما فى حُلم ، وعمل كما فى حُلم ، ولم يكن يستيقظ الا وهو وراء حاملة اللوحة ، حين كان يصنع شيئا حقيقيا حبيبا اليه . كان لا يهتم بالضيوف ، ويستطيع أن يعيش لوحده ، ويشرب لوحده ، ولكن زيكا كانت تقاسى من الضجر ، فتجره الى حيث غمرة الناس . وكان يحب زيكا حبا شديدا ، ويفعل كل ما كانت تريده .

أما هى فكانت ماكرة ، تساير أولغا فاسيليفنا ، وتتودد اليها ، وتجعل من نفسها صديقة لها . . «اتريدين أن أطلع مع البنت للنزهة ؟ اتحتاجين الى حليب ؟ أنا ذاهبة الى الحانوت . . .» وكل شىء ببساطة ، بروح رفاقية . وذات مرة

قدمت نقودا كدين . فى البداية قبلت أولغا فاسيليفنا ، ولكنها فطنت فيما بعد أن المسألة مريبة . فأخذت تتمنع عن دعوات زيكا ، ولا تدع سيريوجا يذهب اليها .

شعر سيريوجا بان غروره يمس . فلماذا يضايق ؟ ولم تستطع أولغا أن توضح ، ولكنه لم يحدس . ان هذه غيرة تافهة جدا وواضحة ، وعلى شيء تافه ، حتى وجدت من العيب أن تقول شيئا . ولكن أولغا لم تستطع ان تغالب نفسهـــا . «ما المسألة ؟ لماذا لا تريدين أن أذهب الى فاليرى ؟» «لا أريد ، وهذا كل شيء» . «هذا تسلط !» . واهتاج ، وذهب الى فاسين . كان طوال حياته يخشى من أنهم يريدون ان يجعلوه عبدا لزوجته . وكان فى ذلك الوقت قد ترك العمل فى المتحف ، ولم يجد أى عمل بعد ، وكان عصبيا نافد الصبر . وكانت هى تدرس فى المدرسة نهارا ، ويظل هو فى البيت ، يساعد أم أولغا فاسيليفنا فى رعاية ايرينكا ، ويذهب الى سوق مينايفسكي ، ويشترى طعاما ، ويجلب جرادل من الماء ، وكان الماء يؤخذ من المطبخ ، وفى الممر الكبير ، وكانوا يحتاجون الى جلب الماء ثلاث مرات فى اليوم .

وكانت عزيمته تنهار فى الأماسى بسبب متاعب البيت ، والعطالة ، ونضوب النقود ، وبشكل اساسى بسبب جهله بمصيره وما سيفعله فى الغد — فقد ترك العمل فى المتحف على استعجال ، دون ان يهيئ له عملا آخر ، كان يتعذب غير عارف الى أين يتوجه . بينما كانت زيكا الفارعة تترصده علاوة على ذلك . ولكن غير مفهوم أية حاجة لها به ؟

والآن لم يعد له وجود ، ولا حاجة لأحد به .

ذات مرة جاءت أولغا فاسيليفنا الى فاسين فى مرسمه ، فوجدت سيريوجا جالساً الى طاولة ، وقد شدَّ حوله فوطة قذرة ، كما تشد الفوط في المطعم ، وزيكا تحلق شعره . تساءلت أولغا فاسيليفنا : «ما يعنى هذا ؟» فأجيبت بضحكة . كما قهقه فاسين واحد من أصحابه قهقهة لم يستطيعا معها أن ينبسا بكلمة . وتبين أنه خسر شعره فى لعبة «بوكر» . هدأتها زيكا بصوت طبيعي جداً ومرح : «لا تقلقي ، يا عزيزتي أولغا ، سأقص القليل جداً من شعره ، أقل ما يمكن . رمزياً تماماً . بل وسيكون ذلك أحسن له» .

وأذهلها أن يجلس سيرغي وديعاً كالحمل .

ليس معروفاً ماذا حصل بينهما . ولربما حصل شيء . وربما لم يحصل . كفت أولغا فاسيليفنا عن مبادلة التحية مع زيكا . لقد صارت هذه عدواً . وكل هذا التغير — من الصداقة اللطيفة الى العداوة اللدود — حصل بسرعة غير اعتيادية ، خلال شهرين او ثلاثة . وأختفت عن ذاكرة اولغا فاسيليفنا كلياً كيف تطوَّر هذا الشجار ، وأية أحاديث تبادلتها مع زيكا الى حد ذلك المساء في الممر الخالي . وفي الربيع صارت أولغا فاسيليفنا تخاف منها . كانت زيكا تصوب النظر من تحت حاجبيها ، وحين تلتقيها مصادفة في المطبخ أو الممر ، لم تكن تفسح الطريق لها قط ، وتسير دائماً قُدُماً بل وتعمد إلى ايذائها . يبدو أن أولغا فاسيليفنا قالت شيئاً ممضاً جداً عنها ، وتناقلته النساء ، وبدأت العداوة . تبخرت كل التفاصيل ، ولم يبق إلا حربها مع سيرغي بسبب هذه التعيسة زيكا التي أختفت ، بسبب شيء تافه ، أمل كاذب ، ولكن أولغا فاسيليفنا كانت في حينها ترى أن الحياة متعلقة بنتيجة هذه

الحرب . هل هو يحبها بحيث يكون مستعداً للامتناع — اذا هي توسلت — عن المتعة الضئيلة في الاسترخاء أمام الكأس في مرسم فاسين ؟ كم تعذبت ، وأيقنت بحقيقتها ! كانت تفكر : اذا امتنع فهو يحبها ، إذ لا يمكن أن يوجد ما هو أوضح من ذلك . إذا استمر على الذهاب الى هناك ، فمعنى ذلك أنه لا يحبها . ذلك اختبار لا يخطئ . ولكن هو لم ير وضوحاً في ذلك . كانت يريد براهين ، ويطلب امراً بالقاء القبض .

«للمرة الأولى بعد الألف : لماذا ؟ ربما وصل بك الجنون الى ان تغاري عليَّ من زيكا ؟» وكانت تقول وهي موشكة على البكاء : «مجرد أن أرجوك . أرجوك ، أرجوك ، ولا شيء آخر ! أتضرع اليك راكعة !» وذات مرة سقطت على ركبتيها حقاً ، فارتعب ووعد بأن يفعل كل ما تطلبه . حسناً ، لن أذهب الى هناك بعد الآن . وفي تلك اللحظات أحبته كثيراً ، لأنه انكشف فجأة كل ما كانت تتعطش لرؤيته . ولكن ساعة ونصف الساعة انقضت — كان ذلك عند الفجر ، إذ لم يناما الليل كله — وعاد الى ديدنه . «لا ، هذا جنون محض . مستحيل . . . أنت تطلبين ايماناً أعمى ، مثل قساوسة الكنيسة . . . اؤمن ، ولو أن ذلك سخافة» . وبعد نشوة الفرح راحت الأفكار الحزينة تتوارد عليها : استدرت بالدموع والليالي المؤرقة تنازلاً منه في أمر تافه . أن يكف عن الذهاب الى فاسين ! وكيف بعد ؟ في كل مرة تنتحب ، وتركع ؟ يمكن ان تبرز رجاوات أكثر جدية . ويقف هو جامداً ، كالصخرة .

كما كان يعذبها الاحساس بأنها تتشاجر بقنوط ، إلى

حد الدموع ، بسبب بنت تافهة ، لا تستحق حتى أن تضيَّع عليها نظرة ازدراء . ستفرح تلك البنت لو أنها عرفت أي نوبات عاطفية تسبب هي ! لقد كان ذلك جنوناً ، بالطبع . وأولغا فاسيليفنا كانت بلهاء لا تفهم الشيء المهم ، وتتعذب بسبب توافه . . .

واستمر سيرغي في الذهاب الى فاسين . الآن صار يفعل ذلك عن عناد ، وحفاظاً على المبدأ .

والشيء الآخر الذي كانا ينشغلان به هو أنهما كانا يحاولان أن يعد احدهما الآخر للحياة المقبلة . وقد مرَّت أيام صعبة . وكانت أولغا فاسيليفنا تتلهف للهروب الى أمها ، والانفصال عنه ، وعند ذاك كانت تكره حياتهما التي كانت في بدايتها . وامحى من ذاكرتها كلياً ما سبق اللقاء في الممر ، والذي ختم كل هذا التاريخ . لعلها أفاضت وزادت في الحديث مع معارفهما المشتركين ، عن تلك الأقاويل التي كان تدور حول زيكا . بعضهن كففن عن التردد الى بيت فاسين . وعرف جميع أهل البيت أن بين زيكا وأولغا فاسيليفنا عداوة . كما أن فاسين لم يعد يسلِّم على اولغا فاسيليفنا ، ولا على أمها ، ولا على غيورغي مكسيموفيتش علاوة على ذلك . فأسقط غيورغي مكسيموفيتش لوحتين لفاسين في لجنة المشتريات الذي كان عضواً فيها . شرب فاسين الى حد السكر ، واقترب من الباب ، وراح يزعق بمختلف القباحات . ورأت أولغا فاسيليفنا زيكا في الشارع بوجه دامع . وكان يبدو من غير المحتمل بعد هذا أن يذهب سيرغي الى فاسين .

سارت أولغا فاسيليفنا في الممر الكبير ، وطلعت زيكا من ركن الى الأمام . لم يكن في الممر غيرهما . سارت

زيكا نحو أولغا فاسيليفنا قدماً دون أن تلتفت ، وحدقت أحداهما في الأخرى ، عينا بعين . وتسنى لأولغا أن تفكر : «لها عينا مجنون . . .» اقتربت زيكا لصق أولغا ، وحركت شفتيها البيضاوين «فهمت كل شيء ، يا خسيسة ، ستقتلين زوجك . ولكن هذا لا يهمني البتة . أما إذا لم تتركيني وفاسين بسلام ، فسأقضي عليك» . وهزّت ذراعها الجبارة .

ركضت اولغا فاسيليفنا في الممر الخالي . قد التهمها الذعر كلية كالحريق . لا معنى لاسترجاع الذكرى .

أما مع فاينا فقد كانت تحب شراء الكعك المدور الحار من كشك في ملتقى شارع تشيخوف وسادوفيا . فقد كان الكعك المدور الحار يباع هناك قبل الحرب ، الكعكة بستة كوبيكات . وبقيت في الدم وفي الاسنان متعة الطفولة التي لا تزول : نعيم الشارع ، والشباك المربع الصغير الذي توضع فيه قطع النقود ، وطلوع اليد الطيبة من أعماقه الشذية تحمل الكعكة الطرية ، الطازجة الطالعة من الفرن لتوها ، الخفيفة ، المحمصة . ثم التمشي بعد ذلك ، ومضغ الكعكة ، والتلذذ بالحياة : الأنحدار في شارع سادوفيا الى ساموتيكا ، ومن هناك إلى بولفار تسفتنوي ، حيث الحركة ، وكثرة الناس ، والسيرك ، والسوق الكولخوزية ، وسيارات التكسي ، والغجر ، ومحل البيع بالعمولة ، ودار السينما ، وكل ما تشتهي النفس . ومطعم «نارفا» على مقربة . وكانتا تذهبان إلى بولفار تسفتنوي ، عند الحاجة إلى التسرية عن النفس ، والتحدث بحرية . وكانت فانيا في تلك الأعوام تسكن في شارع كراسنيا غفارديسكيا ، في شقة مشتركة مزدحمة تحتل فيها غرفة صغيرة هي وأمها وزوجها ، وقريبة خفيفة العقل ، مسترخية

مكتومة اللسان . تذهبان الى السينما في ساعة الحزن ، وإلا فالى السوق الكولخوزية ، للتفرج والتدافع ، وشراء الأعناب البرية ، والكمثرى الشديدة الحلاوة ، أو البطيخ ، او تكتفيان بالبذور المحمصة التى تباع بأكواب ، وتتمشيان في البولفار ، تتشكى واحدة للأخرى ، وتكون الحياة أخف وطأة .

قالت فاينا : الى المدعى العام الآن ، وفي نفس الوقت ذهبا الى محل عملها ، حيث تتكسّب بألوانها المائية . وكان لفانيا صديق يعمل في جريدة . تلفتا اليه من تلفون عمومي في البولفار ليكتب مقالة او بالأحرى ، مقطوعة انتقادية . وكانت رغبة حامية في الانتقام تغلي في نفس أولغا فاسيليفنا . كانت تريد أن تقصي زيكا ما لا يقل عن سنة عقاباً على وقاحتها .

ولكنها حين كانت تقترب من بيتها في ساعة متأخرة من الليل لم تكن تشعر إلا بصداع وانحلال يرهق كل جسمها ، وكأنما خارجة لتوها من مرض . وعزمت أن لا تخبر أحداً . أشفقت على سيريوجا اشفاقاً لا يحتمل : فماذا سيعاني حين تخبره . وهكذا تلاشى ذلك في الممر الخالي . ولم تعرف الأم .

لا تتذكري ، لا تتذكري ! ولكن أولغا فاسيليفنا لم تكن تقوى على رؤية آل فاسين ، والالتقاء بتلك المرأة في الممر ، أو في المطبخ المشترك . وعلى كل حال ، صارت الأخرى تتحاشى أولغا فاسيليفنا — لا تحدق في عينيها ، وتنحى عنها . وبعد مدة قصيرة انتقلوا إلى شابلوفكا . الحماة بقيت تعيش وحدها بعد موت إبنتها . وطلب سيريوجا من أولغا فاسيليفنا الانتقال الى هناك ، فوافقت بارتياح : لتتخلص

من الممر الطويل السخيف ، الذي كانت تفوح منه روائح الألوان المائية ، والتوربنتاين ، ومن التجمعات الصاخبة في الاماسي ، والنقاشات عن التلوين المميز ، والفرنسيين ، والسوبرماتزم ، ومن التدافع المضطرب في جميع الطوابق في أيام عمل لجان المشتريات ، ومن الحمام المشترك بأرضه الاسمنتية ، وبالاعلان الملصق على جداره : «غسل الفرش فوق الحمام محظور بتاتاً» ، ومن المطبخ بموقده ذي العيون الأربع ، ومناضده الأربع ، ومن الأم ، وغيورغـــــي ماكسيموفيتش ، الذي كان ما يزال يحلم بأن يذهل إن لم يكن العالم ، فعلى الأقل جيرانه في الطابق ، ومن فاسين وزوجته زيكا . ولكن الى جانب ذلك ستكون معها حماتها . وفانيا يقول : يا ليتكم تعيشون بدون حماة . . .

هذا غير صحيح ، لأن السكن مع أمه لم يكن بالنسبة له اختباراً ، كما كان بالنسبة لأولغا . ولو كان السبب في العجوز لكان الأحرى أن يتوقف قلب أولغا أكثر من أن يتوقف قلبه . ولكن وجودها بالطبع ، وارشاداتها المستمرة كانتا زيادة على الأمر الرئيسي . إن أشياء غريبة تحدث للرجال بعد الأربعين . فهم يفهمون عن أنفسهم ما لم يكن متيسراً لهم قبل ذلك . فيهدأون الى الأبد ، وبعضهم تستولي عليه بلبلة نفسية . وها هو قد وقع في سحر هذه البلبلة . وقد ظهر ذلك فجأة ، بعد أن نقله براسكوخين الى المعهد . كان العمل في المتحف هادئاً ضئيل المورد ، وبلا أمل . ولكنه ، مقابل ذلك ، كان ثمة اطمئنان بالغ ، بينما بدأت في المعهد الوعود والآمال ، والمشاريع ، والأهواء ، والتكتلات ، والمخاطر لدى كل خطوة . براسكوخين ضد ديمتشنكو ،

وديمتشنكو ضد كيسلوفسكي ، ثم غينا كليموك ، وبعد ذلك نشأت كل تلك القصة عن تغيير موضوع الأطروحة . كان يتقلّب ، في البداية هذا الموضوع ، ثم آخر ، ثم ثالث . مرة تاريخ شوارع موسكو ، ومرة دائرة المباحث القيصرية ، وبعد ذلك علم غريب عليه تماماً . لقد أهلكه تقلّبه . في البداية كان ينغمر ، ثم يفتر لا محالة ، ويندفع الى موضوع جديد . خائب مندفع دائماً الى شيء ما . وماذا كانت النتيجة ، يا رب ؟ اما هي فلم تَلُمْه قط ، ولم تطلب ما ليس من الممكن تحقيقه . فإذا لم تكن لهم الامكانية المادية للاستراحة في يالتا ، فلا بأس أن يعيشوا في فاسيلكوفو ، عند العمة باشا . واذا لم يكن لهم من النقود ما يشترون به تلفزيوناً ، فليكتفوا بالاستماع الى الراديو . لم تقل له في حياتها : فلان الآن هناك ، أما أنت فما تزال هنا . لم تجبره على أن يجهد نفسه ، وينهك قواه ، ولم تكن تؤذيها نجاحات الآخرين .

على العكس من ذلك ، كانت تقول له : لسنا بحاجة الى أطروحتك ! بل تهمنا صحتك . أبق باحثاً علمياً مبتدئاً ، فقط أن لا تعذب نفسك ، بحق الرب ، ولا تلهف ، ولا تنطح الحائط برأسك ، فان رأسك لا يصلح للنطاح .

وبالأحرى اخذت الحماة تعاني من أن ابنها لا يرتقي كالآخرين . وكانت تشعر بعدم ارتياح شديد من بعض رفاقه في المدرسة الذين نالوا شيئاً ما وحين كانوا يأتون لزيارته كانت باردة معهم . فقد كان يبدو لها أن إبنها ممتاز ، وأهل لنصيب أحسن . بينما كانت غريبة على أولغا فاسيليفنا عذابات الاستعلاء اذ كان يعذبها شيء آخر . طبعاً ، هناك سبع سنوات من

الإنطمار في المتحف ، دون أي ارتقاء ، ولا أي تراكم . والذنب في ذلك عليه . فقد كانت الأمنيات الفارغة تلسعه دائماً . ولكن الآخرين أيضاً مذنبون ، كلُّهم ، كل مَنْ كان حوله ! مذنبون بخبث وقساوة . فهم لم يستطيعوا أن يوقفوا تلك العجلات التي كانت تدور على الفارغ . . .

سبع سنوات ! سنوات كان اللّدات في السن يقومون بجهود محمومة ، ويقفزون ، ويتقدمون أكثر فأكثر . أما هو ، فكان يعيش وكأن أمامه تسعين عاماً من الحياة . كانت هناك خطط ، وبحوث في الأرشيف ، ومفاوضات مع دار النشر في موضوع «موسكو عام ١٩١٨» ، وكان هناك شخص يدعى ايليا فلاديميروفيتش كان يعد بشيء ، ويقترح ، ولكن كل شيء لم ينته بحصيلة . فبعد العديد من اللقاءات ، والنداءات التلفونية والموائد وشرب الشاي اكتشف ايليا فلاديميروفيتش اللاجدوى التامة في ذلك . وأنفعلت ألكسندرا بروكوفيفنا : «لماذا يلتصق بك كل مَنْ هب ودبَّ ؟» وكان هو يبرئ ساحته على عادته ، ويدافع عن المحتالين الذين غدروا به : «ولكن ايليا فلاديميروفيتش ليس صاحب دار النشر ، إنه زبون مثلي !» وخلال السنوات العديدة من العمل كبرت ايرينكا ، ودخلت المدرسة ، وحدث تغيُّر في الشقة ، اصلاح اساسي لها مع فرش الأرضية بالخشب . وصارت أولغا فاسيليفنا باحثة علمية متقدمة ، وبعدها رئيسة مختبر مجلس الابحاث العلمية لعموم الاتحاد السوفييتي وانتهت بالفشل كل مساعيه الطويلة مع «موسكو عام ١٩١٨» ، ولم يصدر الكتاب . . صحيح أنه استخدم بعض مواد الكتاب للصيغة الأولى لأطروحته . ولكن هذه الصيغة قد سقطت . وظهر موضوع جديد : شباط ،

ودائرة المباحث القيصرية ، ما الى ذلك . وفي تلك اللحظة نشأ طريق مسدود ، جدار غير ملموس ، تبعت ذلك متاعب أخرى شجار مع كليموك ، واهتمام بهذا البيت في شارع الكورينش ، وكل ما كان متصلاً به ، خيانة كليموك . . .

كانت تعرف كل تعابير وجهه ، وتعرف مشيته ، وكيف كان صوته يتغيَّر ، حين ينزل به إخفاق لاحق أو خامرته أمنية جديدة مذهلة .

حين تعارفوا ، كان مختلفاً ، بالطبع .

والإخفاقات من سنة الى أخرى كانت تسحقه ، وتستنزف قواه ، فاحدودب ، ووهن ، ولكن محوراً في داخله ظل سليماً لم يُمس — مثل سلك فولاذي رقيق — كان يدور ولا ينكسر . وكان ذلك بلية . لم يكن يريد أن يتغيَّر في لُبِّه ، وكان ذلك يعني أنه ، رغم انه كان يتعذب ويعاني الكثير من الخيبات ويفقد الايمان في نفسه ، وينغمر في جنونيات سخيفة ، كانت تدعو الى الظن بأن عقله قد اختل ، ويستسلم الى اليأس ، ويعذب قلبه المسكين بكل ذلك ، فانه لم يرد أن يحطم ما كان في داخله ، ذلك الشيء الفولاذي الذي لا يلوح لأحد . إلا أنها ، مع ذلك ، كانت تحبه ، وتسامحه ، ولا تطالبه بشيء .

بعد أسبوعين من الدفن ظهر بيزيازيتشني . لم تكن أولغا فاسيليفنا قد تعرفت عليه ، ولكنها سمعت باسم عائلته من سيريوجا ، ونسيت في أية مناسبة . يبدو أنه اشترك في التحقيق في «قضية» سيريوجا . ولكن أولغا فاسيليفنا لم تكن تفهم قط ماذا كان موقفه . انقسم الناس فيها ، حسب قول سيريوجا ، الى ثلاثة أصناف : كان هناك بعض الأوغاد ، وكان هناك

معتدلون ، وكان هناك أناس تصرفوا تصرفاً لا غبار عليه . وكانت أعصاب أولغا فاسيليفنا تهتز ، لأنها لا تعرف من أي فريق كان ، ومن أي منطلق تتحدث معه . جاء مع إمرأة كهلة تدعى سوروكينا .

— اعذريني ، فأنا قد عرَّجت عليك من الحانوت ، — قالت سوروكينا مبتسمة باعتذار وتفقُّد ، وأشارت إلى حقيبة الأطعمة لسبب ما .

وبحثت بعينيها لترى أين تضع حقيبتها ، ولما لم تجد أحسن من وضعها فوق صندوق الأحذية . تناولت أولغا فاسيليفنا الحقيبة صامتة ، ووضعتها تحت منضدة التلفون .

— اي حانوت رائع عندكم ! سجق «صحي» ومعجنات جبنة مصقولة ، نادراً ما توجد في حانوت شارعنا . رغم ان حانوتنا يعتبر أيضاً أطعمة الحمية . . .

وكانت المرأة وهي تتكلم بهذه الضحالة ، تنظر الى أولغا فاسيليفنا بشعور مشابه ، وتعطي لصوتها نبرة التعاطف النفَّاذ ، وكأن مدحها للحانوت الذي حالفهم الحظ في السكن قربه ، يمكن ولو لذرة واحدة ، أن يخفف من بلوى أولغا فاسيليفنا . ولحظت سوروكينا أن محدثتها لا تتجاوب مع حديثها عن الحانوت ، فخلعت معطفها الواقي من المطر وقبعتها ، وهي تتنهد وظلت لبعض الوقت لا تجد ما تتكلم عنه ، فبقيت ترسل التنهدات .

كانت أولغا فاسيليفنا تنتظر بلوعة قدوم الناس العاملين مع سيريوجا . ما كان في مقدور هؤلاء أن يجلبوا غير الألم . فان جميع الذين كانوا يعرفون سيريوجا ، ولو قليلاً ، وبشكل ما ، كانوا يجلبون الألم . ولكن كان واضحاً أن عليها أن

تتحمل ، وبقدر ما سيكون مجيئهم أقرب ، وخروجهم أسرع سيكون ذلك أحسن . لأن هؤلاء من اللجنة النقابية ، وكانوا ، كما فهمت أولغا فاسيليفنا ، يؤدون فريضة أُوكلت اليهم . لقد مرت مراسيم الدفن ، وحفظ الرفات ، حتى أن لجنة التشييع حُلَّت ، فلهذا فان هذين الشخصين إما من «اللجنة الاجتماعية» او لجنة أخرى من هذا القبيل . وقد جاء هذان الشخصان لوقت قصير ، وقد يحمضّ اللبن المخثَّر في الحقيبة ، إذا طال الحديث . ولكن أولغا فاسيليفنا لم تعرض على الزائرة وضعه في الثلاجة . فلم يكن في وسعها أن تحمل نفسها على بذل أي جهد . راوح بيزيازيتشني على البساط أمام الباب ، وتلفت ، وجأب بشيء غير مفهوم ، ولم تفهم أولغا ماذا يريد ، ثم أخذ يخلع حذاءه فجأة في تصميم ، وبقي في جوربه . أها ، إذن ، فهو لا يريد أن يوسخ أرضية الغرفة ، فالشارع مبلل . وكأن أولغا فاسيليفنا تهتم بأرضية الغرف الآن .

لماذا هؤلاء الناس لا يفهمون أى شيء ؟ اضطرت أولغا أن تقدم له نعال سيريوجا الصيفي ، الذي كان على مرأى ، قرب الباب . وكان ذلك شيئاً منغصاً لها كما أن قبول نعال سيريوجا وقاحة من جانبه .

كانت الحماة تعمل شيئاً في المطبخ ، حين دخلته أولغا لتضع سخان الشاي على النار . اذ كان يجب أن تضيفهما على شيء ما . رفضت ألكسندرا بروكوفيفنا أن تخرج اليهما ، قائلة :

— لا أحب أن أرى أحداً منهم يسممون حياته أولاً ، ثم يأتون للتعزية . لا أعرف عم يمكن أن أتحدث معهم .

يعنى كأن أولغا فاسيليفنا يمكن أن تتحدث معهم وكأنها كانت تشترك معهم في أمر واحد : تسمم حياة سيريوجا . أرادت ان تتغافل عن ذلك ، ولكنها لم تصطبر .

— هذان الشخصان لم يسمما حياة سيريوجا ، فلا حاجة الى الكلام الزائد . إنهما غير مذنبين في شيء ، وقد جاءا ليظهرا إهتماماً اعتيادياً رسمياً . وعلى العموم لم يسمم أحد على سيريوجا حياته .

— سمموا ، — قالت الكسندرا بروكوفيفنا ، وخرجت من المطبخ .

جلست أولغا فاسيليفنا على مقعد ، وبقيت جالسة بلا حراك حوالي دقيقتين ، فقد كان قلبها يخفق بقوة . حياة سيريوجا لم تُسمم . بل ألحقوا به الأذى عن غير قصد ، لمجرد أن بعض الناس استغلوه لتحقيق أغراضهم . وهذا شيء آخر . سمعت أولغا فاسيليفنا حماتها تدخل حجرتها ، وتناهت اليها صلصلة القفل وهي تغلق الباب . وكان ذلك احراجاً أمام الأغراب . ولكن ، لا بأس ! ما كان لذلك من أهمية . نهضت أولغا ، ودخلت الغرفة الكبيرة ، تحمل شيئاً في سلطانية . كان الشخصان من اللجنة النقابية يجلسان الى الطاولة في وضعين متحجرين يعربان به عن التفجع العميق . والمرأة ، خلال ذلك ، كانت تهز رأسها بشكل لا يكاد يُلحظ وهي تنظر في نقطة واحدة من أرضية الغرفة . ولعلها كانت تتصور أنها بوضعها الذي اتخذته ، وبهزة رأسها التي لا تكاد تلحظ لا بد ان تعبر عن التعاطف الحقيقي . ومرَّ في ذهن أولغا فاسيليفنا : «أي بلهاء هي !» . نهض بيزيازيتشني في الحال ، وأخذ يقول إنهما جاءا لقضاء برهة

قصيرة لا أكثر ، ولا حاجة الى أي تكليف ، ولا أي شاي . كان قصير الساقين ، ذا وجه مورَّد قويّ ، غض ، وشعره المحلوق حلاقة قصيرة قد تفشى فيه الشيب تماماً . والعمر لا يلوح عليه ، فلعله في نحو الخمسين من العمر . كان يرتدي بدلة سوداء سترتها عريضة جداً ومدعوكة ، لهما كتفان كبيرتان بشكل غير مناسب محشوتان بالقطن . وفكرت أولغا مع نفسها بلا اكتراث : «أرتدي خصيصاً ما يناسب زيارة أرملة . بدلة سوداء ، اخرجها من الصندوق» .

— هذه بعض الأشياء العائدة لسيرغي أفانسيفيتش . . . — وأخرج من المحفظة علبة حديدية من عُلَب السيكائر التشيكية ، رنَّ في داخلها شيء ، ومسطرة ، وسكيناً مطواة من تلك التي تستخدم في الرحلات ، في فتح المعلبات ، كما يبدو ، وقلع سداد الزجاجات في جلسات السكر المعربدة ، التي كانت تجري في القسم وبشكل غير نادر ، وثلاثة كتب مهترئة ، ومشطاً ذا مقبض طويل ، وتقويم كرة قدم لعام ١٩٦٩ ، وعدداً من مجلة «الأدب الأجنبي» ودفتراً صغيراً قديماً لأرقام التلفونات عكفت أطراف بعض صفحاته . وكان الرجل يخرج الأشياء واحداً بعد الآخر ، ويضعها على الطاولة باحتراس وكأنها من زجاج .

تفرست أولغا فاسيليفنا بكل هذه التوافه الصغيرة المتفرقة التي جلبت اليها ، لسبب لا تعرفه ، وراحت تفكر : «لا بد أن تتألم الزوجة من النظر الى أشياء تخص زوجها المتوفى . فلماذا جلبوها ، اذن ؟» وودت لو تمسك كل هذه الأشياء وتقذفها . جمعتها ونقلتها الى افريز النافذة ، حتى لا يقع عليها بصرها .

مدَّ بيزيازيتشني مظروفاً ، وهو يقول شيئاً ما . شكرته أولغا ، وأخذت تصب الشاي . في المظروف نقود من اللجنة النقابية . أخذ بيزيازيتشني وهو يرشف الشاي رشفات غير مسموعة يقول إن كل العاملين في القسم حزانى ، ويفتقدون سيريوجا جداً ، لأن كثيرين كانوا يحبونه . وتأذت أولغا فاسيليفنا من هذه العبارة ، وبدا وكأنها أفاقت على نفسها . لماذا قال : «**كثيرون كانوا يحبونه** ؟ حسب قواعد هذه اللعبة كان يجب أن يقول «الجميع كانوا يحبونه» ، أو «كان محبوبا عندنا» أو في أسوأ الاحوال «كان محبوباً» . ولكنه قال «**كثيرون كانوا يحبونه**» ، ومعنى ذلك كان هناك — وما يزال حتى الآن ، بعد موته — أناس قلائل لم يحبوه ، وما يزالون لا يحبونه . وهؤلاء موجودون بالطبع ، وأولغا فاسيليفنا لا تشك في وجود **القلائل** ، ولكن التلميح بهم للأرملة في الدقائق الأولى من الزيارة بدا على شيء من الغرابة .

أمعنت النظر في بيزيازيتشني ، محاولة مرة أخرى أن تتذكر ما كان سيريوجا يقول عنه . ولم تتذكر شيئاً . قالت أولغا فاسيليفنا :

— من كلامك يبدو أن سيرغي أفانسيفيتش الى اليوم الأخير من عمله في المعهد كان على وفاق وسلام مع الجميع ، وكأنه لم يقدم طلباً لاعفائه . عملياً كان يعتبر نفسه مفصولاً .

— ولكن هذا غير صحيح ! أنت متوهمة كثيراً ! — ووضع بيزيازيتشني يده على صدره . — أنا أعرف عن طلبه . ولكن ، أولاً ، بقيت المسألة معلَّقة الى كيف يمكن القول ؟ — إلى اليوم الفاجع . . . كان مدير المعهد في اجازته . بينما لم يرد غينادي فيتاليفيتش أن يبت في هذه المسألة كلياً .

— غينادي فيتاليفيتش لم يرد ؟ يمكنك أن لا تحدثني عن غينادي فيتاليفيتش . على العكس ، كان يريد أكثر من الجميع ، ولكن بأيدي آخرين .

— أؤكد لك أنك متوهمة !

— لا ، لست متوهمة .

إن هذا الرجل لم يقل عفوياً **كثيرون** كانوا يحبونه بل أفلت ذلك من لسانه . والآن واضح أنه كان عدو سيرغي ، او ربما ، ضالعاً مع أعدائه . أيعقل أن الحقارة وصلت بهم الى أن يرسلوا الى البيت عدواً لسيرغي في مهمة حساسة ؟

— كان سيرغي أفانسيفيتش يعمل في قسمنا بالذات ، — قالت المرأة بصوت راعش ، وخلعت نظارتها ، ودفنت حنكها اللحيم في صدرها ، وأخذت تمسح النظارة بالمنديل . واتخذ وجهها تعبيراً باكياً تماماً ، وصار صوتها لا يكاد يسمع . — في قسم الثورة ، والحرب الأهلية . . . عملنا سوية ست سنوات . . . كان انساناً رائعاً ، طيباً جداً ، صاحب نخوة . . . إنساناً مستقيماً . . .

وارتعش الحنك اللحيم . نظرت أولغا فاسيليفنا الى المرأة ببرود وتساءلت :

— تُرى ، كيف صوتما انتما الاثنين عند النظر في «قضية» سيريوجا المشبوهة ؟

جفلت المرأة ، واتسعت عيناها ، وتحركتا حركة دائرة خاطفة . وطبيعي أن أولغا فاسيليفنا تساءلت بخشونة ، وجعلت ضيفيها ، على الأرجح ، في وضع حرج ، ولكنهما جالسان في بيتها ، يحتسيان الشاي ، ويتحدثان عن سيريوجا . . .

— أنا لم أصوِّت كلياً ، بسبب تغيبي عن العاصمة .

كنت في بولونيا موفداً ، — قال بيزيازيتشني وأشار بذراعه اشارة ازدراء . — اتركي الموضوع ، هل تعرفين . . .

وكانت اشارته ولهجته تعنيان : وهل يستحق تذكر هذه السخافة ؟ قالت سوروكينا :

— أما أنا ، بالمناسبة ، فصوّت هكذا ، صرفاً للانظار — واحمرّت — كان ذلك الشيء الوحيد ، كان ذلك في تلك الظروف أكثر . . .

وفي تلك اللحظة دخلت ايرينكا الغرفة ، او بالأحرى ، أقتحمتها بلا كلفة ، على مألوف عادتها ، وطلبت روبلاً ونصفاً بسرعة ، قبل أن يغلق مخزن الألبسة . وبعد أن قالت ذلك بنَفَس واحد لاحظت الضيفين ، وقالت :

— مرحباً !

قدّمت أولغا فاسيليفنا إبنتها للضيفين ، فابتسمت الإبنة بترحاب وفتنة ، على عادتها في إجادة الابتسام حين تحتاج الى استدرار الفلوس .

بحثت أولغا فاسيليفنا في محفظتها ، جامعة قطع النقد الفضية والنحاسية .

— ياه ، ما هذا الذي أراه ؟ — صاحت ايرينكا فرحة ، وهي تندفع الى افريز النافذة . — كنت أبحث عنه ، ابحث ! من أين وقع هنا ؟

واختطفت المشط ذا المقبض الطويل .

— جلبوه من المكان الذي كان يشتغل فيه أبوك . هاك روبلاً ونصفاً .

— آ . . . — وترددت ايرينكا ، وأعادت المشط الى موضعه على افريز النافذة ، ثم سألت : — ماما ، هل يمكن

أن آخذه ؟ أنت التي اشتريته لي ، أتذكرين ؟

قالت أولغا فاسيليفنا :

— خذيه .

خرجت ايرينكا راكضة ، والظاهر أن أحداً كان في إنتظارها في الرواق ، وتردد همس ، وانصفق الباب . ظل الضيفان جالسين . لم يكن لديهما ما يتحدثان عنه . . وبدا وكأنهما سينهضان في اللحظة التالية ، ويخرجان ، ولـــكن بيزيازيتشني أدار الحديث عن أطروحة سيريوجا الناقصة . وزعم أن للمجلس العلمي رأياً — لا يوجد قرار بعد ، بل تتردد أصوات في أن يتم المعهد العمل ، وينشره على شكل بحث علمي في موضوع واحد . ويُفرَد له اخصائيون . فالعمل من ضمن الخطة ، ويهم القسم كله . وستقتضي الاستفادة من المواد غير المستخدمة ، وايجاد ما بقي في ملفات سيرغي افانسيفيتش ، وفي أدراج منضدته . والجميع يعوّلون على عون أولغا فاسيليفنا . وشعرت أولغا بالفوران في داخلها . قالت :

— سأشتغل في هذا ، حين تتوفر لي القوة والوقت . أما الآن فلن أبحث عن أي شيء .

قالت سوروكينا :

— بالطبع ! بالطبع ! هذا شيء طبيعي ، يا فسيفولود بوريسوفيتش . حين سيكون في امكان أولغا فاسيليفنا . . .

وقال بيزيازيتشني :

— هذا في مصلحة أولغا فاسيليفنا كلياً .

في الممر قال بيزيازيتشني لمرافقته بشكل غير متوقع ، وهو يعينها لتلبس معطفها :

— اعذريني ، يا بولينا رومانوفنا ، لا أستطيع أن أرافقك . يجب أن أقول لأولغا فاسيليفنا كلمتين . . .

عادا الى الغرفة . لم ترد أولغا فاسيليفنا أن يجري الحديث في الممر ، عند باب غرفة حماتها . فقد شعرت بأن في انتظارها شيئاً غير مريح . قال بيزيازيتشني إنه يجد حراجة في الكلام ، ولكن لا بد من ذلك ، لأن المسألة عامة . إنه رئيس ادارة صندوق العون المتبادل . وسيرغي أفانسيفيتش أخذ مائة وستين روبلاً ووعد باعادتها خلال ستة أشهر ، ولكن انقضى ما يقرب من عامين ، والنقود لم ترد الى الصندوق . والآن ظهر تعقيد . اذ أن الصندوق خال ، وهناك طلبات لقروض صغيرة ولا تمكن تلبيتها . هناك ادارة ، هناك قرار ، هناك أحكام للجميع بدون استثناء ، هناك رأي ، هناك اندهاش . . . هذا هو الوضع ، اذن .

استمعت أولغا فاسيليفنا اليه مذهولة . كانت الكلمات تتطاير من خلال الهواء الكثيف . قالت :

— لا أملك هذا المبلغ .

— في واقع الحال أن المسألة بهذه الصورة . . . أنت تفهمين أننا لا نملك الحق . . . إلا اذا في اجتماع عام لكل المساهمين ، ولكن انقبلين أنت . . . — وتمتم بيزيازيتشني ، ووجهه المتورد المشدود يرتعش ، وكأنما عطس عطسة غير مسموعة ومتعمدة ، وهي إشارة ، كما يبدو ، على درجة كبيرة من الارتباك . — صدقيني ، أنا أشعر بعدم الارتياح . . . ولكن انفذ . . .

قالت أولغا فاسيليفنا أن لسيرغي في صندوق التوفير مائة روبل . ولكنها لا تستطيع أن تحصل على هذه النقود عن

قريب ، إلا حين يكون قانون الورث ساري المفعول ، أما بخصوص المائة والستين روبلاً المأخوذة من قاصة العون المتبادل ، فهي تسمع عنها لأول مرة .

— متى أخذ هذه النقود ؟

أخرج بيزيازيتشني دفتراً صغيراً من جيبه ، وقلّب صفحاته حتى وجد : النقود أعطيت له في اليوم الخامس من آذار عام واحد وسبعين . من أين جاء كل هذا ؟ ولماذا احتاج الى كل هذه النقود ؟ إمرأة . أول ما خطر على بالها . والتهب جسمها ، قالت بهدوء شديد :

— بالفعل أنا أسمع بهذا لأول مرة . في العادة كان يخبرني بكل المصاريف والديون . — لم يكن ما قالته صحيحاً تماماً ولكنه بخطوطه العادة ، صحيح .

— عندئذ سيزداد شعوري بعدم الارتياح . أرجو أن تعذريني .

وبعد وقفة قال :

— سأحاول أن أفعل كل شيء لأقنع أعضاء الادارة ، آخذاً الظروف بعين الاعتبار . . . سيكون عليك ، ربما ، أن تكتبي ورقة . . . سأفعل كل ما في مقدوري . — ووضع يده على صدره ، وأحنى رأسه . — موقف غالبية الرفاق جيد ، بحيث آمل . . . وسأتحدث عن بعضهم مسبقاً .

وبهذه الروح استمر يتمتم ضاغطاً يده على صدره ، منحنياً ، وهو يخرج من الغرفة الى الممر . وبدا وكأن كل شيء قد قيل . وختم الموضوع في هذه المرة . لماذا أعطوها النقود في مظروف ، اذا هم أنفسهم يطالبونها ؟ كان كل شيء غامضاً . نظرت أولغا فاسيليفنا إلى القصير الأشيب في

بدلته السوداء المدعوكة وطرازها القديم يرجع الى الخمسينات ، وقالت شيئاً ما ، دون أن تسمع ما قالته . وقال الرجل عند الوداع :

— إذن ، سيتلفنون اليك بشأن المواد . فابحثي أنت واجمعي . ذلك الملفّ الذي أشرت إليه بخيوطه الوردية .

من قبل ، حين كانت تظهر أمامها متاعب مفاجئة ولا تعرف كيف تتصرف ، كانت تتشاور مع سيرغي دائماً ، في المساء عادة ، قبيل النوم ، حين تكون ايرينكا نائمة ، والحماة منزوية في حجرتها . كان سيرغي لا يستطيع أن يتوصل الى شيء في أشغاله ، لكنه كان يقدم لها المشورة المفيدة . كان يحسن التهدئة ، حين كان الأخرون يكدرونها . أما الآن ، فمع من تتشاور ؟ الحماة لا يجوز ان تعرف ، لأنها لا تشعر بغير الشماتة . سترى في ذلك تأكيداً لاعتقادها بأنهما لم يكونا متقاربين ، وأنه كان يعيش حياة منفصلة . وكانت أولغا فاسيليفنا تعاني من شعور مرهق لم يكن غيرة ، بل كان شعوراً آخر ، من نوعية مختلفة ، وكأنه غيرة محروقة . كأنما عهدوا اليها جرة فيها هذا الرفات الغريب . لقد زالت الغيرة من الوجود ، ولكن يدها كانت تمسك بالبقايا ، وتضمها الى صدرها .

كانت ، لسبب ما ، مقتنعة بأن لإمرأة ضلعاً في هذه المسألة . رفات ، رفات ، ولا شيء غير الرفات . ولكن يديها كانتا ترتجفان . كان لها في دفترها في صندوق التوفير مائتان وثمانون روبلاً جمعتها هي وسيرغي لشروة واحـــدة ، وهي تلفزيون . ومن الحماقة سحب نقود من هناك لتغطية

دين مشبوه . كان سيريوجا يقول :

— يا عجوز ، لا تتعبـي نفسك .

كانت هذه عبارته التي يكررها عشر مرات في اليوم في مناسبة او غير مناسبة . لطيفون هؤلاء السادة : قبل ان يمضي شهر يهرعون الى الأرملة ، ومعهم استحقاق لدفع دين ! ولكن شيئاً واحداً كانت تعرفه بشكل قاطع ، وهو أنهما كانا قريبين فعلياً ، ولم يكن له شخص أقرب اليه منها . فلتسكت حماتها . في السنوات الأخيرة لم يكن يصارح أمه بشيء ، ويخفي عنها متاعبه المختلفة . وكان يقول :

— هناك اشياء لا استطيع أن اوضحها لها .

وكانت أمه لا تفهم اشياء كثيرة . وكان عدم الفهم هذا يغيظه . بينما لم يكن بينهما اى سوء فهم . فقد كانت أولغا تفهم كل شيء بتفاصيله ، وإلى أقل نفثة . وحتى اذا كان أحد في زيارته لم تعر لذلك أهمية .

وهكذا كانت تقنع نفسها محاولة أن تبقى ثابتة الجأش ، مطمئنة ، ولكن ما كان هناك اطمئنان . ولم يستطع أحد أن يساعدها . ليس من الممكن مكاشفة فاينا ، لأن أحسن صديقة ستفهم الآخر على طريقتها الخاصة . بل ولعلها تفرح في سرها ايضاً ، لأن ذلك يناسب هدفها الذي اعترفت به نفسها ، وهو إخراج أولغا فاسيليفنا من حالة الجمود . وكان هذا يتطلب الافتراء على سيرغي قليلاً . ولكنها لم تكن تصدق ولا تريد أن تصدق ! كان هناك سر . داخ رأس أولغا من كل هذا فارتدت ثياب الخروج ، وتناولت حقيبة التسويق ، وخرجت الى الشارع .

كان مطر خفيف يرذ . والزبائن الأخيرون يهرعون الى حانوت الأطعمة ، اذ لم يبق على وقت اغلاقه غير ما يقارب العشرين دقيقة . دخلت أولغا فاسيليفنا تشتري الزبدة ، واللبن الخاثر ، وشيئاً لابنتها ايرينكا تأكله مع الشاي . كانت كنّاسة الحانوت تحك بمكنستها من الخزق المبللة ، مبعدة الزبائن على المنصة ، مدمدمة في غيظ . وقفت أولغا فاسيليفنا في طابور صغير على صندوق الدفع ، ثم سارت إلى قسم الألبان ، وهي تفكر بأن الناس حولها كثيرون ، بينهم معارف كثيرون ، وصديقات ، ولكن لا يوجد انسان قريب إليها ، وهذا يعني : لا يوجد أحد . وفكرت : اسوأ ما في الحياة هو الاحساس بالوحدة . فالموت والفجيعة ما هما الا مقدمة لما هو أسوأ . كيف يمكن العيش إذا لم يكن لك مَنْ تشاوره ، وتتكلم معه ؟ كان للواقفين وفي أيديهم وصولات الدفع الصغيرة مظهر لاغب طارئ . وكأنما جاءوا الى هنا عن خطأ . زبائن المساء غارقون في أفكار بعيدة عن المكان الذي هم فيه . فهم ، فى واقع الأمر ، كانوا متأخرين عن الوصول الى بيوتهم ، ففي هذه الساعة كانوا ، في العادة ، جالسين أمام التلفزيونات ، في اخفافهم المنزلية ، أو منشغلين في غسيل صغير في الحمام ، او يكوون بدلة مدرسية في المطبخ ، وقد فرشوا على المائدة بطانية قديمة من الفانيلة ذات بقع صُفر من أثر المكواة ، وكل هذه الاشياء ما يزال عليهم أن يفعلوها ، ولكنهم لم يكونوا مستعجلين . كانت البائعات يتحركن ببطء ، وتعب اليوم يكسو وجوههن ، مثل مكياج ثقيل .

سمعت أولغا فاسيليفنا وراءها صوتا تعرفه ، فالتفتت .

إنها ايرينكا ! إبنتها تقف عند طاولة عالية ، حيث يشرب الناس القهوة ، ويأكلون الفطائر ، ولكن الوقت الآن كان متأخرا على القهوة ، والمشرب مغلق ، وايرينكا تقف مع اثنتين من صويحباتها ، والثلاث يتكلمن ، ويمضغن شيئاً . ساقا ايرينكا الطويلتان النحيلتان في جوربين داكنين ، ومعطفها المقطوم الصغير الذي كبرت عليه ، ويجب تبديله — في كل مرة يقع بصر أولغا فاسيليفنا على هذا المعطف كانت تشعر بانقباض نفسي ، ووخزة خاطفة ، ولكنها لم تنطرق في كلامها الى شراء معطف آخر ، كما أن ايرينكا التزمت الصمت ايضاً ، فالخريف على وشك الإنقضاء ، وعندها للشتاء معطف فرائي لا بأس به . أثارت فيضاً راعشاً من الرقة في نفس أولغا فاسيليفنا قامة إبنتها المديدة المدوَّرة الكتفين بشعرها المفلول على موضة اليوم . وكانت من القوة بحيث كادت أن تجري نحوها . وقالت في نفسها وعيناها توشكان أن تدمعا : «يتيمتي . وهي ما تزال لا تفهم ما هذا ، ولكنني اعرف !» .

خطت أولغا فاسيليفنا بضع خطوات نحو الفتيات ، وهي تقول لنفسها إن أطولهن قامة ، وافقرهن ملبساً ، واجملهن واطيبهن هي أيضاً اقربهن إليها . معها يمكن الكلام عن كل شيء . والآن ليس لأولغا اقرب من هذه الفتاة . اقتربت أولغا فاسيليفنا من الطاولة فلحظتها داشا ، أحدى صاحبتي ايرينكا ، ومحبوبتها وهي حسناء شرقية ، شديدة الشحوب دائماً ، ذات عينين مصبَّغتين ، فكفت عن التهامس ، والإبتسام ، ونظرت مذعورة .

قالت أولغا فاسيليفنا :

— ها هن ، اذن ، يرفّهن عن أنفسهن هنا ! تُرى ، فيم تتناقشن ؟

— تتناقش ، يا أولغا فاسيليفنا ، في درس علم الاجتماع الذي سيكون في الغد ، حيث سيجري حديث ممتع جداً عن الفرد والمجتمع . وها نحن نفكر في الطريقة المثلى للاعداد لهذا الدرس .

ولم يعد وجه داشا الجميل يعبّر عن الذعر ، بل عن التهكم الظافر .

اطلقت فتاة أخرى ضحكة . وحدجت ايرينكا داشا بنظرة شزراء ، ولكن بغبطة خفية : النظرة الشزراء مبعثها ظهور أمها ، والغبطة موجهة إلى داشا ، بالطبع . إن ايرينكا المسكينة كانت مغرمة بهذه التافهة التي لم تكن تروق لأولغا فاسيليفنا . فقد كانت تعتبرها غير مخلصة ، ومتكلفة ، والاسوأ من كل هذا وذاك ، ناضجة قبل الاوان . وقد فهمت من بعض فلتات لسان ايرينكا أن حياة داشا الشخصية معقدة ، ولها رجل اكبر منها بكثير تسميه صديقي . وليس معروفاً إلى اي حد وصلت هذه الصداقة . حاولت أولغا فاسيليفنا بحذر أن تعرف ، ولكن ايرينكا لم تبح بشيء . ولم ترد أولغا أن تصدق بوجود شيء ذي بال . فان هؤلاء الفتيات لم يبلغن السابعة عشرة بعد ، وهي نفسها ، اي أولغا فاسيليفنا ، حين كانت في مثل سنهن ، لم تكن تفكر إلا بالدراسة . فان الصف العاشر المنتهي مرحلة مهمة جداً !

— بالمناسبة ، النقود التي أُعطيت كانت مخصصة لمصروفات الثياب والحاجات الأخرى — قالت أولغا فاسيليفنا . وآذتها وقاحة داشا ، فان هذه الحمقاء تثبت بصرها فيها —

أما أنت ، فأراك تبعثرينها على القطائر والسيكائر . أوه ، يا بنات ، لماذا تدخن ؟

غمغمن في صوت واحد بشيء غير مفهوم كلياً ، بمزاح وعن تعمُّد ، وفي أسلوب تهكمي أيضاً ، كما يظهر . وشعرت أولغا فاسيليفنا بأن وجودها ثقيل . وارتبكت ايرينكا ببلاهة ، حتى أنها لم ترفع بصرها الى أمها ، إلا أنها التقطت كل كلمة قالتها صاحبتاها ، وضحكت ضحكة عالية متكلفة . كانت الفتاة الثانية ، لينا كوكشينا ، فاترة ، بدينة شاحبة من عائلة ميسورة جداً ، وكانت ترتدي معطفاً من الشموا ، وتضع في إصبعها المنتفخة خاتماً بفص — قباحة ، فإن أية تلميذة مدرسة في السابق لم تكن تجرؤ على وضع خاتم في إصبعها ! — وبالقرب منها على الطاولة مظلة يابانية مطوية ، أنيقة جداً ، رأت أولغا فاسيليفنا واحدة مثلها عند صديقة لها ، وعلى العموم كانت رائحة الرفاه والغنى تفوح من كوكشينا كما تفوح العطور من صالون حلاقة . تحمّلت أولغا فاسيليفنا هذه الرائحة بعسر . ولكن ايرينكا كانت تقول إن كوكشينا طيبة القلب . والحقيقة أن ايرينكا لم يكن يروق لها تذلل كوكشينا أمام داشا . بينما داشا هذه سلطانة غير متوجة عندهن ، ومقام رفيع ، زقزاق . قالت اولغا فاسيليفنا بحدة :

— ايرا ، لنعد الى البيت ، ونتعشى — وأمسكت ذراعها من فوق المرفق ، لا لأنها أرادت أن تسحبها عن الطاولة ، بل مجرد أن تمسها — حان الوقت ، يا بنتي ، لنذهب .

اوضحت ايرينكا بعداء مفاجئ :

— ماما ، سأذهب الى البيت ، حين أريد .

— ماذا يعني ، حين تريدين ؟

— يعني سأذهب الى البيت ، حين أريد .

— لا ، ستذهبين الآن ، معي .

— لا ، لا أذهب .

وشعرت أولغا فاسيليفنا بأن نوعاً من الضراوة الضعيفة تنفجر في داخلها قالت متقطعة الانفاس :

— كيف تجسرين . . . معي . . . لنذهب الآن . . .

— وكيف تجسرين انت ؟ عندي أيضا ما ينغصني . وعليَّ أن اتحدث مع الاصدقاء .

صاحت أولغا فاسيليفنا :

— عندك ايضاً ؟ . . آه منك . . .

واستدارت ، وخرجت من المخزن . لحق بها شخص ، وامسك يدها :

— أولغا فاسيليفنا ! تمهَّلي قليلاً !

إنها داشا . تعبير الذعر في العينين البنيتين الفاتنتين مرة اخرى .

— صحيح ، لايرينكا ما ينغصها مع أحد الفتيان ، مع بوريا ، ويجب التحدث قليلاً جداً ، لعشر دقائق لا اكثر . سيخرجوننا بعد قليل من المخزن ، على كل حال ، وستتمشى في البولفار .

قالت أولغا فاسيليفنا :

— هي حقيرة ، تماماً .

وحين كان المصعد يصعد بها الى الطابق الثامن فكرت مع نفسها : هذه هي الحقيقة . وحيدة في علبة مغلقة . يمكن أن تقرأ الكتابات المحفورة بالمسامير . ولكن ليس لها من تقول له : أي ألم يعصف في قلبها . لا أحد يسمع .

الانسان في الوحدة يدب في حفرة كحفرة المصعد أعلى أعلى أو ينزل اوطأ فأوطأ ، لا فرق في ذلك ، حسب ما يُعتبر فوق ، وما يُعتبر أسفل . ونطقت بصوت مسموع : «لا أحد يسمع» «هالو ؟ أرفع صوتك !» مرَّ عند إذنها صوت مُرِن مخيف . جفلت . هذا صوت مراقبة المصاعد من العمارة الثالثة . في العادة لا ترد على النداء ، ولكنها سمعت في هذه المرة . يعني يجب التكلم ، يجب الصياح ، حتى للجدران العارية . فان احداً سيسمع .

لم تصل ايرينكا الى البيت بعد عشر دقائق ، بل بعد ساعة وكانت أولغا فاسيليفنا قد سامحتها ، وحين فتحت الباب رأت رأسها المنكَّس ، وأنفها الناشج — طبيعي أنها تجمَّدت في معطفها الخفيف ، وقد قضت ساعة في البولفار — ورأت تعبير وجهها الطفولي المفصح عن الشعور بالذنب ، غمرتها مرة أخرى موجة من الدفء والشفقة . ومرَّ في وعيها الذي كدَّرته الشفقه : «أنا عديمة الحياء ! لماذا صرخت عليها ؟ بينما هي يتيمة ، لا أب لها ، ولا نصير . لو لم اكن موجودة ، من سي . . .» .

لم تقل شيئاً ، مررت يدها على شعر إبنتها . فاندفعت هذه فجأة ، واحتضنت أمها ، غارزة وجهها البارد كبوز الجرو في خد أمها ، في إذنها ، هامسة بشيء شاك ، وهمست أولغا فاسيليفنا ايضاً ، وإحداهما لا تسمع الأخرى ، وكل ذلك حدث في خلال ثانيتين . كلتاهما وهنت فجأة ، وهما متعانقتان ، وسارتا الى المطبخ ، لا تكادان تسيطران على دموعهما ، لتكونا لوحدهما ، لوحدهما ولا أحد آخر ، بلا جدة ، لأنه ليس لهما من الناس من هو اقرب اليهما

اثنتان هما الاقرب في الدنيا . جلستا طويلاً تحتسيان الشاي في المطبخ . وأخذت ايرينكا تتحدث عن بوريا . كانت فتاة منطوية على نفسها ، ولم تبح بمعاناتها إلا نادراً ، وكانت تخوض معركتها الحياتية الصغيرة بصمت . ولكن ذلك كان يعني أن قواها قد خانتها ، وأنها بحاجة الى عون . كفَّ بوريا عن التلفنة اليها ، وفي المدرسة لا يقترب منها ابداً . وكانت تعتقد أن لاحدى البنات تأثيراً عليه ، وقد سافر الى الجنوب معها للاستجمام . كان بوريا تلميذاً في صف مماثل لصفها ، قبيحاً ، ولم تكن ايرينكا معجبة به ، بشكل خاص ، ولكن ذلك بمثابة محنة حقيقية .

همست أولغا فاسيليفنا بسخف رقيق من القول . وهدأت ايرينكا ، وسارت الى الحمام لتغسل شعرها . واخذت أولغا فاسيليفنا ترفع عدة الشاي من المائدة . وضعت الصحون الوسخة في المغسلة ، وكان الماء الساخن في تلك الساعة المتأخرة غير منتظم الجريان ، وليس على قدر كاف من السخونة ، ولم ترد أولغا أن تسخن الماء في السخان . فقررت أن تنهض غداً في نحو السابعة صباحاً . وفي تلك اللحظه تلفنت المرأة التي كانت قد جاءت برفقة بيزيازيتشني .

— اعذريني على هذا الوقت المتأخر في التلفنة اليك . حين وصلت الى قريتي ، إلى كوزمينوك ، انشغلت بهذا الأمر ، ثم بآخر . . . أنا اتلفن لك ، يا أولغا فاسيليفنا ، للسبب التالي . أعتقد أن فسيفولود برويسوفيتش أخافك بصندوق العون المتبادل ، بدين سيرغي افانسيفيتش . ولكن لا تخافي سيسقَّط الدين . ويمكن القول ان ذلك تقرر بالفعل . وأنت من جانبك ، ارجوك لا تسلّمي أي ملف ، اي ورقة . إن

تلفنتي اليك الآن هي تصرف غير لائق ، بالطبع ، يحسب عليَّ ، ولكنني كنت احترم سيرغي افانسيفيتش احتراماً شديداً . فاعذريني ، يا أولغا فاسيليفنا ، اعذريني ، يا أولغا فاسيليفنا العزيزة على ازعاجي لك في هذه الساعة المتأخرة من الليل . طابت !

أقلق أولغا فاسيليفنا هذا الحديث الغريب ، وهذه «طابت» المجتزأة من «طابت ليلتك» ولكن ليس بالقدر الذي تسرح فيه بافكارها الى واد آخر . في الليل ما كان في وسعها أن تفكر إلا في الماضي ، وليس فى المستقبل .

كان يجب أن تبدأ في ذلك منذ وقت بعيد . ولكن لم تكن لديها الشجاعة الكافية . فان كل ملفاته ، ودفاتره ، وكراسته السميكة والخفيفة ، والمقتطفات من الجرائد ، والملصوقة على البومات بطريقة غير متقنة ، والصفحات المقتطعة من المجلات ، واضبارات الاوراق المكتوبة المصنفة إلى مواضيع مختلفة — جزء منها في جارورات المكتب ، وجزء في الرفوف السفلى من الدولاب ، وملفات تلوح متربة في أعلى الدواليب عند السقف تماماً ، حيث كانت تظل شهوراً دون أن تمسها خرقة لتمسح الغبار عنها ، وكانت أولغا فاسيليفنا تغضب ، وتطالب أثناء التنظيف بأن يأخذ «نفاياته» الى مكان ما والافضل الى صندوق القمامة ، لأنها «نفايات» ، بالفعل ، فلو كانت ذات قيمة ، لما وضعها في الأعلى ليكلكل عليها الغبار ، وهناك اوراق أخرى وضعت في الرف العلوي في أيام تصليح الشقة — كل ذلك ما يزال جزء منه ، يحمل رائحته شعاعاً من كيانه ، ولهذا كان مسها مخيفاً . وكان تعرف ان ذلك سيمر عاجلاً أو آجلاً ، ولكنها لم تكن تقوى الآن . كما

لم تكن تقوى على ان ترى أو تلمس حاجياته في صوان الملابس . قالت فاينا يجب بيعها . وتقول إن جميع الارامل يفعلن ذلك حتى لا يعذبن أنفسهن ، ووعدت بأن تجد مشترياً . ولويزا براسكوخينا زوجة فيديا التي ترملت قبل ثماني سنوات ، قالت إنها باعت حاجيات زوجها حالاً ، ودفعة واحدة ، ولكن أولغا فاسيليفنا لم تستطع ان تقدم على ذلك .

كما لم يكن لها الوقت لمثل هذه الاعمال . لويزا لم تكن تشتغل — الآن فقط راحت تشتغل وكيلة تأمين ، على ما يبدو — فقد كانت تقيم في بيتها ترعى اطفالها . وكان لها مربية ، وجدة هي أمها . والجلوس في البيت يفقد العقل .

وهناك شيء آخر لا يحتمل ، وهو الصور الفوتوغرافية . على الجدار علقت صورة فوتوغرافية جميلة جداً ، من عهد الشباب ، وهو يتبسم ابتسامة رقيقة ساهمة ، وفي فمه نصل عشب صغير . وقد أحبت أولغا فاسيليفنا هذه الصورة ، وعلقتها منذ زمن بعيد ، عندما كان سيريوجا حياً ، وتعودت عليها . ولكن أولغا فاسيليفنا تحاول ان لا تقع عيناها عليها ، حين تدخل الغرفة ، وتخطف بصرها عليها خطفاً ، لثانية . أما الالبوم فلا حاجة الى الحديث عنه . خبأته في أبعد موضع ممكن . وكلما لمسته عَرَضاً شعرت بالألم . بينما الحياة ما هي إلا لمسات ، لأنها آلاف الخيوط ، وكل خيط يُستل من شيء حي ، من جرح . في البداية اخذت تفكر : حين تنقطع كل الخيوط الأدق الأخف تهبط السكينة . ولكن يبدو الآن أن ذلك لن يحصل ابداً ، لأن الخيوط لا حصر لها ولا عد . كل شيء ، كل انسان تعرفها ، كل فكرة ،

وحتى كل كلمة ، كل شيء ، كل ما في العالم مرتبط به بخيط . وهل الحياة كافية لذلك ؟ بالأمس ركبت المترو الى نوفو — باسمانيا لبعض الشؤون ، وخرجت من محطة «ليرمنتوف» ، وفجأة شعرت بوخزة في قلبها . تذكرت كيف هرعا من هنا ذات مرة شتاء ، في عز الصقيع ، ونزلا منحدرين في شارع سادوفيا ، لزيارة بعض الناس . وهذا هو الشهر السابع ، ولكن ذلك لا يهون من الأمر . الناس تقول : يجب أن تنقضي خمسة اعوام ، ولكن لويزا قالت : لا اظن ذلك ، وإلا لشعرت ، فقد مضى على ترملها اكثر من ذلك .

قبل فترة ليست بالطويلة رأت لويزا في الشارع عَرَضاً كم فرحت احداهما بالأخرى ، وما اكثر ما كانتا تودان أن تقولاه ، وتسألا عنه : طيب ، كيف انت ؟ كيف حالك ؟ ماذا يحصل لك ؟ هل أنت . . . ولو قليلاً ، ولو بمقدار ذرة ؟

نظرت لويزا اليها من عينين رماديتين ذابلتين :

— لا أدري بأي مقياس أقيس . . لا يوجد اي مقياس .

وودت أولغا فاسيليفنا أن تسأل ايضاً : . . «هل لك رجل ؟» ولكنها لم تجسر . في هذه المعركة يكافح الجميع على انفراد . كانت لويزا تبدو لطيفة في معطفها الفرائي الشموا القديم الذي لحق أن يتوسخ ، ويُرسل الى التنظيف ، فكان لونه البني قد شفّ ، وأتخذ لُمعة وردية رخيصة . سألت أولغا فاسيليفنا : كيف الاولاد ؟ — جيدون جداً — ردّت لويزا . ولكنها كانت ترد عن جميع الاسئلة بـ«جيد جداً» .

قبل ثماني سنوات ، وفي صباح باكر من أيام أيلول — كانت ايرينا لم تصل بعد الى سن المدرسة — دقّ جرس

الباب دقاً متسارعاً . وذهلت أولغا فاسيليفنا حين رأت غينا كليموك — وكان ما يزال غينا الصاحب القديم — الذى كان عليه في هذه الساعة أن يقوم بالتمارين الرياضية الصباحية قبل الفطور على بلاج كوكتبيل الحجري . كان وجه كليموك مغطى ببقع قرمزية . سأل ، دون أن يسلّم : «أين سيرغي ؟» ، ودخل الرواق ، وركن كتفه على الحائط . خرج سيرغي من الحمام ، وقد صوبن وجهه للحلاقة .

— سيريوجا ، يجب أن تحكي لها كل شيء . . . أنا لا أقدر . . . ليست لي ، ليست لي . . . — وترنح ذلك الصبي الجبار . بوجهه المدوَّر ذي الشكل القديم ، وانطوت رجلاه ، فدبَّ قليلاً على الأرض بمحاذاة الحائط . لم يسقط ، ولكنه جثا على الأربع فجأة ، ولبث في هذا الوضع ثانيتين او ثلاثاً ، ثقيل الانفاس .

وقبل يومين سافر كليموك وفيديا وحدهما الى الجنوب للاستراحة . وكان فيديا قد اشترى لتوه سيارة «موسكوفيتش» جديدة . وكانا احياناً يرتبان هروبات عزابية ، وكانا يغويان سيريوجا ايضاً ، ولكن أولغا كانت تفعل كل ما في الامكان لتصرفه عن هذه التسللات . لا لأنها كانت تغار من صداقة الرجال ، ولا لأنها كانت تقلق على اخلاقيته في صحبة الاصحاب القدامى الذين لم يفقدوا بعد ممارسات حياة الطلبة المتحررة — فحين يجتمع الثلاثة كانت هذه الممارسات وكأنما ترد اليها الروح ، فيأتون بالاعاجيب ، ويشاكسون ، ويحلمون بما لا يعرفه إلا الله . كما لم تكن تفعل ذلك حرصاً على صحته ، اذ حيث يوجد كليموك يوجد مجلس للشرب . بل لمجرد أنها لم تكن تحب أن يختفي عن

مجال بصرها . يجب ان يكون دائماً الى جانبها ، قريباً منها ، والأحسن أن تضمه واياها غرفة واحدة . وقد كان ذلك ، على الارجح ، خطأ كبيراً في حياتها ، ولكنها لم تستطع ولم تحاول أن تبدل نفسها .

كانت دائماً ضد كليموك وفيديا وكل مَنْ يكيد لإنتزاع سيريوجا منها ! احياناً كانت تجد الأسباب بمهارة ، وتؤلفها بنجاح ، فمثلاً كانت تتذرع بالضعف الذي يتطلب أن يلازمها — واحياناً كانت تستنجد بضميره وشهامته بشكل فظ مباشر . وجملة القول أن أنانيتين كانتا تتصادمان . لقد كان هو يحب هذه «التسللات» ، الانفلات من متاعب الحياة اليومية ، من الاشغال ، من البيت ، وكان يحب بشكل خاص «التسللات» الى فيدورف «الصديق المتحفي» أو إلى مكان ما مع فيديا براسكوخين في سيارة ، بل الى «سيفان» فقط . وكانت تعرف أنه يحب ذلك ، وأن ذلك قد يكون ضرورياً له لأسباب عديدة ، ولكنها لم تستطع أن تسيطر على نفسها . فقد كانت ، عندما يختفي ، تصير كالمريضة . بل واحياناً ينشأ عندها مرض الحكَّة . ولكنه كان لا يقهر في كفاحه عن الاستقلالية ، ونادراً ما كان يتنازل . ومن هذه الحالات النادرة ما حدث في ايلول . كانت أعمال التصليح في المعهد على وشك الانتهاء والدراسة معطلة ، والجميع خارجون في مهمات ، وفكر فيديا وكليموك بأن يشما الهواء غير بعيد عن البحر ، واقنعا سيريوجا . وكان المعهد في حالة من الارتباك ، بحيث لا يفطن أحد لمن غاب ولمن حضر . ومن يفطن وفيديا براسكوخين نفسه صاحب الأمر ، سكرتير المجلس العلمي ؟

ورغب سيريوجا كثيراً في ان يسافر . بينما حاسة الحدس عندها قالت لها : «لا تتركيه يسافر ، مهما يكن من شيء . آه ، لم تكن هناك اية حاسة حدس ، بل خسارة أن تتركه يسافر وحده الى الجنوب ، ويمرح هناك ، ويختال ويشرب بالطبع . تحججت بأنهم لا يملكون الفلوس ، وأن عمله لا يتقدم ، لا في الاطروحة ، ولا في الكتاب مع المحتال ايليا فلاديميروفيتش — ويمكن ان يبدد فيديا براسكوخين وغينا كليموك حياتهما ، فان وضعهما جيد ، بينما هو كالفأر في المصيدة ؟» .

قالت :

— الثلاثون روبلاً التي يمكن أن اعطيها لك لا تكفي ، وتجعلك عالة . ألا يفزعك هذا ؟

قال : لا يفزعني . قال : إن بينهم علاقات رجالية جيدة ، وليست صداقة نسائية بائسة ، حيث تحاسب الصديقة صديقتها على كوبيكات . بل واباح لنفسه أن يهتف بكبرياء :

— انت لا تفهمين ذلك .

المسكين كم كان مخطئاً . قالت أولغا فاسيليفنا ، إذا كان سيسافر معهما فمعنى ذلك : الطلاق وتلفنت لها لويزا ، أو البلهاء مارا كليموك — بتحريض من زوجيهما واقنعتها بأن تلين ، وتسمح له بالسفر . ولكنها عاندت . إذا سافر فمعناه : طلاق .

تفضل ، سافر ، لا أحد يمسكك ، ولكن حين تعود لن تجدها في البيت . ستنتقل إلى شارع سوتشيفسكيا . أيعقل أن ذلك كان صوتاً نبوئيا من تلك الرحاب غير الارضية التي غاص فيها سيريوجا فيما بعد ، ثم تربص به الموت في

إحدى انحائها ؟ اهتاج سيريوجا ، وانقطع عن الكلام معها عدة أيام ، ولكنه لم يجسر على السفر . في الفجر ، كان شيخ يقطع طريق سيمفروبول العامة جنوب خاركوف ، ولم يسمع منبه السيارة ، ولم يستطع فيديا أن يهدئ السرعة ، وانحرف الى جهة اليسار ، حيث اصطدم بسيارة الشحن الكبيرة ، وتوفي فيديا في مستشفى القرية ، دون أن يعود الى وعيه ، ونجا كليموك الا من خدوش . وكان قد ثبّت يديه في جدران الكابينة — ويداه قويتان — وبقي سليماً ، مع أن السيارة انقلبت مرتين .

الآن ما يكاد يحرك شفتيه البيضاوين :

— الجسد يُنقل في باص . . . دفعت مائة وعشرين روبلاً . . .

وتوسّل الى سيريوجا ان يذهب إلى لويزا ، فذهب . كان يحسن أن يكون صديقاً ، ولهذا **كان الكثيرون يحبونه** ، ويفزعون اليه ، في وقت الشدة ، وكانوا في ذلك يستغلون مقدرته .

في الليل نفد صبرها — كان لا يجوز أن تقول ذلك في كل الاحوال ، ولكن صدرها فاض به ، وقالت له في اذنه بصوت خافت :

— سيريوجا ، أنا التي انقذتك . . . هل ترى أي نبيّة أنا ؟

دفعها دون أن يتفوه بكلمة واحدة ، واستدار نحو الحائط . وشعرت هي في الحال أنها قالت ما لا يحسن ان يقال . ولكنها بعد ذلك لم تفض بما في صدرها : الخوف والشفقة على فيديا الذي كانت تحبه ، وذلك الشعور الغريب

القاهر داخلها ، شعور الرضى النفسي الخفي . وفكرت : أظن مثل هذا الشعور كان يحس به الناس في الحرب ، حين يقتل رفاقهم بالقرب منهم ، ويبقون هم ، لسبب ما ، احياء لم يصبهم أذى . ولم يكن هناك بحاجة الى كلام . في تلك اللحظة التي كانت الفكرة المنطوقة تبدو فيها كذباً مجتماً .

قال بعد صمت قصير :

— على كل حال أمَّلت أنك ستعضين على لسانك وتسكتين . . . ولكن . . . تكلمت . . .

ما كان عليها أن تتكلم بالطبع . ولكن ما كان عليه هو أيضاً أن يكون معها فظاً بهذا الشكل . ذلك لأنها انقذته ، بالفعل . اخذ يتحدث عن فيديا ، وأنه لن يكون له رفيق مثله طوال حياته . صحيح كان ثلاثتهم اصدقاء — سيريوجا وفيديا وغينا كليموك — درسوا في دورة واحدة ، في زمن سحيق في القدم . ولكن ثم ماذا ؟ كان يدهشها هذا التعلق الساذج بالاصدقاء القدامى من المدرسة أو من المعهد . كان يحاول أن يتغافل عن نقائصهم ، ولا يرى المضحك والمزعج فيهم . عنده «أحد تلامذة مدرستنا» أو «أحد طلاب دورتنا» تعريف رفيع يجمع كل الفضائل . صداقة لا بالاختيار ، بل بحكم الظروف . مَنْ صادف أن شاركه المقعد في الصف صادقه . وعلى العموم إن هذه الغرابة موجودة لدى الرجال جميعاً . لا يستطيعون أن يعيشوا بدون الاصدقاء القدامى . أما أولغا فاسيليفنا فقد كانت تستطيع أن تدبر حالها بدون صديقات بشكل ممتاز ، وحين كان سيريوجا في الوجود ، كانت تستطيع أن تظل شهوراً دون أن ترى فاينا ولا واحدة غيرها . كانت

بحاجة الى ان تنفرد بسيريوجا فقط . بالطبع ، كانت تلتقي بلويزا ومارا عند الضرورة ، لأن الرجال كانوا يحبون «التزاور» : . . «تعالوا نتزاور» «صار زمان ما تزاورنا !» .

آنذاك كانت توحدهم اهتمامات واحدة : المعهد وكل ما كان يجري فيه . وكان غينا كليموك يمزح ويغمز :

— تعالوا نكوِّن جماعتنا ، شرذمتنا ، عصابتنا الصغيرة المريحة .

بينما فيديا لم يكن يهذر ، بل يفعل . كان يساعد عن حق : يأخذ سيريوجا الى المعهد ، ويدفع الى الترقية بكل وسيلة ، ويحصل على زيادة في الراتب ، ويغير رأي ايفان يفدوكيموفيتش ديمتشنكو المدير الجاحظ العينين ، بخصوص تغيير موضوع الاطروحة ، ويسترضي البروفيسور فياتكين المشرف على اطروحة سيريوجا ، والذي لم يكن مسروراً ابداً في هذا التغيير . وكان كل شيء لا يخلو من صعوبة ولكن فيديا كان يفعله . ولو كان فيديا حياً ، وصار سكرتير المجلس العلمي ، لما سمح ، بالطبع ، أن تقع كل تلك الحكاية الدنيئة على رأس سيريوجا قبل عام ، بذنب صديقه القديم كليموك و«عصابته الصغيرة» .

قفز غينا إلى كرسي سكرتير المجلس العلمي بسرعة وتأهب شديدين ، حتى كان من الممكن الظن بأنه ، مثل فولاند ، بطل بولغاكوف ، سعي عن عمد الى هذه الكارثة .

بوصوله إلى هذه الوظيفة تخلخل شيء ما . ظلت أولغا زمناً طويلاً لا تلحظه . عندما كان غينا ، يتلفن كان بشوشاً حفياً بها ، كما هو من قبل ، واحياناً كانت مارا تتلفن ايضاً ، وتتبادل الاخبار مع أولغا فاسيليفنا عن التريكو وادوات

الزينة — كانت تشتغل في عمل ذهبي في شارع بيتروفكا ، قرب البساج — ولكن عدة شهور انقضت قبل أن تفطن أولغا الى ان تلك الشهور قد انقضت دون أن ترى غينا ، ولا مارا ، وأن صلتهم انحصرت بالمكالمات التلفونية . منذ زمن بعيد لم يطلق غينا هتافه الفرح : «سنتزاور !» ، وحين فطنت الى ذلك عزته الى موت فيديا . فهم ، غالباً ما كانوا يجتمعون عند فيديا . وكان هناك ، بالاضافة الى ثلاثتهم ، اصدقاء فيديا — الفيزيائي شوباكوف مع زوجته البلغارية كراسين ، والطبيب لوجيسكي وزوجته الطبيبة ، الزوج في الطب النفسي والزوجة مختصة باشعة إكس ، وبسبب لوجيسكي بالذات كانت أولغا فاسيليفنا تذهب الى فيديا ولويزا ، لأنها كانت تهتم كثيراً في الطب ، وتحب التحدث مع الاطباء .

ولكن لويزا لم تعد تجمع الاصدقاء ، بعد وفاة فيديا ، فلم يزوروها الا مرة واحدة في التعزية ، ثم مرة أخرى في الذكرى السادسة لوفاة فيديا . أما غينيا كليموك فمن قبل لم يكن ميّالاً إلى دعوة الضيوف الى بيته ، لقد كان دائماً مشغولاً في اعادة ترتيب شيء ما ، وتصليح أو حتى تغيير شقة سكنه موسعاً مساحتها ابداً ، منتقلاً الى أحياء اكثر فخرا . والآن يبدو أنه قد أستقر في حي «اربات» الجديد ، في ناطحة السحاب التي يقع فى أسفلها مخزن «ميلودى» للاسطوانات .

ذات مرة قال سيريوجا ضاحكاً :

— صاحبنا غينا صار بالفعل من طيور العلا المهمة . بل ويثير الانتباه . حين كان فيديا في مكانه ، لا اعرف لماذا لم اكن ألحظ . . .

سألته : ما الذي ظهر منه ليكون كذلك ؟ حمحم سيريوجا

ولم يحر جواباً . وكانت تعرف أنه سينطق عاجلاً او آجلاً ، ويخبرها . وهذا ما حصل . فبعد بضعة أيام كشف عما في «جعبته» . تسلّمت اللجنة النقابية بطاقات سياحية الى فرنسا ، لأحد عشر يوماً ، ستة ايام منها في باريس ، وخمسة في مارسيليا ، ونيس وغيرهما ، وكانت امنية الحياة هذه تكلف مبلغاً محترماً . ولما كانت البطاقات لا تتجاوز الأربع ، فقد قررت اللجنة النقابية عدم الاعلان عنها ، وتوزيعها ، كما يقال ، «بالخفية» . وقد عرف سيريوجا مصادفة ، وليس من صديقه غينا ، على الاطلاق ، بل من سكرتيرة ايفان يفدوكيموفيتش التي كانت تميل اليه . كان الراغبون في السفر كثيرين . في البداية اتجهت اللجنة النقابية إلى القيام بقرعة ، وبعد ذلك أظهر كليموك هذا جانب الحذر قائلاً إن القرعة تثير المضاربة والتسيب الخطر ، اذا وقعت القرعة على مَنْ لا ضرورة إطلاقاً لسفرهم إلى فرنسا ، وتخطت الذين يجب أن يسافروا . وكان في ذلك ، في الحقيقة ، منطق معقول ، مثلما في كل ما كان كليموك يدافع عنه . ولكن المشكلة : مَنْ سيقرر من هو الذي يجب ان يسافر ، والذى لا ضرورة لسفره ؟ وقد قال سيريوجا لكليموك صراحة أن باريس ضرورية له لا للتنزه والترفيه — وكان في ذلك شيء من الرياء — بل للبحث عن مصادر ضرورية لأطروحته . وكان كل انسان يعرف — وكليموك يعرف بشكل ممتاز — أن المؤرخ في دراسته للمخابرات الروسية لا بد أن يصطدم بفرنسا والمهاجرين والعملاء الروس . وكان من الممكن توضيح ذلك بجلاء ، لأن سيريوجا كان على حق ، وكانت له اكثر الأحقية اساساً في السفر ، ولكن كليموك أخذ ، يتولول ويستفسر من جديد ، ويدقق — ولكن

ما الحاجة الى التولول والمسألة صحيحة تماماً ؟ — وفقد سيريوجا صبره ، واغلظ له القول على طريقته ، من مثل : «اترك النأناة» أو «لا تركب رأسك ، يا غينا» .

هزَّ كليموك كتفيه ، واجاب ببرود :

— إطرح اراءك . وسيقرر ممثلو اللجان الثلاث . افهمني أن مسألة كهذه ليست سهلة ، كما تبدو .

كانت كلمة «افهمني» الكلمة الوحيدة من كلماته الانسانية السابقة .

كان سيريوجا مسحوقاً ، وهو يتحدث عن كليموك .

وحسبت أولغا أن سيريوجا قد يكون مبالغاً ، حانقاً بسبب صغائر ولا سيما الرئيسية منها ، وهي أن كليموك تكلم معه كرئيس . ولكن ما العمل ؟ يجب الرضوخ لذلك . هو رئيس ، وانت مرؤوس . ويجب الائتلاف معه . وعندما خرج من البيت ، ودون أن يعلم ، تلفنت أولغا فاسيليفنا الى مارا ، كصديقة لاغير . وجوبهت بماذا لا تتلفنين ، وأين هذه الغيبة ، وماذا لك ، الى غير ذلك . وادركت أولغا أن عليها أن تفعل شيئاً . لقد كان سيريوجا مغموماً ، ولو أن اي شيء لم يحصل بعد ، فماذا سيكون لو رفض طلبه بالفعل ؟ وكانت أولغا تحب أن يسافر . «الانسلال» الى باريس قد يمده بالعزم ، ويصير تحولاً . فحين تنهال الاخفاقات على انسان واحداً اثر الآخر ، وحتى اذا حطت عليه برفق ، وكالمألوف ، مثلما تحط الطيور على شجرة ، فإن هذا الانسان تتجمد روحه ، ويفقد الاحساس ، ويتحول هو نفسه تدريجياً الى خشبة . كانت هناك حاجة الى مبلغ كبير من النقود ، ولم تكن هناك نقود . فقررا أن يحصل

سيريوجا على نصف المبلغ ، بأن يبيع الى هاوي كتب يعرفه أعمال ستيفان زفايج بمجلداتها الثمانية ، من منشورات دار «فريما» وهي طبعة رائعة مجلدة تجليد هواة جمع الكتب ذات كعوب جلدية حمراء ، كان قد اشتراها من قبل بالف وخمسمائة روبل ، وتحصل أولغا على النصف الثانى من المبلغ ، بأن تطلبه من أمها .

وهكذا تلفنت الى مارا ، وتحدثت معها عن كذا وكذا بلهجة زائفة المرح ودية ، وهي لا تعرف بعد ماذا سينجم عن هذه الثرثرة . كانت تريد أن تتحسس ، ولكنها لم تلمس شيئاً . وتكلمت مارا بنفس الطريقة ، وبصوت متودد في ظاهره ، واخبرتها ، على عادتها ، بالتوافه ، وضحكت بدون مناسبة ، وكانت ، في حقيقتها ، لا تحتمل ولكن كل ذلك لم يكن جديداً ، واطمأنت أولغا فاسيليفنا قليلاً ، واعتقدت أن أي شيء لم يتغيرَّ ، وأن هلع سيريوجا لم يكن له داع . إلا أن مارا كانت كتلة ثقيلة وليست من الرهافة بحيث يمكن أن تتحرك ، وكان يجب التحدث مع كليموك ، ودون أن تشعر أولغا فاسيليفنا بما تفعل دعت مارا وزوجها غينا الى زيارتهم في بيتهم الريفي في فاسيلكوفو . كان الصيف في بدايته ، فصلاً رائعاً ، للسباحة والتشمس والتمشي في الغابة . . . فما رأيكِ ؟ لماذا لا تعزمان بدون أي تفكير ، على الأقل في الاجازة الاسبوعية ، على الأقل في آخر الاسبوع ، حسبما تشاءان . قالت مارا إنها من جهتها موافقة ، ولكن لا تعرف . بخصوص غينا . فهو مشغول بفظاعة ، وهما لا يخرجان الى اي مكان ابداً ، ومنقطعان عن الناس تماماً . كان غينا في غرفة أخرى ، فطلب أن تنقل لها تحياته ،

وتقول : سيأتيان حتماً ، في وقت ما .

دمدم سيريوجا :

ـــ هذا إحراج . فأنا أراه كل يوم ، ولا ادعوه ، بينما انت لا ترينه أبداً ، وتدعينه . . .

ولكنه بدا راضياً ، بشكل عام . فلا اكثر إيلاماً من صداقة تصدعت . وفي كل مساء كانت اولغا تسأله :

ـــ هل رأيت كليموك ؟ هل هما ينويان زيارتنا ؟

ـــ رأيته ، ولكن لم اسأله . . . لا أريد أن اثقل عليه . . .

إن ما كان من قبل طبيعياً ويسيراً تحول الى مشكلة . لم يكن في امكان لسانه ان يتحرك ، ويسأل سؤالاً بسيطاً «غينا ، متى ستزوروننا ؟» إلا أنه عاد من المعهد ذات مرة مستثاراً ، وقال إن كليموك جاءه الى غرفته بنفسه ، وقال : إذا كانت الدعوة الى فاسيلكوفو ما زالت قائمة فانهما سيزورانهم في عطلة الاسبوع هذا حتماً ، لبعض الوقت .

فسألت أولغا فاسيليفنا :

ـــ لبعض الوقت ؟

ـــ نعم ، لا اعرف . هذا ما قاله .

في اليوم الاخير من الاسبوع اشتريا أطعمة وزجاجتين من الفودكا ، وزجاجتين من النبيذ وبضع قنان من البيرة ، واستأجرا تكسي لنقلهما إلى فاسيلكوفو . وكانت ايرينا والحماة تقيمان هناك طيلة الاسبوع مع العمة باشا . كان الذهاب الى البيت الريفي في ايام الإسبوع الاعتيادية صعباً . فالبيت بعيد عن محطة قطار الضواحي ، ويجب الاستيقاظ في ساعة مبكرة ، وركوب قطار الضواحي ساعة تقريباً ، ومع ذلك ،

فقد كانت أولغا حين تصل احياناً بعد العمل ، وتخرج الى رصيف المحطة ، ومهما اتعبها الطريق الطويل ، والتزاحم في الطوابير ، وفي المخازن ومهما اثقلت كحصان الحمل بالصرر والاكياس والشبكات وارغفة الخبز والعلب والكتب المعبأة في الحقائب ، كان هواء الغابة الطري ينعشها فوراً ، فتستنشق نشقات عميقة ، وكأنما لم تكن قادرة على الاستنشاق في المدينة خلال اليوم كله ، وتشعر في تلذذ بالتعب يتسرب منها ببطء ، وبكيانها كله يمتلىء بقوة جديدة . فيالها من روعة عند ذاك ! من أين جاءت هذه القوة بعد يوم مضنٍ يحطم بلا رأفة ؟ من السماء ، من الغابة ؟ أم لأن سيريوجا كان يسير الى جانبها ، ويغمغم في سرحان ذهن ، ومثقلاً بالحقائب أو يتحدث عن انباء قروية ، وهو يدخن سيكارته ؟ جلبت العمة قشدة من الجمعية الاستهلاكية الريفية . والكلب ريجوك كان على عادته يطارد دجاج الجيران . . .

كانت لسيريوجا ثلاثة ايام دوام في المعهد ، وبقية الأيام ـــ واحياناً ثلاثة ايام او اربعة متتالية ـــ يستطيع أن يقضيها في البيت الريفي . استقبلها على رصيف محطة القطار ، وتناول الحقائب ، وسارا في البداية في زحام سكان البيوت الريفية في طريق ممتد بمحاذاة حدائق الحضروات البيتية . ثم استدارا نحو غابة من اشجار البلوط ، وسكان البيوت متناثرون ، وحين اجتازا الغابة ، خرجا باتجاه حقل مكشوف إلى طريق فاسيلكوفو العام ، ووجدا أنفسهما لوحدهما ، كالعادة . فقد كان مستأجرو البيوت الريفية يسكنون في بيوت قرب المحطة ، أما الذين كانوا يقطنون في قرية فاسيلكوفو فكانوا لا يأتون من موسكو في ساعة متأخرة . كان الحقل شاسعاً ، محدباً ،

والقرية تقع في الاسفل منه ، وراء الاحديداب ، فكانت تبدو وكأنها قد تحدرت ، ووصلت الى حافة الحقل ، حيث كانت سطوح البيوت الخشبية تبرز في العمق وهناك ترتفع عليها هوائيات التلفزيونات ، وأشجار الحور تبدو نهوداً فضية مضببة ، على امتداد نهر غير مرئي ، وصبي بقميص أحمر يجري على دراجته في الدرب في عرض الحقل وكان يسمع صوت محرك الجرار . كانت السماء صافية بحيث تغريك الى النظر الى فوق ، بينما السماء في المدينة لا تلفت النظر ، ولا تدفع الى الرغبة في النظر اليها .

كانت القرية تبعد حوالي ثلاثة فرسخات ، وحتى وهي في المدينة كانت تحلم بأن تصل اليها ، وتوصل حاجياتها ، وتأكل بسرعة ، وتحتسي الشاي ، وتستلقي في حجرة العمة باشا الكبيرة الفواحة برائحة القش الطري والزعتر المشدودين باقات في الزوايا «للتعطير» ، لأن قواها قد نفدت . وفي كل مرة كان يحصل الآتي : بعد الشاي تخرج مع ايرينكا الى الدغل ، وفي الساعة العاشرة كانا يرقدانها لتنام ، وبعد ذلك يخرجان لوحدهما للتنزه مرة أخرى ولوقت طويل ، اما اذا تعلّقت بهما الكسندرا بروكوفيفنا ، فقد كانت نزهتهما قصيرة سرعان ما يعودان منها ، ولكن الحماة لم تكن تجسر على ذلك كثيراً ، فهي على كل حال كانت تفهم ضرورة أن يختلي الزوجان لوحدهما ، وعندئذ كانا يسبحان في الدوامة ، ويجلسان على الشاطئ ، ويثرثران مع الجيران ، ويظلان في نشاط ، ولا يقدران على النوم .

ولكن كانت هناك ، بالطبع فترات تنزل فيها الامطار ، ويبرد الهواء ، وتتحول الطريق عبر الحقل إلى وَحْلـــــة

تستعصي على السير ، ويخيم ضجر الريف الكبير . وكانت الكسندرا بروكوفيفنا تكتب رسائل لاحصر لها الى شخص ما ، وايرينكا تتأوه تتشكى من أذنها مرة ، ومن بطنها مرة أخرى ، وسيريوجا يهرع في المطر ليجلب الممرضة اغنيا . . .

وصل كليموك في سيارته «بوبيدا» القديمة وجلب معه ضيفاً ، وهو كيسلوفسكي نائب مدير المعهد . ولم يكن أحد يتوقع كيسلوفسكي هذا . ولحظت أولغا فاسيليفنا أن سيريوجا ، ما إن رأى كيسلوفسكي يخرج من السيارة ، حتى انكمش لثانية ، ولوى شفتيه لِيَّة مألوفة لها ، تعني : «يا لها من مفاجأة !» كانت مارا مع كليموك ترتدي بدلة بنطلون داكنة الخضرة صارخة — كانت البدلات البنطالية قد دخلت الموضة لتوها ، حيث كانت تجلب من الخارج — وتنتعل خفاً أبيض ، وتحمل حقيبة يد بيضاء ، وتضع في اذنيها قرطين ابيضين . وبفضل الحناء تحولت هذه الباهرة بموضتها إلى صهباء ساطعة . كان كل ما على مارا من رأسها الى قدميها جديداً لا تعرف به اذهل أولغا فاسيليفنا . ليس من المستحب كثيراً أن تقعدي في البيت ، وانت في مئزرك ، في لباسك البيتي المستهلك ، واذا بك تواجهين ، صاحبة لك طيبة في كامل قيافتها . . . ولكن المسألة لا تتعلق في مارا . لم يكن ثمة ما تخشى منها . كانت الحماقة تتدفق منها . فلو المسكينة ، جلست صامتة ، تبتسم بسهوم ، وهي تمسك السيكارة في اصابعها النحيلة ، لكانت آسرة ، ولكنها كانت تريد أن تفصح عما في ذاتها من كل بد ، بل وحاولت ان تتجادل مع أولغا فاسيليفنا في قضايا البيولوجيا . لا . لايمكن لمارا أن تعكر مزاج أولغا فاسيليفنا .

بل التي عكرته امرأة ، هي التي جاءت مع كيسلوفسكي والتي غاب أسمها عن بالها الآن . إن تلك المخلوقة الشابة الفاضحة ، السمراء سمرة الغجر ، النحيفة المتخلعة ، لم ترق لأولغا فاسيليفنا على الفور . كانت كلها توسوس فضة ، اساور ، واقراطاً غالية وجميلة . ولكن كان من السخف لبس هذه العُدَّة للذهاب الى قرية ، فضلاً عن دلالته على فساد الذوق .

وحين سنحت الفرصة لأولغا فاسيليفنا انتهزتها على الفور ، وسألت مارا بصوت خافت : ماذا تشتغل زوجة كيسلوفسكي . فردت مارا ، كما توقعت أولغا فاسيليفنا : اذا اعتبرتها زوجته ، فلا خطأ في أن تعتبريني «جدتك» .

وباختصار القول : كانت هذه صفاقة أخرى ، من صفاقات كليموك . ذات مرة جلب أوانس مشبوهات إلى شقتهم في المدينة ، وزعم أنهن يعملن في التلفزيون ، وحتى دون أن يتلفن ، ويستفهم . أخذت سيريوجا قليلاً حمية الرفاقية القديمة ، فتهيأ لإستضافتهن على بقايا الكونياك الفرنسي ، والكعك . ولكن أولغا فاسيليفنا ، حين عادت من عملها ، وفهمت الموقف بسرعة ، قطعت كل ذلك بيد حازمة ، وجعلت الغريبات ينصرفن . عندها كان كليموك حانقاً جداً ، ولكنه الآن كان يشعر بأنه صاحب الأمر ، فهو يلبي دعوة وجِّهت اليه ! ثم أنه الآن جاء مع زوجته مارا .

— جئنا لدقائق معدودات . . . مجرد أننا في طريقنا الى خزان الماء . . . مجرد أن نلتقط انفاسنا قليلاً . . . ذلك ، وكأنما يطلبان الاعتذار على اقتحامهم ، وعلى اللذين جاءا بهما ومبديين في نفس الوقت ازدراء خفيفاً ، لأن الزيارة ،

بالتالي ، عرضية وعابرة ، ولا يجب أن تؤخذ بعين الجد .

كانت أولغا فاسيليفنا تتعب تعباً شديداً ، وايرينكا تساعدها ، والعمة باشا تشارك ، وتخرج من السرداب الكرنب تارة ، والخيار تارة أخرى ، والفطر المملح تارة ثالثة ، وترسل إبنها كولا إلى حانوت الجمعية الاستهلاكية لشراء الخبز — فينطلق على دراجته النارية فياضاً بالفرح من توقعه الدعوة للشرب — والكسندرا بروكوفيفنا وحدها لم تقترب من الموقد ، ولم تمس صحناً ، وظلت منشغلة بالكتابة في السطيحة المفصولة بقطعة من الخيش الى نصفين . كانت ترد على رسائل قراء احدى الصحف ، حيث كانت تشرف متطوعة على باب «استشارتنا القانونية» . لأنها كانت تعمل في المحاكم في وقت ما ، وكانت محامية . ولم تكن أولغا فاسيليفنا تصدق بأنه كان في امكانها ان تكون محامية جيدة وعادلة . ولم تصدق بتاتا ، ولكنها لم تكن تقول ذلك لسيرغي .

تناولوا غداءهم في الحديقة الصغيرة خلف البيت . كان النهار حاراً ، والقيظ تحت اشجار التفاح يكتم الانفاس . وكانوا اكثر ما يشربون ماء البئر البارد . كان كولكا يجلب الماء جرادل ، ويجري الى البئر ، فقد كان الماء في فاسيلكوفو مدهشاً بالفعل ، لم تذق أولغا فاسيليفنا اعذب وابرد منه في اي مكان . . . في يرفان اسوأ ، بينما الناس هناك يمتدحون مذاقه العذب الفريد . . . آه ، ما الفائدة من التذكر ! كان يعذبها شيء ما ، وتزعجها تلك الآنسة التي جاءت بصحبة كيسلوفسكي ، جرحتها نظراتها الحادجة لسيرغي ، واستفساراتها الغنجة ، وتعبُّس سيرغي الابله ، واجاباته الخالية من البراعة ، وثرثرة مارا ، واقلقها أن الطعام والشراب لا يكفيان ، وأن

الفرصة لا تتاح لسيرغي للتحدث الى كليموك بخصوص السفر الى فرنسا ، وكيف يسلك مع كيسلوفسكي هذا الناعم ، اللين الشبيه بممثل السيرك — ولكن مع ذلك كان هناك شيء أصيل ، صيفي ، فَتَوي ، فريد — طيب ، طيب ، ولكن ما يعني ؟ — سعادة ، على الارجح . . . لقد كانت بالفعل ، في الحوش الريفي ، حيث رائحة الارض ، والروث المجفف ، والرائحة العذبة لخضرة حزيران المتلظية ، حيث يسمع صوت خنزير في الخلف ، والى الامام خُوار ووقع اظلاف في زقاق ضيق . إنها البقرة ماتيلد ، القطنة ، دفعت الباب الخارجي بنفسها حتى صرصر ، وبركت في مأواها . ولكن العمة باشا السكرى لوّحت بقبضتها البنية بحدة قائلة : «عساك أن تلاقي ربك ، ايتها الفاسقة !» لأن «لحظتهم» قد ولّت ، منذ وقت بعيد ، والنهار ولّى ، وحلّ المساء ، وهم ما يزالون جالسين يحتسون ، ويهذرون ، يثرثرون ، وافرغوا الزجاجات ، وانطلق كولكا بدراجته النارية الى إمراة تدعى كريندليخا ، في الطرف الآخر من القرية ليجلب لهم الفودكا المقطَّرة بيتياً .

دخلت أولغا فاسيليفنا الى غرفة الجلوس فرأت كيسلوفسكي يحتضن صاحبته من خصرها ، ويحاول أن يبطحها على سرير ربة البيت العالي . وكانت صاحبته تقاوم وحلاها الفضية توسوس .

استدارت أولغا فاسيليفنا الى الفناء ، وتقدمت من سيريوجا الذي كان يتكلم مع كليموك عن شيء تافه تماماً ، لا قيمة له ، واسرَّت له في اذنه أنها رأت قبل لحظة في غرفة الجلوس شيئاً لا يعلو كثيراً في سلّم الفن .

— واذا كان ذلك حباً ؟ — سأل وهو ينظر نظرة ناعسة .

ولم يكن سكران بالدرجة التي يتظاهر بها . فقد كانت نظرته تحمل الخنوع الى القدر .

قالت اولغا :

— ولكن لهذا النوع من الحب أماكن معينة ، وليس بيت العمة باشا الريفي .

لم تفهم العمة باشا المقصود من الكلام ، إلا أنها التقطت إسمها ، فاغتاظت مستعدة للمناوشة :

— ماذا بها ، العمة باشا ؟ لا تمسي العمة باشا ! سأعرف كيف أرد ! سأفضحكم جميعاً . يا اولاد . . . — وهزّت إصبعها — أنفذ الى كل اسراركم . . . كولكا ، انت . . . قل هذا . . .

كان كولكا في الاصل يعمل نجاراً في السوفخوز . كان معتدل القامة ، نحيل الجسم ، يعلو وجهه الناعم الانثوي شحوب المصدورين ، وقد ارسل شعره ، شأن طلاب المدرسة اللاهوتية في زاغورسك ، وكان يعزف على القيثار بشكل متوسط . وأولغا تتذكر أن الفتيات كن يحطن به في الاماسي . وكانت العمة باشا مهمومة لأن هذا العفريت لا يتزوج ، و«يستنفد طاقته لا غير» . ولم يجند كولكا في الجيش بسبب سوء صحته ، ضعف قلبه ، وكان ممنوعاً من شرب الخمرة — لا أكثر من قدح صغير في اليوم ، كما كان ينقل على لسان الطبيب مغموماً ، ولكن بلهجة لا تخلو من بعض الاعتزاز ، بخاصية مزعومة غير اعتيادية لجسمه — ولكن المنع ، بالطبع ، يخرق ، في كل يوم تقريباً .

كانت الكسندرا بروكوفيفنا تهتم بصحة كولكا ، وتقرعه دائماً ، حين تراه سكران ، ويجب القول هنا أنها الوحيدة

التي كان يستمع الى كلامها . إنها لصفة غريبة لهذه العجوز ! أقاربها لا يشترونها بشَروى نَقير — ثم على اي شيء يشترونها ، فالاقارب ملمون جيداً بصفاتها — بينما الذين لا يمتون لها بصلة يحترمونها بل ويخافون منها . والظاهر أن في ذلك حاجة قاهرة للسيطرة ، والبسطاء الذين ليسوا على مستوى عال من توقد الذهن يخضعون لها على الفور ، أما الذين يفكرون فيفزون منها عضوياً .

في ذلك المساء ، حين خرجوا للتنزه في الحرش عند الغروب بعد غداء مطوَّل — بالكاد استمالوا كيسلوفسكي للخروج من حجرة الجلوس — أجرت الكسندرا بروكوفيفنا حديثاً مدققاً أشبه بتحقيق قضائي ، مع كليموك الذي لم تكن له عموماً اي احترام . وكانت تتذكره ، وهو ما يزال في مقتبل الشباب ، أيام الطلبة ، حين كان من القسم الداخلي رثاً هزيلاً وجائعاً («كان دائماً جائعاً حين يأتي ، ويستطيع أن يأكل كل ما كان موجوداً ، واضافة الى ذلك خمسة ، ثمانية ، اثني عشر قرصاً ، من الكفتة المقلية ، أي شيئاً خرافياً») . وكان سيريوجا يتركه يقضي ليلته في البيت ، فقد كانا يلعبان الشطرنج حتى منتصف الليل ، ويدخنان السكائر ، ويستعدان للامتحانات معاً ، ويتشاجران ، ويتصالحان ، وكانت تسميه غيشا ، وتعتبره فتى طيباً ، سوى أنه كامد الذهن قليلاً ، وكان سيريوجا يدفعه دفعاً في المادية الديالكتيكية واللغة ، وها هو الآن قد إرتقى ، وصار رئيس سيريوجا . وكانت تلحظ كيف تغيرت علاقات إبنها بغينادي هذا قبل أن يلحظها هو ، ولا حتى أولغا فاسيليفنا ، ولكنها ادركت كل ذلك من البداية ، حين كان الصبيان في قميصين ضيقين من قمصان رعاة البقر

المكعبة يشربان الشاي في المطبخ ، فارشين قطعتين هائلتين من الخبز بمربى التفاح ، وكان هناك صبي ثالث في قميص مماثل يتكلم بصوت عالي النبرة ارتبط قبل الجميع بزوج وابن ، وهو فيديا البائس الذى أحبته . أما الآن فقد لاحظت أن إبنها يجامل غيشا البليد هذا ، بل وبشيء من الانكماش ، كما يجدر بالمرؤوس في حضور رئيسه ، وكان ذلك لا يحتمل ، وعيباً من جانب سيريوجا . كان كليموك إذا تعاظم تحول إلى بيروقراطي منفوخ من غلاة البيروقراطيين الذين كانوا يستهزئون منهم في العشرينيات ، فلا يجوز لسيريوجا أن يشجع هذا النمط في اية حال من الاحوال ، وعليه أن يخلع عنه عنجهيته ، ويعلمه ، يعلم هذا الأحمق المكعب العقل والحجا . وراحت الكسندرا بروكوفيفنا تخاطب كليموك بلهجة رفع الكلفة باصرار وتسميه باسم التصغير القديم «غيشا» كما في الماضي ، وتوخز عنجهيته بكل وسيلة . قالت :

— غاب عن ذهني شيء ، فقد صارت ذاكرتي تخونني . ولكن عجيب ، كنت دائماً افتخر بذاكرتي منذ سنوات المدرسة . . . في اي عام جاء اخوك ، يا غيشا ، من كريمنتشوك ؟ سكن في بيتنا ، وقد وجدت له محامياً . . . كانت هناك دعوة قضائية تتعلق بالاختلاس . . .

— ما هذا الولع بتذكر ما مضى وانقضى ، يا الكسندرا بروكوفيفنا ؟ — انبرت اولغا فاسيليفنا قائلة ، وقد حدست أن كليموك تجهم وتضايق ، وذلك ، بالطبع ، لا يساعد على الحديث المُنتظر .

— لا ، أنا اتذكر جيداً انني تلفنت إلى يليزافيتا ماركوفنا في هيئة المحامين في المدينة ، واذا كنت قد اتصلت

بيليزافيتا ماركوفنا فمعنى ذلك ان القضية مالية ، فهي تحب مثل هذه القضايا ، ولا اقول تحبها ، بل تفهم فيها ، بالاحرى ، وتعرف المحاسبة لأن المهم في هذا الأمر هو المبلغ المختلس . . يجب الدفاع عن كل كوبيك . . .

وكانت قوة العجوز من الشدة بحيث أن السكارى خمدوا ، وعاد اليهم الصحو قليلاً ، وهم يصغون الى الحديث الذي ادارته عن حقوق الاقدمية . وما كان لها أن تشكو من ذاكرتها ، فقد كانت تتذكر كل شيء بصورة ممتازة . تعبّس كليموك ، وتصلّب جذعه ، وفجأة أخذ يقهقه :

— إسمعوا ، هذا مسرح اللامعقول بعينه ! مسرحية مرعبة ! آه ، يا رب ، وما الحاجة الى تذكر كل ذلك ، ليس احد بحاجة الى هذا . يوجد مفهوم هو الحتمية التاريخية . هل تعرفين مَنْ اخي الآن ؟

وأخذ يقص شيئاً عن وضعية اخيه ضاحكاً متقطع الانفاس . وأخذ الجميع يضحكون لسبب غير مفهوم . وظلوا يضحكون كذلك بدون سبب حتى اقتربوا من جرف النهر العالي ، حيث كان ثمة شاطئ رملي صغير ، يستخدم كمسبح . في النهار كان الأطفال يطفرون منه الى النهر ، والصبايا يلوحن بشراتهن ، واولاد القرية يقفزون من طلعة حديدية متشقلبين في الهواء ، أما الآن فقد كان المكان فارغاً ، والجرائد المفروشة على الرمل الرطب تلوح بيضاء في غبش المساء . كان الماء بارداً يفوح رضحاً . سبح الرجال ، وجلست النسوة على المنحدر المعشوشب ، واخذن يتحدثن ، ولكن أن يشغل الانسان نفسه في الجلوس على العشب ، ومبادلة الكلام كان بالنسبة لالكسندرا بروكوفيفنا هواية نسائية مسرفة وتافهة ، فاعلنت

أنها ستستحم ايضاً في منأى عن الرجال ، ومعزل عن النساء ، وطلبت أن لا يتجاوز أحد شجرة جار الماء وبعد حوالي عشرين دقيقة صدر من وراء شجرة جار الماء صوت استغاثة . اذ لم تستطع الكسندرا بروكوفيفنا أن تخرج من الماء على المنحدر الطيني ، وطلبت من سيريوجا أن يمد لها يده .

ومارا ، بكل ما لها من قصر نظر ، فهمت على الفور ، وهمست لاولغا فاسيليفنا :

— أنا اتحسس شعورك !

ذلك المساء علق في الذاكرة شيء آخر . تشبث سيريوجا بكلام كليموك بخصوص الحتمية التاريخية . كان في ذلك ما يُوجع . في البداية تبادلا الشتائم في الماء بهدوء ، وتعابثا في رشق احدهما الآخر بالماء ، كصبيين ، ثم أخذ النقاش يثقل ، وفي طريق العودة الى القرية صارا يتجادلان في كل شيء ، وقد اختفى السكر بعد الماء البارد ، فاخذا يتحدثان بحدة ، وانخرط كيسلوفسكي في الجدال . وكان الموضوع يتعلق في عمل سيريوجا ، واعمال أخرى ، مع نظرة الى التاريخ عموماً .

ولعل من تلك الامسية المخمورة في فاسيلكوفو — وفي الحقيقة قبل ذلك ، في اغلب الظن ، ولكن تلك الامسية انطبعت في ذاكرة اولغا فاسيليفنا كبداية — نشأت المخاصمة الطويلة بين سيريوجا وكليموك وسائر الآخرين ، تلك المخاصمة التي أضنته ، وانتهت نهاية محزنة . حين دخلوا بيت العمة باشا الريفي ، جلسوا على السطيحة يشربون الشاي ، وكان سيريوجا وكليموك يصرخ أحدهما بالآخر في حنق . ولم تكن اولغا تتصور أن كليموك يمكن أن يكون بهذا الحقد .

وكانت تعرف عن سيريوجا أنه ، اذا ما دخل في جدال ، لفَّه المجهول ، ونسي قواعد اللياقة ورحابة الصدر . ويصير همه الوحيد : البرهنة .

— في غرفة الجلوس عند العمة باشا ساعة في صندوق خشبي . من أين لك هذه الساعة ، يا عمة باشا ؟

صاح كليموك ، وهو يطرح ذراعه اليمنى وكأنه على منبر .

— وهل تراني ادري ! لا اعرف من أين انتزعها ابي . يقول إنه بادلها في سنوات المجاعة .

— بادلها ، انتزعها ، لا فرق . كل هذا لا يهم ، المهم فقط أنها تعيِّن الوقت بالضبط ، وكل نصف ساعة تعزف لحن شتراوس . هل كلامي صحيح ، يا عمة باشا ؟

اطبقت العمة باشا شفتيها باحتراز ، وقالت :

— لا يهمني ، يا عزيزي ، ولكنني لم اسمح لك بأن تسميني عمة باشا .

— صحيح . اقطعي يدي ! كل شيء لا يهم ، ولا أهمية له غير الحتمية التاريخية . تذكري ذلك ، يا عمة باشا ، وصبي الشاي مرة أخرى ، ارجوك . بالمناسبة ، امي ، مثلك يا عمة باشا ، سوى أن الناس يسمونها عمة بافلينا ، وهي تقيم في مقاطعة بيلغورد ، منطقة شيبكين . . .

تكلم سيريوجا قائلاً :

— الحتمية التاريخية التي تتحدث عنها ، هي شيء مائع وحقير كالمستنقع . . .

— إنها الخيط الوحيد التي يستحق التمسك به .

— مَنْ يا تُرى يحدد ما هو محتم تاريخياً ، وما هو لا ؟ المجلس العلمي باغلبية الاصوات ؟

وكان قد أحتد بحيث نسي أن كيسلوفسكي هو رئيس المجلس العلمي . وكانت اولغا فاسيليفنا تأمل بأن هؤلاء الذين ظلوا يشربون طوال النهار ويتفوهون بالسخف سينسون مَنْ هَزَل منهم ومَنْ جدَّ ، ولكن تبين أنهم تذكروا جيداً صيحات سيريوجا . والناس لا يتكدرون من معنى القول ، بل من نبرته ، لأن النبرة تكشف عن معنى آخر مخفي ورئيسي .

حين مزح سيريوجا عن حق «المجلس العلمي باغلبية الاصوات ؟» وابتسم ابتسامة ازدراء مقتضبة . كانت هذه الابتسامة المقتضبة أكثر إهانة من الكلمات . ومن المستبعد أن ينساها كيسلوفسكي . كان سيريوجا مهذاراً ، لا يلتزم جانب الحذر ، فيبذر الاعداء له . وكم خلق له من اعداء بنكاته ، ونقاشاته ، ولسعاته ، وعدم قدرته على إمساك نفسه في اللحظة المناسبة ، وتلافي الأمر . إن اللقب الذي اطلقه على كليموك في الوقت الذي لم يصيرا فيه عدوين بعد كلَّف الشيء الكثير ، فصارا عدوين حقاً . أخذ الناس في المعهد يتلقفون هذا اللقب ببهجة . ولكن ماذا كانت حاجته إلى تأريث حنقه الى هذا الحد ؟ كانت الساعة متأخرة ، وبقوا جالسين في اماكنهم . الرجال يتجادلون ، ويتصايحون ، ويدخنون ، ويشربون ما تبقى من خمرة . — أرسل كولكا مرة أخرى الى كرنديلكا — والنساء يهومن ناعسات . وقد أوت ابرينكا الى فراشها منذ زمان . وتثاءبت اولغا فاسيليفنا ، وأبدت بكل مظهرها أنها تعبت تعباً مهلكاً ، ومن النوافذ المفتوحة أطل القمر العالي من الزرقة الداكنة .

ولكنهم لم يغادروا ! وتثاءبوا ايضاً ، وعبروا كذلك بكل مظهرهم عن التعب المهلك ، والرغبة في الاستلقاء حتى

الصباح . ثم جرى حديث بين سيريوجا وكليموك — ذهب الرجال إلى بيت صغير في الطرف الآخر من الحوش ، وحين عادوا أخذ الضيوف يودعون على الفور . وادركت اولغا فاسيليفنا أن شيئاً حصل بين الرجلين . بعد الشربة المسائية الجديدة صحا كلاهما صحواً متجهماً . سحبوا كيسلوفسكي الى السيارة وهو في حالة من السبات الجامد . جلست مارا وراء مقود السيارة ولم تشرب عمداً لتتيح للرجلين أن يمرحا . والغريب أن مارا البلهاء بدت لاولغا فاسيليفنا الانسان الطبيعي الوحيد بين هؤلاء الأربعة . طبعت قبلة على خد اولغا ، وهمست مرتاحة :

— حسناً فعل ، حين لم يتركهم يبيتون ! ليولوا . . . تصوّري اي شخصيات هم !

صفر كولكا بالصفارة ، وصاح ، وهو يلوح بذراعيه أمام مصباحي السيارة :

— كيف هذا ، سكارى وراء عجلة القيادة ؟ من سمح بذلك ؟ اخرجوا ، لن تتحرك السيارة !

ذكر سيريوجا أن كليموك طلب أن يترك كيسلوفسكي وصاحبته لقضاء الليلة . والحقيقة أنهم جاءوا لهذا الغرض . واحتدم سيريوجا ، ورفض . وصار كليموك يستميله ويؤكد له بكل وسيلة :

— انت دعوتني للمبيت ايضاً ، ولي الحق في سريرين في بيتك الريفي . وأنا اتنازل عن هذين السريريـــــن لصديقيَّ . . . — ثم اخذ يهدده — يا شيخ ، انت تتصرف بتسرُّع . العاقبة تقع عليك وحدك — اخيراً اخذ يتضرع والدموع تكاد تختلط بصوته — يا شيخ ، افعل ذلك من أجل خاطري !

اعطيت وعداً قاطعاً بناء على كلامك ! فكيف سأبدو بعد هذه الخديعة ؟

قال سيريوجا أنه شعر بنفور مفاجئ لا يُـكبح .

— فجأة حدست أن أمامي متاجراً نفعياً . لقد كان بيتنا الريفي بضاعة في مقايضات معينة . وقد وعده بذلك ، فوعده الآخر في المقابل بشيء آخر ، وها هي الصفقة كلها قد انهارت . . . وأي مشهد هستيرى مثّل امامي ! . . كم فحّ واستشرى ضراوة ! «أنت رفيق عاطل ، ولا يجوز الاعتماد عليك . انت تكره الناس» . وهذا الحنق الحقيقى ليس مبعثه التعاطف مع صديق بل لأن شيئاً كان ينتزع منه . لقد سلبته ، تفهمين ؟

ولماذا كان متعذراً إبقاء إثنين للمبيت ؟ إن تلك الفتاة الغجرية كانت حقيرة ، بالطبع ، ولكن إذا كان كيسلوفسكي شخصية عظيمة الشأن ، وجاء الرجاء من كليموك . . . فليناما هما في الغرفة ، ونحن في الشرفة . . . ولكن لسيريوجا موقفاً غير متسامح وذوقياً من كل شيء ، وحتى من الامور الجدية ، ومستقبله هو . كان يفعل ما يروق له ، ولا يفعل ما لم يَرُق له . وبالمناسبة في هذه النقطة تكمن أسباب مشاحناته المستديمة .

— فجأة شعرت بأنني ايضاً متاجر نفعي ، واشترك في صفقة طويلة مضجرة . وتقززت ، ورفضت . مستنداً عليك . قائلاً إن لزوجتي قواعد صارمة . . . ولكن ، ليذهب الى الجحيم !

يا رب ، الآن وَضُح أية سلسلة من الحماقات والتخيلات البائسة كان ذلك ! ما كان يجب ان يدعو الى البيت الريفي ، ما كان يجب ، اذا كنا قد دعوناهم ، إلتزام الحدية ، وتكدير الناس . وما كان يجب التلهف بهذا الشكل للسفر الى فرنسا . . .

وطبيعي أن سيريوجا لم يقل له في فاسيلكوفو ، اي كلمة ، وحسناً فعل ، ولكن أي حاجة ، اذن ، لهذه الضيافة الصاخبة ؟ انقضى يومان . وذهب سيريوجا الى المعهد ، وعاد في المساء الى البيت في شابولوفكا ، وقصَّ في إنفعال فرح أن غنكا رحَّب به كثيراً ، واستفسر عن احوال اولغا فاسيليفنا والحماة ، وايرينكا ، والعمة باشا ، وكولكا ، وما إذا كان الضيوف قد ضايقوهم في سورة السكر . اجاب سيريوجا ان كل شيء كان على مستوى رفيع ، ولا مأخذ لربة البيت . وبنفس هذه اللهجة شبه المازحة تساءل :

— وادوارد نيكولايفيتش ألم يقل شيئاً بخصوص عدم كفاية المكان في البيت ؟

لا ، لم يقل شيئاً ، لأنه فقد القدرة على الكلام ، ولم يتحرك لسانه حتى بلغنا موسكو . سوى أنه ، حين دخلنا موسكو نطق بأول كلمة بصوت مبحوح . ولا اعرف لم كانت على شكل سؤال : «جلبوا ؟» . وهكذا لم يفهم احد معنى هذا السؤال .

وقفا قليلاً في الممر وضحكا ، وانصرفا . وماذا عن فرنسا ؟ لا شيء الآن . غموض تام . وعلى العموم يجب ان يتكلم كليموك مع أحد . وقد وعد .

— لا تقلقي ، يا شيخة ! سيقوم غينكا بذلك . ليست هناك مشكلة . . .

في تلك اللحظة يبدو أنه كان يؤمن بذلك بصدق .

كانت هناك مشكلة ، وهي الحصول على النقود . في بادئ الأمر تحدثت اولغا فاسيليفنا الى أمها سراً وكانت غالباً ما تسعفها ، بقرضها مبالغ صغيرة ، أو احياناً دون أن تستردها . ولكن الأم ترددت في هذه المرة . فان المبلغ أذهلها . ولم

يكن لأمها هذا المبلغ من النقود . وكان غيورغي مكسيموفيتش يعطيها للمصروفات شهرا بشهر .

— أيعقل أن هذه السفرة بهذه الاهمية ؟ — سألت الأم محاولة أن تعارض قليلاً — كم من الثقوب في بيتكم . انت بحاجة الى معطف شتائي ، وثياب ايرينكا كلها صغيرة عليها . ثم لو كانت هذه السفرة لكليكما .

أوضحت اولغا فاسيليفنا أن من المتعذر تماماً ذهابهما سوية ، كما أن ذلك لم يقترحه أحد ، بينما هذه السفرة ضرورية له في كل المعاني . ولم تكن الأم تفهم تماماً عن اي معان تتحدث إبنتها ، فمن الصعب التوضيح ، فان المقصود من الكلام مفاهيم غامضة ، من مثل ، التحكم في النفس ، وتأكيد الذات ، ولكن الأم صدقت بابنتها ، باولغا فاسيليفنا . وكانت تصدق بها دائماً في آخر المطاف . ووعدت بأن تتحدث إلى غيورغي مكسيموفيتش . وفي اليوم التالي تلفنت ، وقالت إن غيورغي مكسيموفيتش يرجو سريوجا أن يزوره .

كانا واثقين أن «يزوره» هذه كانت تعني بصراحة أن يأتي ليأخذ الفلوس . في يوم السبت ذهب الثلاث الى الشقة الجديدة غير بعيد عن شقتهما السابقة في سوتشيفسكا ، التي ظلت مرسماً . كانت أمور غيورغي مكسيموفيتش في تلك الأيام تسير سيراً حسناً جداً ، فقد كان يحتل وظائف انتخابية ، وتحت إمرته شيء ما ، ويحاضر في مكان ما ، ويعمل في الرسم قليلاً . وكان الأطباء قد منعوه من الاشتغال كثيراً . الا إنه ، على كل حال ، كان يحب الخروج من الصباح الى مرسمه ، وإذا لم يكتب أو يرسم فانه كان ينشغل باللوحات بهدوء ، ويدق المسامير في الأطُر بمطرقة صغيرة ، مثبتاً الورق المقوَّى ، ويصنف الاوراق ،

ويصحح هنا وهناك ، دون أن يتعب بصره ، او يدعو صديقا من اصدقائه من سكنة الطابق الثاني أو الثالث ، فيسخنان الشاي على عين الموقد ، ويتناقشان في الأمور ، ويتذكران الماضي ، وفي نفس الوقت يعاينان اللوحات المنسوخة ، ولغيورغي مكسيموفيتش مجموعة غنية منها موضوعة في ملفات ضخمة .

كان موقف سيريوجا من غيورغي مكسيموفيتش حسناً ، وكان يعتبره إنساناً معتبراً بل ويشعر نحوه بما يشبه الامتنان ، لا لأن غيورغي مكسيموفيتش كان يبدع على الخيشة وعلى الورق ، بل لتصرفه كزوج أم اولغا فاسيليفنا . ولكنه قال لاولغا فاسيليفنا ذات مرة :

— هناك لوحات طفولية . اذا نظرت اليها من خلال النقاب الوردي ، تجدين شيئاً ، واذا نظرت اليها خلال نقاب ازرق رأيت شيئاً آخر . هذا هو زوج أمك ، وارجو المعذرة ، يشبه هذه اللوحة . مرة أراه رساماً ، اصيلاً ، مضحياً من أجل الفن بكل شيء ، ومرة مقاولاً يريد طلبيات .

لم ترض اولغا فاسيليفنا ، فقد بدا لها ذلك احتقاراً لأمها . فلو كان مقاولاً لما احبته . والحقيقة بعينها أنها أحبت رجلاً تعيساً غير موفق ، وجائعاً فقيراً ، ولكنه انسان شريف . . . ومن ازدهر في الإجلاء ؟ لو كان مقاولاً لازدهر في تلك الفترة . لم يكن قادراً على كسب خبزه اليومي . ولم يكن له غير تلطيخ الورق بالفرشاة . في الصباح كان يشد زوج حذائه الوحيد ، العالي ، الأسود بنهايته المسطحة غير المدببة — كانت تتذكر ذلك جيداً — لأن نعل الحذاء قد أنخلع . وبعد سنين ، عقد من السنين ، تغيّرت احواله ، وصار يكسب الفلوس بسهولة .

ذات مرة همست أمها لها ان لغيورغي مكسيموفيتش دفتر

صندوق توفير يحتوي على فلوس كثيرة . وكان ذلك شيئاً جيداً بالطبع . فقد كان في وسع اولغا فاسيليفنا أن تطمئن على أمها ، كما كان لها في الساعة الحرجة ما تلجأ اليه .

ولكن سيريوجا لم يرد أن يزور ابا زوجته في ذلك السبت . وكأنما تحسس شيئاً مكروهاً .

— اذهبي وحدك . أنا اترجاك .

— لا ، يا سيريوجا ، غير لائق . انت الذي تطلب النقود لسفرتك . فاذا لم تذهب فسيعتبر ذلك تعالياً . فانت ، في كل الاحوال ، لا تزورهما إلا نادراً .

— قولي تمرضتُ . وفي الحقيقة اشعر بتوعك .

— لا ، لا اذهب ، إذا كنت لا تذهب . عندئذ ستلغي كل شيء .

لقد بدا لها عدم رغبته في زيارة الاقارب غاية في الاهانة . فاؤلئك اظهروا إيماءة طيبة . فمن اين كان سيأخذ هذا المبلغ من المال ؟ من اصدقائه ؟ مستحيل ! بينما الاقارب طلبوا منه الحد الادنى من الاهتمام : أن يجلس قليلاً ، ويشرب الشاي ، ويتحدث الى العجوزين . وبالطبع ، أن يقول لهما «شكرا» او «انا شاكر لكما» ، كلمتين علامة على الامتنان . فهل هذا صعب حقاً ؟ لا ، ليس بل ولطيف أن يتحدث الى غيورغي مكسيموفيتش الذي يعرف الكثير وقد عاش في باريس هذه ، في شارع دوموفتار الذي سمعنا ، الكثير عنه ، ولكن . . . لا نفع من الكلام ! اذا كان غير مفهوم رأساً ، فلا داعي الى التوضيح . هذا الرجاء هو ثقيل بشكل لا يحتمل ومقزز ، وذلك يجعل كل الاحاديث ، وشرب الشاي ، واللقاءات العائلية زائفة .

— ولهذا اطلب اليكِ . مرة أخرى إنه رجاء ثقيل بشكل

لا يحتمل : اذا من الممكن ان تعفيني من هذا الامتحان ، واذا كان لا ، فتفضلي ، ولنذهب . . .

كان عليها ان تفهم ذلك . ولكنها لم تفهمه ، لان افكارها كانت مشغولة بأمها التي لم يكن ذلك بسيطاً عليها ، أو ربما ثقيل ، ولكنها تغلبت على نفسها . وقالت باصرار :

— احياناً نضطر الى أن نفعل ما هو غير مريح . أنا اعرف أنك لا تحب ذلك . الآن قرر : هل نذهب ام نقعد في البيت ؟

قطعا الطريق كله صامتين . وكانت ما تزال تؤجج نفسها : عجيب لماذا يعتبر نفسه محقاً في أن يتكدر ؟ على اي شيء في وجه الدقة ؟ لأن مسافر الى فرنسا ، وهي باقية ؟ وظلت ايرينكا صامتة ايضاً . فقد احست بسليقتها بالصدوع والمشاحنات الناشئة بين والديها فتأثرت على طريقتها الخاصة ، فلم تحاول أن تصغي أو تدخل المرح او تصالح ، كما كان يفعل الاطفال الآخرون في القصص ، بل سلكت تماماً مثل سلوك والديها : فاذا كانا قد صمتا متجهمين ، انكمشت هي على نفسها حالاً ، واذا كان ضاربين هائجين تحدثت هي الأخرى كالمهتاجة ، عن عمد ، مثل عجوز صغيرة .

وهكذا وصلوا الى سوتشيفسكيا في صمت ، ومروا ببيت قديم ، واوغلوا في الازقة ، حيث كل شيء قد تغيَّر تماماً وتهدَّم واعيد بناؤه . والسؤال المحير ما هو السبب في مزاجها المتكدر للغاية ، حين اقتربوا من بيت أمها ؟ وكذلك مزاجه ؟ فقد كانا شابين معافيين ، لهما عمل يمارسانه . كان هو ينوي السفر الى الخارج ، وهي تأمل ، خلال هذه المدة ، أن تقوم بتصليح صغير فى الشقة ، وتأمل أن يأتي بشيء من الالبسة

الباريسية ، وحددت انواعها بعد الاستفسار . . . وهم ، الثلاثة ، كانوا سوية ، سوية ! تلك كانت حياتهم .

ولكنهم ولجوا مدخل البيت متجهمين ، ودخلوا المصعد متجهمين . والجملة الوحيدة التي تفوهت بها اولغا فاسيليفنا كانت عقاباً صارماً للإبنة :

— لا تمسي الجدار الوسخ !

كانت شقة الوالدين غير كبيرة ومريحة والرواق مغلفاً بورق جدران هنغاري جميل قرمزي . وفي الغرفة الكبيرة كان ورق الجدران بلون الخشب . وفيها رتب غيورغي مكسيموفيتش بذوق قطع اثاثه من الطراز القديم ، وعلَّق رفوفاً مختلفة ، ووزَّع الاصونة ، وكل ما كان يبدو في البيت القديم رثاً اكتسب هنا مظهراً مميزاً ثميناً وعتيقاً . وبالاضافة الى ذلك بالطبع علقت على الجدران لوحات عديدة وغرافيك ورسوم تحت الزجاج ليس فقط من عمل غيورغي مكسيموفيتش ، بل ولرسامين آخرين ايضاً ، ومن بين هذه الأعمال تخطيطان لليفتان وكوروفين ، ورسوم لمشاهير آخرين ومفخرة غيورغي مكسيموفيتش تخطيط متماوج بالقلم الرصاص لمودلياني يصور شيئاً مبهماً شهوانياً . وعلى جميع الأصونة والرفوف والمكتبة انتصبت شموع وشُمَّيعات صغيرة ، وشموع سميكة منقوشة ذات اشكال وتلوينات غير اعتيادية للرائحة اشتراها اصحاب غيورغي مكسيموفيتش من خارج البلاد . أما غيورغي مكسيموفيتش نفسه فقد منعه الاطباء من السفر — وكل هذه كانت ترسل دخاناً ، وتلمع وتحترق ، وتفوح برائحة طيبة حلوة .

قال غيورغي مكسيموفيتش :

— هذه الاضواء على شرفكم ، مدام ، مسيو !

ودعا الى دخول الحجرة بإشارة استعراضية .

ولم تُنطق الكلمتان الفرنسيتان بدون مغزى ، والظاهر أن ذلك لم يعجب سيريوجا ، وقد لاحظت اولغا أن سيريوجا قد مطّ شفتيه قليلاً في سحنة تعرفها . إن المكْرُمة النبيلة — وهي اعطاء قرض لعائلة ابنة الزوجة — كانت تقدم في جو مهيب ، وإنْ كان بيتياً . وغيورغي مكسيموفيتش نفسه كان يبدو مهيباً : سترة رسام عريضة من المخمل الأسود خيطت قبل مدة قصيرة في محل خياطة الرسامين الموسكوفيين ، وقد وضع على رقبته لفاحاً من الابريسم البنفسجي ، ولبس قميصاً ناصع البياض ، وبنطالاً على الموضه رمادي اللون من «الفودرون» ولكنه في الاسفل من ذلك ، كان ينتعل نعالاً بيتياً قديماً مدعوك النهايتين .

في البداية شربوا الشاي ، وأكلوا «التورته» . وتحدثت ايرينكا عن شؤونها المدرسية ، واستمعت اولغا فاسيليفنا باهتمام كبير ، لأن الملعونة ايرينكا لم تكن تتحدث عن ذلك في البيت ، ولكن في حضور جدتها وجدها او غيرهما من أبعد الاقارب من غير الغرباء كثيراً كانت موهبتها في الحكي تتفتح ، وتتحذلق بها . وبعد ذلك أخذت الجدة إبنتها اولغا فاسيليفنا وايرينكا الى غرفتها ، وبقي الرجلان لوحدهما .

أخذ غيورغي مكسيموفيتش يتحدث عن حياته ، في باريس ، حين كان يسكن ريو دوموفتار الذي كان الروس الباريسيون يسمونه «موفتاركا» على الطريقة الروسية ، وعن اصحابه آنذاك ، اثنان منهم كانا من اوديسا ، وواحد من يليزافيتغراد ، وواحد من فيتبسك ، وهو الذي اشتهر بعد ذلك في العالم أجمع . أما الآخرون فكان غيورغي مكسيموفيتش لا يعرف عنهم معلومات دقيقة . ويبدو أن بعضهم هاجر الى امريكا ، وبعضهم مات

منسياً ، واحدهم قتله الالمان ، حين دخلوا باريس . وكل ذلك كان في قديم الزمان . كان شباب القرن ، شباب العصر ، شباب الطائرات ، والافلام السينمائية ، ولعبة كرة القدم ، والرسم المنحل ، وكل ما يجن به العالم الآن ، وكان — بالمصادفة — شبابه هو ، شباب غيورغي مكسيموفيتش . ولهذا تذكر الفتيات ، ونكاتهن ، وايماءتهن ، وكيف كن يلقين فساتينهن ، ويغمضن عيونهن ، وتذكر المقهى ، وتذكر العمل السار الذي لا يكل في الليالي دون معرفة لمَن ولماذا ، والذي لم يكن يأتي بمورد . ومع الذكرى أخذ غيورغي مكسيموفيتش ينفعل ، ويحمر وجهه الضخم الناعم بأنفه الكبير ، فأخرج من جيب سترته منديلاً حريرياً بنفسجياً ، ومسح رأسه الاصلع وخديه .

كل ذلك تمثلته اولغا فاسيليفنا بجلاء كبير ، لأن سيريوجا صوَّر الحديث فيما بعد باسهاب وبلاغة مقلداً حركات غيورغي مكسيموفيتش وصوته ، بجودة الممثل التي يتقنها .

— اذا أردت الحق كنت في باريس مرتين . . . المرة الاولى حين كنت صبياً تماماً ، ولكن لم يعلق في ذاكرتي شيء من تلك المرة . . . والمرة الثانية في العشرينيات ، حين ارسلوني في ايفاد ، وفي هذه المرة اتذكر بعض الاشياء . . . ولكن ماذا اقول لك ؟ في المرة الثانية سكنا في شارع فوجيرار ، وهو أطول شارع في باريس . . .

وفكر سيريوجا مع نفسه : الديباجة طالت . . . فمتى سيصل الى صلب الموضوع ؟ ظل غيورغي مكسيموفيتش بعد هذا يتحدث لبعض الوقت بحماس هابط ، متصبباً عرقاً ، مهوياً بمنديله ، متذكراً زوجته الاولى التي عاش معها في شارع فوجيرار ، وكانت تعمل كاتبة طابعة في سفارتنا ، بينما كان

يرسم تخطيطات اولية للوحة كبيرة عن كومونة باريس . ولكن هذه اللوحة لم تكمل لسبب غير معروف .

— طيب ، ماذا احدثك عن باريس ؟ — قال غيورغي مكسيموفيتش بصوت ذابل بطيء — باريس جميلة ، بالطبع . . . ولكنها ليست اجمل من اوديسا ، ومن كييف . . . اذ لا يوجد فيها البحر الأسود ، ولا الدنيبر ، بل السين ، وهو ، بصراحة نهر قبيح قذر . . . الصيف هناك وَخِم جداً ، معدوم الهواء تماماً . . .

سأل سيريوجا : ألعل غيورغي مكسيموفيتش يلمح الى أن السفر إلى باريس بلا معنى ؟

هز غيورغي مكسيموفيتش رأسه ، وابتسم بمكر وبدلالة . لا ، ابداً ! فهو كرجل عجوز رأى الكثير في زمانه ، أراد أن يقول : في الماضي كان الناس يقصدون باريس في حالتين : الاولى حين كانوا فقراء جداً ، آملين التغلب على مصيرهم ، والاغتناء في باريس ، والحالة الثانية حين كانوا اغنياء جداً راغبين أن يجدوا هناك المتعة ، وتبذير الفلوس . أما السياحة الحالية فالسيد غيورغي مكسيموفيتش لا يعرف ما هي ، ولا ينوي أن يدينها . . . ضحك سيريوجا : يعنى ، فهمتك ! أنا لا انتمي الى اي من هذين الصنفين ، ومعنى ذلك . . . الله معك ، يا نسيبي العزيز ، لا أريد أن اثنيك ، بل وهيأت ، بناء على رجاء غالينا يفغينفنا مبلغاً من «الأرجان» تحت تصرفك .

ومن جيب السترة المخملية ظهرت حزمة نقود من فئة العشرة روبلات .

— تفضّل — قال غيورغي مكسيموفيتش ، وابتسم بسرور عميم وطيبة بجميع اسنانه الاصطناعية ومدّ الحزمة لسيريوجا ، فقال هذا :

— شكراً .

ولكنه لم يأخذ الحزمة . شعر في تلك اللحظة بثِقَلٍ غريبة ، على حد قوله ، وكأن كل شيء راح يتراجع فجأة بالاتجاه الذى جاء منه .

وضع غيورغي مكسيموفيتش الحزمة على الطاولة قرب سيريوجا . واستأنفا الحديث . استفسر غيورغي مكسيموفيتش عن العمل ، وعن سير الاطروحة .

كانت الاطروحة تسير سيراً سيئاً . ولم يكن سيريوجا يحب التحدث عن ذلك . أخذ يجيب باقتضاب وبلا اهتمام ، ولم يرد كلياً عن أحد اسئلة غيورغي مكسيموفيتش ، صمت ، وانغلق على نفسه ، وراح ينظر في النافذة ، وهو يخرخر بلحن ، مفكراً في شيء خارج الموضوع . فسأل غيورغي مكسيموفيتش :

— هل يمكنني أن اساعدك في شيء ؟

شكره سيريوجا ، وقال أنْ ليس في وسع أحد ان يساعده . وكيف يمكن أن يُساعد على وجه التحقيق . إذ ليس الموضوع يتعلق بطلاء سياج او بعزقة تربة في حديقة خضروات . وأخذ يحتدم شيئاً فشيئاً . لقد بدا له أن غيورغي مكسيموفيتش يظهر عطفاً عليه ، وكان العطف شيئاً كريهاً له بشكل خاص ، وهنا قرر نهائياً أنه لن يأخذ النقود .

— هل تعرف كيف كنت اتصرف حين يتعسر عمل عليَّ ؟

— غمغم العجوز ، دون أن يحدس أنه في تلك اللحظة كان يجب أن يسكت — كنت اجد في نفسي القوة على إتلاف ما بدأت به ، والبدء من جديد . . .

هزّ سيريوجا رأسه مؤيداً ، مبتسماً :

— نعم ، نعم ، أنا فاهم .

— وصلت الى مأزق ، ها ؟ — وصوَّر العجوز شيئاً بيديه — عليك أن ترتد بضع خطوات ، وتبحث . ها ؟ عن طريق آخر ، مجرى آخر . . يجب ان تكون في حركة دائمة ، وعند ذاك . . .

— أنت محق تماماً ، أيها المرشد العزيز ، وابداعك يؤكد بشكل رائع . . .(دخلت اولغا فاسيليفنا الغرفة ، وسمعت هذه الكلمات فتأوهت في سرها . فقد فهمت ان سيريوجا في مرحلة الهيجان الأخيرة ، لأنه تحوَّل الى التعابير اللاذعة) ولكن لا تقلق ، ارجوك ، يا غيورغي مكسيموفيتش . . كل شيء سيكون على ما يرام . أنا اعدك ، وحين رأى اولغا فاسيليفنا داخلة ، اسرع فقال — تهيئي للخروج . لقد أتممنا اجتماعنا . . . يجب الذهاب الى البيت .

هتف غيورغي مكسيموفيتش :

— خذها ! انت نسيت شيئاً ما !

ولوَّح بالحزمة رافعاً اياها فوق رأسه ، كالعلم .

أثارت «شيئاً ما» هذه نوبة جديدة من اللذاعة لدى سيريوجا .

— ليست هذه «شيئاً ما» بل مبلغ معين من الاوراق النقدية التي تكرَّمت بها ، يا غيورغي مكسيموفيتش ، وما الى ذلك . . . وأنا اشكرك بحرارة ، ولكن شكراً ، دبّرت أمري . شكراً جزيلاً !

في الخارج ، وبعد صمت طويل ، أوصى اولغا فاسيليفنا بأن لا تخبر والديها ولا اي انسان آخر بشؤون الأطروحة ، ولا بشؤونه بشكل عام . وكان وجود ايرينكا يعيقه ، ولكن اولغا فاسيليفنا رأت أنه يضطرم . كان يلقى بالعبارات القصيرة الغاشّة

التي لم تكن ايرينكا تفهم معناها بالطبع ، ولكنها رأت والديها يتشاجران . والأب يهاجم ، ولهذا أخذت بيد أمها ، ونظرت الى أبيها بغضب . كانت في الحادية عشرة من العمر آنذاك ، حتى صارت تنفذ الى احاديث الكبار بقوة . كان ابوها يقول ان كل انواع استجوابات العطف والنصائح والتوصيات القائمة على التجربة الشخصية ليست فقط غير ضرورية له ، بل وعديمة الفائدة ، فلتذهب اذن الى الشيطان ! اصطبرت اولغا فاسيليفنا طويلاً ، وهي ترى أنه مشحون الى اقصى حد . ولكنه حين ذكر كذبة واضحة : «نبهتك اكثر من مرة أن لا تخبرى احداً بشؤوني ، بينما انت تثرثرين ، يا مهذارة !» لم تصطبر وقالت انت غير محق ، فأنا لا أثرثر ولا حاجة إلى أن تصب غضبك عليَّ .

— من اين يعرف بالتفاصيل ، اذن ؟

— انت الذي حدثته بها .

صاحت ايرينكا :

— وانت لماذا لا تقدر أن تكتب اطروحة .

— ينقصك شيء هنا . . . — ونقر على يافوخ ابنته — شش !

ركضت ايرينكا الى الامام مبتعدة ، وصاحت وهي ترقص :

— آه منك ! آه منك ! اطروحة لا تقدر تكتب ! آه منك ، آه منك ! اطروحة لا تقدر تكتب !

وتركت فلتة ايرينكا الحمقاء أثرها الفجائي . فانفجر سيريوجا ضاحكاً ، ثم ظل صامتاً ، ولم تنطق كلمة حتى البيت .

ولكن اولغا فاسيليفنا لم تستطع ان تفهم ماذا حصل به . لا لأنها كانت مشغولة تماماً في عملها والمختبر والعلاقات المعقدة التي كانت موجودة في عالمها ، كما هي في كل مكان —

بالمناسبة كانت تحسن التماشي مع الناس ، ولا تخشى التعقيدات — بل لأن موضوعه ، كما تتصوره ، صياغة غريبة من البساطة والسرية . فماذا يمكن ان يكون ابسط مما كان بالفعل ؟ ان كل علم مهم حريص على التقدم الى الامام ، وانشاء شيء جديد ، اما ما كان سيريوجا يمارسه — التاريخ — فيقوم بإعادة تصميم القديم ، إعادة إنشاء ما سبق . كانت اولغا فاسيليفنا تتصور التاريخ طابوراً ضخماً بلا نهاية تقف به واحداً تلو الآخر الاحقاب والدول والناس العظام والملوك والقواد العسكريون ، والثوريون ، ومهمة المؤرخ هي اشبه بمهمة رجل الميلشيا الذي يذهب في أيام العرض الأول الى شباك تذاكر سينما «التقدم» ويراقب النظام ، ويسعى الى أن لا تتزاحم الاحقاب والدول وأن لا تتشربك ولا تغير اماكنها ، وأن لا يركض عظماء الناس الى الأمام ولا يتخاصموا ، ولا يتحايلوا للحصول على تذكرة للخلود دون أن يراعوا الدور في هذا الطابور .

الا إن سيريوجا قد تعذب كثيراً في وظيفته هذه كرجل ميلشيا . وهنا كان يكمن السر . لم يكن في مستوى عقلها . لماذا لا ينكب في دأب على الارشيفات شهراً ، شهرين ، ثلاثة ، خمسة أشهر ، وقدر ما يقتضي العمل ، ويخرج من الطابور الجبار كل ما يتعلق بدائرة المخابرات في موسكو في عشية شباط ويدرس ما اخرجه بنقاء ضمير ؟ ذلك أنه لم يكن بحاجة الى خلق شيء غير مرئي . ليس مثلما يقدح فكرها هي واندريه ايفانوفيتش على المنشط البيولوجي للتعددية . يحاولان أن يخلقا شيئاً ما يزال غير موجود في العالم ، لا في امريكا ، ولا في اليابان ، ولا في اليونان القديمة ولا في مصر ، ولا في اي مكان. كان سيريوجا يمكث في الارشيفات من الصباح حتى المساء .

ملأ بالكتابات ستة وثلاثين دفتراً سميكاً عاماً . ستة وثلاثين ! احصتها منذ وقت غير بعيد . ومع ذلك فقد كان يعوزه شيء ما — المعرفة الاخيرة ، الخبرة الأخيرة — أو ربما كان يعوزه الولع ، الرغبة . . .

كانت لديه اوقات يفقد فيها الاهتمام فجأة ، والأدق يتحول اهتمامه الى شيء مختلف تماماً .

وهذا ما حصل لسفره الى فرنسا . قال فجأة أن أية رغبة في السفر قد زالت . «لا يناسبني الآن» تلفنوا من اللجنة النقابية ، وابلغوه أن عدد المسافرين قد قلص ، وهو ، مع الاسف ، من ضمن غير المسافرين . استمع بعدم اكتراث ، وتمتم بصوت ذابل — كأنما من اللطف — ببضع كلمات : «ما هذا الذى تقوله ؟ خسارة . . .» ولكن الارجح ، كما ظنوا ، أنه محتفظ برباطة جأشه جيداً ، بينما هو في واقع الحال مطعون غماً . ولكنها رأت أنه غير مكترث بالفعل ، إذ فقد اهتمامه .

قال لها :

— ماذا سأرى هناك ؟ ما احتاجه سأجده هنا فقط . . .

في البداية كان بحاجة الى اشياء كثيرة جداً . لقد كانت وهي لا تتصور بالكامل حجم وجوهر عمله الذي فكر فيه ، تحدس اكثر فأكثر أنه يطمح الى شيء كبير للغاية ، بل وغير محدود . فقد قالت له ان اطروحة اندريه ايفانوفيتش لنيل درجة الدكتوراه عن المنشطات البيولوجية مكتوبة بشمول مذهل وايجاز . ولم يكن فيها اي تفصيل زائد . فكأنها كلها تتوثب على نابض ، بسيطة متحركة ، كالقفل الانجليزي . وكان نابضها الفكرة . حدس نابغ واحد لاندريه ايفانوفيتش عن التركيب الانتشاري للمنشطات . وانت ، اية فكرة لك ؟ هل

عندك شيئ شامل يمسك في وحدة كل دفاترك ومقتبساتك وحقائقك واستشهاداتك .

وكان هذا صادراً عن الرغبة في المساعدة ، وليس عن تقريع . ولكنه لم يكن يتحدث اليها عن عمله بجد ، والأصح إنه لم يكن يطرح افكاره الى النهاية ، وكانت تشعر أنه كان يُبقي بعض الافكار في باطنه ، كاحتياط لا يُمس . أو ربما . . . فجأة ، لم يكن هناك اي احتياط ؟ وكل ذلك خداع ، والأدق خداع النفس ؟ والى هذا بالذات لمح غينكا كليموك حين جاء ذات مرة وهو ما يزال في بداية ممارسته لوظيفته الرفيعة — ليتحدث عن سيريوجا سراً .

كان من الصعب فهم ما كان يريده . حين ذاك لم يكن واضحاً ، والآن بشكل خاص ، فقد اختفت التفاصيل . جاء فجأة ، في اليوم الذي كان فيه سيريوجا في لينينغراد . دخل يحمل زهور الميموزا ، ويرتدي قميصاً أحمر ، وجوارب حمراء ، كالفتى الصغير ، وعانق اولغا فاسيليفنا ، بل طبع قبلة متمطقة على خدها ، على طريقته الخاصة . فقالت له منادية إياه بلقبه :

— اياك ، غينيتاتشيك — ولوّحت باصبعها مهددة — زوجات الاصدقاء لا يُقبلن إلا بحضور ازواجهن .

فطلب أن لا يسمى بتسمية الكلب هذه التى تخوف بها النساء .

وللحظة ظهرت مسحة شيطنة على وجهه ، وجه صبي شبّ عن الطوق . ولكنها احست — بقلبها عادة ، حين يكون الأمر متعلقاً بسيريوجا — أن وراء هذه الشيطنة غيظاً . ماذا كان الغرض؟ تكلم بضيق عن «الوضع الزائف» عن «التزامات» وعن كون

سيريوجا قد قبل بموجب شروط معينة ، ولكن سيريوجا استطاع — بمساعدة فيديا — تغيير موضوع الاطروحة ، وهذا سيء . لسبب لم تستطع اولغا ان تفهمه . خرق لخطة المعهد او شيء من هذا القبيل .

وقال بنبرة تزداد صرامة :

— وتساهلنا معه . وافقنا على طلبه مع الاضرار بنا !

لم يكن يتكلم كصديق ، بل كموظف متسامح . واذهلها هذا . في الدقائق الاولى تقبلته برحابة صدر ، وبشيء من الاستهانة ، لأنها كانت تعرف أنه يتغيَّر نحو الاسوأ ، وكانت تود أن تلقنه درساً ، ولكن كلامه ولهجته بعد ذلك صعقاها الى حد أنها من الذهول وبشكل لا ارادي تماماً اخذت تتحدث معه وكأنه رئيسها :

— حسناً . سأتكلم معه . سأبلغه .

شيء واحد كان واضحاً ، وهو ان في امكانهم أن يحولوا دون أن يدافع عن اطروحته .

كل شيء كان مطروحاً بشكل عناية به : إنه يضر بنفسه ، سار في الاتجاه غير الصحيح ، وقع في سبخة ، اضاع الخيط الذى يهتدي به .

— سيريوجا عنود بشكل وحشي . انت تعرفين ذلك — فجأة نطق بهذه العبارة الانسانية — واذا لم يتوقف في الوقت المناسب فإنه سيؤذي نفسه .

لم تعرف هل ستخبر سيريوجا ، أو ربما تخفى ذلك عنه لفترة من الزمن ؟ وعاد سيريوجا من لينينغراد متعباً ، غاضباً ، فقد كانت الاحوال كلها سيئة هناك : الطقس ، والفندق ، والمعارف غير المحترمين بما فيه الكفاية لم يظهروا اهتماماً به ،

والأهم انه لم يجد في الارشيف ما كان يبحث عنه . ولكنها اخبرته على كل حال . ودهشت لأنه استقبل في هدوء ما اخبرته به ، بل وضحك باستعلاء .

— الحمقى المساكين يخافون جميعاً أنني سادافع عن بروسوف .

وتوليا بروسوف هو الشخص الذي كان كليموك يسومه سوء العذاب .

ولكن ليس هذا صلب الموضوع . إذ لم تكن لبروسوف أية علاقة في ذلك ، وبعد سنتين ، حين جرى التحقيق فى «قضية» سيريوجا نفسه وقف بروسوف وكليموك في صف واحد . لم تكن تعجبهما الطريقة التي اتخذها ، والتي سمّاها بين الجد والهزل «نبش القبور» . وفي اغلفة الكثير من دفاتره كتب «ن . ق» ويعني بها «نبش القبور» ويقول إنه كان يتعامل مع هذه الطريقة الرومانسية جاداً اكثر منه هازلاً . كان يبحث عن الخيوط التي تربط الماضي بماض اكثر بعداً وبالمستقبل .

ومما التقطته اولغا فاسيليفنا آنذاك ، ان الانسان خيط يمتد عبر الزمن ، عصب التاريخ الرهيف للغاية ، والذي يمكن ان يُستل ، ويُميز ، وتحدد اشياء كثيرة بمقتضاه . كان يقول : إن الانسان لن يتقبل الموت أبداً ، لأن في داخله احساس بلا نهاية الخيوط التي هو جزء منها . ليس الرب هو الذي يمنح الانسان الخلود ، ولا الدين هو الذي يلهمه الفكرة ، بل هو ذلك الإحساس المكتشفة رموزه ، والمتوارث بالإجّنة ، احساس التواشج بسلسلة لا نهاية لها . . . وكانت تبتسم ، وهي تسمع اقواله هذه عند العشاء ، وفي الفراش ، حين كان ينتابه فجأة هوى التدخين والتفلسف . وهل كانت وهي البيولوجية والمادية ،

بحاجة إلى دحض هذه الافكار ؟ ليتها ، يا رب ، كانت تستطيع أن تُغيّر نفسها ! لدقيقة على الأقل . ولكن ذلك كان متعذراً عليها ، مع الاسف . كانت تعرف معرفة راسخة أن كل شيء يبدأ وينتهي بالكيمياء . لا شيء غير المعادلات ، لا في الكون ولا في خارجه . كم مرة سألها بجدية تامة :

— اسمعي ، هل معقول انك تتصورين أن من الممكن ان تختفي من العالم بلا أثر ؟ وانني يمكن أن اختفي ؟

اجابته باندهاش حقيقي :

— وهل معقول أنك تتصور أن من غير الممكن أن تختفي ؟

فكان يقول : مهما أجهد عقله ، وألهب خياله فلن يستطيع ان يتصوّر . . .

وها هو قد اختفى . ليس له وجود فى اي مكان ، أتحد مع اللانهائية التي كان يتحدث عنها في وقت ما بسهولة ، وهو يدخن سيكارة . يا رب ، اذا كان كل شيء يبدأ وينتهي بالكيمياء فمن أين الألم اذن ؟ وهل الألم كيمياء ؟ وحياتهما التي ومضت بغتة ، مثل مصباح احترق ، هل يعقل أنها كانت نتيجة معادلات ؟ إنسان يرحل ، ورحيله عن العالم يُرافقه انبثاق على شكل ألم ، ثم ينطفئ الألم بعد ذلك ، وفي وقت ما ، حين يرحل اولئك الذين يشعرون بالألم ، يختفى الألم تماماً . يختفي تماماً تماماً . لا شيء غير الكيمياء . . . الكيمياء والألم هما كل ما يتألف منه الموت والحياة .

وقد بدأ ذلك عنده ، بدأ ما كان يسميه «نبش القبور» ، وفي الحقيقة كان التماسٌ بالخيط ، بحياته ، بذلك الخيط الذي كان جزيئة منه . بدأ من أبيه . كان يحب كثيراً الذكرى الضعيفة التي تبقت منه . كان يتصوّر أن اباه كان رجلاً رائعاً ، وذلك ،

في اغلب الظن ، مبالغة ، وكبرياء في بعض الوجوه . لقد ورث ذلك في الكثير من الكسندرا بروكوفيفنا التي رفعت زوجها الى مصاف شخصيات من مثل غوركي ، لوناتشارسكي ، ناديجدا كروبسكايا ، وترويتسكي . بعد الحرب الأهلية قام الأب بشيء في حقل التعليم . وفي عام ١٩١٧ ، بعد ثورة شباط ، حين كان طالباً في جامعة موسكو ، عمل في اللجنة التي فحصت ارشيف ادارة الجندرمة . وكشفت اللجنة عن المتعاونين السريين مع شعبة المخابرات السابقة . وحين وقع سيريوجا على هذه الحقيقة — مشاركة أبيه في عمل هذه اللجنة — أخذ ينبش ، وتسلل الى الارشيف ، وانغمر في هذه الحكاية كلها . وبعد ذلك أخذ — لسبب غير معروف ومن مصدر غير معروف — يدرس عائلة أبيه وجده وحتى جد جده ، ومن اجل ذلك سافر الى بينزا .

حدست اولغا فاسيليفنا أنه تقصى الاعماق القصوى . كان كل ذلك مثيراً للإهتمام وممتعاً . ولكن لأي غرض ؟ قالوا ذات مرة في أحد البيوت يمكن التعرف على حفيد حفيد شاعر مشهور . وقد تلقّف ذلك بفرح ، وقال :

— سنزوره حتماً !

اخذتهما احدى النساء العاملات في دائرة اولغا فاسيليفنا . قالت إن حفيد حفيد الشاعر ليس له الوقت الكافي ، وسيحتسي الشاي ، ويجلس نصف ساعة ، وينصرف قبل الساعة الخامسة . وجرى اللقاء في بيت جديد من القوالب الكونكريتية في حي جيريوميشكي . كل ما في تلك الحجرة النمطية ذات السقف الواطئ كان يبدو وكأنه مؤلف من كِسَر . حول المنضدة المغطاة بمفرش بسيط — دفعت ربة البيت طرف المفرش ، وابانت سطح المنضدة المنقوش

المزوق المصقول بدقة — تحلّقت الى جانب المقاعد الاعتيادية المشتراة من مخازن الموبيليات التجارية كرسيان بسيطان من مخلفات بداية القرن الماضي لهما رأسان مذهبان لايبى الهول على ظهريهما العاليين . وشربوا الشاي في اكواب من انتاج معامل كوزنيتسوف وغردنير كانت بالطبع ، كسراً هي الأخرى من طقوم مهشمة .

كان حفيد حفيد الشاعر متوسط العمر ، وضّاح البشرة ، متجعداً ، ذا فودين مشذبين على الموضة . وكان يرتدي سترة زرقاء مزينة بالمداليات والعلامات . وقد رنّت الملعقة حين كان يقلب السكر في كوبه ، وينقر الطاولة باصابعه ، ويروي بعجالة وكلمات فيّاضة غير مفهومة حكاية مشربكة عن تبادل الشقق . وخلال ذلك كان يكرر بين الحين والآخر «بخصوص» . كانت اولغا فاسيليفنا تلتهم حفيد الحفيد بكل بصرها في البداية غير عارفة عم تتحدث معه ، وكان سيريوجا صموتاً ايضاً وبدا عبوساً ، ولكن اولغا فاسيليفنا اخذت بعد ذلك تتحدث مع حفيد الحفيد حول استبدال السكن ، واعطته نصائح ، لأنها هي نفسها قامت باستبدال شقتها قبل حين .

غمغم حفيد الحفيد :

— بخصوص اقتراب الذكرى اليوبيلية . . . كتبت رسائل بهذا الخصوص . . . الاكاديمي فيلغلاسوف وعد بالتوقيع ، الفنان سونين وقّع . . .

كانت العجائز يتكلمن فيما بينهن بالفرنسية . وبعد قليل استعجل حفيد الحفيد للخروج ، وطبع قبلة على خد احدى العجائز ، وقبّل ايدي الأخريات ، وتناول سندويتشاً من المائدة ، ولفّه بمنديل ورقي ، وقال :

— لا يوجد بوفيه على مقربة . إنه مكان مهلك بهذا الخصوص .

سألت احدى العجائز :

— الى اين ذاهب اليوم ، يا الكسي ؟

ونطقت الكسي كما يُنطق بالفرنسية فصفر حفيد الحفيد :

— أوه ، بعيد ، يا عمة — ونطق «يا عمة» بالفرنسية — المواصلات من هناك ممتازة . في المترو الى سوكولنيكي ، ومن هناك في الباص لخمس دقائق . . .

وحين انصرف قالت العجائز إنه في ايام الآحاد يصير حَكَماً في لعب كرة القدم . وهو مهندس ، يتقاضى راتباً غير كبير ، وزوجته مريضة ، وله طفلان .

ساروا في بولفار مظلم ، وسيريوجا متجهم .

— كان الأحرى أن لا نأتي . . . هناك واحدة من اثنتين اما أن يكون في هذا العاطل شيء مخفي ملغز ، واما أن ذلك الشاعر الشهير كان فيه شيء «بخصوص» . . .

بدا له أن الخيط الذي يصل الاجيال لا بد أن يكون بإناء تصب فيه عناصر لا نهاية لها . وكان ذلك يتعلق بالبيولوجيا أكثر مما يتعلق بالتاريخ . حين انغمر كلياً بدراسة المخابرات ، لا سيما بمخابرات موسكو في عشية ثورة شباط وضع من الوثائق قوائم العملاء السريين مع الاشارة الى جميع «مآثرهم» في الوظيفة و«جداراتهم» امام الوطن — العمل الاستقصائي استغرق ما لا يقل عن سنتين ، ولم يكن إلا جزءاً من الاطروحة — وكان يهتم إلى جانب النواحي الاخرى بما دفعه إلى الالتقاء بحفيد حفيد الشاعر ، وهو البحث عن الخيوط . فقد توهَّم أن فيه شيئاً مهما بشكل غير اعتيادي . وكان يعمل في بعض الاحيـــان

بحماس شديد . حين كان يعود الى البيت من المكتبة أو من الارشيف كان لوجهه احياناً لون التراب ، ولا يكاد يقف على رجليه ، ولا يستطيع ان يجلس الى مائدة العشاء رأساً . كان يستلقي بضع دقائق ، ويهدأ قلبه . وفي السنتين الاخيرتين هزل هزالاً شديداً حتى أنه كفَّ عن شرب الخمرة . وكانت توجه اليه دعوات فيرفض ، الى هذه الدرجة كان العمل يمتصه . كان يضع فيه أكثر بما لا يقاس مما كان ينبغي ، مما كان من الممكن أن يستوعب .

ذات مرة جاء مساء وكان مظهره كشارب خمرة ، وكان يبتسم بغرابة . وارتعبت اولغا فاسيليفنا ، لأنه ، اذا كان قد شرب ، فمعنى ذلك أن هناك شيئاً قد نغَّصه . سألت :

— شربت ؟

— لا شيء . ما هو موجود في البوفيه فقط .

وظلَّ يبتسم بغرابة . وادركت أن الأمر ليس بتلك البساطة .

كما أن أمه تحسست شيئاً ما ، وحامت في المطبخ ، حيث كانت اولغا فاسيليفنا تعد العشاء . كانت تعرف أنه ليس مستعداً دائماً إلى المكاشفة بحضور الأم ، وبينما كانت الأم تحوم كفَّت اولغا فاسيليفنا عن طرح الاسئلة عليه . أما هو فكالغريب وضع ساقاً على ساق ، وراح يدير بوز حذائه . وينظر في النافذة . وما إن خرجت أمه حتى قالت اولغا فاسيليفنا بهدوء :

— وضِّح ما حصل . . . فأنا أرى من هيئتك .

هزَّ رأسه ، ولم يقل شيئاً . كان البيض المطروق قد أُعد . نغزه بالشوكة ، وتركه . عادت الحماة الى المطبخ مرة أخرى ، وتسمَّعت الى كل كلمة ، وأخذت اولغا فاسيليفنا عن عمد تقص عليه حكاية فارغة سمعتها في مكان عملها . وبعد ذلك شرب شاياً

10-264

ت تتصور ؟ لماذا يتوجب عليهم ؟ مَنْ انت

أخرى مرشدة وحادة . وصمت سيريوجا ونظر
مثل تلك النظرة التي تطل من عينيه حين يستغرق

ت عن جد ؟
ه بحدة . فارت فيها نوبة وضيعة من الانفعال .
رج . وبعد دقيقة عاد يحمل حقيبة . لم تفهم
يسافر . وحين قال إنه سيسافر لبضعة أيام الى
القرية — وكان ذلك حماقة لأن احداً لم يدعه
ولا مكان للسكن هناك ، فان كل اقارب عمته
من الحجرات الخارجية الصيفية والسقائف إلى
نهى الصيف — غضبت اولغا فاسيليفنا ولم تستطع
ها ، وراحت تصيح بصوت عال أن ذلك تهرب
كان سيسافر الآن الى القرية فانها ستخلع عن
ية عن صحته ومعيشته ولا تعطيه اية نقود البتة .
وعيب صياحاً لا يمكن أن يكون إلا في حالة
جاءت الحماة على الصياح ، وهرعت ايرينكا
وفي تلك اللحظة ابلغ أمه بالمناقشة ، وبأنهم قد
الدفاع عن الاطروحة يؤجل الى ما لا يقل عن
ن المستحيل على اولغا فاسيليفنا أن تفهم : لقد
أن لا تخبر أمه مهما كانت الظروف ، وها هو

كما هي بالنسبة لاولغا فاسيليفنا . فان العجوز كانت دائماً تتخذ هيئة رصينة في اللحظات الصعبة ، حين يتوجب إظهار الحكمة والاتزان . وكان يبدو لها أنها في هذا الخصوص لا تُضارع .

— هدوء ، يا رفاق ، بلا هلع ! بلا هلع قط ! — كانت تقول بلهجة قوميسار يشجع المقاتلين — ما وجه الغرابة هنا ؟ ابدوا ملاحظاتهم ؟ جيد جداً ! كلما كثرت الملاحظات كان افضل لنا . وصار المحتوى أكثر قيمة . أنا لا افهم . لماذا ارتخيت ، يا ولدي . . .

— لم يرتخ أحد . ولكن لا تعجبني كل هذه الحقارة .

— لا يمكن أن تعجب احداً . ومن يمكن أن يعجب بها ؟ ومع ذلك ، لا يجوز في كل الاحوال . . حين كان أبوك . . . لو كان ابوك . . .

وراحت تهدئه ، منتقلة بالتدريج من لهجة القوميسار الى لهجة جدة طيبة ، بل وربتت على خده قليلاً . وبدت هذه الإمارة لاولغا فاسيليفنا زائفة . أخذت تتكلم معه كما تتكلم مع صبي في العاشرة من العمر . وساير هو هذا الاسلوب . قالت اولغا فاسيليفنا على العموم لا يوجد هلع ، ويجب يُروى في كل شيء بهدوء ، وان تؤخذ الملاحظات بعين الاعتبار ، ويُعدَّل ما هو ضروري ، وما انت موافق عليه في قرارة نفسك ، وباختصار أن تشمر ذراعك للأمر ، ولكن دون الاستسلام للضعف . سيريوجا يريد السفر الى القرية ، وهذا غير صحيح ، هذا تهرب من المصاعب .

وهكذا قالت اولغا فاسيليفنا ما يمكن أن يكون صحيحاً في

مع حاجاته في الحقيبة .
لست على حق ، يا اولغا — قالت الكسندرا
لت ثانية من لهجة الجدة الطيبة الى صلابة
— لست على حق تماماً ! اذا كان يحس بانه
لسفر ، فليسافر إلى فاسيلكوفو . ليأخذ كتبه
ي في هدوء .
لن يشتغل ! إنه سيشرب الفودكا مع كولكا .
ي بسوء حالته .
لا تريد ماما ، فلا تذهب ! — قالت إيرينكا ،
يبة ، وأخذت تقذف منها امتعة أبيها .
ركضت هاربة ، وقد التقطت ثياباً داخلية وماكنة
ر الحديث — يسافر او لا يسافر — الى الساعة
م ينته الى شيء . وقد تأخر الوقت على السفر ،
بروكوفيفنا دورها كحاكم عائلي ممتلىء بالنبل

م لماذا الحداد على وجهيكما كليكما ؟ تأجيل
ل الرقي في الدرجة ، أليس كذلك ؟ لا بأس ،
ك . عندما كنا في مثل عمركما لم نفكر في
من كان يفكر في الفلوس ؟ المنتفعون بسياسة
، المستثمرون المجردون من الحقوق المدنية .
كن لنا الوقت للاهتمام بذلك . كنا منغمرين
عمل والاصدقاء والاحداث . نعم ، نعم ،
تبتسمي ، يا إيرينكا ، عندما كنت في عمرك

لا يشغل ذهنك غير السينما والدوندرمه . في العشرينيات كان افانسي دمينتيفيتش يتقاضى راتباً متواضعاً جداً ، وأثاث بيتنا كان حكومياً . . . ولم نكن بحاجة الى شيء ما عدا الكُتب . . . وحتى الكتب كان افانسي دمينتيفيتش يستعيرها من المكتبة العامة . . لم تكن له بدلة سهرة سوداء قط ، ولم يلبس ربطة عنق . . . لا تقلق ، يا ولدي ، سأساعدك ، في الحالة القصوى ، إذا وقعت في ضَنْك . يجب ان تعمل دون أن تفكر في شيء .

بعد يومين سافر الى فاسيلكوفو .

كان يعذبها أنه كان يتلهف ، وهو يجابه سوءاً ، الى السفر لوحده ، وليس معها . وكان هذا يعني أنها لم تستطع ان تكون سنداً له . وهذا ما كانت تحسبه أمه . كان ذلك مخجلاً . مثلما كانت توحي له وكأن البلية في سقوط الاطروحة — حسب رأى اولغا فاسيليفنا — تكمن في ان راتب المرشح فى العلوم اختفى . انها لم تكن تفكر في الفلوس ! ذهنها لم تشغله أية فلوس ! ما من أحد في عائلتها يفكر في الفلوس ، ما عدا إيرينكا التي تشتري اسطوانة مرة ، وقلادة بسعر ثلاثة روبلات مرة أخرى . لا حاجة الى التباهي بالايثار الى هذا الحد . وشعرت اولغا فاسيليفنا بصدمة ألم انفجرت بسببها ، صاحت ذلك الصياح المخجل الذي كان رد فعله الفوري رحيله عنها . وكأنما هي أس البلية . والنجاة في الابتعاد عنها . ولكنها هدأت قليلاً فيما بعد ، وقبلت بذلك كما أنه هو ايضاً فتر وتروى في الأمر ، وقرر عدم السفر إلى فاسيلكوفو . ولكن قدوم كليموك هدم كل

ل تمشيهما . واخذت اولغا فاسيليفنا تقلق .
الساعة الحادية عشرة والنصف . قال :
! انتهت المسخرة ! تشاتمت مع غينادي
عتمد عليه .
حالياً من التفجع . حصل ما كانت الأمور سائرة
لا على اي شيء كان ذاك .
ز ذراعه — على كل شيء .
في هيئته ، يبدو عليه وكأنه لا يود أن يتحدث
لا يساوي الجهد . ولكنه تحدث في نفس
قصير . كان هناك حب . كان ، لسبب ما ،
ليلة ، حين تحدث لاول مرة عن كيسلوفسكي .
و حالاً ، كان يؤثر فيه ما يشبه المخدر ، بينما
س منه لا يأتيها النوم ، ولكنه في تلك الليلة
أن يتحدث ، فقال إن كليموك راح يقنعه
د لكيسلوفسكي الذي كان بحاجة اليها لاطروحة
فرفض ، وقال لا يريد أن يفقد مثل تلك
ليست موجودة الآن حتى في الارشيف ، بل
كليموك أن يفقد بعض المواد خير له من أن يفقد
أن هذه حكاية قديمة . نعته كليموك بالمغفل ،
انت خراء !» .
ان ؟ اية مواد تلك ؟ لم تعد تذكر سوى أن
اخرجها من مكانها — حصل ذلك مصادفة
فرح فرحاً لا حدود له . قوائم المتعاونين السريين مع

أُحرقت . وقد ظفر بهذه القوائم من مكان ما . عثر على شخص لا تعرف اولغا فاسيليفنا ما اذا كان سكيراً أو نصاباً أو متشرداً تعيساً متحللاً — لأن بصرها لم يقع عليه . له اسم غريب هو سيليفون أو سيليفان أو شيء من هذا القبيل — باع القوائم لسيريوجا لقاء ثلاثين روبلاً . يبدو أن جده كانت له علاقة بالمخابرات ، وكان موظفاً صغيراً فيها ، وقد احتفظ بالقوائم ليخوف الناس بها ويبتز الفلوس منهم . وفي وقت من الاوقات كان سيريوجا مولعاً جداً بهذه الحكاية ، الخيالية تماماً . وكان بعض الناس لا يصدقون بسيريوجا ، ويقولون ان صاحبه سيليفون محتال ، وان القوائم مزيفة ، لفّقها شخص إن لم يكن اليوم ، ففي العشرينات . ولربما كانت تستخدم وسيلة للابتزاز . وكان في المعهد بروفيسور يدعى فياتكين كان يعترض عليها بشكل خاص . وقد فكّر سيريوجا في نقاشه مع فياتكين في تلك السفرة الى غروديتس . وعن هذه القوائم بالطبع — في ملف له مشدات وردية — كان يتحدث بيزيازيتشني ايضاً ، ويسعى اليها كليموك .

لم هذا ؟ إن كيسلوفسكي لم يعد يعمل في المعهد . لن تعطيهم شيئاً . عجباً بأي شيء كان لو تساعد كليموك .

إذن ، فقد سافر سيريوجا لوحده الى فاسيلكوفو . — كان ذلك في ايلول الدافئ ، في الثلث الاخير منه — وبدأت عذاباتها . مرَّ يوم ، وآخر ، وثالث . في البداية قاومت نفسها . ارادت ان تتغلب على القلق القاضم ، والشوق اليه ، الهلع عليه ، وقد كان ذلك ، في واقع الحال تبعية له مهينة وقاتلة ، وتضرعت الى نفسها ان لا تفكر فيه ، ولا تتذكره ، وتنغمر في العمل .

يعرف اي شيء كان ، أي تشوش لا يرحم نما في داخلها بشكل لا يكبح ، ولذع نفسها . وكانت تعرف انها تسافر ، سوى أن تجد ذريعة لذلك . وفي تلك اللحظة بالذات جاءت رسالة من المعهد عليها الختم الحكومي ، وتحتوي على اعلان رسمي من القسم : جرت المناقشة . وادخلت تعديلات معينة ، قائمة طويلة ، موعد الدفاع يؤجل الى الشهر الفلاني من السنة القادمة . وبمجيء هذه الرسالة ، وحتى دون ان تنتظر عطلة الاسبوع أخذت اجازة لليوم الاخير من اسبوع العمل كيوم اضافي ، كان مسجلاً لها ، وسافرت على عجل .

كانت فاسيلكوفو قد دخلت في **حياتهما** منذ زمن بعيد . كانت ايرينكا آنذاك في الرابعة أو الخامسة من العمر ، وكان البيت الريفي في كليازما قد سقط من الحساب ، فاخذوا يبحثون عن بيت آخر . نصحوهم ان يبحثوا في ناحية الطريق الشمالية وذات مرة جاءوا دون ان يكون في ذهنهم أي عنوان معلوم ، ونزلوا من القطار بعد خمسين دقيقة — مجرد أن الرصيف الخالي أعجبهم وخمائل الاشجار ، والمرجة الرحيبة — وساروا نحو قرية تلوح في الأفق . كان بيت العمة باشا مزينا بلافتة عليها فأس . وهذا الفأس هو الذي اوقفهم ، لِمَ الفأس ؟ وما علاقتها ؟ وقفوا ، وتناقشوا سوية مع ايرينكا ، وفي تلك اللحظة خرجت العمة باشا الى الفناء ، وسألوها إن الصبية تتساءل . فاوضحت العمة باشا حين ينشأ حريق نحتاج الى فأس . وعلى البيوت الأخرى لافتات أخرى على بعضها رسم جردل ، وعلى أخرى خطاف . وهكذا نزلوا في بيت العمة «في بيت الفأس» . وفيما بعد ، بعد سنين ، وقد قضوا اصيافا في بيت العمة باشا عدة أصياف حارة وغائمة ، وممطرة ومشمسة ، كان زوج العمة ، العم فانيا ، ايفان

بانتليمونوفيتش رجلاً بسيطاً وديعاً قصير القامة ، نجاراً دائم الخروج مع الفريق في مهمات لا نهاية لها ، ولهذا كم كان يتغيب عن البيت في الصيف ، ولا أحد يعتبره رب البيت ، والعمة باشا الكل في الكل ، والعمة باشا إمراة جبارة ، ضخمة الجسم ، كدودة ، عالية الصوت ، ولكنها طيبة القلب . وفيما بعد ، حين تعرف سيريوجا عليها جيدا ، وعرف إبنها كولكا ، كان غالباً ما يعود بأفكاره واحاديثه الى البداية ، الى الفأس . وكان يحب بشكل خاص أن يناقش هذا الموضوع ، وهو ثَمِل : «البيت ذو الفأس ! ليس هذا باليسير ، يا أم . . . هذا رمز . . . هذا مشحون باشياء لا محدودة . . .» .

واحياناً كان يتفلسف وكأنما عن جد ، واحياناً في حضور المصطافين من امثال ليف سيميونوفيتش الفيزيائي او كوريانسكي مطرب المتنوعات ، وهو عجوز لطيف للغاية ، من اولئك الذين يأتون لشرب الشاي أو تذوق القطر ، كان يثرثر عن الفأس ، منكّتاً ، مقلداً اسلوباً متعجرفاً قديم الطراز «أيها السادة ، ألا تعرفون أين يحتسون الفودكا ؟ في البيت ذي الفأس . . . فالتزموا الحذر اكثر . . .» ويظل ينكّت ، وينكت حتى توعد بالشر .

كان النهار صافياً مجلواً ، ولكن مع برودة ، والسماء عالية ، والطريق خلال الغابة فوّاحاً برائحة الاوراق الساقطة ، الرائحة المحبوبة لدى اولغا فاسيليفنا ، الشبيهة برائحة نبيذ معتق فيه بعض المرارة ، كانت تركض عجلى لا تلحظ شيئاً مما حولها ، مستنشقة هذه الرائحة ، منتشية بها . هكذا كانت تتعجل رؤيته بأقرب وقت ، وكأنما فارقته سنين طويلة ! بينما لم تمض على فراقهما غير اربعة ايام . وكان هو جالساً على الشرفة الصغيرة والكتاب في يده ، وحين رآها قال :

— هذه أنت . . .

لم يبتسم ، ولم يقفز من مقعده ، ولم يقبلها ، بل ولم يأخذ من يديها حقائب الاطعمة المثقلة بالمعلبات والعلب وزجاجتين من نبيذ «بيكافر» الهنغاري الأحمر — كان ميلهما إلى النبيذ الأحمر الجاف ، ذلك الميل الذي ولد منذ زمن غاية في القدم ، كان يبدو وكأنه ما يزال باقياً ، ولكنه صار الآن تقليداً بالأحرى ، كامناً في وعيهما كذكرى عن احسن الاوقات ، واولغا فاسيليفنا ، كانت تحتفظ بهذه الذكرى عن النبيذ الاحمر باعتزاز كبير ، وحملها لزجاجتين من المدينة ، على ثقلهما ، كانت تعني الكثير بلغتهما — بل أتى حركة واهنة بيده كانت يمكن أن تعني ما يشبه التحية ، أو اشارة الى «ضاع كل شيء . . .» ونزل من الشرفة الى الغرفة . وهكذا كان لقاؤهما . وقررت أن تتسامح في كل شيء . تناولت الكتاب الذي كان يطالع فيه . إنه لبوشكين . كتاب مستهلك جداً ، متسخ ، لعله اخذه من مكتبة كولكا .

جلست اولغا فاسيليفنا في الشرفة ، وهي لا تعرف الى أين انصرف عنها ولماذا ، ولا ماذا عليها أن تفعل الآن . ولكنها عزمت عزماً قوياً على أن تتسامح في كل شيء . وضعت الحقائب على الأرض .

بعد قليل عاد ، وسأل ، وهو يحدق في غيظ :

— لماذا جئت ؟

كان عليها أن تقول : مجرد أنها لم تتحمل الحياة بدونه ، وليس لها القوة على مثل هذا الامتحان ، فان ذلك حماقة ، فهما لم يتخاصما ، وافترقا بالحسنى ، وهي تدرك أن من الضروري له أن يخلو بنفسه ، ولكن ماذا تفعل إذا لم تكن لها

القوة على تحمل ذلك . ولكنها بدلاً من أن تقول ذلك لوّحت بالرسالة التي جاءت من المعهد ، وهي تتفوه بالهراء بلهجة رسمية . اخذ يصرخ :

— لماذا جئت ؟ — هزَّ قبضتيه امام وجهه .

خافت أن ينفجر باكياً بعد هذا ، ويسقط ارضاً ، فركضت الى داخل البيت تدعو العمة باشا . كان البيت خاليا . غرفت كوز ماء من الجردل — ماء البئر في فاسيلكوفو مدهش — وركضت الى الشرفة . كان سيريوجا راقداً على التخت ، مديراً وجهه إلى النافذة . جلست الى جانبه ، ومسَّدت شعره ، وقالت بصوت خافت إنها قلقت عليه ، فقد كانت حالته سيئة ، حين سافر . الجميع قلقوا . أمه ، وايرينكا . وذكرُ أمه وابنته كان لا بد ان يرفقه ، ولكنه صرخ فجأة :

— لا تكذبي . لا تشركي ايرينكا وأمي !

حاولت أن توضح الأمر ، ولكنه لم يرد ان يسمع .

كرر :

— لا تكذبي ، قلت لك : لا تكذبي . أتيت لأنك أردت أن تأتي ، ولسبب واحد ، بالطبع ، هو أن شكوكاً حمقاء تقرصك . . .

— لا ، اطلاقاً ! هراء !

انكرت بصدق ، لأنها لم تكن تعترف في داخلها بالشكوك التي كانت تعذبها بالفعل . فقد كانت تتصور أن شيئاً آخر يعذبها . ولهذا فلكأن الشكوك لم تكن موجودة ، وأن في وسعها إنكار هذه الاتهامات ، والغضب الصادق مرتسم على وجهها . ولكن ، يا رب ، كيف احست بالدفء والهدوء فجأة ، حين رأته يجلس في الشرفة وحده ، والكتاب في يده .

— ما هذا الذي تقوله ؟ اية شكوك ؟ إهدأ ، يا عزيزي ، هذا لا يناسب عمرنا . . . فات الأوان عليك ، وعليَّ ايضاً . . .

كانت آنذاك في الثامنة والثلاثين ، وهو في الاربعين . ولكنها كانت لا تفوّت فرصة لتوحي له : قطارك فات ، فلا تتلفت ، ولا تستعجل . كان يضحكها دائماً أن يكون جالساً في المترو فيبحلق في فتاة تجلس قبالته . وكانت احياناً تسوق الحديث في هذا الموضوع فيغضب . . . عادت ثانية تتحدث عن رسالة المعهد ، وهي ما تزال في يدها . انتزع الرسالة من يدها ، ودعكها والقاها من النافذة . وتمتم :

— لا أريد أن اقرأها . . . اعرف كل شيء . . الى جهنم . . . وتعتبر نفسها ذكية ! يجب نسيان ، وقطع دابر هذه السخافة ، فلا تُذكر . . . بينما هي ، تتقصد . . . أنا لا اشتري هذه الرسالة بفلس !

كانت تريد ان تساعده ، ولا تعرف كيف . جاءت العمة باشا ، وايفان بانتليمونوفيتش وكانا يقتلعان البطاطس في حقل بعيد . فرحا ، حين رأياها :

— ياه ! هذه فاسيليفنا ! زوجك نحف تماماً بدونك . . .

وتشربك كل شيء . لم يكن هذان يفهمان ما يجري بينهما . كانت تشفق عليه بشدة ، وتريد أن تساعده . ما الذي دفعه إلى هذه الشرفة القروية العتيقة بخشباتها السوداء ، وحُزَم البصل الموضوعة على الرفوف ، والعلب والاكياس على الارض ؟ كانت يدا العمة باشا تفوحان برائحة الارض حين كانت تهيىء العشاء . أدار ايفان بانتليمونوفيتش الترانسيستر ، وأخذ يتحدث مع سيريوجا عن الرئيس الامريكي وقناة السويس ، والعمة باشا تستفسر بلهفة شديدة حارة عن ايرينكا والكسندرا بروكوفيفنا ، وعن أم

اولغا فاسيليفنا ، وعن غيورغي مكسيموفيتش وكانوا يأتون الى فاسيلكوفو ، وإن كان نادراً ، وكان غيورغي مكسيموفيتش يقول : إن للعمة باشا «وجهاً يثير الاهتمام» وجعلها تجلس ليرسمها . وبعد ذلك تشكت العمة باشا وايفان بانتليمونوفيتش من أن حبات البطاطس نمت صغيرة في هذا الموسم ، وأنهما تأخرا في اقتلاعها ، ولا يمكن أن يعير أحد عربة مع حصانها ، بينما المسافة بعيدة لتُنقل على الظهر ، فحقل البطاطس في الوقت الحاضر «على الأعمدة» ، عند خط التيار الكهربائي العالي ، حيث حفرت الارض على الجانبين ، وغُرِست . يسمونها «على الاعمدة» . استمعت اولغا فاسيليفنا الى العمة باشا ، وايفان بانتليمونوفيتش ، وهي تفكر : هذان عجوزان ، العمة باشا تجاوزت الستين ، وزوجها في نحو السبعين ، ولكنهما يعملان ، ويبذلان قصارى جهدهما ، ويحرثان الارض ، ويحملان اكياس البطاطس ويفعلان كل الاعمال الأخرى الثقيلة للغاية من يوم الى يوم ، ولا يعتبران حياتهما كثيرة المشقة . قالت فجأة لمجرد المزاح :

— سيريوجا ، أنت تقرأ الكتب ، وكبار السن يكدحون ، يقتلعون البطاطس . . الاحرى بك أن تساعدهم .

تصدَّت لها العمة باشا مهاجمة ، وهزَّ ايفان بنتليمونوفيتش ذراعه معترضاً :

— ولماذا ؟ ابعدي ذلك عن ذهنك ، ودعيه يستريح ! لا تطرقي هذا الموضوع ابداً !

هدر موتوسيكل عند مدخل البيت . لقد وصل كولكا . كان الرجلان ، الأب والابن كلاهما ، متوسطي القامة ، نحيلين مع نعومة شاحبة في وجهيهما ، وكلاهما ازرق العينين ، لكليهما

عادة مط الشفتين في شيء من المكر عند الابتسام ، وعلاوة على ذلك كان كولكا يشيح ببصره عند الحديث كالفتاة . إلا اذا كان قد شرب ، فيصير جسوراً عالي الصوت .

وكان ، وهو يحتسي شوربة الكرنب مؤدماً اياها بكسرة خبز أسود مرة ، وبقطعة سجق مرة أخرى — وكان قد جلب كيساً كبيراً من السجق فيه حوالي كيلوغرامين منه ؛ فوضعت العمة باشا عشر قطع منها على الفور لتسلق ، وكانت مرتاحة جداً بما ظفر به كولكا — كان يروي كيف أن في مستودع الخشب في ايستومين ، حيث غنم السجق من البوفيه ظهرت بعض الاخشاب التي يمكن استخدامها لباب الحديقة الخارجي ، وأراد أن يتفق مع الجد ، ولكن هذا لم يوافق لسبب لا يعرفه . وحين كان يقول ذلك كان يضطرب بشكل غريب ، ولا ينظر الى اولغا فاسيليفنا . وكانت اولغا قد فطنت منذ زمان أن هذا الشاب يخجل في حضورها . وذات مرة لم تصطبر فاخبرت سيريوجا بذلك .

— يبدو لي ان لكولكا يكن لي . . .

— ماذا ؟

— بعض الاعجاب . . .

نظر بدهشة :

— ولماذا تقولين لي ذلك ؟

كان يتظاهر بالبرود واللامبالاة عن قصد ، حين ينشأ اي دافع للغيرة ، مهما قلّ . ولكن . . . من اين تأتي . . . هذه الدوافع ؟ لم يكن هناك اي دافع . واحياناً تختلق أي شيء لمناكفته ، إثارة انفعاله ، ولكنه تعود ، فكان يحزر ، ولم يعد يلقي اهتماماً لذلك . ولكن الأمر مع كولكا كان له شبه بالحقيقة .

وكانت تشعر بذلك . ولربما هو ايضاً يشعر بذلك ؟ ولكن لا فرق . تضرب عن الموضوع صفحاً ؟ كانت افكاره متجهة الى شيء آخر . وبالتدريج قَبِل بمجيئها ، بل وبدا عليه الفرح في آخر النهار ، بعد نزهة على شاطئ النهر ، وراح يقول لطيف أنها جاءت . والليل مضى بشكل جيد . لم يناما اطلاقاً . وغفوا عند الصباح . تحدث هو عن كل شيء بخصوص عمله بالتفصيل . والشيء الرئيسي هو أنه افسد علاقاته مع الناس بشكل لا صلاح له . اغلظ القول لكليموك ، وجعله عدواً له ، والاسوأ أنه تفوه بكلماته بحضور الغرباء ، مما لا يُغفر ، بالطبع . ولكن كل شيء مع كليموك قد وصل الى القطيعة ، ذلك شيء حتمي ، ولكن لماذا يتحدث بتلك الحدة مع البروفيسور فياتكين ، وهو الرجل ذو النفوذ ؟ آه ، ليس بالتصرف الحصيف ، لا ! ومع كيسلوفسكي ؟ مع هذا الخادع المراوغ الذي تتصوره اولغا فاسيليفنا خطراً للغاية ، ومستعداً لكل شيء ؟ سحقاً لهذه المواد التعيسة المشتراة بثلاثين روبلاً ، لو كان اعطاها وانتهى كل شيء . حافظ على الثلاثين روبلاً ، فسقطت الاطروحة . والآن اتضحت حقيقة خيبة هذه العائلة الغريبة نوعاً ما : الأب في وقت ما كان شغيلاً كبيراً ، ولكن لم يرتفع الى مقام ، والأم حقوقية منزلية لها مبادئ ومتطلبات ، وهو نفسه على شاكلتهما . وكانت له أخت على نفس النمط ايضاً . توفيت وهي عانس ، أسلمها التبطُّل والوحشة الى المرض . يقال إن رجلاً كان يحبها حباً شديداً ، وكان من الممكن ان يُسعدها ، ولكنها ظلت مقيمة على حبها لزميل لها في المدرسة . وهو رجل بائس . لقد فتكت بهؤلاء الناس سماجة نابعة من داخلهم ، والرغبة في أن يفعلوا ما يروق لهم فقط .

في الليل قال فجأة :

ـــ اتعرفي لماذا أنا في هذه المصاعب دائماً ؟ ـــ وخفّض صوته الى همس لا يكاد يسمع ـــ لأن الخيوط الممتدة من الماضي . . . تفهمين ؟ إنها منحوسة . . . منحوسة للغاية . . . تفهمين ؟

لم تكن تفهم .

ـــ بم ؟

ـــ كيف بم ؟ ـــ واخذ يضحك . وارتعبت ، فقد بدا لها أنه سيجن ـــ لأن لا شيء ينقطع دون أن يخلف أثراً . لا توجد انقطاعات نهائية ! هل تفهمين ؟ لا بد من مواصلة ، ولا يمكن ألا تكون ، هذا مفهوم الى حد . . .

نظرت اليه ، وقد أثلجها الرعب .

جنون ! هذا ما كانت تخشاه ، وهي تعرف خلخلة جهازه العصبي . طوقته بذراعها العارية ، وضمت رأسه الى صدرها ، وراحت تمسّد شعره . صهل بخفوت ، ومرة أخرى ارتعدت من هذه الضحكة .

ـــ لعلك تظنين ان عقلي اختلّ ؟ هراء . أنا سليم . ولكنك تعرفين فكرتي : الخيط الذي يَنْظُمُ الأجيال . . . واذا كان في الإمكان النبش أعمق وأبعد الى الوراء أمكن العثور على الخيط الممتد إلى المستقبل . . .

لم يكن هذا جنوناً . وعلى العموم ربما كان فيه نصيب معين من الجنون ، نصيب معين من الهزل وشيء من الجد . الجنون والجد كانا شيئاً واحداً . اخذت تبكي ، وهي تسمع هذره الغامض . في تلك الليلة تصورت أنه قد هلك . كان يقول اشياء ملتبسة عن اسلافه ، الفلاحين الابقين المنشقين الذين

كان يمتد فرع منهم إلى قس بينزه المجرد من كهنوته ، ومنه إلى اوائل القاطنين في ساراتوف ، الذين عاشوا حياة مشاعة ، والى معلم في إقليم تورين المستنقعي النائي ، أنجب طالب بطرسبورغ المقبل الذي كان متعطشاً الى التحولات والعدل ـــ وفيهم جميعاً كانت **روح المعارضة** ترغي وتزبد . . . وكان في هذا شيء نابت لا يمحق ولا يبتر ولا تبلوه القرون ، شيء تأصل في الاجنّة . . . وفجأة تلاشى إحساسها بأنه هذيان ، وبدا وكأنه يقول شيئاً معقولاً ، موزوناً ، وربما ذكياً جداً ، ولكنما في اللحظة التالية انتابها فزع : ألعله سيفقد عقله ؟ أية صلة يمكن أن تكون بين قس بينزه المخلوع الذي عاش قبل مائة وعشرين عاماً ، وبين مصاعب الاطروحة ، ومناقشتها في القسم ؟ كان يقول : هناك صلة . وعندها ، في تلك الليلة ، ظهرت فكرة السفر الى غروديتس .

كان البروفيسور فياتكين يشك في القوائم التي حصل عليها سيريوجا بطريقة ليست علمية تماماً .

قبل فترة قصيرة اخرجت الملف ذا الاشرطة الوردية المطمور تحت تل من الملفات الأخرى في الرف الاسفل من دولاب الكتب . الملف من الكارتون الاصفر المرمري اللامع الذي كان شائعاً في العشرينيات . قرأت دون أن تفهم جيداً ، وتراقصت الحروف امام عينيها ، لأنها فكرت بمرارة أن الحياة تتألف من اشياء لا يمكن اصلاحها . اي جزء هائل من كيانه بقي غُفْلا لم يدرس ! بينما كانت تتصوَّر أنها تعرفه بما فيه الكفاية وفوق الكفاية . لا ، كانت تتصوَّر ان كل ذلك لا يثير الاهتمام بتاتاً . ولا يمكن اصلاح اي شيء . قلّبت الصفحات الرثة الفواحة برائحة التفسخ ، وحاولت أن تستوعب الفكرة ،

وكانت تدرك في يأس أن الفكرة تبتعد عنها ، وهي الخاوية العديمة الحياة يمكن أن تطير ، تطير . . .

اسماء ، اعوام ، قرى ، مراكز ادارية ، ألقاب ، اشغال ، عناوين . كان للكثيرين عدة القاب . ماذا تفعل في هذا كله ؟ مستحيل أن تفهم . الوحشة عصرت قلبها . وقبل أن تخفي الاوراق في الملف ، وتربطها بالاشرطة ، وتدس الملف تحت ثقل عشرات الملفات الأخرى الاكثر سمكاً وثقلاً وجدت في قائمة إسم كوشيلكوف يفغيني الكسييفيتش ، من مواليد ١٨٩١ ، فلاح من قرية غروديتس ، ولاية موسكو ، خياط ، يشتغل في مخزن «جاك» في شارع بتروفكا .

مع كوشيلكوف هذا يرتبط شيء واحد : صباح ايلولي ضبابي ، سكون طريق خال ، الارض باردة قليلاً ، تصلبت اثناء الليل ، حرش بتولا مصفر هسهاس ، ورائحة فطر (غمغمة سيريوجا الأكيدة «راح الفطر ، ولكن رائحته قوية . . .» وعبارة أخرى ، عبارته المفضلة : «اي خريف بارد . إلبسي لفاحك والقلنسوة . . .») وحين سارا في درب الحرش دون استعجال ، ولكن ليس ببطء شديد ، والطريق امامهما كان طويلاً كان مزاجه مرحاً مدهشاً ، وفكر في أن يتعابث فامسك يدها ، جاعلاً اياها تلوح ذراعيها في هيئة تلميذة عاشقة . بل وقرأ كلمات بالمعكوس . وفجأة صار كما كان منذ زمن بعيد . عندها فكرت : أهذه ما يسمونها السعادة ؟ الصباح الصافي ، والطريق ، والاشجار المصفرة . . لا ، كانت تنقصها ايرينكا . . . ولكن ، في تلك المرة ، عندما وصلوا إلى فاسيلكوفو في آذار ، في عطلة ايرينكا المدرسية الربيعية ، تزحلقوا على خشبات التزحلق عبر الغابة — ركض سيريوجا على مسافة بعيدة الى الامام ، وايرينكا لا تكاد

تلحق ، وكان المساء قد اوشك على الهبوط ، وصفرة محمرة وراء جذوع الاشجار الداكنة ، والثلج في غبشة المساء يبهر العيون — سألت ايرينكا : «ماما ، ما هي السعادة ؟» كانت في نحو العاشرة ، وكان يجب أن يجاب عن كل اسئلتها بجدية وامعنت الفكر لكي تعطيها الجواب بوضوح واختصار ولكنها لا تختلق شيئاً وقالت فجأة دون ترتيب مسبق لفكرها : «السعادة هي هذا المساء في الغابة ، ونحن الثلاثة نتزحلق . فاهمة ؟ هذه هي السعادة . . .» لم تفهم ايرينكا ، بالطبع . وحتى هي ، وقد قالت ذلك ، لم تكن تفهم بشكل حقيقي . لا بد أن حياتهما قد اختفت .

أما حين وصلت من فاسيلكوفو الى المحطة في صباح ايلولي كانت طوال الوقت خائفة من أن تكون قدمها قد انحكت . فقد كان حذاؤها صلباً جديداً لا يصلح لطريق طويل . ولكن يبدو أن كل شيء كان على ما يرام . توجها الى قرية غروديتس على أمل العثور على اية أثار عن كوشيلكوف يفغيني الكسيفيتش الذي كان يلقب في مخابرات موسكو بـ«تامار» و«فيليبتشوك» . وكان سيريوجا يقول : طبيعي لا يوجد اي أقارب أو احفاد فقد مضى عدد كبير من السنين ، وتبدلت الارض ومن عليها ولكن لا بد أن يتبقى شيء ، قطع من خيوط ، شررات من ذاكرة . وان نجد شيئاً ، مهما يكن ، — مجرد تسجيل في كنيسة القرية عن ولادته وتعميده — فمعنى ذلك أن القائمة ليست كاذبة . اختارا غروديتس لأنها اقرب نقطة الى فاسيلكوفو . فهي لا تبعد عنها غير ثمانية وعشرين كيلومتراً . في البداية ركبا قطار الضواحي الكهربائي ، ثم باصاً . القرية السابقة تحولت الى بلدة . نشأت حول معمل الاجواخ القديم الذي

أسسه رجل فرنسي في وقت ما بيوت من القوالب الكونكريتية ذات اربعة طوابق تبرز على سطوحها الهوائيات التلفزيونية ، عندها سارا على الجسر الصغير الممتد على نهر يدعى فوبر يرفل في طحلب أخضر ، والى اليسار منحدر هائل تتناثر عليه سقائف سوداء متداعية وبيوت صغيرة لا تعرف ماذا كان يحفظ فيها ، وهل عاش فيها أحد ، أو أبقيت كآثار تاريخية ، كشاهد على الفقر والحرمان في عهد ما قبل الثورة . رأيا أمام مبنى آجري من طابق واحد عليه لافتة «مخزن أطعمة» بعض الرجال يقفون وعليهم تلك الهيئة المتبطلة الكسول الساهية التي كان المرء لا يخطئ في أن يستدل بها على الخمول الاضطراري ، والاجازات المرضية ، ونوبات العمل الليلية ، ونقص شيء ضروري ، لهؤلاء جميعاً في هذه اللحظة . تقدم سيريوجا منهم ليستفسر . وبعد ربع ساعة كان قد عقد صحبة مع ثلاثة منهم ، ووقف معهم عند جدار المبنى الآجري المضلّع ، يشرب الفودكا من قدح ورقي ، ويتمزز بطماطم . ازعجها هذا كثيراً ، فتوترت اعصابها . كان الرجال ينكتون ، وهو يستمع . كان نهاراً رائعاً ازرق مذهباً . طافا في البلدة التي كانت في بعض الاماكن تشبه القرية ، ودخلا بيوتاً ، وتحدثوا في حدائق البيوت ، حيث رائحة التفاح . وفي آخر النهار وجدا عجوزاً ، مورد الوجنتين كثيراً ، قوي المظهر يسير بخطوات صغيرة بطيئة في حذائه اللبادي الأسود الطويل العنق . في العام الماضي حصلت له نوبة ، وتصور أنه سيموت ، ولكنه بقي حياً . كان العجوز يتكلم مبتسماً بفمه الجميل فيه اسنان بيضاء :

— هذه ايام صافية في اوائل الخريف كانت رائعة . . .

كان ذلك كوشيلكوف يفغيني الكسييفيتش نفسه .

في آذار ، وفي الساعة الاولى من عودتها من لينينغراد — قادمة بالطائرة لشدة شوقها الى ايرينكا — سمعت شكاوى من كلتيهما . قالت ايرينكا أن الجدة فرضت عليها نظاماً عسكرياً ، ولم تعطها اية نقود ، ولم تسمح لها بالطلوع الي اى مكان ، وكانت تعامل الاصدقاء الذين يأتون للزيارة بشكل مشين . وتجبرهم على الخروج بطريقة فظة . لم يكن الوقت متأخراً ، في نحو الحادية عشرة والنصف على اكثر تقدير . وقد انصرف الاولاد ، بالطبع ، وذهبت هي لتودعهم ، وعادت بعد ساعة ، فتجد الجدة في نوبة هستيريا . تلفنت للجميع على التوالي ، تلفنت لداشكا ، ولتماركا ، ولبيلا . وكان الناس في فراش النوم ، فاخرجتهم . توقحت تماماً .

— بعد هذا لن أكلمها ثلاثة ايام .

— ولكن ربما انت ايضاً لست محقة تماماً ؟

— بأي شيء لست محقة ؟

— لماذا خرجت لتوديعهم في وقت متأخر . اعتقد أن ذلك خارج اللزوم . فقلقت عليك .

— ولماذا قابلتهم بخشونة ؟ ما كان يجب ان تخشن معهم . . .

نشأ الحديث هذا رأساً ، قبل أن تلحق لتغير ملابسها ، وتفك حقيبتها ، حيث توجد هدايا بسيطة اشترتها من سوق «دفور غوستيني» . ولم يكن مزاجها قد تعكر تماماً بعد . مسّدت على ظهر ابنتها ايرينكا العظمي وهي تستمع لها وتعاتبها . كانت لوحتا الكتفين ناتئتين ، والبلوزة التريكو الزرقاء بكميها القصيرين صارت صغيرة عليها بشكل ملحوظ ، ولا تصلح للصيف . ولكن بعد ربع ساعة ، كانت اولغا فاسيليفنا قد ارتدت خلالها روبها

البيتي ، ودخلت الحمام ، وفتحت حنفية الماء الساخن ، وأخذت تفرك الحمام بقوة وتغسل بالليفة القديمة بمعونة مسحوق «غيغينا» للتنظيف وترنمت بنغم بصوت خافت لأول مرة منذ زمن قديم ، ربما منذ ستة أشهر نسيت فيها كيف تترنم ، وقد فعلت ذلك الآن بدون وعي ، ولو كانت قد فطنت الى أنها تترنم لصمتت في الحال على الاكثر — صرف باب الحمام ، وتردد صوت الكسندرا بروكوفيفنا :

— بعد الآن لا تتركي ايرينكا في عهدتي . لا أريد ، يكفيني ، هي الآن بنت راشدة ، ولتعش الحياة التي تريدها .

قالت اولغا فاسيليفنا :

— طيب ، سنتكلم فيما بعد .

— أو ابقي انت في البيت ، ذوقي الوحشة قليلاً . أما أنا فلدي عمل ، ويجب أن اؤديه .

كانت العجوز تفخر كثيراً بعملها التافه لباب «المشورة القانونية» فى جريدة والذي لا تتسلمه بانتظام ، ولكن بعد الكثير من المكالمات التلفونية والرجاءات . مجرد أنهم كانوا يشفقون عليها كمتقاعدة ومن قدامى التشريع الاشتراكي . ولكنها ، على العموم ، وكمقاتلة مجربة في المباريات القضائية ، كانت تجيد التشبث واحداث الوجع . وها هي الآن : جملتها «ذوقي الوحشة قليلاً» مست اولغا فاسيليفنا ، ومع ذلك لم يكن لها بعد مزاج المخاصمة ، فرددت بمسالمة :

— طيب ، يا الكسندرا بروكوفيفنا ، دعيني آخذ دوشاً ، وبعد ذلك نتكلم .

وبعد ذلك أتضح أن ايرينكا انحلّت بشكل مريع ، ولا يمكن ان تلبي طلباً بالذهاب الى المخزن ، ولا إلى محل

الغسيل ، بل ولا تكنس الأرض ، وترد بجسارة ، وليس عندها إلا أن تطلب وتطلب وتطلب . وحين اقتربت ايرينكا من باب المطبخ ، وسمعت تنديد جدتها بها ، سألت في هيئة ساخرة :

— ماذا طلبت منك ؟ كان صوتها جسوراً وغليظاً بالفعل .

— أنا لا احب أن اتكلم معك . اشرح لأمك ، واترك لها أن تكلف نفسها وتعرف كيف تتصرف معك .

— آه ، لا تحبين ؟ أنا لم اطلب منك شيئاً .

— ايرينكا ، لا تستقبحي . اذهبي الى الحجرة ، ودعينا نتكلم .

— أها ، اذهب ، بينما هي ستكذب .

— تسمعين ؟ «هي» «تكذب» . . .

— ايرينكا ، ابعدي . . .

— أنا ذاهبة ، ولكن أنت ، من فضلك ، لا تصدقي . الشيء الوحيد الذي طلبته هو ثمن تذكرة «طعم الكرز» فى مسرح «سوفريمنيك» . ولم تعطني . فاستدنت ثلاثة روبلات من داشا . اما الحذاء الشتوي الذي وعدت به ، فقد عرفت على كل حال أنها لن تشتريه . اذن ، لا وجه للعجب هنا .

— يبدو انني اوضحت لك لماذا لا استطيع ان اعطيك الفلوس للمسرح ولا للحذاء . — قالت الكسندرا بروكوفيفنا — أنا لم استعن بالمضاربين ولن استعين ، فلا تتوقعي . انا لا اساند الاوغاد . وحين ترين حذاء جيداً للشتاء في المخزن اخبريني ، وسنذهب لشرائه . كنت اقول ذلك لك اكثر من مرة . ولكن الآن ، على كل حال ، يجب تأجيل ذلك .

أحست اولغا فاسيليفنا بالألم يتجمع فوق حاجبيها .

انصرفت ايرينا . ومضت الحماة تندد بايرينا . كانت تثبت أنها سيئة ، وغير ذكية ، ولم تُحسن تربيتها ، والملومة في ذلك أمها ، بالطبع . ومن كل هذا الذي تجمع عقدة ، لا ينبئ عن مخرج ، اي مخرج ما عدا صداع الشقيقة الذي بدأ لدى اولغا فاسيليفنا ، ولا تعرف بم تعالجه صارت تجادل بلا فائدة وبغلٍ مدافعة عن ابنتها :

— انت لا ترين فيها شيئاً صالحاً . بينما هي تحتاج الى طيبة ، لطافة ، فقد حرمت من أبيها . . .

— وتجسرين أن تشرحي لي ذلك !

ولاحت الدموع في عيني الحماة الضيقتين ، وابيض وجهها ، وارتخت شفتاها . وكان وجه الحماة الذي تغيَّر فجأة استفز اولغا فاسيليفنا ، فنهضت ، وضغطت جبينها بيد ، وكأنما تحاول أن تمسك الألم الذي يوشك أن يطفر الى الخارج ، وهزَّت اليد الأخرى أمامها — تخلى عنها ضبط النفس — وراحت تتكلم بصوت عال مربوك :

— لأنك بلا طيبة ! أنت إمراة حقود ! ولكنني لا اسمح ! لا اتركك . . . تتصورين اذا لم يكن لها أب لا أحد يدافع عنها ؟ أنا . . لا اتركك ! — واطبق تقلُّص على حنجرتها — لماذا لم تعطيها الثلاثة روبلات التعيسة ؟ خفت ان لا اردها لك ؟ ويجب أن تستجدي البنت صدقة كالشحاذة ! لا ، ليست شحاذة . ما دامت أمها في الوجود ، فليست هي شحاذة . اتسمعين ؟ لماذا كذبت وأغريتها بالحذاء الشتوي اللعين ؟

هزَّت الحماة رأسها وهي تنظر اليها بازدراء واستنكاف ، وتراجعت نحو الباب . وقد تحجر وجهها . لم تكن اولغا فاسيليفنا

تسمع صوتها . وأذا بها تسمع صيحة :

— ماما ! إصمتي !

ورأت وجه إبنتها المشوه بالفزع . طوقتها ايرينكا ، وجذبتها إلى مكان ما . وبعد ذلك اختفت ايرينكا ، ربما ، ذهبت الى المدرسة او الى المخزن ، لأنها لم تكن موجودة . استلقت اولغا فاسيليفنا في الظلام الباهت ، والستائر مسبلة على النوافذ ، وراحت تفكر «إبنتي كبرت . وهي تحميني . لا حياة لي بدونها . ساقول للعجوز قطعاً والى الأبد : «لن تجسري . . .» .

نهضت في الظلام . وتناولت غداءها لوحدها في المطبخ . ايرينكا هرعت الى السينما . اخرجت الحماة شيئاً من الثلاجة ، ووضعته على عين الطبَّاخ صامتة . لماذا ذهبت ايرينكا الى السينما ، وهي تعرف أن أمها في حالة عصبية ، وقد نشب شجار ؟ خُلُق غريب ! شيء متخلخل متغير ، قاس ، أخذته من أبيها : كانت له مثل «الطلعات» الاختفاءات . وفجأة يُظهر حب الانسان ، ويكشف عن القدرة على الاشفاق والتعاطف ، ويبدي — للحظة — عقلاً راشداً صاحياً ، ولكنه بعد هذا يطلع طلعة شبه طفولية ، نزوة أو انانية مفرطة تبث فيك الفزع . اي ، نعم ، جذباها في ناحيتين مختلفتين . سمعت شيئا من الأب ، وشيئا آخر من الجدة . والمهم لدى اولغا فاسيليفنا أن تعلمها روح الاستقلالية ، واللاتبعية للناس . لا أبأس من اولئك المساكين الذين يصيرون تُبَعاً للآخرين روحياً . وأم ايرينكا مثل هؤلاء الناس طوال حياتها . والآن انتهت التبعية . وجاء عذاب آخر : الروح مستقلة وخاوية .

ولايرينكا ، رغم كل شقاواتها ونوبات الانانية والفظاظة ، مثل هذا الضعف : استكانتها لارادة الآخرين . وحكاية المسرح

هذه في كانون الثاني ، في اجازة الشتاء المدرسية القصيرة . من قبل كان سيريوجا يحصل على التذاكر الى المسرح . فقد بقي له اصدقاء من اعوام الجامعة من الحلقة المسرحية . احدهم صار فناناً في مسرح سوفيت موسكو ، وآخر صار مديراً جباراً في ادارة مسرح . وكانت المهمة أن يجعلوه يتلفن لهم . فقد كان يكره كثيراً أن يترجى . فكانوا يلحون عليه اسبوعاً على التوالى . وإذا نجح في الحصول على ثلاث تذاكر ذهبوا الى المسرح سوية ، وإذا حصل على اثنين تنازل لابنته . وكانت ايرينكا تحب الذهاب مع ابيها ، فقد اكثر سخاء في الشراء من «البوفيه» . وها هي بعد تشرين الثاني تذهب الى المسرح لأول مرة . حصلت داشا على التذاكر ، وبالذات الى المسرح الذي كانت ايرينكا تذهب اليه مع أبيها اكثر من كل المسارح ، الى مسرح سوفيت موسكو. وقلقت اولغا فاسيليفنا فان الفتاة ستجد هناك الكثير مما تتذكره . واولغا فاسيليفنا نفسها ما كانت ستذهب الى هذا المسرح مهما يكن من شيء . قضت اولغا فاسيليفنا المساء كله تتألم وتتعذب ، وتلفنت الى ام داشا تسألها : هل سيستقبل أحد الفتاتين ؟ وأم داشا لاابالية بشكل مذهل . عادت ايرينكا في نحو الثانية عشرة ليلاً متجهمة ، لم تقل اية كلمة ، وركضت الى حجرتها ، ورفضت أن تتناول العشاء : «عندى صداع !» . أطلت اولغا فاسيليفنا بعد ربع ساعة فرأت الفتاة تبكي . لقد استولى عليها الاشفاق . طوقت اولغا فاسيليفنا إبنتها ، ومسّدت عليها ، وهدأتها ، وهي لا تكاد تسيطر على نفسها . وحين هدأت ايرينكا قصت شيئاً غير متوقع . داشا دعت ، كما تبين لايرينكا ، فتاة أخرى ، وقضت المساء كله تتحدث معها ، لا مع ايرينكا. وفى الاستراحة تمشتا لوحدهما واحداهما تمسك بيد الأخرى ،

وكانت ايرينكا كالغريبة بينهما . كانتا تتهامسان عن شيء ما . وقد اغتمت ايرينكا كثيراً ، حتى أنها فرّت بعد المسرح ، دون أن تودعهما . واستغربت اولغا فاسيليفنا كثيراً ، فقد كانت ايرينكا تحب اباها كثيرا . بينما هي تتألم بسبب فتاة تافهة متصنعة . وسرعان ما تصالحت ايرينكا مع صاحبتها داشا ، واستقبلت اولغا فاسيليفنا سعيدة قائلة : «داشا قالت إن صاحبتها مايكا حمقاء ! لا يمكن التحدث معها عن شيء . إنها لا تعترف بفيليني . . .» .

رنين جرس ، هدير ، اصطفاق الباب ، ركض في الممر. تلك عودة من السينما فى الساعة الحادية عشرة . وقبل أن تخلع الإبنة ثيابها اعلنت الخبر لأمها ، وهي واقفة وسط الغرفة تفك اللفاح الصوفي الطويل : غداً تريد الذهاب الى خارج المدينة لمدة يومين ، تقضيهما مع داشا في بيتها الريفي . كانت تدرك طبعاً أنها بذلك توجه ضربة لأمها التي استوحشت كثيراً وكانت تريد أن تقضي يومي الاجازة الاسبوعية مع ابنتها . كان في عيني ايرينكا تعابث بائس . حاولت اولغا فاسيليفنا أن لا تبدي انصعاقها .

— اخلعي ملابسك اولاً .

خلعت ايرينكا ثياب الخروج ، وجلست الى الطاولة . كان في امكانها أن تجلس على الاريكة ، بجانب أمها ، ولكنها جلست الى الطاولة ، على مبعدة منها . وكان ذلك يعني أنها مستعدة لأن تقاوم . وفى تلك اللحظة دخلت الكسندرا بروكوفيفنا لتقول الشاي ساخن وجاهز . سألت اولغا فاسيليفنا ، ابنتها من يجتمع في ذلك البيت الريفي .

وسردت الفتاة اسماء قسم منها ، ثمانية اشخـــاص ،

غير معروف لها . كانت بحاجة الى استنشاق الهواء الطلق ، لمنفعة صحتها . أليس ذلك ضرورياً ؟

— وتتركين المدرسة ؟

— دعيك منها — شمرت ذراعيها — عندنا في يوم السبت درس واحد . والجميع مرضى ، فان نوعاً فظيعاً من الانفلونزا منتشر في موسكو .

— اي درس هو ؟

— فيزياء .

— لا — قالت اولغا فاسيليفنا — هذا لا يعجبني .

— ولماذا ، يا ماما ؟

— ترك الدرس لا يعجبني .

— ولكن لماذا ، لماذا ؟ ماذا في ذلك ؟ درس واحد لا يساوي شيئاً .

— اذا كنت لا تفهمين فأنا ، لا احب أن اشرح لك . هذا لا يعجبني .

ليس هذا وحده لم يعجبها ، والأرجح ابعد من هذا بكثير ، وهو أن إبنتها تتركها بهذه الخفة ، وهي لم تكد تراها بعد فراق عشرة أيام . الله يعلم ما هذا . أن يكون الانسان جامد الاحساس ، لا يفهم شيئاً في اقاربه . لقد اخذت ذلك من أبيها . كانت تمر فيه فترات من الجمود . كانت الحماة تقف على مقربة ، وتستمع صامتة . ما كان في وسعها بالطبع ، أن تؤيد مغامرة ايرينكا ، ولكن كان أكثر من طاقتها ايضا ان تقول كلمتين في مساندة اولغا فاسيليفنا .

— ما اكثر ما لا يعجبك . ربما أنا ايضاً لا يعجبني شيء ما . . . — كانت ايرينكا تجلس عند الطاولة منتصبة الجذع ،

والساق على الساق ، في هيئة متعالية ، تحدق في الخوان . كانت تهز ساقها اليمنى بشدة . كانت لها تلك السمة الاستقلالية التي تطمح اولغا فاسيليفنا اليها .

— ماذا لا يعجبك ؟

— هذا وذاك .

— مثلاً ؟

— ما اكثره . مثلاً انت كثيراً ما تسافرين ، مرة إلى تشيلايبنسك ، ومرة إلى لينينغراد .

— أنا ، يا عزيزتي ، اسافر في ايفاد . إنهم يبعثونني سواء أردت ام لم أرد . («ها أنا ابرر نفسي أمامها») وتتصورين انني اسافر على هواي ؟

— اعرف أنك تسافرين في ايفاد ، ولكن انت أيضاً تحبين ان تصرفي نفسك ، أليس كذلك ؟

— عن أي شيء اصرف نفسي ؟ ما هذه الحماقة التي تتفوهين بها ؟

ولكن تلك لم تكن حماقات . صعد الدم الى وجه اولغا فاسيليفنا . والحماة ما تزال تقف صامتة .

— من أين توهمت انني اسري عن نفسي ؟ من قال لك هذا الهراء ؟ — ولم تنظر اولغا فاسيليفنا الى حماتها ، ولكنها كانت تحس بوجودها بكل كيانها . تصورت أن حماتها تبتسم .

مضت الفتاة تتمتم :

— صعب علينا جميعاً ، بالطبع ، أن نكون بلا أب . ولكنني وجدتي لا نستطيع أن نذهب الى اي مكان . أما انت . . .

— ماذا أنا ؟

— تيسيرين لنفسك مثل هذه التنفيسات . ربما أنا أيضاً احس بالغم من القعود في البيت ، وأريد أن اسري عن نفسي ، يومين او نحوهما .

— حمقاء ، انت حمقاء — قالت اولغا فاسيليفنا بصوت خافت ، وهي تفرك عينيها بكفها — أنا لا ابحث لنفسي عن مكان في هذه الايفادات ، واهرع الى البيت . وفي كل مساء اتلفن . . . أعد الأيام حتى أراك يا قليلة الحياء . أما أنت فتحدثين على التسرية . . . أنت عاقة . اخرجي ، لا اريد أن اراك .

خرجت ايرينكا راكضة .

وقالت الكسندرا بروكوفيفنا دون أن تخاطب احداً .

— بالطبع لا يجوز السماح لها بالذهاب الى خارج المدينة .

فسألت اولغا فاسيليفنا :

— ولماذا لم تقولي لها ذلك ؟ تريدين أن تكوني طيبة ؟

ثم انشغلت بغسيل الملابس حتى منتصف الليل . ايرينكا ، الملعونة ، لا تغسل شيئاً من ملابسها . واذا غسلتها ، تنشر الوساخة ، وسيتعيَّن على اولغا فاسيليفنا أن تغسلها من جديد .

في اليوم التالي ، أنتهزت ايرينا الفرصة قبل أن تخرج الى المدرسة ، وبينما خرجت الجدة من المطبخ ، فطلبت المعذرة . وكالعادة فعلت ذلك بجمل سريعة جاهزة شاكية : «ماما ، اعذريني ، رجاء ، اذا تريدين لا اذهب ، لا اذهب ولكن ذلك بدا لاولغا فاسيليفنا عملاً مهماً للمصالحة . سامحتها ، وقالت انها ستتحدث مع ام داشا بالتلفون ، وبعد ذلك ستقرر . ولكن الشيء الرئيسي عصرتها الشفقة من جديد وجعلتها عاجزة !

من جديد نظرت الى الفتاة من ناحية ، وانقبض قلبها : يتيمة ، على كل حال ، وحيدة في حجرتها ، أبوها ليس في الموجود ، وأمها في سفر . . . فكيف لا تسمح لها بالسفر ؟ وسمحت لها .

العجوز الصغير في الحذاء اللبادي كان يسير في الحديقة خافت الخطى ، وحتى الاوراق اليابسة لم تخشخش تحت قدميه ، ويبتسم طوال الوقت :

— هذه ايام صافية في اوائل الخريف كانت رائقة . . .

لم يُعجب العجوز اولغا فاسيليفنا . اخذت تفكر في قلق : «يا رب ، لماذا كان رائقة ؟» في ذلك النهار الذهبي ، في اعماق الحديقة كان ثمة نذير في سهوم هذا العجوز ، وقد احست ذلك بوضوح ، ولكن دون أن تدرك من أي شيء ولماذا . كل هذه الاستقصاءات كانت لهواً لا ضرورة له . ها هو قد وجد العجوز الهرم المصوِّف ، الذي كان يعمل في زمن ما في مخزن «جاك» في شارع بيتروفكا — سحبه كما يسحب الدلو من البئر ، ولكن ماذا بعد ؟ الرجل لم يتذكر شيئاً ، لم يعرف ، ولم يرد ، ولم ير ، لأن الحياة الثقيلة هبطت عليه كجبل من الصخر ، ونفكك كل شيء ، وثقل عليه ، حتى أن ذاكرته لا تكاد تتململ .

— هل تعرف أي شخص كان جاك ؟ أهوه ! يكاد يكون مثلهم . . .

— ونهاية شباط ؟ هل تذكرها ؟

لا ، لم يقتطع ولم يستخرج شيئاً من بطون كهفه . فقد كانت حروب وقلاقل ، واقطار بعيدة ، وزمهرير جليدي ، وموت ،

وهلوك ، بينما غروديتس بحديقتها وهدوئها لم تنشأ إلا قبل زمن قصير ، مثل ومضة متأخرة على حافة الحياة . ومع ذلك ، فشكراً للرب على ما جاء متأخراً . اخرج سيريوجا دفتراً مع قلم ، ولكنه لم يكتب شيئاً ذا معنى . دعتهما الى العشاء في الشرفة إبنة العجوز ، وهي إمراة عابسة قصير القامة . وفي الشرفة كانت هناك كنّة هذه المرأة ، وهي ممرضة ، وولداها ، وبعد قليل جاء زوج الممرضة ، حفيد العجوز ، كان يدعى بانتوشا ، وقد انطبع هذا الاسم في الذاكرة بشكل جيد .

كان بانتوشا محدوداً أقصر من سيريوجا الى الرأس ، داكن البشرة ، كثيف الحاجبين ، تحدق من وقبي عينيه الغائرين ، عينان خبيثتان واخزتان ، مثل عيني الجُرَذِ . فإما أنه كان سكران ، واما انه كان مريضاً بشيء ما ، وإما مجرد أن الحنق كان يغلي فى داخله ، ويخنقه ، مثلما يخنق بعض الناس دمهم الكثيف اكثر من اللازم . في البداية اعتصم بالصمت ، وراح يحدق طوال الوقت في بنطال سيريوجا ، وحذائه ، وساعته ، وبلوزته ، ثم أخذ يتفحص حذاء اولغا فاسيليفنا بانتباه ، وسترتها الشموا ، التي كانت آنذاك ما تزال جديدة وجميلة ، لم تتوسخ في اية بقعة . واطال النظر الى السترة بشكل خاص . حتى أن اولغا فاسيليفنا فكرت مع نفسها : «نظرة قبيحة» . لم يلحظ سيريوجا اهتمام بانتوشا الخبيث ، مثلما لم يكن يلحظ بشكل عام مظاهر الناس الخارجية ونظراتهم وتعابير وجوههم ، فقد كانت تهمه الكلمات ، وأستمر يستخرج بعناد أية تفاصيل من العجوز بخصوص مخابرات موسكو . وفجأة سأل بانتوشا ، وهو يجذب كم السترة الشموا .

— من أين يأخذ الناس مثل هذه السترات ؟

قالت اولغا فاسيليفنا موضحة :

— هذه من هنغاريا .

— أها ! يعني ليست من صناعتنا ؟ آه ، كيف تتماوج . . .

قالت الممرضة :

— إنها من الشاموا . ألا تراها ؟

— أرى ، ارى .

— اذن ، اجلس واسكت . ولا تلمس بيديك . اظنك لم تغسل يديك ، والشموا يلتقط أية وساخة . . آه ، يا بلية . يبدو أنها توسخت قليلاً .

واختطفت منديلاً ، واندفعت تمسح كم السترة الشموا . وقفز الطفلان أيضاً تؤججهما الرغبة في مس السترة العجيبة . صرف بانتوشا باسنانه . أما العجوز الذي يبدو وكأنه منشغل بالحديث مع سيريوجا وفي نفس الوقت كان يفوت سمعه الكثير ، أنضم فجأة ، وفي الوقت المناسب تماماً ، الى الحديث عن السترة .

— لماذا لا توجد عندنا ؟ في زقاق كاميرغيرسكي مخزن الاخوان شولتس يسمى «زميش — ليدر» . . . قفازات ، ابسطة . . .

هزّ بانتوشا ذراعه على جده .

جُلِبت بطاطس في قدر حديدي . عتم النهار ، واضيئت المصابيح الكهربائية . واخذ سيريوجا يكتب شيئاً . كان يحاول طوال الوقت أن يستطلع عن حريق شباط من عام ١٩١٧ : مَنْ أمر به ، ومَنْ اطفأه ، ومَنْ كان آمراً آنذاك . كان العجوز ضئيل القيمة جداً في ذلك الحين ، ذرة غبار في عاصفة ، ومع ذلك فقد مضت ثلاثة وخمسين عاماً ، وذرة الغبار ما تزال

موجودة بطريقة غريبة ، وما تزال تتراقص في أشعة نور الشمس ، رغم أن كل شيء حولها جُرِف وأُكتسح . . . وكانت اولغا فاسيليفنا تفهم مبعث هذه اللهفة التي كان سيريوجا يستمع بها إلى التمتمة القليلة الوضوح . شيء واحد كان يذهلها ويدفعها الى السؤال : كيف سلم لحد الآن ؟ أيعقل أنه لم يقع في ورطة ؟ ابداً ؟

— وكيف لا ؟ هذا مؤكد . . . — قال العجوز مبتسما — مرة في الحرب ، ومرة في مصادرة الزيادات . . . اختصاصنا ، بالطبع ، جيد ، فلا نهلك . كنا نخيط الملابس للرؤوساء ، ولنا قطعة خبز دائماً . . . بل وكانوا يطلبوننا في منطقة أخرى ، ولكن رئيسنا ، الرفيق غرافدين لا يسمح لنا ، حتى أنهم كانوا يتعاركون علينا . . .

وغمز العجوز فرحاً .

كان بانتيوشا قد خرج لمكان ما ، ثم ظهر ثانية وراء المائدة :

— ماذا تستقصون من الجد ؟

قال سيريوجا : — لجدكم حياة حافلة . ونحن نتحدث عن الحياة . . .

— وماذا تكتب ؟

— أنا مؤرخ ، وأنا احتاج كل ذلك للتاريخ .

— وأي تاريخ بعد ؟

— تاريخ شباط ١٩١٧ ، ثورة شباط وكل ما يتعلق بها . إنها فترة معقدة لم تدرس بعد دراسة كاملة . وكل شهادة جديدة ثمينة ، بالنسبة لنا . اعذرني ، اذا كنا نضايقكم ، سننصرف قريباً .

كان سيريوجا يتكلم بهدوء واناة ، ولكن بانتيوشا كان يريد

ان يتشاتم . فاخذ يصرخ فجأة :

— لن تستخرج قملة ! يكفي ! ما علاقتنا بالمؤرخين !

— وهزَّ امام وجه سيريوجا اصبعاً معقدة — لن اسمح لك !

راحت الأم والزوجة تهدئان بانتيوشا ، ولكن بشيء من الرهبة . ارتعبت اولغا فاسيليفنا . وكان يجب الانصراف . ولكن سيريوجا لم يكن يخرج ابداً في اللحظة المناسبة ، فقد كان دائماً يتصور أن عليه ان يستكمل . سواء أكان ذلك في الشرب أو الأكل أو الشرح أو التشاتم . وهنا ايضاً اندفع فجأة . وقد احمرَّت رقبته ، وأنتفخ خداه ، يشرح للابله السكران ما هو التاريخ ، ولماذا هو ضروري . استمع بانتيوشا ببسمة ساخرة وعداء ، هزَّ اصبعه معترضاً .

— نعم ، قرأنا هذا التاريخ عندما كنا في المدرسة . نعرفه . فلماذا تعطر دماغي به ؟ التاريخ . . . التاريخ . . . كفى يوجد تاريخ واحد ، ولا حاجة الى زيادة .

— اسمع ، يا بنتلي ، أين تشتغل بالضبط ؟

حين كان سيريوجا يتحدث الى ببسطاء الناس ، ولا سيما حين يثير معهم جدالاً تظهر لديه لسبب ما لهجة متعالية مزعجة ، لا ارادياً في اغلب الظن ، ولكنها تثير اعصاب الناس . أجاب بتبوشا بغلظة قائلاً : ما شأنك أين اشتغل ؟ ربما في مقبرة بوغاردسكويه ، احفر القبر لقاء ثلاثة روبلات . وانت ، بالمناسبة ، الست من الميليشيا أو من رجال مكافحة اختلاس الملكية الاشتراكية ؟ وقد قال كل ذلك بتهديد وبهز قبضته امام سيريوجا هذه المرة لا اصبع واحدة . سحبت اولغا فاسيليفنا سيريوجا من وراء المائدة . ولكن سيريوجا ظل جالساً في عناء ، منجذباً الى فضيحة .

— لا ، اسمع . يبدو أنني لم اكدرك في شيء . . ولكن ، عجيب ، لأي شيء نفشت شعرك عليَّ ؟

— أنا لا اشتري التاريخ بفلس ! فلا تستدرج !

— التاريخ ليس تاريخي ، إنه تاريخك ايضاً ، وتاريخ جدك . انه ملك للجميع . ها هي قرية غروديتس ، مثلاً ، عريقة جدا . . .

همست الممرضة لأولغا فاسيليفنا بأن لا يتكدروا من زوجها ، انه شكس ، وعقله ضعيف ، واذا شرب لا بد أن يأتي بالعجب ، ويلتصق بالناس ، فيضربونه ضرباً شديداً جزاء على ذلك . اما عمله فميكانيكي في مستودع للحبوب ، وهو بشكل عام رجل طيب . والعجوز كوشيلكوف الذي كان مستخدما في فرع موسكو للمخابرات منذ زمن بعيد جداً حتى أن وظيفته تلك فقدت الآن كل طعمها ولونها ، وانطفأت في ذاكرته وهمدت ، أخذ يهوم وديعاً وقد القى على صدره رأسه المتوج بشعر خفيف أبيض . تحدث سيريوجا عن امراء المنطقة ، وعن التتر . وأستمع الطفلان . قلّص بانتيوشا عيناً ضارية لا تقاوم .

— إلا بالضرب على القفا ؟ ها ؟ — وصرف باسنانه — سيكون ذلك تاريخاً ، واي تاريخ .

كانت المسافة إلى محطة الباص تستغرق وقتاً طويلاً سيراً على الاقدام . سارا في الظلام . وكانت أولغا فاسيليفنا ترتجف إما من الخوف أو من البرد . حلَّ محل النهار الذهبي مساء خريفي شديد البرودة . حثت سيريوجا على الاسراع ، وهو يقزل بالكاد منهوكاً من الفودكا . ولكن كان منشرحاً يثرثر فرحاً بتوفيقه مع العجوز . وقد بدا ذلك لأولغا فاسيليفنا تفاهة . فمن بحاجة الى كل ذلك ؟ نبحت كلاب . كان نباح بعضها شرساً بشكل

خاص ، وطلع بعضها قافزاً الى الطريق ، وركض في إثرهما ، فكان سيريوجا يطردها ، ويقذفها بالحجارة ، فتزداد ضراوتها .

طلبت اليه أن يتوقف عن ذلك .

ولكنه كان وكأنه وجد متعة في القتال مع الكلاب . وكان من الممكن في كل لحظة أن يظهر من وراء الاشجار القائمة شباب بعصيهم ومذاريهم . أواه ، كم غضبت عليه آنذاك ! كل ذلك كان صَبِّيَنة سخيفة : السفر ، والجلوس حتى حلول الليل ، والاحاديث مع العجوز المخرف .

— هرر ! هرر ! — راح يستفز الكلاب ، ويضحك ، وهو يستمع الى نباحها .

فكرت مع نفسها : «يا ربي ، إن هذا الرجل كهل تقريباً ، حائز على شهادة عليا تقريباً ، عالم تقريباً . . . لا أظنه يحرز شيئاً» . إن هذا التخمين المشوب بالرعب نفذ اليها في ذلك المساء في الشارع المظلم ، الذي كان فيه يقاتل الكلاب . احاطت بهما مجموعة كاملة من الكلاب سلوقيات معافاة وحتى جراء مولولة كانت تتقافز حولهما ، كالبراغيث . وتأتي النجاة فجأة من هدير محرك جاء من الخلف مفرقاً السلوقيات باهراً الابصار بمصباحه ، وتوقف الموتسيكل .

— إجلس ! تاريخ ! — زعق بانتيوشا . كانت خوذته البيضاء وقفازاه الأبيضان بنهايتيهما العريضتين ، مثل قفازات الميليشيا تلمع في الظلام — هيَّا ، سأوصلكما الى محطة قطار الضواحي ، إلى فورونوفسكيا ! سبعة كيلومترات سنقطعها بلمح البصر !

ترددت أولغا فاسيليفنا — فهو على كل حال مشاكس وسكران — ولكن سيريوجا كان قد دفعها بقوة الى عربة الموتسيكل ،

وصعد هو على السرج الخلفي ، وأمسك إيطي مخاصمه قبل حين ، وكأنه أحسن صديق . الرجال ، بالطبع ، مذهلون في هذه الناحية ، ما اسهل أن يتصالحوا ويوحد السكر فيما بينهم ، وما أسرع ما يغفر بعضهم لبعض الكلمة المهينة — وصفر كالشقاة ، كما لم يصفر منذ سنين ، وانطلقوا . لم تكن الرحلة طويلة ، استغرقت حوالى ربع ساعة ، ولكنها لا تنسى . كانت أولغا فاسيليفنا تتصور انهما لم يخرجا حيين من هذه الورطة . كان الموتسيكل يرتج ، وينقذف ، ويهتز ، وتصطك اسنان أولغا ، فتريد أن تصرخ ، ولكن لم تستطع أن تفرد شفتيها ، وتستنشق كفايتها من الهواء ، وكان الافظع خوفها على سيريوجا ، الذي ظل يسعى ان يرفع جسمه عن مقعده ، وكان يرفع ذراعه الى فوق ، ويصيح بصوت عال استعراضي : «هورا لكادحي غرودينس الاماجد !» أو «هورا لكولخوزيي قرية بارانوفكا» والظاهر أن هذه الهتافات راقت لبانتيوشا ، فكان يصرخ ايضاً «هورا» ، والطريق كان مغبشاً ، والبيوت الريفية الخشبية تأتي طائرة للقائهم ، والاعمدة تتوامض ، مستضاءة للحظة ، واشباح تندفع نحو الساقية . «هورا للمارة الفرادى» زعق سيريوجا ولوح بذراعه المهفهفة بطاقيته .

كانت أولغا فاسيليفنا تشعر بشيء من الخوف ، ولكنها كانت تضحك في سرها ، بل وبكت من الضحك ، ولربما مما كان يغمرها آنذاك . كانت غاضبة عليه ومحبة له . ولم يبق لهذا الصيَّاح ، الصبي الصعب المراس وقت كبير يصخب فيه على الارض . فجأة طالب كليموك أن يؤكد سيريوجا على أن كيسلوفسكي طلب منه وثائق لاطروحته ، ووعد ، بالمقابل ، أن يساند اثناء الدفاع ، وهذا ما كان ، على الارجح ، ولكن سيريوجا لم

يعرف ذلك إلا عن طريق كليموك نفسه ، فقد كان وسيطاً ، والآن تحول ، لسبب ما ، بمقدار مائة وثمانين درجة ، وراح يحوك المكيدة لكيسلوفسكي . لم يكن سيريوجا يجيد المكائد ، فقد كان ذلك ينفره ويحنقه ، وبسبب الحنق كان يقوم باسخف التصرفات . يا إلهي ، ليته أتحد انذاك مع كليموك ! وقد ترجاه كليموك في ذلك كثيراً ! كان من الممكن أن يجري كل شيء بشكل مختلف . ولبقي سيريوجا حياً . ولعاش حياة رائعة ، وعمل ، ومزح ، ولتزحلق على الاسكي إلى اواخر الشيخوخة ، ولأرتقى في السلم الى الأعلى . ولكن غير معروف من اي شيء يموت الناس . يذوي شيء ما بشكل غير متوقع ، زهوة الحياة ، كما كان تولستوي يقول . زهوة حياته كانت لا تزال مستمرة ، وكان ما يزال يتحرك ، ما يزال يريد شيئاً ، ويسعى الى مطمح .

كان لا يزال في امكانه أن يتعرف على أناس جدد ، ويكتسب ، كما كان يتصور ، اصدقاء جدداً . على حين غرّة ظهرت داريا ماميدوفنا . وان تذكرها يشيع الضيق في الصدر . ولكن تجاوزها غير ممكن ايضاً . إن هذه المرأة افزعت أولغا فاسيليفنا للمرة الاولى وبشكل حقيقي ، لأنها بعثت على التكهن فجأة بأن سيريوجا سيختفي . . . معها . واختفى بالفعل فيما بعد ، وظهر أنها المذنبة غير المباشرة ، تلك النقطة من التعاسة التي انفكت منها ، فيما بعد ، كل التعاسة الخارجة عن الحد مثل العاصفة الثلجية في «ابنة الآمر» التي تنامت من سحابة لا تكاد تلحظ . إن الناس في الحياة الطويلة يحيطوننا بتراكمات : يتبلورون فجأة ، ويختفون فجأة خاضعين لقوانين مبهمة . في يوم ما كان ثمة اصدقاء الصبا ، من مثل فلاد ، زملاء عهد الطلبة — واختفوا دون أثر ، ثم جاء سوشيفسكيا ، ورسامون ،

وعجائز ، وسكيرون ، وفاليركا فاسين مع زيكا ، وهم أيضاً غاض بهم الماء . ثم أناس من المتحف ، هؤلاء وآخرون ، ايليا فلاديميروفيتش — وكأنهم لم يكونوا بتاتاً ! ثم أناس من المعهد ، ومن فاسيلكوفو — وهؤلاء الآن انشقت الارض وابتلعتهم . . . وبعد ذلك داريا ماميدوفنا مع اصحابها الاذكياء . . .

ما إن رأت أولغا فاسيليفنا لأول مرة الوجنتين المخضرتين السمراوين ، وبياض العينين المزرق ، والشعر الفاحم السبط دون أية خصلة نافرة ، أو تجعيدة ، مثل رأس حيَّة صغيرة سكب عليه ماء ، حتى توجس قلبها بلية ! داريا تعدت الاربعين بقليل ، ولكن قوامها قوام فتاة في العشرين . الا ان المرعب لم يكن قوامها ، ولا سمرتها ، ولا ساقاها الممشوقتان بل تلك السمعة التي كانت تذاع عنها ، وضخمها الاصدقاء والدجالون من مختلف الالوان ، فيزعمون أنها ذكية بشكل غير اعتيادي . هراء هذا ! اختلاق ! رأتها أولغا فاسيليفنا عدة مرات في زيارات ، وفي المسرح وعند لوجيسكي ، بل ورأتها ذات مرة في بيتها ، وتحدثت معها في مواضيع مختلفة إبتداء من توارد الخواطر موضوعها المفضل ، وانتهاء بالشعر الحديث ، وادركت بسرعة : إنها الملكة العارية . كل شيء استعراضي ، مأخوذ ، تقريبي ، ولكن الى جانب ذلك توجد ، بالطبع ، ثقة في النفس جهنمية ، وطريقة في اظهار نفسها بصلابة وقطعية ، وكأنما تصدر حكماً لا يقبل الاستئناف . شخصية غير مريحة جداً . ولكن بعض الحمقى اغتروا بها .

وماذا ؟ حتى لو كانت مرشحة في العلوم ، حائزة على درجة دكتوراه تقريباً — المضحك أنهم كانوا يقولون عنها مثل هذه

الاشياء ، وفي اغلب الظن أنها نفسها كانت تنشر هذه السمعة : «دكتوراة إلاّ خمس دقائق» ، فيلسوفة ، نفسانية ، استهلكت عدداً كبيراً من الكتب ، واللسان ذلق معسول . ولكن هذا ليس كل شيء . يمكنك أن تطبخ لنفسك سمعة ، ولكن عقلك لا يزيد .

كانت الذكرى السادسة على وفاة فيديا . دعت لويزا الاصدقاء — بوريا لوجسكي وزوجته فيروتشكا ، شوباكوف وزوجته كراسينا ، وشخصا آخر من المعهد ، وغينكا كليموك وزوجته مارا . كان سيريوجا وكليموك في حكم المتعادين . وقد تنرفزت لويزا بسبب ذلك ، وتشاورت مع أولغا فاسيليفنا هاتفياً : ما العمل ؟ كان من المستحيل عدم دعوة كليموك . وكان قد تغيَّر بعد موت فيديا مباشرة . في حياة فيديا كان تصرفه محتملاً ، وكانت لويزا تعرفه كصديق قديم طيب وعزيز . قال سيريوجا :

— تخطَّفه الشيطان ، دعيهم يدعونه ، فلن أمسه .

كانت لويزا تحب سيريوجا ، وطبيعي أنه كان ، عندها اعز ضيف — لأن فيديا ايضاً كان يحبه — ولكن كليموك ايضاً كان رفيق فيديا ، ومرافقه في السفرة الاخيرة ، وفضلاً عن ذلك ، هيأ للويزا مساعدة من المعهد . واستحصل لها سلفة لمرة واحدة لا تسترجع ، والمبلغ ، كما عرفت أولغا فاسيليفنا فيما بعد ليس صغيراً ، اكبر مرتين من المبلغ الذي كانت تحصل عليه ، وفي كل صيف كان يرسل اطفال فيديا الى مخيم الطلائع العائد للمعهد . وبشكل عام ما كان في وسعها ألا تدعوه .

— أنا اعرف أن كثيرين لا يحبونه ، ويعتبرونه حثالة . ولكنه جيد نحوي . لا استطيع أن أكون خنزيرة — اوضحت ذلك لأولغا فاسيليفنا — كل رأس سنة يرسل معايدات . ويهنئ

في عيد ميلاد فيديا ، بل وجلب زهوراً . ولكن سيريوجا ينسى . . .

كان سيريوجا ينسى . كانت هناك حالات ينسى فيها حتى أن يهنئ أولغا فاسيليفنا في عيد ميلادها . ويخلط في اليوم باستمرار — فبدلاً من أن يهنئ في اليوم الرابع من حزيران يهنئ في اليوم الثالث — وكليموك لا يخلط في شيء . كان ثمة شيء الزمه على ان يكون جيدا مع لويزا . يبدو أن لويزا املت في ان كليموك يتوجس من الجلوس مع سيريوجا الى مائدة واحدة ، ويشرب الفودكا معه ، ولا يأتي متذرعاً بحجة . ولكن الآخر جاء . احبت مارا أن تزهو أمام صديقاتها السابقات ، وان تتحدث عن الشقة الجديدة ، والبلاطات الزرقاء ، وورق الجدران بلون خشب البلوط ، وعجائب الكلب ريدي ، وكذلك بالطبع ، عن انطباعاتها في الخارج ، فقد تراكمت اشياء كثيرة منذ انقطاعهم عن التزاور . والحقيقة لم تر احداهما الاخرى منذ زمن بعيد . الجميع بدوا نحفاء كامدين . وكراسينا البلغارية الحسناء ، زوجة شوباكوف ، مصفرة الوجه . وبوريا لوجسكي ، الطبيب النفسي الذي كانت أولغا فاسيليفنا تحب التحدث اليه تحول الى كهل جاف العود ، فضلاً عن أنه كان يضع على عينيه نظارة امريكية ثقيلة جعلته يبدو اكبر سناً . كانت فيروتشكا زوجة بوريا تشكو من كبدها ، وهي الآن لم تأكل . ولكن تغير لويزا كان ملحوظاً اكثر مما لدى الآخرين ، فقد نحفت ، وتحدبت وكان الفستان الذي ترتديه من التفاهة الفظيعة والرخص ما جعل أولغا فاسيليفنا ترتعب . لقد أهملت هذه المرأة نفسها ! فأشفقت أولغا عليها كثيراً . انها اجهدت نفسها ، بالطبع ، واعتصرت آخر قواها ، لتدعو الناس ، وتولم لهم كما يجب . كانت المائدة غنية ، ولكن كان يبدو من عيون الاطفال الجشعة ، ومن تناولهم خلسة من الصحون

هذه القطعة من اللحم المقدد ، وتلك القطعة من الجبنة انهم قلَّ ما يأكلون مثل هذه الاطايب . كانت هناك زجاجتان من الفودكا ، ومن قبل كانتا ستفرَّغان بلمحة بصر ، ويذهب احدهم لجلب زيادة ، أما الآن فخلال المساء «افرغوا» واحدة بالقوة ، وبدونما رغبة ، فقد كان لاحدهم ضغط دم عال ، ولآخر كتابة تقرير في الليل ، وكليموك وبوريا لوجسكي يسوقان سيارة . ولم يكن سيريوجا يمتنع ، بالطبع ، ولكن مارا عبَّت اكثر من الجميع . كانت ، كما يبدو ، الوحيدة التي ناسبتها الذكرى السادسة . امتلأت نسغاً ، وظهرت عليها السماحة ، وصارت مكتنزة ، سيدة صالون ، لمع وجهها القرمزي من الفودكا معبراً عن الاستمتاع الكامل بالحياة . اثارت اعصاب أولغا فاسيليفنا ، فلم تحب أن تتكلم معها ، بل أن تستمع الى نفجاتها .

ما إن تأخذ هذه بالتحدث عن كلبها ريدي ، الذي يعرف مائه واربعين كلمة ، أو عن رحلاتها : «تصوروا ، فظاعة ، نسير في بولفار في نيس . . .» وكانت أولغا فاسيليفنا تقاطعها عن قصد ، طالبة تقديم طبق أو تشغيل التلفزيون ، أو ما شاكل ذلك . وكان ذلك فظاظة بالطبع ، ولكن أولغا فاسيليفنا لم تستطع أن تسيطر على نفسها : فإن الاستماع إلى مارا الراضية عن نفسها كان لا يُحتمل . وبدت هي وكليموك وكأنما صرفا عن ذهنيهما نهائياً أن سيريوجا ظل طويلاً يسعى الى السفر الى فرنسا ، الذي كان ضرورياً له ، ولكنه لم يوفق لسبب مجهول ، أما ابو فصادة هذه ، التافهة ، التي لم تشتغل في اي مكان ، فقد سافرت الى نيس وباريس ، وروما ، والى حيث لا يدري إلا الشيطان . طيب ، تحايلوا ، وتصيَّدوا ، ولكن ليكن لديكم الشعور باللياقة ، فلا تتباهوا علناً ، ولا سيما في حضور سيريوجا .

ولكن سيريوجا ، بدا وكأنه لم يكن يستمع الى كل هذا الهذر عن السفر الى الخارج ، غارقاً في افكاره الخاصة . ولكن أولغا فاسيليفنا غضبت على مارا . إن الذين تثخن جلودهم بمقدار ما يكتسبون من نجاحات دنيوية كانت النفس دائماً لا ترتاح اليهم ، فكانت أولغا فاسيليفنا تحاول أن تبتعد عنهم قدر الامكان . من قبل كانت تتحمل مارا ، بل وتفتح لها نفسها عن طيبة . وكانت تلك تبدو شبه بلهاء بشوشة بعيدة عن الالاعيب والدسائس التي كان زوجها يمارسها . ولكن تكشف الآن بأية شهية يلتهمان اطباق الالاعيب والدسائس !

— لويزا ، يا قطتي ، كل شيء في مائدتك لذيذ جداً ، — امتدحت بلهجة متطلفة ، وهي تأخذ شيئاً من صحن الفواكه — لماذا توقفنا عن الاختلاط ؟ هيا ، نختلط !

كان الطفلان ينظران بلوعة الى حبات الكمثرى الريانة تختفي واحدة وراء الأخرى في الفم ذي الاسنان الكبيرة لتلك المرأة البدينة القرمزية الخدين والباروكه الزرقاء .

أما كليموك فكان كئيباً بعض الشيء أو ربما ممتلئاً بالشعور باهميته ، ولا يتكلم كثيراً ، كما في العادة ، ولا يهزر ، وحين جلبت لويزا القيثارة — قيثارة فيديا الشهيرة التي كان يعزف عليها عزفاً رائعاً — وطلبت أن يغني اغنية فيديا المفضلة : «اسرع ، اسرع ، الى الآخر» قال كليموك أن مثل هذه الاشياء لم تعد تطرب ، وطلب المعذرة ، فصوته قد خانه .

رجل أعلى مقاماً من أن يغني بمصاحبة القيثارة اغاني غامضة المعنى ، مثل طالب في قطار الضواحي . ولكن لو كانت اغنية من مثل «يا عاصمتي العزيزة ، موسكو الذهبية» . وفي البيت بعد هذه الواقعة ، سخر سيريوجا منه ، وهو يتذكر كل

تقلبات الأمسية التي أنتهت بخصام وسباب . كان فظيعاً لم يستطيعوا السيطرة على انفسهما وتشاجرا في مثل هذا اليوم . وكان ذنب سيريوجا في ذلك لا يقل عن ذنب كليموك . في البداية كان كل شيء هادئاً . وادعاً ، مجرد لأنهما لم يتبادلا الحديث بعد ، وقد جلسا في طرفين مختلفين من المائدة . وعلاقتهما لم تكن بعد مستحكمة العداء ، كما صارت فيما بعد ، ولكن احدهما كان يستعرض ازدراء للآخر . كان سيريوجا يزدريه على تسلُّقه ، وكليموك على حسده المزعوم . فقد كان يرى أن سيريوجا لا يستطيع أن يتحمل صعود كليموك الاعجوبي .

وكان من الممكن أن ينتهي كل شيء نهاية محتشمة ، لا سيما وأن كليموك نوى أن ينصرف في وقت مبكر ، لو لا سيدة تشتغل في المعهد — نسيت أولغا اسمها — جسيمة ، بخالط الشيب شعرها الأسود اخذت فجأة تمتدح بقوة وحماس نزاهة فيديا وعدم قدرته على العيش . وهتفت :

— مثل هؤلاء الناس لا وجود لهم الآن — وفيدور الكسندروفيتش في هذا المعنى انسان فريد ، لم يغنم لنفسه شيئاً .

كان صوت المرأة يرتعش من الانفعال ، وكانت ، بالطبع ، تبالغ . لقد كان فيديا رجلاً طيباً ، ولكن ليس عفيفاً بتلك الدرجة التي صورته بها . ثم تحدث شخص آخر في هذا الموضوع ، وأخذوا يتذكرون طيبة فيديا ، وعادته في مساعدة الناس ، وفي وقت واحد ، وبنبرة حنان — عدم قدرته على التدبير ، ولا واقعيته ، وهما صفتان كان يتصف بهما بالفعل . اخذت لويزا تبكي فجأة ، وأخذت تشكو من كل شيء على التوالي : لم يسافرا ابعد من القرم ، لم يكن يملك معطفا شتائياً معتبراً ،

والشقة لم يغيروها ، طوال الوقت كان يريد أن يغير عن طريق مكتب الاستبدال ، ولماذا لم يفلح في ذلك عن طريق العمل ، مثلما يفلح الجميع ؟ والآن لا تعويل على اي شيء .

— كان آخر مَنْ يفكر فيه هو نفسه ، ويفكر دائماً في الآخرين ، في الآخرين — همست لويزا ونكست رأسها الذي بدا عليه الشيب بشكل ملحوظ .

لم يرد أحد لا هذه الدموع ولا هذه الشكايات . وتمزق الهدوء ، وأخذ الناس يتحدثون دفعة واحدة . وقد غمرتهم موجة الحب نحو فيديا ، النقي ، الذي لا يشبه الناس العاديين — أوه ، يا إلهي ، مبالغة مفرطة ، ولكن في تلك اللحظة بدوا وكأنهم نفذوا الى الحقيقة ذاتها — متأثرين بمصيبة هذه المرأة ، وجو الشقة البائسة باشيائها القديمة ومتلهبين ، على الارجح ، بحكايات مارا عن ازدهار كليموك . . . وكيف ستبدو شقتها بعد ست سنين ؟

والذي حصل انهم في مدحهم فيديا كانوا يصوبون النار على كليموك دون أن يدركوا . توتر كليموك ، وردد ايضاً مدحاً في فيديا ، ولكن صوته كان مثلوماً . وكان كل شيء يتدهور نحو الانفجار . ولكن تشوباكوف الملتحي صديق فيديا في عهد المدرسة ، وهو كشخص غريب تساءل بسذاجة :

— وهل لسكرتير المجلس العلمي امكانيات معينة ؟

ربما لم يكن ساذجاً كثيراً ، مجرد أنه أول من سدد الضربة . ردّت السيدة ذات الشعر الاسود المخلوط بالشيب :

— وأنت ماذا تتصور ؟

— أنا لا اعرف ، فلهذا أسأل .

— الامكانيات غير قليلة . ها هو ذا غينادي فيتاليفيتش

جالس امامك ، وسيؤكد ، كما اعتقد .

دوَّر كليموك عينيه بنزاهة ، وهزَّ رأسه ، واعترف بأنه رغم كل ما له من رغبة لا يستطيع أن يفهم أية امكانيات يدور عنها الحديث !

— والله العظيم لا استطيع ان احدس . . .

قالت السيدة مندهشة بصدق :

— كيف هذا ، يا غينادي فيتاليفيتش ؟ كل شيء تحت يديك .

— ما هو الذي تحت يدي مثلاً ؟ — وضحك — هذا لم أكن اعرفه .

— كل شيء ، كل شيء ! كل شيء على الاطلاق .

وضحكت السيدة ايضاً بشيء من التزلف . هزَّ كليموك كتفيه . وكان من الممكن ان يتحول كل شيء إلى مزاح ، إلى ثرثرة ، ولكن سيريوجا قال فجأة بلهجة مختلفة جداً — صلبة وصلفة قليلاً — أن اطروحة فيديا الموهوبة لم تنشر في اي مكان ، بينما اطروحتك المتوسطة تماماً نشرت مرتين ، في مجموعة وفي كتاب مستقل . تظاهر كليموك بأنه لم يسمع ، بل ولم يلتفت الى ناحية سيريوجا ، وتلت ذلك ملاحظات من آخرين ، ليست لها علاقة في الموضوع ، وبعد ذلك قال كليموك متنهداً :

— انا أرثي لك ، يا سيرغي . . لا بد ان يكون صعباً عليك أن تتبع نجاحات الآخرين طوال الوقت !

قالها بلا غيظ ، وكأنما بتعاطف . انفجر سيريوجا : اية نجاحات ، عليها اللعنة ؟ ابصق عليها ! ليست نجاحات ، بل خراء ! وقال شيئاً آخر شرساً مرتجاً صارخاً . ابيض وجه لويزا . هزت أولغا فاسيليفنا ذراعيها على سيريوجا ليسكت .

خافت عليه . اندفعت مارا تدافع عن زوجها ، وارسلت صريخاً ، كما في المطبخ . وهاجم بعض العاملين في المعهد سيريوجا والسيدة الجسيمة من بينهم في حماس لاهب — ابتسم كليموك في انتقام . وهتفت السيدة الجسيمة :

— تعابير لا برلمانية ! اطلقت تعابير لا برلمانية .

انصرف كليموك ومارا . وبعد قليل انصرف العاملون الآخرون في المعهد . وحين تواادعوا مع سيريوجا كانت الادانة مرتسمة على وجوههم . أما السيدة الجسيمة — التي كانت ، كما تبين ، موظفة مهمة وعضواً في لجنة — فقد همست مغمومة :

— لابد لي أن اغمك ، يا سيرغي افاناسيفيتش . هذا يسمى «كازوس بيلي» — ذريعة للهجوم !

تبسم سيريوجا ابتسامة في غير مبالاة :

— وليكن ! . .

وشاع فيه مزاج مرح .

صار ميالاً للكلام ، ضجاجاً ، يتحدث مصوراً بفكاهة — كما كان يجيد — عن سفرته الى غروديتش ، ولقائه بالعجوز كوشليكوف . هدأت لويزا ، وصاروا الجميع اكثر سماحة . كان شوباكوف وزوجته كراسينا في صف سيريوجا ، بالطبع . وسُوِّي على نحو ما الازعاج والصياح وغطّى عليه شيء آخر — النسيان مستحيل ، ولكن حاولوا ان ينسوا — في هذا الوقت ظهر لأول مرة اسم داريا ماميدوفنا . كان سيريوجا يقول : في قوائم العملاء السريين لشعبة المخابرات ثلاث شخصيات كبيرة غير مكشوفة أشير اليها بالقاب . ومن المحتمل أن تكون الاعتقالات عام ١٩١٦ مرتبطة بهذه الشخصيات أو بواحدة منها . و كان هذا الموضوع يشغل باله دائما . حتى أن

أولغا فاسيليفنا راحت تمازحه قائلة :

— هل أنت مؤرخ أو مخبر خصوصي ؟

وبما أن كراسينا المرأة اللطيفة الطيبة ، ولكنها غير بعيدة النظر كثيراً ، قد حكت ، قبيل ذلك ، عن فلاحة من قرية جبلية في جنوب بلغاريا لها موهبة التكهن ، ومواهب أخرى تليباتية منطقية مذهلة الى حد أن الناس اخذوا يغدون اليها من الخارج ، وقد حصلت احدى معارف كراسينا اجابة دقيقة منها بخصوص صديق لها مات ميتة غامضة ، وقد قال احدهم هازلاً : توجه الى هذه المتنبئة ، واسألها عن العملاء السريين ! فلربما تكشف السر فجأة ؟ واقترح آخر في ضحك سافر : فما اذا في جلسة لاستحضار الارواح استحضرت روح عقيد مارتينوف ، وعرفت منه كل شيء ؟ عندئذ تحدث بوريا لوجسكي عن داريا ماميدوفنا . وكان حديثه جدياً . إنها تمارس التليباتية عن جد ، وفي نفس الوقت تهتم بمختلف انواع الايمان بالقوى الخفية والسحر الشرقي والتوسط والاعمال السوداء الأخرى . وهي الى جانب ذلك على درجة عالية من التعليم ، تجيد اربع لغات ، وتلقي محاضرات . وابوها رجل قفقاسي ، ومنه جاء اسمها «ماميدوفنا» وكان طبيب المعالجة بالمثل ، غني جداً ، توفي في زمن الحرب ، وأمها من النبلاء .

وهكذا أثار الفضول حتى أن الجميع اخذوا يطالبون بالتعرف عليها ، وأن يأخذها لتزور أحد المعارف المشتركين . وتحمس سيريوجا بشكل خاص . وكيف لا ، وهي شخصية فريدة ، فهي نبيلة وامرأة شرقية في نفس الوقت ، ووسيط بين الارواح ، وبروفيسورة ! ووعد بوريا بأن يحقق ذلك بالتأكيد . وخففت فيرونشكا زوجته من الحماس الجماعي حين قالت : إن بوريا

نفسه لا يكاد يعرف داريا ماميدوفنا إلا قليلاً ، وقد تعرف عليها عند آل كوستين ، وهم فيزيائيون شبان موهوبون جداً ، ومن المستبعد أن يتيح تعرفه العابر على المرأة دعوتها الى البيت .

ووصف فيروتشكا لداريا ماميدوفنا بكلمتين باردتين : «تلك الامراة» زاد توجس أولغا فاسيليفنا . يعني أن فيروتشكا ايضاً تتحسس خطراً هنا . وفيروتشكا لا تثير المخاوف بلا موجب ، فإنها حصيفة ذكية . سألت أولغا فاسيليفنا .

— فيرا ، وهل تعرفت أنت بداريا ماميدوفنا ؟

— رأيتها مرة واحدة ، عندما كنا في زيارة لآل كوستين .

— طيب ، وكيف ؟ هل هي حسناء شرقية ؟

— لا أظن . . . — اجابت فيروتشكا متلعثمة — للهواة ، كما يقولون . ولكن بوريا هاو بالذات . أظنها صعقته في الحال .

— بوريا ، عرفني بها فوراً — قال سيريوجا متحامقاً — واي رفيق لي انت اذن ؟ كيف لا يؤنبك ضميرك ؟

— لا تهرج . لن تصل الى هناك .

— كيف لا اصل ؟ ومَنْ يصل ، انت ؟

— أنا مشكوك في امري . ولكن لدي فرصة على كل حال . لأنني ادرس السيكوباتية ، وهي قريبة اليها . أما أنت ، يا عزيزي ، فمع تاريخ ثورة شباط الذي تدرسه ، لن تكون بحاجة اليك ولو مجاناً . . .

وهكذا أخذا يتقابحان ويثرثران ، وجمد قلب اولغا فاسيليفنا من هاجس خبيث . واتضحت تفاصيل . المرأة نيّفت على الاربعين ، ولكنها حسنة الطلعة ، رياضية جداً ، تسبح في حوض السباحة . كانت متزوجة ، وقتل زوجها . وفي العام الماضي ظهرت في مجلة «العلم والحياة» مقالتها عن التلبياتية

بعنوان من قبيل «ما هو غامض حولنا» ، وعدد المجلة يتعذر الوصول اليه ، وفي المكتبة سجلت قائمة بالراغبين في قراءة المقالة بالتناوب . هدد بوريا أولغا فاسيليفنا باصبعه :

— اولغا ، إن هذا الرجل تشبث عن جد . عليك أن تراقبيه . . .

وضحك الجميع . حاولت أولغا فاسيليفنا بكل جهدها أن تبتسم ، وترد بنفس اللهجة اللعوب . انقضى حوالي ثلاثة اشهر ، لم يُسمع خلالها شيء عن داريا ماميدوفنا . وبعد ذلك عرفت أولغا فاسيليفنا أن سيريوجا تعرّف عليها ، وقد قال ذلك بشكل عابر ، وبلا إهتمام ، وكأنه يقول حقيقة تافهة تماماً . ولربما هذا ما كان يراه بالفعل ، أو ربما كان يتظاهر . تحدث عن معرض ، الرسام بريسين الذي يرسم صور الحيوانات ، وقال :

— بالمناسبة تعرفت هناك على نغمتوفا .

— من هي نغمتوفا ؟

— هي داريا ماميدوفنا التي — الا تذكرين ؟ — تحدث عنها بوريا عند لويزا .

وكيف لا تذكر ! وشعرت بالخدر . تبين أن جينا بريسنين كان يعرف زوجها ، الرسام . أكان ذلك حسب اتفاق مسبق ؟ لا ، ابداً ، تعارف بالمصادفة . إنها لا تشبه إمراة منحوسة . إنها جافة العود ، ملوّحة البشرة كثيراً ، لها شبه بالغجريات . كانت تقول انهم الآن يشتمونها في كل مكان ، ويهددونها . بعد افتتاح المعرض أقام جينا حفلة استقبال لاصحابه ، كان من بينهم معارف من بيت سوتشيفسكايا . وقال أحد أن غيورغي مكسيموفيتش مريض . . .

واعتبرت أولغا فاسيليفنا ذكر زوج أمها ستاراً من الدخان ، ولم

تبد شيئاً بخصوصه اطلاقاً . فقد كانت تعرف من أمها — كانت تتحدث معها في التلفون كل يوم تقريباً — أن تحاليل غيورغي مكسيموفيتش الطبية ليست جيدة ، وقد ضعف ، وصار يشكو من الألم ، ومن المحتمل أن يدخل المستشفى . كل ذلك كان معروفاً ، وقد اشفقت أولغا فاسيليفنا كثيراً على غيورغي مكسيموفيتش ، وقلقت على أمها . ولكن الذي اذهلها الآن شيء آخر : ما هي حفلة الاستقبال هذه التي تعرف فيها سيريوجا وتحدث الى هذه المرأة . ولم تكن أولغا فاسيليفنا تعرفها بعد ، ولم ترها قط ، ولكن ذكر اسمها كان يثير في نفسها تهيجاً غريباً كنوبة من الربو ، مثل ضيق نفس خفيف . فلم كان ذلك ؟ حسناً ، في هذه الحالة من التهيج وضيق النفس الخفيف أخذت توبّخ على أنه يتصرف في يومه بحرية ، بينما هي مشغولة في عملها من الجرس الى الجرس ، وهو يتنقل وحده بين الاصدقاء والمعارض ، ويتعارف . وكأنه أعزب .

كلمات مبتذلة ، وافكار مبتذلة . . . ما كانت تقوله كان مخجلاً . . . ولكن ذلك كان مرضاً ، كان حساسية ، تعارضاً . تقطعت انفاسها ، ولم تستطع التغلب على نفسها .

في الشتاء وصلت العمة باشا من فاسيلكوفو والدموع في عينيها : نيكولاي إبنها محتجز ، وسيحاكم ، ويهدده حكم بالحبس لمدة طويلة . تعارك اهالي قرية سيمكوفسكويه مع اهالي فاسيلكوفو في النادي ، ونيكولاي أراد أن يحاجزهم ، وطعن أحد اهالي سيمكوفسكويه . وكاد هذا أن يموت ، وهو الآن في المستشفى . وعولج حتى شفي وشكراً للاطباء . وكولكا لم يكن يعرف هذا الرجل ولم يسمع به ، واذا بهذه الحادثة المشؤومة . باي شيء طعنه ؟ بفأس . كان بالطبع يريد ان

يحاجزهم ، فهجموا عليه ، وهم سكارى فضربهم . ذكرت الكسندرا بروكوفيفنا أن الفأس سلاح غريب بالنسبة لكولكا .

قال سيريوجا :

— هل نسيتم ؟ ذلك البيت بفأس . هل نسيتم ؟

بكت العمة باشا ، وطلبت العون . توكيل محام ، مهما تكن اجرته ، فستحصل على الفلوس ، تبيع البقرة ، تبيع الموتسيكل . دبت الحركة في الكسندرا بروكوفيفنا ، رغم أن القضية بدت لها ميئوسة . سافرت الى فاسيلكوفو ، والى مركز المنطقة ريابتسيفو ، حيث كان كولكا محتجزاً ، وتحدثت مع المحقق ، مع رئيس الميلشيا . وبعد السفرة الاولى (كان ذلك في اواخر الخريف ، في نهاية تشرين الثاني ، حيث كان الطقس مزعجاً فيه برد مفاجئ ، وثلج رطب . وتوسل الجميع اليها أن لا تسافر ، وصرخ سيريوجا عليها : «أنا امنعك ! لا تجرئي على التفكير في ذلك ! انت عجوز ، ويجب أن تتصرفي كعجوز !» ولم يكن يبيح لنفسه مثل هذه الفظاظات غالباً . كان ذلك من شدة خوفه . اجابت : «لن اتصرف أبداً كعجوز . وأنا كنت قد وعدت انساناً ، والمرأة في انتظاري ، فمعنى ذلك يجب أن اسافر» وراح يصرخ مجدداً ، ويهدد ، وذهب الى المعهد واثقاً من أن أمه ، وهي لم تفقد عقلها بعد تماماً ، ستبقى في البيت . خرجت أولغا فاسيليفنا الى عملها ، وايرينكا الى مدرستها ، أما العجوز فتناولت المظلة ، وارتدت لباسها السياحي العائد إلى عهد مفوض الشعب كريلنكو ، وجزمة مطاطية طويلة الساق ، واتجهت الى محطة القطار ، وعادت في المساء منهوكة مرتجفة متثلجة ، مثل دمية فزّاعة بائسة . وقالت إن القضية ليست على الاطلاق بالشكل الذي عرضته العمة باشا . اسوأ

وأحسن . كان سيريوجا زعلان من أمه ، لم يرد أن يسمع ، وترك المائدة عمداً . أما اولغا فاسيليفنا فلم تكن دائماً ، بالنسبة للعجوز خير مَنْ يجاذبها اطراف الحديث ، ولهذا صارت هذه الحماة تحكي كل شيء لايرينكا . وكان صوتها حيوياً ، مهما يكن ذلك من غرابة .

وقد عرفت التالي : كان لولكا ، بالطبع ، سكران مثل الآخرين ، ولكن العراك لم ينشأ عن فراغ . والمتورطة فيه إمراة تدعى رايسا . وقد عاكسها أهل سيمكوفسكويه يريدون ان ينتقموا على تركها واحداً منهم من اجل كولكا . وكولكا الهادئ هذا ، العليل ، والدميم كان يغازل مع فتيات كثيرات ، وكان يعتبر ، لسبب ما ، عريساً مرموقاً . ويزعمون أن رايسا كانت تنتظر مولوداً منه ، ولكن العمة باشا كانت تعتبر ذلك افتراء ، وكولكا لا ينوي الزواج منها .

— اقنعتها أنها يجب أن تتخذ موقفاً مغايراً تماماً . فاهمة ؟ — اوضحت الكسندرا بروكوفيفنا لايرينكا — وأملنا في هذا فقط . في نوبة الغيرة والدفاع عن شرف أم طفله المقبل . . .

كانت تتكلم مع ايرينكا كما تتكلم مع إمراة راشدة . بينما كانت ايرينكا آنذاك فتاة في الرابعة عشرة . ولم يعجب ذاك أولغا فاسيليفنا ، ولكن من المستحيل أن تقدم لها ملاحظة ، فستجابه بتكدر وحدة . تحملت حكاية كولكا المضجرة ، واحاديث الحماة ، ولغبها ، ودقات التلفون ، والبرقيات ، فقد انغمست العجوز في هذه القضية عن جد ، ووجدت محامياً بالفعل ، وهو عجوز منافح يدعى لوبوفزوروف — وبالتدريج صار عجبها يزداد اكثر فأكثر : فمن اين هذا الحماس ، وهذه الحرارة في الدفاع عن ناس غرباء ؟ فمن هي العمة باشا وكولكا بالنسبة لها ، بل

وحتى بالنسبة للجميع . ما هم الا اصحاب بيت ريفي التقوهم مصادفة ، وكانوا يتقاضون على الصيف ايجاراً فاحشاً . ولم يكن لنا ما نتحدث به معهم . والكسندرا بروكوفيفنا نادراً ما كانت تتحدث معهم ، إلا اذا كانت ترشدهم احياناً . وبالطبع يؤسف على كولكا . . .

توافقت هذه الاحداث مع مرض غيورغي ماكسيموفيتش الشديد ، وعناء الأم ، وشبح داريا ماميدوفنا المخيم . وكانت أولغا فاسيليفنا تتنرفز بسبب كل ذلك . كان يوتر اعصابها عجز الأم ، وانانية الإبنة ، وحياة الزوج الغامضة — ماذا يفعل في النهار ، حين تكون في العمل ؟ — وعلاوة على ذلك جادت الآن مشاغل الحماة السخيفة في شؤون الغرباء . بدلاً من أن تساعدها بشكل ما في الشؤون المنزلية ، وتحافظ على نظافة البيت . . . وتحضر اجتماعات أولياء أمور التلامذة في المدرسة ، كما يفعل جميع الاجداد والجدات ، حين يكون الوالدان مشغولين . . . من سيريوجا لا يتوقع المرء شيئاً ، وأولغا فاسيليفنا انهارت من التعب . . . على الأقل لو ذهبت لتسدد أجور الشقة في صندوق الدفع نهاراً ، حيث الناس قليلون . فهل هذا شيء صعب ؟ كل شيء صعب . اصعب بكثير من السفر في قطار الضواحي خارج المدينة والطقس سيّيء ، والتطبش في وحل الطرق الريفية ، والجلوس طويلاً في المحاكم من أجل أناس قليلة معرفتها بهم بل وبعيدين عنها عموماً . وكان في ذلك الكثير من التظاهر . كما هو الحال دائماً مع هذه المرأة .

وذات مرة ، وبتأثير توتر الاعصاب الى اقصى حد بسبب هذا كله — ليس توتر اعصاب ، بل نوبة اعياء شامل ، حين يكف الرأس عن التفكير ، ويستسلم المرء لكل المهيجات تحت

قشرة الدماغ قالت له أن مصير كولكا يهمهما اقل بكثير من مرض غيورغي مكسيموفيتش . دع الكسندرا بروكوفيفنا بكل حبها الانساني التظاهري تتركها بسلام . لقد كان ذلك ظلماً . فان الكسندرا بروكوفيفنا كانت أقل إضجاراً لها من الجميع ، ولكن أولغا فاسيليفنا كانت تسمع الارشادات الدائمة بالتلفون ، واسهب التفاصيل خلال العشاء ، وعلاوة على ذلك كان سيريوجا يعيد ما سمعه من أمه . وفضلاً عن ذلك كانت قد وصلت لتوها من سوتشيفسكايا ، حيث كانت أمها تلوب عاجزة ، وتتعذب في بليتها ، وهي ترى عزيزها على شفا الموت . وكان غيورغي مكسيموفيتش في المستشفى منذ اسبوعين . وحالته تتردى من سيئ الى أسوأ . أجروا له عملية قبل ثلاثة ايام ، اجراها البروفيسور رودين ، الاختصاصي المعروف ، والمستشفى جيد ، أدخلوه اليه بصعوبة ، عن طريق فلاد ، وقد بُذل كل ما في طاقة الانسان ، ومع ذلك فقد كانت أمها تتمزق ، وكانت تتصور أنه يجب أن تعطى للبروفيسور رودين مئتي روبل قبيل اجراء العملية . شخص ما تفوه بهذه السخافة . ولم تعط هي شيئاً لأنهم قالوا لها : الوقت متأخر الآن . والآن يعذبها الظن بأن العملية من جراء ذلك ربما لا تجلب الخلاص . كان البروفيسور رودين معها جافاً بشكل ما ، في شيء من القسوة ، وقال : «مع الأسف لا يمكنني أن أؤملكم ، رغم انني لا استطيع أن أقول انها النهاية !»

وفتكت هذه العبارة بالأم .

— أعتقد الكلام مع اقارب المريض بهذا الشكل استهزاء بهم — قالت مرتبكة من خلل الدموع — مَنْ اعطاه الحق ؟ . . إنه يتكلم معي كموظف . . .

وهنا أنبت نفسها وشتمتها على وهن العزيمة وعلى أن لسانها

لم يدر في فمها لتعرض النقود على البروفيسور رودين ، لأنه ، وان قالوا لها متأخراً ، إلا أنها هي نفسها قد فكرت بذلك من قبل ، ولكن لم تستطع أن تصمم . والآن ، بعد العملية كان عليها أن تحصل على الاريترين الدواء السويسري النادر . وعليها أن تتلفن للناس . وانهارت أمها ، ورقدت في نوبة من تسارع دقات القلب ، وقضت أولغا فاسيليفنا ساعتين عند التلفون . بعض الناس وعدوا بأن يعرفوا ويستفسروا ، ولكن الغالبية قالوا انهم انفسهم يبحثون عن ادوية نادرة ، ولا يستطيعون الحصول عليها . عادت أولغا فاسيليفنا من سوتشفسكايا في نحو التاسعة مساء ، وشربت شاياً ، وتهيأت لتتلفن الى أمها ، لأنها انصرفت عنها مثقلة القلب . مجرد أن تعرف كيف حالها ، وهل هدأ خفقان قلبها . ولكن الوصول الى التلفون كان غير ممكن .

كانت الكسندرا بروكوفيفنا تتكلم مع المحامي لوبوفزوروف . واستمرت المكالمة اربعين دقيقة بالضبط . واخيراً اقتربت أولغا فاسيليفنا من العجوز وقالت إنها بحاجة عاجلة إلى ان تتلفن . هزّت الحماة رأسها غير راضية ، وتكلمت نحو دقيقة اخرى ، وعلّقت السماعة . وقالت بحدة :

— كان الكسندر ايفانوفيتش يتحدث عن المحاكمة ، وهذا شيء مهم جداً لي .

اجابت اولغا فاسيليفنا بحدة ايضاً :

— وأنا بحاجة الى ان اتكلم مع أمي . انها في حالة سيئة . ولكن الحماة لم تسأل : ماذا بغالينا يفغينوفنا ؟ وهل هي بحاجة الى مساعدة ؟ الحصول على دواء ؟ فإنها استطاعت ان تحصل على بعض الادوية من عيادة في شارع كيروف . ومن المستبعد أن تحصل على ايريترين . ولكن كان في امكانها أن

تستفسر . لم تكن في عداء مع أم أولغا ، ولم تتشاجر معها قط ، وان كانت قد حصلت نقاشات متحفظة ، فقد حدثت في الزمن القديم ، حين كانت ام أولغا ترعى ايرينكا ، والكسندرا بروكوفيفنا تلقنها . في تلك الأيام كان تفور في بعض الاحيان دوامات صغيرة على اساس حماس وحب الاثنتين للصغيرة . وقد نسي كل شيء منذ زمن بعيد . والآن حلت اوقات اللامبالاة الهادئة . فقد كان اي غريب محتاج إلى **مساعدتها الرفاقية** اقرب اليها من أم الكنة .

وبعد هذه الملاسنة الخاطفة على التلفون التي لم تنته بشيء ، سارت أولغا فاسيليفنا من الممر الى الغرفة . ونوهت بـ«الحب الانساني التظاهري» . وثب سيريوجا في الحال مثل حارس يقظ حامل السلاح :

— الشاب حكم بثلاث سنوات ، بدلاً من سبع ! ما هذا ؟ تظاهر ؟ لا ، يا عزيزتي ، هذا حقيقي . . . ولن تصلي اليه . . .

ردّت بشيء ما . لأنه كان مستنفراً جداً ، شديد الحمية للدفاع عن أمه . ولكن ربما لم تكن على حق ، بل لم تكن على حق بالتأكيد ، فان الحماة كانت تساعد الناس احياناً من صفاء قلب ، وما كان في امكانها ألا تفعل . فتلك عادة تربية ، وليست فضلاً على الاطلاق . ولكن كان يجب أن يفهم في اية حالة عادت أولغا فاسيليفنا من سوتشيفسكايا . بينما عزم على أن يتكدر . وفجأة رأته يدخل الغرفة في المعطف والقبعة ، بتلك السيماء المتحجرة الجهماء ، وانطباق الفكين ، وهو الشكل الذي يكون فيه في لحظة التكدر البالغ ، ويدور في الغرفة يبحث عن شيء .

— الى اين انت ذاهب ؟

— الى فيدروف .

وجد ما يبحث عنه — الحقيبة — والقى فيها بعض الاوراق .

كان فيدروف صديقه في المتحف ، فارغاً من اولئك المهذارين الذين كان يلتصق بهم بطريقة غريبة ، والذين كانوا يجذبون الى الاسفل . ومن حسن الحظ أن اللقاءات صارت قليلة ، لأن فيدوروف أنتقل الى مكان قصي ، وراء كوزمينكا . سألته أولغا فاسيليفنا : وما هذه العجالة ؟ لا توجد عجالة ، مجرد أنه وعد بالمجيء اليه . وبعد صمت قصير اضاف ستكون هناك داريا ماميدوفنا . ويتبين أن فيدوروف يعرفها معرفة ممتازة . وستصل في وقت متأخر ، بعد المحاضرة . وقد ترك هذا الخبر لدى أولغا فاسيليفنا انطباعاً ، وكأن كرة من البرق دخلت في الغرفة المجاورة وصارت الغرفة ترى مضاءة بنور ، وتسمع منها قرقعة .

سألت بصوت مستضعف — لقد بدا لها أن كل شيء قد أنتهى ، وأنه يغادرها الى الأبد — هل يفكر في ان يعود ؟ كانت الساعة الحادية عشرة . قال سيبقى هنا ليقضي ليلته . كان يتكلم بهدوء ، بل وبشيء من التذمر ، وكأنما هي تماحك في اشياء تافهة ، ولم تكن لها القوة لتتهيج وتصرخ : ما هذه الهلوسة ؟ لماذا تغادر البيت ، وتبيت في مكان لا يعرفه الا الشيطان ؟

كان يتصرف كرجل يقوم بشيء طبيعي تماماً . طبيعي أن الخروج في الساعة العاشرة والنصف الى مكان وراء كوزمينكا كان يعني البقاء لقضاء ليلته هناك . فما الغرابة في أن يقضي ليلته مرة عند صديق ؟ لا غرابة في ذلك ، وحق الرب ! ولكن في حياتهما لم تكن مثل هذه الممارسة ، ولم تكن قط . وها قد

استغل التكدر ، وأدخل هذه البدعة الجديدة بهدوء ووقاحة . صمتت ، لأن كل هذا قد أذهلها ولا سيما داريا ماميدوفنا .

قال «الى اللقاء» وخرج .

من قبل كانا يتشاتمان ويتخاصمان لشيء ما في استماتة ، فيخرج هو هارعاً او هي هارعة إلى أمها ، ولكن لا يتناول حقيبة بهذا الشكل ، في هدوء وبلا صخب ، ويقول «الى اللقاء» . . . مثل فراق الغرباء ولا يهم أن يكون ذلك لساعة أو لمدى الحياة . فسألته :

— ربما عندك قصة غرامية مع داريا هذه ؟

كان يخرج الى فيدروف أو لمكان آخر ، ويقول التيليباتية تجذبه عن جد ، والحقيقة أنه كان يقرأ كتباً قديمة سخافات من مثل «أصوات الصمت» لبلافاتسكيا ، مجلات «رموز الكلمات» و«بشير ما وراء القبر» — مَنْ كان يعطيها له ؟ — ومجلات جديدة امريكية وانكليزية ، وكان يجلس ومعه القاموس ، ويكتب مقتطفات ، وينكت هو على نفسه ، ولكن كان لأولغا فاسيليفنا ما يشغلها عن النكت . فهي كبيالوجية كانت تعرف جيداً ثمن كل هذه الغرائب . كان موضع غواية إمراة . كانت تريد أن تكون لها سلطة عليه .

— ما حاجتك الى هذا ؟

— لا شيء . اريد أن أفهم ماذا كان يشتغل الناس خلال آلاف السنين ؟ بالاضافة الى ذلك كان عقيدي مارتينوف يستحضر الارواح ، وكان عضواً في حلقة سرية . وبسبب ذلك كانت له متاعب في عام ١٩١٦ . . .

وعند ذاك ذكر كالمازح أنه كانت عند فيدروف جلسة لاستحضار الارواح ، وقد استحضروا روح بوبيدونوستسيف الذي

قال عبارة غامضة «ليس بهذا ننتصر» وجادلوا ساعتين جدالاً ضارياً عن معنى هذه العبارة ، ولم تتحمل أمه أخيراً فأثارت ضجة . وصرخت أن أباه كان سيموت خجلاً لو كان مثل هذا قد بدأ في حياته . ابن افانسي ترويسكي مستحضر ارواح ! إبن المشترك في الثورة ، ورفيق لوناتشارسكي ! لو نهض أبوه من قبره . . . فذكر بلهجة مسمومة :

— أها ، أنت تفترضين هذه الامكانية ؟

طبيعي أن ذلك كان تلاعباً تنكيتاً في الكثير منه — لم يكن قد تحول بعد إلى مختل العقل تماماً — وكانت هناك اخفاقات ارهقته باستمرار ، وكان هناك الشيء الافظع الذي لم تحدسه الكسندرا بروكوفيفنا . وهو داريا ماميدوفنا . في البداية كان يذهب الى فيدوروف ، الى اقصى الدنيا ، ويدعو أولغا فاسيليفنا معه ، ولكن لم تكن لأولغا فاسيليفنا الرغبة في قطع هذه المسافة الطويلة للاستماع الى هذر ، فكانت ترفض ، وتستهزئ به ، وتسخر منه . كل ذلك خواء . ذات مرة قضت امسية كاملة في قراءة مجلة «مستحضر الارواح» لعام ١٩٠٦ كانت كراسات مهلهلة ذات اغلفة ورقية تتكوم على مكتبه . فيها شيء يهز الاعصاب في بؤسه وعاميته ! احياناً كانت تضحك ، واحياناً كانت تغضب ، ولكن اكثر ما ادهشها ان هذا الهراء المحض — كل هؤلاء الوسطاء والارواح ، والارواح السفلى ، والارواح العليا واصوات ما وراء القبر — دبَّ مجرجراً نفسه الى ايامنا هذه . وبعد ان قرأت المجلة توصلت الى استنتاجين ارعباها بشدة . الأول : النساء كن المتحمسات اللاهبات في هذه البدعة . كان في ذلك طعماً لكلهن . بلافاتسكيا الشهيرة ، ومؤلفات «استحضار الارواح» بيكوفا ، وسبيرانسكيا ، وتشيكولكوفا ، وواحدة أخرى نشيطة

جداً هي كابكانشيكوفا . «افسدتهن التخمه ، ام كيف ؟ كان الأحرى بهن أن يتجولن في الحوانيت وفي محلات الخياطة ، ويقفن في طوابير مخزن الدولة لشراء جزمة طويلة الساق . . .» والاستنتاج الثاني أفظع : وهو خواء كل ما يتعلق باستحضار الارواح والاتصال بعالم ما وراء القبر ، وكان واضحاً جداً أنه لو أستمر ينفق الوقت في هذه السخافة لكان ذلك يعني أن هناك اسباباً أخرى . ولهذا ، حين قال «ربما» هبط قلبها لأنه كان متهيئاً للهبوط : كانت تنتظر مثل هذا الجواب . ولم ينتحب أحد على قبر غيورغي مكسيموفيتش في دير دونسكي مثلما انتحبت أولغا فاسيليفنا .

كان سيريوجا يمسكها من جانب ، وفلاد من جانب آخر . وكانت تحس سكون سيريوجا الغرانيتي . وذات مرة همس ببرود :

— يجب أن تسيطري على نفسك .

وبعد ذلك قادها فلاد ناحية في حذر — كان ذلك في اللحظة التي عزفت فيها الموسيقى — ولما ابعدها الى الجدار ، اخرج من جيبه قارورة دواء ، وقدحاً ، واعطاها لتشرب ، قالت وهي تنظر في وجهه العجوز المنمش :

— كان غيورغي ماكسيموفيتش يحبك ، يا فلاديك .

هزَّ فلاد رأسه بتفجع ، ولكن بمسحة من روح الرئاسة السرية . كانت سيارة حكومية سوداء في انتظاره على الفسحة امام المدخل الى مكان حرق الجثث . وفكرت أولغا فاسيليفنا في سرها : كل شيء كان يمكن أن يكون غير ذلك ، ولو لم يجئ فلاد بسيريوجا آنذاك ، ولما تعذبت . انقضت الحياة بسرعة شديدة . وسيريوجا واقف لا يلتفت فيما حوله . والآن كان يمسك يد أم أولغا فاسيليفنا . الموسيقى كانت تغطي على كل شيء .

ثم ذهبوا الى سوتشيفسكيا ، حيث كانت الجارات يتعنين ، نساء طيبات ، وكانت سيدة غريبة تدعى غنريتا اوسيبوفنا ، من منظمة موسكوفيه ، تشرف على شؤون البيت ، وهي نشيطة وعملية ، وهي ما يحتاج اليها بالذات . وكانت تسمي أم أولغا فاسيليفنا «عزيزتي» وافرط الفنانون بالشرب وسكروا بسرعة ، وراحوا يتجادلون في صياح عن شيء ، وكانوا يتحدثون عن غيورغي مكسيموفيتش بمبالغات خارقة ، ولهذا بدوا ينافقون ، وكل ما في المرسم من اشياء — اللوحات ، وقوائم الأطر ، والنماذج من الجبس ، والعلب ، والفرش — بدت ميتمة لا حاجة لأحد بها وتخص غريباً . والعم بيتيا الذى تحوَّل الى عجوز أبيض نحيف ، ظل طوال المساء يسعل سعالاً عميقاً ويصرخ بواحد «دع عنك هذا !» .

ارتبكت الأم في هذه الهرجلة والزحام ، وكان مظهرها كمن وجد نفسه هنا مصادفة . فكرت أولغا فاسيليفنا في أمها برعب : كيف ستعيش ؟ بقيت لتنام معها ، وغادر سيريوجا وايرينكا والكسندرا بروكوفيفنا الى البيت .

كانت زوجة غيورغي مكسيموفيتش الاولى في مقبرة حرق الاموات ، وبعد ذلك ذهبت إلى سوتشيفسكايا ، ولكنها لم تذهب الى المرسم ، رغم أنها مدعوة «وأقامت هذه الكوميدية التعيسة» ، حفلة عزاء خاصة بها ، في نفس الطابق في غرفة احدى الرسامات . وكان بعض الضيوف ينتقلون من مائدة الى الأخرى . والعم بيتيا يفتح الباب احياناً ، ويصيح في الممر الفارغ بتهديد :

— إذا جئت الآن كسرت كل الصحون ! وجدوا معزِّين !

رد أحد بشيء من غرفة الرسامة ، ولكن لم يصل الى

الاسماع . كانت أولغا فاسيليفنا تجلس على اريكة تسريحة الى جانب ليخنيفيتش العجوز الملتحي الذي لم يغادر المائدة ويصب الشاي مرة ، ونبيذ الفواكه تارة أخرى ، ويقص ، باكياً ، عن الحياة في موفتارك قبل مائة سنة ، حين كان وغيـــورغي مكسيموفيتش شابين وقحين ، وفكروا في غزو باريس ، وكان مارك شاغال معهما ايضاً ، وما اسفر عن ذلك — فطائر العزاء في سوتشيفسكيا — ونصح في بيع رسمين بالقلم الأحمر القاني ، كنيسة في مونمارتر ، وصورة ذاتية لها وجه أعوج ، وكل الباقي يُهدى لكل من يريد ، لكل مَنْ يقبله ، لأن احسن الاشياء أحرقها غيورغي مكسيموفيتش بيديه في الثلاثينيات ، فان مثل هذه الحماقة ، لحظة ضعف ، والحياة قد تهشمت مثل قطعة الجبس هذه ، لا يمكن جمعها ، ولا لصقها وجرت ثرثرة فارغة ، اجتماعات ، لجان ، طلبات (لا تتصوري ، يا أولا ، أنني كنت احسده ، بل كنت اشفق جورج المسكين) ، ولكن أولغا فاسيليفنا بكت على زوج أمها ، ومزقت قلبها تعاطفاً مع أمها المصعوقة والتي لا تفهم المستقبل ، اصبحت تفكر لماذا لم يبق سيريوجا معها . كان من الممكن أن تذهب ايرينكا مع جدتها . وهذا ما كان يجب . ولكنه لم يرغب في ذلك . قال «طيب ، نحن ذاهبون . آخذ ايرينكا فقد حل موعد نومها» .

كان يعيش حياة منفصلة . والعمل لم يعد يجذبه ، والاطروحه لا تتقدم . والى جانب ذلك كان يروي أجوبة مسلية ، وتنبؤات مذهلة حصلت في «أمسيات مع القدح» . وبقيت غير مصدقة بكل هذا الهراء ، وهل من الممكن التصديق بجدية الحكاية القائلة بنجاح الاتصال بأخ يدعى ارنولف ، وهو راهب

فرنسي عاش في القرن السادس عشر في سويسرا ، وهو الآن يجري مع ارنولف هذا محادثات منتظمة ؟ والاعتقاد يزداد قوة ورسوخاً في أن داريا سحرته .

المرة الاولى التي رأتها فيها مصادفة كانت في المسرح . كانوا في العرض الأول في مسرح «سوفريمينيك» . وكانا يتمشيان في فترة الاستراحة في الفسحة في الطابق الثاني وفجأة ضغط على يدها ضغطاً موجعاً جداً — وبعد ذلك كان دليلاً لا يدحض ، اشارة انعكاسية موجعة جداً كما بين فكي ملزمة — وهمس :

— هناك في الزاوية داريا ماميدوفنا !

وقبل أن تنظر الى الزاوية نظرت اليه . كان محمر الوجه . كانت داريا ماميدوفنا سمراء ، نحيلة وخط الشيب شعرها الأسود . نظرت الى سيريوجا حين كان يتقدم بلا ابتسام ، بل وبلا تعاطف ، كما يبدو . كان يجلس بالقرب منها شاب سيئ حلاقة الوجه ، يرتدي بلوزة رقبة بيضاء قذرة بعض الشيء . سلم عليها سيريوجا وعرَّفها بأولغا فاسيليفنا . كان الشاب اصغر سناً من داريا بحوالي عشرين عاماً . ولم تقدمه للزوار . ولم يجر أي حديث رغم أن سيريوجا راوح للحظتين او ثلاث زائدة رعناء ، وفي تلك الثانية من الزمن شعرت أولغا فاسيليفنا بخجل موجع ، وانصرفا . قالت أولغا فاسيليفنا :

— أنا متأسفه عليك جداً .

— لماذا متأسفة ؟ ما هذه السخافة ؟ لا أفهم ما تحوكينه ! — احتال ، وقد شعر بالأهانة فلـم يتكلـــم معها الى نهاية فترة الاستراحة .

كان العرض مرحاً . ولكنهما ما ضحكا ، وعند ذاك شاع فجأة — كالبرودة — نذير بلية .

والمرة الثانية في شارع الكورينش ، في البيت المرفوع على أعمدة فوقها رؤوس نساء ، ذي الحجرات الصغيرة الشبيهة بالحجرة القديمة — المقطعة في شابولوفكا . كان يسكنه أحد اصدقاء فيدوروف ، وهو مهندس طرق السيارات ومستحضر ارواح ، وجامع كتب عن السحر والايمان بالقوى الخفية واخضاعها للارادة . عرض كتاباً قديماً بعنوان «جاروموتيه» . دعاها سيريوجا عدة مرات لكي تنظر كيف يجري كل ذلك ، ولكن أولغا فاسيليفنا لم ترد ، لم ترد بفظاعة . فقد شعرت أنه لا يدعوها عن صدق . كان يكذب حين يدعو :

— لنذهب ، ونجلس ، ونضحك . .

وفي واقع الحال لم يكن يرغب في أن تظهر هناك ، ولذلك كان يجب أن تغلب نفسها . إن حياتهما تفككت ، وتحولت إلى شظايا ، إلى زركشة . وكان هذا يشبه حُلُماً ، مقطَّعا ، مزوقاً ، وفي نفس الوقت كاليقظة متماسكاً مسكوكاً . جاءت وفي رأسها صداع . في الممر الصغير علق شعار «ايها السكون انت أحسن من كل ما سمعته» . في الجو حلاوة رائحة الشمع الداخن ، كما في الكنيسة ، والشمع الساخن . الجميع كانوا يتحدثون ولا تكاد اصواتهم تسمع ، ويلقون المعاطف والفراء حسب ما اتفق على الصندوق في الممر .

لاحظت أولغا فاسيليفنا أن الارضية رمادية من الوسخ لم تحك منذ وقت طويل .

كانت تملؤها عزيمة مثلومة لا توجد إلا في الحلم : أن تتحدث مع هذه المرأة ، ولكنها ما كانت تحضر . جاءت قبل حوالى ساعتين ، حين انتهى كل شيء . وكان للناس الذين جلسوا حول الطاولة مظهر مجهد ، مشوش مغلق . لم يمزح أحد ، ولم

يبتسم ، ولكنهم جاهدوا لأن لا ينظر احدهم لآخر ، بل وجهوا انظارهم الى وسط الطاولة ، حيث كانت قصاصة ورق رسمت على ورقة ملفوفة حروف الابجدية ، وهناك قدح صغير . وكان هناك خمس نساء واربعة رجال . وقال سيريوجا أنهم من العالم التكنيلوجي ، واحدى النسوة ، كما اتضح فيما بعد ، كانت تعمل بائعة تذاكر في أحد المسارح . وكان هناك فيدوروف صموتاً بشكل غير طبيعي ، ومتجهماً . وكان مهندس طرق السيارات ، يوجه الحركات ، وهو رجل شاحب له لحية صهباء ، يتكلم بدققات وسرعة . وكانت لكل جملة من جمله نبرة الأمر ، وكان ذلك غير مريح . وهذا الرجل نفسه يتزيا في لباسه ، عقدة حمراء سميكة وصدار صوفي ، وبدلاً من ربط العنق خيط ، حتى بدا لأولغا فاسيليفنا كريها . كانت له اصابع طويلة ، مع اقواس بيضاء حول الاظافر . خلال ذلك المساء لم يلق نظرة واحدة على أولغا فاسيليفنا ، رغم أنها كانت تحس وكأنه يراقبها بكل حواس مشاعره قال احدهم : يجب فتح النافذة ، واعترض آخرون ، ومن جراء ذلك نشأ جدال . طالبت إمرأتان بفتح النافذة ، وتجادلتا بحرارة غير اعتيادية وضراوة ، بل وهددتا بأن تغادرا الاجتماع اذا لم يلب طلبهما وسيفقد الإجتماع ، على زعمهما ، اي معنى . وكان واضحاً أن الأمر هنا لا يتعلق بدخول الهواء الطليق ، بل في شيء أرفع ، يشمل الارض كلها . تردد صاحب البيت بعض الوقت ، ثم سار بعزم الى المخرج ، وفتح باب الحجرة المجاورة ، وفتح النافذة في تلك الحجرة .

كان سيريوجا يجلس قبالتها . كان تعبير وجهه مقنَّعاً لا ينفذ منه الى شيء . عم كان يفكر ؟ انعصر قلب أولغا فاسيليفنا

من الهلع والشفقة عليه . لأنه وضعه سيىء كوضعها هي . في البيت تنتظرهما شؤون : ترتيب البيت ، والذهاب الى المخزن ، وأخذ الثياب الى محل الغسيل لحد التاسعة مساء ، ولكن كل يوم كان هناك ما يعيق : مرة التعب ، ومرة هموم أخرى . ويجب هي ان تكتب تقريراً ، وهو في انتظاره مقتطفات في دفاتر سميكة ، وكتب ، وملفات ، وكل ذلك ركد في منتصف الطريق ، ولم يتحرك ، وبدلا من ذلك . . . أمر الرجل ذو الصدار الاحمر :

— صِلوا اليد اليمنى باليد اليسرى للجار . . . الكعب على الكعب . . تتكون سلسلة . . .

والقدح بالفعل كانت الحياة دبَّت فيه تحت اليدين : في البداية كان يهتز بخلخلة ، ثم حرف على الورق مرتجاً وبحدة ، من حرف الى حرف ، ومن الإبهام والبلبلة ظهرت عبارات قال الاب بايسي : «اذا لم تسخ بفعل الخير تطفف على نفسك ، أيها الاحمق ، مائة مرة» . أثارت كلمة «احمق» الحيرة . لماذا قيلت بازدراء لفاعل الخير ؟ اوضحت احدى السيدات أن روح الاب بايسي ، كما يبدو ، تسخر من اخلاقية الأرض ، حيث فاعلو الخير يعتبرون حمقى بمنطقنا الدنيوي الشكاك . وروح توركفيمادا كانت تتحدث باسهاب وتبلبل ، بعبارات من طراز ما تكتبه الصحف مما أثار خيبة أمل .

ثم جرت تجربة الكتابة بالايحاء : جلست أحدى النساء ومعها قلم وورقة ، وبقي الآخرون في اماكنهم السابقة ، وحول المنضدة حاولوا استحضار روح غرتسين ، فتمنّع هذا ، ولم يظهر ، وتنرفز — اقترح احدهم أن يتركوه بسلام ، ولم يوافق الآخرون ، وصاحب البيت طالب بصوت حانق أن يقطعوا الجدال ،

واستمروا الفعلة — كان الضوء مطفئاً ، والتوتر يزداد ، واخيراً سمع الجميع صريف القلم في السكون التام . كانت المرأة التي جلست على منضدة مستقلة تكتب ! ولم يشك أحد في أن يد غرتسين كانت توجه قلمها . عندما أُشعل الضوء اندفعوا الى الورقة — كانت المرأة جالسة ، وقد انطرحت بظهرها على ظهر المقعد وعليها الارهاق ، ووجهها متصبب عرقاً ، وشاحب بشكل مخيف . صبوا لها قطرات الفلريان في الحال ، ورأوا خربشة بخط كبير تملأ الصفحة .

اختطف صاحب البيت الورقة ، وقرأ بصوت مخنوق من الانفعال :

— ملجئي . . . النهر . .

سمعت أولغا فاسيليفنا حمحمة سيريوجا ، وكانت تعرف جيداً ما هي حمحمته الخبيثة هذه وما كان من الممكن أن تخطئ ، ولكنها حين نظرت اليه رأت نفس القناع الصلب على وجهه . وترددت اصوات :

— وماذا بعد ؟ لا يوجد شيء آخر ؟

— لا يوجد شيء آخر غير هاتين الكلمتين .

ردَّ صاحب البيت بسرعة ، وهو ما يزال تحت تأثير الانفعال .

وتفحصوا الورقة ، ودرسوا الخربشة ، وعادوا الى الجدال من جديد : ما يعني «النهر» ؟ ولماذا «الملجأ» ؟ اتفقوا على أن «النهر» هو ، على الارجح ، رمز الزمن ، نهر الزمن ، وروح غرتسين ، يعني ، تأمل في الزمن . وبدا هذا التفسير مهماً وعميقاً . أما بخصوص «ملجأ» فكانوا في معضلة . فهل من الممكن لغرتسين أن يرتكب هذا الخطأ الاملائي ؟ امطروا المرأة

بالاسئلة في حماس شديد : هل تعرف بالدقة كيف تكتب كلمة «ملجأ» . اعترضت هذه المرأة — وقد كانت بائعة تذاكر في مسرح ، وتمتاز بحساسية ولهذا حددت خصائصها كوسيط — اعترضت بعصبية وانزعاج على الافتراض بأن من الممكن أن تخطئ . وقالت ، وهي توشك ان تنخرط باكية :

— معقول أنكم تتصورون أنني أمية الى هذا الحد ؟

ذكر سيريوجا انه في هذه الحالة يجب الاعتراف بالكسندر ايفانوفيتش نفسه اميا . وقد اثار ذلك جدالاً جديداً ، وصار الجميع يتكلمون دفعة واحدة ، ولكن صاحب البيت ادخل ايضاحاً ، وهو أن الخطأ الاملائي ليست له اهمية ، والمهم جوهر الكشف ، لا شكله . وقال : في مأدبة بالتازار ظهرت تسميات صوفية : «مينه ، تيكيل ، فارس» ولا أحد خطر في باله أن يجادل من حيث الاملاء . واستولى الذعر على الجميع . وبالمناسبة في كتاب النبي دانيال جاءت التسميات كالآتي «مينه ، مينه ، تيكيل ، او بارسين» — تحوير اعتيادي في الإملاء وتغيير مواضع الحروف . . . شعرت أولغا فاسيليفنا أن صداعها قد ازداد ، ولم تكن لديها المقدرة على مواصلة الجلوس ، فنهضت . واستلقت على اريكة في حجرة مجاورة . كانت الحجرة مظلمة وباردة . سار أحد وراءها ، واغلق النافذة .

كانت نوبة ، كما في اسوأ الاوقات ، الى حد الغثيان . جلب سيريوجا لها قدح شاي ساخن ودواء . وغطاها بدثار . احبت أن يجلس الى جانبها — ليكونا وحيدين في الظلام — فأمسكت يده ، وسألته :

— هل تفهم أن كل ذلك هراء ؟

قال إنه يفهم . من خلال الصداع الفظيع الذي كان

يضغط على صدغيها أنضم ألم آخر كابرة : لماذا يأتي اذن ، اذا كان يفهم ؟ ولكن لم تسأله عن ذلك . كانت تشعر بوهن شديد . . همست .

— كل ذلك حركة انعكاسية . . . في السنة الخامسة في دروس السيكولوجيا . . .

بعد حوالى عشرين دقيقة او نصف ساعة دخلت إمرأة ، واشعلت مصباح المكتب .

— كيف حالك ؟ — سألت المرأة ، ورأت أولغا فاسيليفنا أمامها داريا موميدوفنا .

اجبرت نفسها عنوة على النهوض من مكانها وجلست . لم يكن سيريوجا في الغرفة . كان رأسها يتصدع ، كالسابق ، ولكنها قالت :

— احسن .

نظرت باستغراب الى المرأة ذات الوجه الاسمر المدبب الأنف . لماذا جاءت ؟ فكرت في ذلك غير مرة : الحديث معها على انفراد ، الكلمات أُختيرت مسمومة ، عدائية ، ولكن الكلمات الآن اختفت فجأة ، والحنق كأنما تناثر في هبة ريح ، والشيء الوحيد الذي شعرت به أولغا فاسيليفنا كان نوبة ضيق نفس مرضية ضعيفة . قالت وهي تلهث لهاثاً خفيفاً :

— أنا لا احب أن يمارس سيريوجا هذه التفاهة .

مدّت المرأة القدح :

— اشربي .

شربت أولغا فاسيليفنا طائعة .

جلست داريا ماميدوفنا الى جانبها على الأريكة ، ونطقت بهدوء : هي أيضاً ضد ممارسته لهذه التفاهة . وإذا اردت

الحقيقة فهذه ليست تفاهة ، بل تسلية ، لعبة . لهو السبت للناس المضللين المتعبين . بعضهم يلعبون البوكر بحماس ، والبعض الآخر في ما تشونغ وفريق ثالث يلعب الشطرنج الى حد الخبال ، والفريق الرابع . . . في لعبة تافهة . . . على كل حال وقاحة : هي أيضاً ضد ! لا أحد في العالم غير أولغا فاسيليفنا يملك الحق في أن يكون ضد شيء في حياة سيريوجا . فكرت أولغا فاسيليفنا : «يا لها من بليدة ! ويزعمون أنها ذكية» . وهذا التخمين هدأها كثيراً ، بل وصار الوجع في رأسها اخف .

قالت داريا ماميدوفنا :

— أنا مسرورة لتعارفنا . منذ زمان وأنا احتاج الى أن اتحدث معك .

وفكرت أولغا فاسيليفنا مع نفسها بدون أي خوف «وهذا لأي شيء ايضاً ؟» وقالت بصوت مسموع :

— اولاً كنا متعارفتين . في المسرح ، هل تذكرين ؟

— حقا ؟ نسيت .

— تريدين الآن أن نتحدث ؟

— إذا لم تكن حالتك سيئة جداً . متى ستتقابل فيما بعد ؟

واخرجت داريا ماميدوفنا من حقيبتها سيكائر وقداحة واشعلت سيكارة دون استئذان ، وتلك صفه لطيفة جداً تتميز بها — ذات مرة قال لي سيرغي افانسيفيتش أنك تشتغلين في مسائل التنافر البايلوجي . . .

أها ! هكذا اذن ! وهذا كل شيء . مسائل التنافر كانت تمس بعض ممارساتها . من جانب آخر . قالت أولغا فاسيليفنا شيئاً ما . فاخذت هذه تسأل عن اندريه ايفانوفيتش ، الذي

كانت تعرفه من الجامعة . ثم راحت تتحدث عن عملها ، عن التلقي خارج الاحساس وعن مختلف أنواع الفحوص والاختبارات وموضوعات التجربة ، وعن آلاف التجارب التي اجريت هنا وهناك ، وأننا ، مع الاسف ، متأخرون ويجب أن نلحق . انت بيولوجيه تدرسين مسائل الاتصال والتنافر البيولوجي لا بد أنك تتصادمين باستمرار . . . والخفافيش مع رادارها ؟ والاسماك ؟ صدقيني لا يوجد اساس لإنكار الاتصال خارج الاحساس في التركيب ايضاً . . . لم ترد أولغا فاسيليفنا أن تتجادل معها ، ومع ذلك فقد قالت في صوت واهن ولهاث خفيف : في التيليباتية كثير من الخداع . لا يوجد في اي علم ، إذا اعتبرت ذلك علماً ، هذا العدد الكبير من المحتالين . وما السبب ، في رأيك ؟ لأن الناس ، يا أولغا فاسيليفنا يخدعون انفسهم دائماً في زعمهم أن كل شيء معروف .

قالت أولغا فاسيليفنا :

— اذا تحدثنا عن التنافر . . . الغاز الحساسية . . انت تعرفين أن هناك ناساً ينفعلون بشكل مرضي من وجود شخص معين ، فيأخذون يسعلون ، وتضيق انفاسهم .

— آه ، نعم . طبيعي ! إذن ، أية طبيعة هذه ؟

ردّت أولغا فاسيليفنا بشيء ما ، وهي تنظر الى الجبين القفقاسي الأسمر ، وتفكر : انهم يريدون أن يحفروا كل شيء حتى القاع ، ويكشفوا التركيب ، ويجدوا وسائل الاتصال التي تنقل العداء والغيرة والخوف . والحب . واذا ما وجدوا الوسائل عندئذ سيوجهون ؟ فتح شخص الباب ، واراد ان يدخل نطقت داريا ماميدوفنا بحدة : «إغلق الباب» وغلقت الباب .

— يا داريا ماميدوفنا ، اريدك . . . عن شيء — قالت

أولغا فاسيليفنا فجأة بصوت بائس نطاط — لا تدعي سيرغي ينغمس بهذه الاشياء الممتعة جداً . . . إنه ليس بالشاب ، وليس في تمام الصحة . وان له اشغالا ، وله التزامات . . .

وسّعت داريا ماميدوفنا بغرابة حدقتي عينيها السوداوين في بياضهما المزرق . ورأسها ظل يزداد ميلاً إلى كتفها اليمنى :

— عم تتكلمين ؟ أنا لا افهم .

— نعم ، عن أنه سيهلك ، يا داريا ماميدوفنا . يهلك لقد توقف كل شيء . والاطروحة لا تتقدم .

— وماذا يمكن عمله ، يا حمامتي ؟ الاطروحة لا تتقدم ؟ — وضحكت فجأة — ولكن حسن أنها لا تتقدم . وحق الرب ، فلا تتكدري ، يا أولغا فاسيليفنا . على العموم أنا لا أحب — لا ، غير صحيح ، ليست هذه هي الكلمة ، بل أنا آسف على المختصين باللغة ، على جميع هؤلاء الادباء ، والمؤرخين ، ومَن شاكلهم من الكاتبين الذين يضطرون الى الثرثرة ، والثرثرة ، ولا شيء غير الثرثرة . أنا ارثي لهم ، لهؤلاء المساكين . ولكن اى هراء — هراء عن حق — هذا الذى ينشغل فيه طوال حياته : سلك العاملين السريين في مخابرات موسكو . مَنْ بحاجة الى هذا ؟ لقد ضحكت ، حين راح يتحدث عن اكتشافاته ، ويا للعجب — في هذا المجال الفضائى المصغَّر ، وبحماس ، واى حماس . . .

في الغرفة المجاورة انفجرت زوبعة ضحك . دق شخص الجدار بقبضته ، وصرخ :

— نغماتوفا ، تعالي الى هنا !

— وهذا في وقت تقرر فيه مصائر . . . ، حين السؤال الشيكسبيرى . . .

وبعد ذلك اخذت فجأة تتحدث كيف بدأ علم نفس للظواهر الخارقة . قبل بضعة اعوام كان زوجها الرسام نغماتوف قد صرع فى كارثة طائرة . في تلك الليلة رأت فى الحلم وجهه يشوهه الذعر .

كانت تتحدث بلا أية عاطفة تماما ، وكأنما تتحدث عن واقعة من وقائع الاتصال الفائق الاثارة ، التيلباتي . ولم تشعر اولغا فاسيليفنا بأية شفقة على داريا ماميدوفنا . كانت تفكر اذا هو مغرم بهذه المرأة ، فهو سيىء الحظ جدا .

كان الوقت متأخرا ، وفي البيت كانت فى انتظارها ايرينا التى كانت قد وعدتها بشيء في ذلك اليوم ، ولهذا ما ان دخل سيريوجا الغرفة حتى قالت : يجب أن تذهب الى البيت . ونهضت . نظر الى الاثنتين نظرة سريعة ثاقبة ، وصار مرتاحا ، كما يبدو ، لأنه اجاب بهدوء :

— لنذهب .

وكان في العادة لا يخرج من زيارة الآخرين الا بمقلاع .

وعندما خرجا الى الشارع قال : الجميع تساءلوا : عم تحادثت مع داريا ماميدوفنا هذا الوقت الطويل .

— هذا ليس من ديدنها ، فانها لا تحب الثرثرة . ومعنى ذلك أنك أثرت اهتمامها .

قالت اولغا فاسيليفنا :

— نعم ، اثرت اهتمامها . تحدثنا عنك . وهى ترثي لك .

— ترثي لي ؟ لي أنا ؟ دعيها ترثي لي ، لا اعترض . هناك اسباب لهذا .

— انها تعتبرك تشتغل بهراء .

— ما هذا القول منك ! — وضحك ، وغمز في موارية كأنه شخص لا يُبلف .

ومع ذلك فقد شعرت براحة نفس .

وبعد بضعة أيام بدأ كل شيء من البداية . غادر ، أختفى ، عاش حياة مجهولة ، وكانت هى تتعذب .

فى طفولة ايرينكا المبكرة ، حين كانت فى السابعة او الثامنة حصلت لها اشياء غريبة . كانت تنهض ليلا ، وتسير في نومها ، وتصطدم بالاشياء ، وذات مرة حين كانوا يقيمون في شابولوفكا افزعت الضيوف حين ظهرت عند الباب كطيف صغير في قميص ابيض ، وحين تقدمت من المائدة — ووجهها ناعس وعيناها مغمضتان — قالت وهى تمد يدا خالية : «هل تريدون غجريتي ؟» كانت دميتها المفضلة غجرية . وبعد ذلك راح هذا يحدث لها أقل فأقل ، وانقطع تماما وهي في العاشرة . تذكر سيريوجا غرائب ايرينكا ، وقرر أنها ربما من تلك الطبائع **الحساسة** التي كان يبحث عنها لهوايته . كان يهتم بعلم نفس الظواهر الخارقة اهتماما جديا . وقد أرهق جميع اهل البيت محاولا ان يحدس ما يفكرون فيه وما ينوون فعله ، ساعيا الى الايحاء لهم بارادته . وكانت ارادته ، بالطبع ، خاوية في الفترات الاولى : أن يجلبوا علب الكبريت ، او يطفئوا الضوء في الممر . واحيانا يهتف فجأة فى بهجة :

— مرحى ! واخيرا . وبعد نصف ساعة ساسحرك لتغلقى شباك التهوية . . .

واحيانا يغتم غما مفاجئا ويتزعج ، بل ويبيح لنفسه ملاحظات مكتدرة :

— لا ، يا أم ، انت على كل حال سميكة الجلد ، ولا

يمكن النفاذ فيك . اوحى لها واوحى ، وهى لا تبدى حركة . . .

كل ذلك كان صبيانية مرحة تشبه لعبة التلامذة الهواة من اعضاء حلقة «السايكولوجية الممتعة» . وكان في امكان اولغا فاسيليفنا ايضا أن تعتبرها كذلك . ما بين المزاح والاستحسان لأن سيريوجا قد انتعش وبش ، وازداد حيوية حياته بشكل ملحوظ ، وتراءى التورد على وجهه ، وكان هذا يعنى جدوى اهتمامه الجديد ، ولكن التزام الحد محمود في كل شيء . وتلك اللعبة زادت عن الحد ، وتحولت الى شيء اكبر . وكانت اولغا فاسيليفنا تتلمس في ذعر تلميحات الى أن ذلك ما هو الا تمهيدات وتقصى طريقة ، وحين يتفرغ قليلا ، سيشتغل فى علم النفس وعلم نفس الظواهر الخارقة كليا . قالت ان ذلك ينم عن سذاجة كبيرة ، تماما كما تقول انك تنوى الاشتغال في الفيزياء والميتافيزيقيا .

— ألا تخاف ان تتحول الى جار تشيخوف العالم ؟

ونظر اليها بذهول :

— كونى اكثر حذرا فى المزاح . ان ذلك هو الآن الشيء الوحيد الذى يهمني فى الحياة .

وماذا بقى لها أن تفعل بعد هذه العبارة ؟ كفت عن المزاح . واخذت تنتظر ما سيكون . ومع ذلك فقد بدا لها أن الغواية ستنتهى .

اواه ، ولكن ذلك كان ينطوى على خطأ ! كان لا يجوز الانتظار ، كان يجب ان تكافح من اجله ، وكان لا يجوز ان تسلّمه الى كامل سلطة داريا وجماعتها الهواشين . أية حمقاء بالغة ! فقد كان واضحا أنه يبتعد ، يسرح ، مثل سفينة تغادر المرسى ، وقد رفعت كل اشرعتها واعلامها ، بينما هي ظلت تنتظر شيئا ما ، وتعول على شيء ما . لم تكن تفهم أنه على

مفترق مصير . وكان عذابها الاكبر هو عدم الفهم ، ذات مرة فكرت في أن تعمل بنشاط ، وكأن شيئا لم يحصل ، وكأن الهواية اللعينة لم تتدخل بينهما . ودون أن تسأله اشترت تذاكر لفيلم شديد الرواج كانت موسكو كلها تهرع اليه . قال انه مشغول في الساعة العاشرة بالذات ، ساعة العرض . بم هو مشغول ؟ هل سيخرج ؟ لا ، سيظل في البيت . ولكنه في العاشرة سيكون مشغولا .

كان ذلك مهينا جدا ، ولكنها لم تلح ، وذهبت لوحدها وقد تغلبت على كبريائها . ولم تتحمل البقاء في دار السينما ربع ساعة ، وتركت العرض ، وعادت الى البيت . أيعقل أنه بالاضافة الى كل مآخذه صار يكذب ؟ كان احساسا بالعجز . فاذا كان يخدع فليس ذلك الا لأنه تورط ، تشربك كليا — من قبل لم يكن يخدع قط — وهي لا تستطيع أن تساعده . وليس هناك اكثر ايلاما من عدم التفاهم ، وعدم القدرة على المساعدة ! ولكنها حين وصلت الى البيت مسرعة وجدته مشغولا بالفعل .

كان يجلس في الغرفة ، وقد أغلق عليه بابها ، وهو يتمعن مركز الذهن مقطب الجبين في خرائط زينر . خرائطه لعلم نفس الظواهر الخارقة ذات المربعات والنجوم . ويتبين أنه كان قد أتفق مع داريا ماميدوفنا على تحديد الساعة العاشرة مساء موعدا لجلسة تكون هي فيها **المدركة** أو الحادسة ، وهي في دار الاستجمام للسينمائيين في بولشيفو .

وقد أرهق ايرينكا بخرائطه هذه . في بادئ الأمر كان يقول : انها تملك مقدرات كبيرة تثير الدهشة ، ونسبة الحدس اعلى بكثير مما يُصدق .

— تستطيعين أن تكوني ذات شهرة عالمية ! أنا لا امزح .

ستتلقين دعوات من الخارج ، وسنسافر معك أنا وأمك .

وكان بهذه الحكايات يريد أن يثير همتها ويشجعها ، ولكنها سرعان ما اخذت تضجر بالطبع . وصار حدسها يسوء اكثر فأكثر . وأخذ ينفعل ويغضب . ولم تعد تحصل على النقاط العالية التي كانت تحصل عليها في الايام الأولى ، ولم تحصل عليها بعد ذلك بالمرة .

وكان يقول مهتاجا :

— كوني اكثر جدية في تفكيرك ! ركّزي ذهنك . ماذا يحصل معك ؟

وكان صبره ينفد من قبل ايضا ، حين كان يحاول مساعدة ايرينكا في تحضير دروسها . وكان تحضيره ينتهي بشجار دائما . وكذلك كانت الحال في هذه المرة ايضا . ذات يوم هدرت ايرينكا باكية ، وضربت جدتها بجمع يدها .

— طيب ، يكفي ! لا استطيع أن أراك تشوه البنت ! انت حر في أن تفقد عقلك ، وتشعوذ ، فأنت رجل راشد ، ومسؤول عن نفسك . ولكن اترك ايرينكا وشأنها .

اخذا يتناقشان ، تناقشا بصوت خافت وبلا غلظة ، كما كانا يفعلان دائما ، ولكن بغل بالغ ، مؤذ لبعضهما البعض في اغلب الاحتمال . ولعل الكسندرا بروكوفيفنا ما تزال متأثرة بما علق في ذاكرتها من جدالات لوناتشارسكي مع المطران فيدينسكي .

— اذا سلّمت ، ولو لحظة واحدة ، بوجود الآخرة والقدرة العليا ، اى الرب . . .

— أنا لم اقل ذلك . لا تشوهي ، على عادتك كمحامية .

— اى شيء هذا غير اللاادرية ؟

— وهل تعتقدين أن القطار وصل الى أخر محطة ؟ ولا طريق بعدها ؟

— طريقك ، يا سيريوجا ، لا يسير الى الأمام بل الى الخلف ، الى ظلام القرون الوسطي . سوى انني لا أفهم : لم هذه الحياة المزدوجة ؟ كن صاحب طريقة وألبس المسوح ، وترهّب ، واذهب الى أحد الكهوف ، أو الى مقلع أحجار متروك — في طريق بافيلتسكي ، بالمناسبة ، غير بعيد عن موسكو توجد مقالع احجار قديمة — واقبع هناك ، وتأمل سرتك ، مثل كاهن تبيتي ، وتغذّ على الجراد . وستجلب زوجتك لك الجراد من مخازن اغذية الحيوان (ويجب القول أن العجوز تتألق احيانا بتهكمها . فضلا عن ذلك لم ترد ان تصدق أنه وحده المسؤول عن كل هذه القباحة ، دون اولغا فاسيليفنا) ولكن هذا لا يرضيك . فأنت لا تترك المعهد ، وانت تتقاضى منه راتبك . . .

— ممكن أن اترك ايضا . بالمناسبة انت طرحت فكرة لا بأس بها . فمثلاً اذا اقاموا ، كما وعدوا ، مختبر الظواهر الخارقة في احد المعاهد . سأتركه الى هناك بكل سرور .

كل ذلك كان يقال آنذاك في حمى الجدال . أو للاغاظة . وعاد يقول من جديد أنه يهتم بالعلم ، والعلم وحده . في هذا العالم الكثير جدا من الغرائب : اللاشيئية ، والاجسام الكونية ذات الاشعاع القوى ، الجزيئات الغامضة التي لا حجم ثابت لها ولا شحنة — فلماذا لا يجوز الافتراض بوجود وسائل اتصال فوق الحسية غير معروفة للعلم ؟

— سيريوجا ، يرعبني أن أرى أن دماغك بعد الأربعين صار خليطا عجيبا من اشياء كثيرة . . .

— أما أنت ، يا ماما ، فقد بقيت على حالك تماما

خلال هذه الفترة . وهذا انجاز من نوع ما .

— أنا فخورة بذلك ! انا لا افكر في الموت ، كما تفعل العجائز الاخريات . وأنا اعرف أنني مع نفسي الاخيرة سأختفي من هذا العالم دون ان اترك اثرا . هذا معلوم . لا شيء نتكلم عنه .

تمتم سيريوجا ، وهو يهز رأسه :

— نعم ، نعم ، لا شيء نتكلم عنه . اى وضوح ، اى روعة . . . وفيما يخص موت اقربائك ؟ انهم ايضا سيختفون كليا ، بلا أثر ، أليس كذلك ؟

— أنا آمل أن لا يسبقني الى الرحيل أقاربي الذين ابقاهم القدر لي . ولكن اذا حصل مثل هذا الاجحاف ، لا سمح الله ، فان اقاربي لن يرحلوا عني — واكرر عني — بدون أثر تماما . سيبقون هنا . — وضربت بكفها في موضع في وسط الصدر ، كانت تلصق عليه عادة لزقات الخردل في لحظات ضعف القلب .

ولكن اولغا فاسيليفنا لم تتحمل مثل هذه الاحاديث ، كانت لا تعرف الا شيئا واحدا ، وهو أنها لا تستطيع ان تساعده . وقد اسلمها ذلك الى اليأس . وحين دخلت الغرفة ، بعد بعض الوقت رأت سيريوجا وحده .

كان يقف في وضع متردد مديرا ظهره الى النافذة نصف استدارة — إما ليريد أن يبتعد عن النافذة ، أو يتراجع اليها — وينظر الى الفناء في الاسفل . كان كمن يفكر بجهد هائل . رأت اولغا فاسيليفنا ظهره المحدّب وكتفيه المرتخيتين ، والشيب في شعره الآخذ بالتساقط . وفجأة تصورت أن الواقف عجوز .

قالت بخفوت ، وهي تتقدم منه وتحتضنه :

— يا عجوزى !

لم يلتفت ، ولم يستجب لندائها ، وبقى واقفا ينظر الى الفناء في الاسفل . الصيف أنقضى ، وهي مجدة . وأمها انطفأت في الوحدة في شارع سوتشيفسكايا . أول صيف لم يستأجروا فيه بيتا ريفيا . وكان ذلك تحضيرا لافتقارهم للحياة العائلية مستقبلا . صارت عينا فاينا مستديرتين متألقتين من الفضول الحلو . اشفقت على اولغا فاسيليفنا ، اشفقت عليها بكل ما لها من قوة ، بل تأوهت من الشفقة : «سأذهب الى اللجنة النقابية لشغيلة العلم . سألقن داريا درسا حتى لا تزعج المتزوجين !» وكان صوتها يهتز من الغيظ . ولا احلى من تعاطف الصديقة المحبوبة . والحمد لله أنها لم تذهب الى اى مكان . ولكنها اخبرت مارا . وصار كل شيء يهتز ويأخذ بالنمو مثل شجرة سحرية أمام الابصار تحت سحر فقير من فقراء الهند . ولم تعرف التفاصيل الى يوم خرجوا الى الغابة لجمع الفطر . كانت تعرف شيئا واحدا ، وهو أنه قدم طلبا للاستقالة .

تصورت فجأة أن ذلك سيكون احسن له .

في الخريف ، في تشرين الأول الدافئ الموروق — انتهى كل شيء ، ما عدا الدفء ، ما عدا الفطر ، ما عدا الغابة — خرجوا من المعهد فى الباص في الساعة الرابعة صباحا جُل العاملين في مختبر اولغا فاسيليفنا . وكان يجلس الى جانبها ، وقد وضع رأسه على كتفها ، ونام . وكانت تشعر بمتعة لذيذة من ثقل رأسه . كانت تود أن يجلس الجميع هادئين ، وأن يظل نائما . كانت تود ذلك بكل ما لها من ارادة . كانت ضاحية موسكو تمر رمادية داخنة من وراء الشباك ، في البداية حفر طينية معدة للبناء الجديد والبيوت الجديدة الرمادية البيضاء

المرتفعة كالتلال ، ثم حقل خضرة باهتة ، واشجار بتولا ، واشجار حور ، ثم اشجار شوح ، وغاص الطريق ، وظهرت البيوت الجديدة مرة أخرى تلالاً بيضاء بين اشجار الشوح ، واحيانا تساقط مطر خفيف على الزجاج كأوراق الزيزفون . وحين خرجوا من الباص في الكيلومتر الثاني والخمسين بعد باخرا كفّ المطر عن السقوط . كان الجو فى الغابة رطبا ، وفيه رائحة عشب مشبع بالرطوبة منهك . والارض تحت اشجار الشوح الجرداء من العشب ، المفروشة بأبر اشجار الشوح بدت منتفخة داكنة . كان الفطر قليلا . وتفرق الناس جميعا في اماكن شتى . وقال سيريوجا انه لو عاقب نفسه على كل هذه السخافة بقدح ، ولدغ نفسه بذيله كالعقرب لما كفوا عنه على كل حال . كليموك الآن نائب المدير ، وقد ازاح كيسلوفسكي من منصبه ، وصار شاريبوف في مكانه . وشاريبوف هذا في الثامنة والعشرين ، غلام حديدى ، حصل على درجة مرشح في العلوم ، وصدرت له عدة كتب ، وكان يسير الأمور بيد لا ترتجف . وهل ذلك صعب عليه حقا ؟ وهو لم يشارك سيريوجا طعاما ولا شرابا ، وحين صادفه لاول مرة على السلم توقف للحظة واحدة ، وسأل بلهجة ودية سريعة : «اعذرني ، سيرغي افانسيفيتش ، هل صحيح أنك تحضر جلسات استحضار الارواح ؟» اجاب سيريوجا بنفس البساطة وعلى الماشي : نعم ، حضرتُ في الشتاء الماضي لحب الاستطلاع فقط ، كما انني كنت ابحث عن أناس يمتلكون حساسية مرهفة . لانني مهتم بتجارب علم نفس الظواهر الخارقة . وهو شيء ممتع جدا . فان علم نفس الظواهر الخارقة علم المستقبل بدون شك . استمع شاريبوف مبتسما بتجاوب . ان هؤلاء الغلمان الحديديين يحسنون الصعود على السلم بسرعة ، والقاء الاسئلة

الخاطفة ، والابتسام بتجاوب . كان كليموك يقف في منأى عن القضية . لم يوقع على طلب سيريوجا الاستقالة ، ولو كان فى مقدوره أن يفعل — فقد كان المدير في بلغاريا — واستدعى سيريوجا ، وللشكليات ، حاول أن يعدله عن الاستقالة ، بل ودمدم بكلمات سخيفة تماما بدت فظيعة : «كيف اولغا ؟ تلفنوا . . .» فسأل سيريوجا عند ذاك ضاحكا : «هل تمزح ؟» لا ، فلم يحدث شيء مريع ، لم يحصل اى شيء ، وهو مسرور بكل هذا ، لأنه يجب البدء بحياة اخرى . سحقا ، واى وقت ضئيل تبقى لبدء حياة اخرى . في آخر المطاف ، يجب البدء . بماذا يبدأ ؟ سيفعل ما يشغل باله بحق . يجب ان يكون لكل شخص ما يشغل باله عن حق . ويتعين عليه ان يسعى الى هذا ويتسلق الى ما يريد .

نحن مندهشون لأى شيء لا يفهم بعضنا بعضا ؟ لأى شيء لا يفهموننا ؟ كل الشر من هذا ، كما يبدو لنا . آه ، لو كانوا قد فهمونا ! لما كانت هناك مشاحنات ، ولا حروب . . . علم نفس الظواهر الخارقة هو محاولة حالمة للنفاذ في الآخر ، ووهب النفس للآخر ، الشفاء بالتفاهم . ان ذلك اغنية طويلة جدا . . . ولكن كيف لنا ، نحن المساكين ، التطلع الى فهم الآخرين ، اذا كنا لا نستطيع ان نفهم انفسنا ؟ أن نفهم انفسنا ، يا الهي ، كبداية ! لا ، لا تكفينا قوانا ، لا يكفينا الوقت ، أو ، ربما ، ينقصنا العقل ، الشجاعة . . . ها هي ، مثلا ، البيوكيميائية تترأس مختبرا ، على احسن وجه ، وتحصل على مكافآت وعلاوات على الراتب ، ولكن هل مكانها الحقيقي هو هنا ؟ كانت نفسها تقول : خسارة أنني لم ازاول فنا تطبيقيا . فكم تحب أن تشتغل بيديها ، وتنحت ، وتنقش . وهو ألم

يكن يقول حقا ان التاريخ هو المرآة السحرية التي يمكن بها حدس المستقبل ، وهو مستعد ان يقضى حياته كلها في دراسة المرآة ، ويتمعن النظر فيها . كان يقول هكذا ! هكذا كان يحس ، وهكذا كان يفكر . ولكن ربما كان تحت تأثير نزوع مختلف تماما ، خفي يدرس ليحدس . لأنه يتصور الآن ان كل تفاصيل التفاصيل هذه ، هذه الفضلات الملمومة من مائدة مآدب قديمة والتي كان يخرجها من قعر بئر لا يحتاج اليها غير خمسة او ستة اشخاص فى العالم كله . . . واذا فكر في نفسه الذى هو وحده من بين كل الناس احوج الى هذه اللقطات التافهة التي يخرجها بهذه الحيل ، عندئذ يمكن أن يكون هناك معنى في الاستمرار في القاء شصوصه ، ولكن من المضجر جدا أن يفكر في نفسه . وذات يوم يصير الضجر مرهقا . وفجأة تشع حياة أخرى ، كحل لغز ، كأشعة فجر باهتة من وراء جذوع الاشجار .

وكان قلبها ينعصر ، وتحس بالرهبة . من أين ، يا ربي ، تأتي هذه الحياة الأخرى ؟ من الانتقال من بيت الى بيت ؟ من شراء محفظة اوراق جديدة ؟ من البدء في العمل في مؤسسة اخرى بدلا من هذه ؟ لان كل شيء متشابه في اى مكان من حيث الجوهر . ردَّ : أوه ، لا ! محاكماتها على هذا النحو تذكّره بمحاكمات تقول ان جميع النساء سواسية . ولكن من المريع قضاء العمر كله مع امرأة غير عزيزة على القلب . وعلى كل حال فالغالبية يحيون هذه الحياة . كان يتكلم بهدوء ، وكأنما عن شيء جانبي ، وغريب عنهما كليا . ولكن اولغا فاسيليفنا كانت تشعر بالرهبة على كل حال . وفي احاديثهما سارا بعيدا في اعماق الغابة ، ناسين جمع الفطر . كما أن الفطر لم

يكن موجودا . التقيا امرأة تحمل جردلا مملوءا الى النصف بفطر غريب المظهر . فسألاها : هل من المعقول ان مثل هذا الفطر صالح للأكل ؟ شرحت المرأة بطيب خاطر كيف يسلق الفطر ، ويسكب ماء السلق ، والأحسن أن ينقع بالماء المخلوط بالخل . واختفت المرأة حين انتهت من شرحها . نسيا أن يسألاها عن الجهة التي يسلكانها للوصول الى الطريق العامة . أخذت اشجار الحور والبتولا تقل ، وجاء حرش من اشجار الشوح ، كثيف ، وثقيل من الرطوبة ، ولم يكن هناك اى شيء اطلاقا ، فأسرعا يشقان طريقهما عبر دغل من اشجار الصنوبر ، لأنهما رأيا الى الأمام رشح نور ، ولاح فراغ ، فرجة . هناك بدأت حياة أخرى . جلسا على قرمتى شجرتين مقطوعتين . فقد تعب سيريوجا . كان وجهه رماديا ، وانفاسه ثقيلة ، ثم واصلا السير . كانت الرطوبة تضيّق على الانفاس في الدغل ، ورائحة تفسخ تأتي من الاغصان الساقطة ، والمنخفضات في الأرض . وفي بعض الاماكن كانا يقعان في وحلة سوداء ، وسارا وسارا وهما يتحدثان ، ورشح النور يغريهما ، وصفا النهار الغائم ، ولكن لم يسفر عن مخرج ، ولم تنفتح الفرجة وراء الاشجار . وعرفت اولغا فاسيليفنا أنهما ضلا طريقهما . وفجأة ظهرت ايرينكا ، سارت جنبها . ضغطت اولغا فاسيليفنا بشدة على كفها الباردة . كانت ايرينكا صغيرة ، في نحو الثانية عشرة . كان لا بد من سؤال سيريوجا عن شيء معذب ، يخصهما وحدهما . وكانت ايرينكا تعيقها عن فعل ذلك . ولكن ايرينكا ابتعدت بعد ذلك ، وسألت اولغا فاسيليفنا عن داريا ماميدوفنا . هل صحيح ؟ كان يعذبها شيء واحد : هل صحيح ؟ ضحك وقال : غير صحيح . عندئذ سألت : «وتلك النقود التي اخذتها من صندوق العون المتبادل ؟ جاءوا بعد

الوفاة يطلبون اعادة النقود . على اى شيء انفقتها ؟ فقط أن تتكلم بصدق ، لا أحد يسمعنا ، فنحن في الغابة» قال : الم انفقها . بل اعطيتها لناس ، ولكنهم لم يردوها» كان ذلك سخافة كبيرة ويمكن أن تصدر عنه ! ذكر الاسماء . وهي اسماء غريبة . ومع ذلك فقد صدّقت بكلامه حالا وبعمق . فكرت كيف ستعيش لوحدها في هذه الغابة ؟ كان يجب الاسراع في الخروج منها ، فقد تأخرا ، وكان الباص ينتظر في الطريق العامة ، ولكنهما لا يعرفان اين هذه الطريق ، والى اى جهة يسرعان . ومع ذلك فقد ركضا في خط مستقيم ، عبر المنخفضات ، خلال اشجار الشوح اليابسة البنية ، وقد تخدش وجهاهما ويداهما . وأخيرا ظهر سياج ، أصم عال ، مطلي بطلاء أخضر داكن . رأياه فجأة ، حين اقتربا منه تماما . ماذا وراء السياج ؟ لا يسمع صوت منه ولا يُرى شيء . وهناك اشجار شوح ، كتلك التي في الغابة . سارا بمحاذاة السياج خلال ذرب غير واضح جدا — لم يكن مطروقا كثيرا — وكلما اوغلا في السير ضؤل أملهما . عند الباب رأيا أربعة رجال وامرأة جالسين على مسطبة . كان أحد الرجال ضخما مترهلا ذا وجه منتفخ كبير ، وعينين صغيرتين كعيني الخنزير . وعلى وجهه مسحة من البلادة السميحة كتلك التي تكسو وجوه المرضى بمرض داون . كما كان بينهم عجوز يهز رأسه دائما ، واثنان في منتصف العمر ، أحدهما ملتح ذو نظرة كئيبة ، والثاني قصير القامة ذو وجه مسطح بائس . كان يؤرجح رجليه القصيرتين اللتين لا تصلان الى الأرض . كان جميع الاربعة صامتين ، وكانت المرأة ترتدى روبا رماديا من تلك الارواب التي يرتديها العاملون في المستشفيات ، وتقرأ في جريدة . سألت اولغا فاسيليفنا كيف الخروج الى الطريق العامة .

لم يكونوا يعرفون . وقال الرجل الضخم المريض بمرض داون أن هذه الناحية ليست فيها طريق عامة . اخذ سيريوجا يغضب ويبرهن على وجودها . فقد جاءا في باص ، والباص ينتظر على الطريق العامة . قالوا : الباص لا يأتي الى هنا ، ولا توجد طريق عامة . احتد سيريوجا . فقالت المرأة ، وهي تترك الجريدة : «لا تتجادل معهم . انهم لا يعرفون . لنذهب ، سأدلكما» . وعندما ابتعدوا مسافة عن الرجال الذين بقوا جالسين على المسطبة قالت المرأة : «هؤلاء مرضى . وهم لا يعرفون أين الطريق العامة» .

سارت المرأة بهم خلال الغابة من غير درب . ولعل ذلك اقصر طريق . ضغطت اولغا فاسيليفنا على يد ايرينكا . وقالت للمرأة : «اعذرينا . لقد تأخرنا . والباص ينتظرنا على الطريق العامة» . ردت المرأة : «انا فاهمة . ولهذا أسير بكم في اقصر طريق» .

تكاثف المساء ، واظلمّ الجو . وتلاشى النهار دون أن يُلحظ . وكان يجب لسبب ما النزول على منحدر شديد ، تنمو فيه اشجار الشوح ثم التوغل مرة اخرى في قلب الدغل . وكانت المرأة تقول : «قريبا ، قريبا» . ولم تكن لهم القوة على السير . كانوا متعبين جدا . وفجأة قالت المرأة : «هنا» .

وقفوا أمام مستنقع غابي صغير . سألت اولغا فاسيليفنا : «ما هذا ؟» قالت المرأة : «هذه الطريق العامة وهناك يقف باصكم» . ومدّت ذراعها مشيرة الى دغل من الاسل في الجهة المقابلة من المستنقع . شعرت اولغا فاسيليفنا بالخدر وتسرب البرودة اليها ، وقد استحوذ عليها استرخاء ثلجي خاطف كالبرق ، وفي تلك اللحظة طعنت وعيها قرقعة . وبعد برهة اندفع خبر من العالم الآخر : انهضي . . .

كانت الساعة المنبهة تدق السابعة . انتزعتها من غيبوبة لزجة متكاثفة . . وعلى هذا النحو انقضت ايام كثيرة متشابهة ، رغم انها في بعض الاوقات كانت مشمسة ، والا نزل مطر او ثلج . ولكنها ذات مرة استيقظت قبل الساعة المنبهة واقتربت من النافذة حافية ، وازاحت الستارة ونظرت في ناحية المنتزه ، فكانت ترى وجه الشمس الاحمر يطلع في السماء الشاحبة النور فوق الاشجار ، فوق خط الافق الداكن المسنن ، خط المداخن والسطوح ، فتحت طاقة التهوية . طوّقت الريح القادمة في ناحية المنتزه بشرتها المتعبة ، وانشدّ نهداها من البرد . وكانت تشعر من رجليها الحافيتين باهتزاز الارضية بفعل طنين غامض من باطن الارض .

حين يصادف أن يكون لهما ثلاث ساعات من الفراغ كان يخرجان للتنزه في سباسكويه–ليكوفو : حيث كانا يركبان الحافلة الكهربائية الى المحطة النهائية ، ثم يتمشيان قليلا ، وبعد ذلك يستقلان الترام النهرى لمدة نصف ساعة . وسباسكويه–ليكوفو قرية تقع على تلال عالية ينتشر عليها حرش من اشجار الصنوبر . وموسكو قد زحفت منذ زمان ومن كل الجهات على هذه البقعة القديمة ما بين القرية والمنتجع من البيوت الريفية ، وتجاوزتها وامتدت ابعد الى الغرب ، ولكن لم تبتلعها كليا : فهناك أحراش صنوبر ، ومرجة خضراء تُغمر عند الفيضان ، وعلى التل يرتفع برج جرس كنيسة القرية القديمة ينتصب عاليا منسابا فوق النهر وأعلى من اشجار الصنوبر فتراه العين من بعيد من كل الجهات . وحين كانا ينزلان من الرصيف الخشبي على الدرب المحاذى للشاطئ كانا يسيران ويسيران متحدثين ، مستنشقين الهواء النهرى ، متجاوزين صيادى السمك ، ناظرين في عداء الى السيارات

الصغيرة التي لا يعرفان كيف انسلت الى هناك ، وليس هناك طريق يؤدي الى الشاطئ ووقفت عند الماء تماما قاطعة الدرب على الناس . فقد كان هناك ملجأهما ، شاطئهما ، عشبهما . أما الآخرون الذين جاءوا الى هنا فهم دخلاء ، غرباء .

لم يكن في موسكو مكان لهما . كثيرون جدا من الناس كانوا يعرفونه ويعرفونها . ولم يستطع احد من هؤلاء الاصحاب والمعارف أن يفهم شيئا . وهي ايضا لم تكن تفهم وتأخذها الدهشة وتخجل من نفسها : كيف حلّت الحياة الأخرى بهذه الفجاءة والسرعة ! في وقت ما كانا يحلمان بحياة اخرى ، ويتعذبان ، ويندفعان لبلوغها . ولكن بلوغها مستحيل ، فان ذلك يأتي من تلقاء نفسه . كانت له رئتان ضعيفتان ، فكان يصاب بنوبات برد ، ويمرض . وكان مرضه شديدا دائما ، فان نوبة برد صغيرة تمتد لوقت طويل لأن لجسمه صفة خاصة اذ لم يكن يتقبل مضادات الحياة ، كان يعيش ، وكأنه في القرن التاسع عشر ، يتعالج بالشاى والأعناب التي تعطي الدفء . وكانت تتعذب ، حين يمرض وهو بعيد عنها . بدا لها ان الناس الذين يحيطون به لم يستطيعوا ان يعالجوه كما ينبغي . سارا في الدرب على منحدر صلصالي ، وكانت تتحدث عن الأخبار في مكان عملها ، عن التجارب والترموستات ، وتتحدث عن ايرينكا التي تنوى ان تتزوج ، ولم تخجل أن تتكلم عنها وعن اسرارها وخفاياها ، وهو ايضا كان يتحدث عن اشياء مختلفة ، عن الاختلالات في العمل ، عن الناس الذين كانوا يخضعون له ، ويتشاور معها ، ولكنه كان يتحدث عن اهله على مضض . وكانت تفهمه .

ذات مرة صعدا الى برج جرس كنيسة القرية . وكان الصعود صعبا ، وقد توقف مرتين على السلم الحجرى ، واستراح ،

وحين دخلا السطيحة العليا ، تحت الاجراس كان قلباهما يدقان بقوة . فتناول الاثنان حبة من الفوليدول . ولكنهما رأيا موسكو تنداح في غبش المساء ، والابراج تنار وتزول ، والاضواء تختفي ، وكان كل شيء يزرق ، ويندمج ، كما في الذاكرة . ولكن حين حدقت ببصرها استطاعت ان تلمح الجدار العالى لمبنى معهد «المشاريع المائية» الواقع قريبا من بيتها . اما هو فقد استطاع ان يجد القُنة المضببة لناطحة السحاب عند ساحة فوستانيا ، حيث كان يسكن بالقرب منها . وفي الاعلى كانت الريح تخفق فجأة خفقات حادة . مدت جسمها اليه لتحميه ولتنقذه واحتضنها . وفكرت أنها بلا ذنب . انها بلا ذنب لان الحياة الاخرى كانت حولهما ، وكانت لا تستوعب ، كتلك الرحاب الباردة ، كهذه المدينة بلا حدود ، تبهت في انتظار المساء .

١٩٧٥

التبادل

في يوليو مرضت ام دميتريف ، كسينيا فيودوروفنا ، مرضا شديد الوطأة ، فنقلت الى مشفى بوتكين ، حيث مكثت اثني عشر يوما للاشتباه في اصابتها باسوأ مرض . وفي سبتمبر اجريت لها عملية فتأكدت المخاوف ، ولكن كسينيا فيودوروفنا ، التي اعتقدت بأنها مصابة بالقرحة ، شعرت بالتحسن وما لبثت ان صارت تمشي ، وفي اكتوبر أُرسلت الى البيت ، بعد ان امتلأ جسمها واصبحت على ثقة راسخة بأنها تتماثل الى الشفاء .

في ذلك الوقت بالذات ، حينما رجعت كسينيا فيودوروفنا من المشفى ، طرحت زوجة دميتريف مسألة التبادل : قررت الانتقال بسرعة الى بيت جديد للعيش سوية مع حماتها التي كانت تقطن وحيدة في غرفة جيدة من عشرين مترا تقع في شارع بروفسويوزنايا .

كان دميتريف قد شرع بنفسه مرارا في احاديث عن العيش سوية مع الام . ولكن ذلك كان منذ امد بعيد ، حينما لم تكن علاقات لينا بكسينيا فيودوروفنا قد انسكبت في قالب من العداء الراسخ والمستحكم ، الامر الذي وقع الآن ، بعد اربع عشرة سنة من حياة دميتريف الزوجية . كان دوما يصطدم بمقاومة قوية من لينا ، فأخذت هذه الفكرة على مر السنين تظهر بصورة اندر واندر . وفي لحظات الضجر فقط . وتحولت الى سلاح

محمول ومريح ، **تحت اليد دوما** ، للمشادات العائلية الصغيرة . حينما كان دميتريف يود ان يهين لينا لسبب ما ، وان يتهمها بالانانية او الطبع الجاف ، كان يقول : «لهذا لا تريدين العيش مع امي» . وحينما كانت تظهر عند لينا حاجة الى نفث السم او الضرب على الوتر الحساس ، كانت تقول : «لهذا لا استطيع العيش مع امك ولن اعيش ابدا ، لانك صورة طبق الاصل عنها ، ويكفي ان اتحملك وحدك» .

في السابق كان كل هذا يؤلم دميتريف ويعذبه ، كانت تحدث بسبب امه مشادات عنيفة بينه وبين زوجته ، وكان يصل الى حالة من الحنق الضاري نتيجة كلمة لاذعة تقولها لينا ، وكان بسبب زوجته يدخل في «تدقيق حساب» مضن مع أمه ، فلم تكن امه تحادثه بعدها اياما بكاملها . حاول بعناد التأليف بينهما ومصالحتهما ، وانزلهما معا في البيت الصيفي ، واشترى لكليهما في احد الايام بطاقة للاستجمام في ساحل ريغا ، ولكن كل ذلك لم يجد نفعا . كان يحول بين هاتين المرأتين حاجز لم تستطيعا تذليله . لم يدرك السبب رغم انه فكر في هذا الامر كثيرا في السابق . ما الذي يجعل امرأتين مثقفتين ، محترمتين من الجميع — كانت كسينيا فيودوروفنا تعمل كبيرة بيليوغرافيي احدى المكتبات الاكاديمية الضخمة ، اما لينا فكانت تمارس ترجمة النصوص التكنيكية الانكليزية ، وكانت ، حسب رأي الآخرين ، مترجمة ممتازة ، وحتى انها ساهمت في وضع كتاب مدرسي خاص في الترجمة ، — ما الذي يجعل امرأتين جيدتين تحبان بحرارة دميتريف ، الانسان الجيد ايضا ، وابنته ناتاشكا ، تدغدغان بعناد النفور المتبادل الذي كان يتعزز مع السنين ؟

تعذب دميتريف واندهش واجهد فكره ، ولكنه تعود بعد ذلك . تعود لانه رأى الامر نفسه عند الجميع ، والجميع تعودوه . واطمأن الى الحقيقة القائلة بان ليس فى الحياة ما هو اكثر حكمة وقيمة من الهدوء ، فيجب الحرص عليه بكل قوة . ولهذا ، حينما تحدثت لينا فجأة عن التبادل مع اسرة ماركوشيفيتش — كان ذلك فى ساعة متأخرة وقد تعشوا منذ امد طويل وناتاشكا نامت ، — فزع دميتريف . من هى اسرة ماركوشيفيتش هذه ؟ اين وجدتها ؟ شقة من غرفتين فى مالايا غروزينسكايا . فهم فكرة لينا الخفية والبسيطة ، ومن فهمه هذا تغلغل الفزع فى قلبه ، فشحب وذوى ، ولم يستطع ان يرفع عينيه الى لينا .

وحيث انه بقى صامتا ، تابعت لينا : من المؤكد ان غرفة الام فى بروفسويوزنايا ستعجبهم ، فهى تناسبهم جغرافيا ، لان زوجة ماركوشيفيتش تعمل قرب كالوجسكايا زاستافا ، اما بالنسبة الى غرفة لينا ودميتريف ، فلا بد على الارجح من دفع مبلغ زيادة . والا فلا سبيل الى اغرائهم . يمكن طبعا مقايضة غرفتهم بأخرى اكثر قيمة ، وستكون مقايضة ثلاثية ، وليس هذا بالامر المريع . يجب التصرف بنشاط . عمل شىء ما فى كل يوم . والافضل العثور على سمسار . عند لوسيا سمسار من معارفها ، مسن ، ولطيف جدا . انه ، والحق يقال ، لا يعطى احدا عنوانه ورقم تلفونه ، فهو حذر كثيرا ، ويظهر فجأة حينما لا يتوقع احد مجيئه ، ولكن يجب ان يأتى الى لوسيا قريبا ، فهى مدينة له . هذا قانون : لا ينبغى ابدا اعطاء سمسار النقود مقدما . . .

كانت لينا تمهد الفراش وهى تتكلم . لم يستطع ابدا ان ينظر الى عينيها ، وقد اراد ان يفعل هذا الآن ، ولكنها كانت تقف مديرة اليه جنبها احيانا وظهرها احيانا اخرى ، وحين استدارت

ونظر مباشرة الى عينيها المصابتين بقصر النظر ، وبحدقتيهما المتسعتين من القراءة مساء ، رأى التصميم فيهما . لعلها كانت قد استعدت للحديث منذ امد بعيد ، منذ اول يوم علمت فيه بمرض الام . حينذاك لمعت الفكرة فى رأسها . وحينما كان ، وقد سحقه الهلع ، يتنقل بين الاطباء ويتلفن الى المشافي ويدبر الامور ويتعذب ، فكرت فى المسألة وادركت فحواها . وها قد عثرت على اسرة ماركوشيفيتش هذه . وغريب انه لم يشعر الآن بغضب ولا الم . لم يخطر على باله شىء سوى قسوة الحياة . ولا شأن للينا هنا ، كانت جزءا من هذه الحياة ، جزءا من القسوة . وعلاوة على ذلك ، هل يمكن الغضب على انسان حرم ، مثلا ، من الاذن الموسيقية ؟ كانت لينا تتسم دوما بنفس صماء — كلا ، هذا كثيرا ، — بنفس تخلو من الدقة ، وكانت هذه الخاصية تزداد حدة حينما تشرع فى العمل خاصية اخرى للينا ، اشد قوة ، وهى معرفة الحصول على ما تريد .

تمسك بما فى متناول اليد : ما الحاجة الى السمسار ، اذا كان قد عُثر على الشقة فى مالايا غروزينسكايا ؟ السمسار ضرورى اذا كان ينبغى تبديل غرفة لينا ودميتريف . ولتسريع العملية كلها عموما . لن تدفع لسمسار اى كوبيك قبل ان تتلقى الاذن باستلام الشقة . لا يكلف هذا كثيرا ، مئة روبل او مئة وخمسين كحد اعلى . هذا صحيح ! لقد قدرت تجهمه بأسلوبها الخاص . اية نفس مرهفة لها وكم هى ملمة بالسيكولوجيا . قال انه كان من الافضل لو تنتظر الى ان يبدأ هو هذا الحديث ، واذا لم يبدأ فهذا معناه ان لا لزوم له ، ولا يجوز ، ولا ينبغى التفكير فى هذا الآن .

— فيتيا ، انا افهمك . اعذرنى ، — قالت لينا بجهد . —

ولكن . . . (رأى ان الامر صعب عليها جدا ، ولكنها مع ذلك ستتكلم الى النهاية .) اولا ، انت فتحت هذا الحديث ، أليس كذلك ؟ فتحته مرارا . ثانيا ، هذا ضرورى لنا جميعا ، ولأمك بالدرجة الاولى . فيتكا ، عزيزى ، انا افهمك واشفق عليك اكثر من اى كان ، واقول لك : هذا ضروزى ! صدقنى . . .

عانقته . كانت يداها تشداه بقوة اكثر فأكثر . كان يعرف ان هذا الحب المفاجئ لا زيف فيه . ولكنه شعر بالضجر وابعد لينا بكوعه .

— ما كان ينبغى ان تبدئى الحديث الآن ! — كرر بتجهم .

— حسنا ، اعذرنى . ولكنى لا افعل هذا من اجلى . صدقنى . . .

— اسكتى ! — قال بهمس اقرب الى الصراخ .

ابتعدت لينا الى التخت واستمرت فى بسط الفراش صامتة . اخرجت من صندوق فى اعلى التخت سماطا سميكا ذا رسوم مربعة يضعونه عادة تحت الشرشف ، ولكنهم يستخدمونه احيانا وفق غرضه مباشرة لطاولة السفرة ، ووضعت على السماط شرشفا انتفخ ولم ينفرد بالاتساق المطلوب ، فانحنت لينا مادة يديها الى الامام لتصل الى حافة التخت البعيدة — فى غضون ذلك انتفخ وجهها بالدم على الفور وتدلى بطنها قبدا لدميتريف كبيرا جدا ، — وسوت الزوايا المنثنية (حينما يفرش دميتريف لا يسوى الزوايا ابدا) ، ثم رمت على الشرشف ، وجهة الصندوق ، مخدتين احداهما بغطاء اقل نظافة ، وهى مخدة دميتريف . وبعد ان اخرجت لينا من الصندوق لحافين قطنيين ووضعتهما على التخت ، قالت بصوت متهدج :

— يبدو انك تتهمنى بانعدام اللباقة ، ولكن بشرفى ، يا فيتيا ، كنت افكر فينا جميعا . . . فى مستقبل ناتاشكا . . . .

— كيف تستطيعين !

— ماذا ؟

— كيف تستطيعين التحدث اصلا عن هذا الآن ؟ كيف يطاوعك لسانك ؟ هذا ما يحيرنى . — شعر بأن تهيجه ينمو ويندفع الى الخارج . — عندك ، والله ، خلل روحى . احاسيس غير مكتملة . عندك ، ارجو المعذرة ، **شىء غير انسانى** . كيف يمكن هذا ؟ القضية ان امى هى المريضة ، لا امك ، صحيح ؟ لو كنتُ مكانك . . .

— خفف صوتك .

— لو كنتُ مكانك لما كنت أبدا البادئ . . .

لوحت بيدها :

— هس !

انصت كلاهما . كلا ، كل شىء ساكن . وابنتهما نائمة خلف البارفان فى الزاوية . وهناك ايضا ، خلف البارفان ، تنتصب طاولتها التى تحضر خلفها الدروس فى الامسيات . لقد صنع دميتريف وعلق فوق الطاولة رفا للكتب ، ومدد الى هناك الكهرباء لمصباح الطاولة — جهز خلف البارفان غرفة خاصة ، «خلوة» ، كما كانت الاسرة تسميها . كان دميتريف ولينا ينامان على تخت عريض تشيكوسلوفاكى الصنع توفقا فى شرائه منذ ثلاث سنوات وكان مادة حسد من معارفهما . كان التخت موضوعا عند النافذة ويفصله عن «الخلوة» بوفيه من البلوط بزخارف محفورة ورثته لينا عن جدتها ، — وهو شىء اخرق اقترح دميتريف بيعه

مرارا ، ولم تكن لينا ايضا ضد هذه الفكرة ، ولكن حماته عارضت . كانت فيرا لازاريفنا تقطن على مقربة منهم ، بعد بنايتين ، وكانت تأتى الى لينا كل يوم تقريبا بحجة «مساعدة ناتاشكا العزيزة» و«التخفيف عن لينا العزيزة» ، ولكنها كانت تأتى فى الواقع لهدف واحد ، وهو التدخل بوقاحة فى حياة الآخرين .

فى الامسيات ، بعد ان يستلقى دميتريييف ولينا فى مضجعهما التشيكى — الذى اتضح انه لم يكن متينا جدا ، وما لبث ان صار يهتز ويئز عند كل حركة ، — ينصتان دوما ولمدة طويلة الى الاصوات الآتية من «الخلوة» ، محاولين ان يدركا ما اذا كانت ابنتهما قد نامت او لا . وليتأكد دميتريييف كان يناديها بصوت خافت «ناتاشا ! يا ناتاشا !» وكانت لينا تقترب على رؤوس اصابعها وتنظر من خلال شق فى البارفان . منذ ست سنوات تقريبا استأجرا مربية ، فصارت تنام على سرير نقال فى الغرفة نفسها . لقد اعترض جيرانهم آل فانديف على نومها فى الممر . كانت العجوز تعانى الارق وتتمتع بسمع مرهف للغاية ، فكانت تدمدم ليالى بطولها وتئن وتنصت وتتخيل : هذه فأرة تصأصئ ، وذاك صرصور يجرى ، وهناك حنفية فى المطبخ نسوا اغلاقها باحكام . وحينما انتهت مدة عملها بدأ عند الزوجين دميتريييف شىء اشبه بشهر العسل .

— جلست من جديد تدرس الفيزياء الى الساعة الحادية عشرة ، — قالت لينا همسا . — يجب الاستعانة بأحد ما . . . عند انطونينا اليكسييفنا مدرس خصوصى جيد .

كون لينا حولت الحديث الى مشاكل ناتاشكا ورضخت لكل اهانات دميتريييف ولم تعرها اهمية — الامر الذى لم يعهده

فيها ، — يعنى انها تود بحزم مصالحته وايصال القضية الى نهايتها . ولكن دميتريييف لم يكن يريد مصالحتها بعد . بل على العكس ازداد تهيجا لانه ادرك فجأة مدى تجرد لينا من اللباقة فى الامر الرئيسى : تكلمت وكأنما قُرر كل شىء ، وكأنه من الواضح له ، لدميتريييف ، ان كل شىء قُرر واحدهما يفهم الآخر بلا كلمات . تكلمت وكأنما لا يوجد اى امل . لم يكن لها حق فى التحدث هكذا !

كان شرح كل هذا مستحيلا . قفز دميتريييف من كرسيه دفعة واحدة ، تناول البجاما والبشكير ، ودون ان يقول اية كلمة غادر الغرفة وهو يركض تقريبا .

حينما عاد بعد عدة دقائق ، كان السرير جاهزا . وقد عبقت الغرفة برائحة العطر . كانت لينا تسرح شعرها ، وهى واقفة امام المرآة برداء محلول الازرار ، ووجهها يعبر عن عدم اكتراث ، بل ربما عن امتعاض مبطن جدا . ولكن رائحة العطر وشت بها . كان ذلك نداء ودعوة الى الصلح . مرت لينا قرب دميتريييف متجهة الى الممشى بخطوات سريعة وعملية دون ان تنظر اليه ، وقد أمسكت طرفى ردائها عند ذقنها بيد وعلى بطنها باليد الاخرى . تذكر من جديد الشعر الذى تمتم به كل الايام الاخيرة : «ايه ، يا رب ، كم هى مكتملة افعالك . . .» اغلق عينيه وجلس على حافة التخت . جلس هكذا عدة ثوان . كان يعرف ان لينا راضية فى اعماق نفسها ، لانها قامت بأصعب شىء وهو مفاتحته بالموضوع . والآن يجب عليها لحس الجرح ، وبالمناسبة ليس جرحا حسب رأيها ، بل خدش صغير لم يكن ثمة اى مهرب منه . كحقنة فى العرق . اضغط موضع الحقنة بالقطن . ستؤلم قليلا ، ولكن فيما بعد سيكون كل شىء على

ما يرام . من المهم ان كل شيء فيما بعد **سيكون على ما يرام** . وهو لم يصرخ ، ولم يضرب الارض بقدميه ، واكتفى بأن اطلق بضع عبارات غاضبة ، ثم ذهب الى الحمام واغتسل ونظف اسنانه ، وسوف ينام الآن . استلقى فى مكانه قرب الجدار ووجهه اليه .

ما لبثت لينا ان أتت ، قرقعت بقفل الباب ، خش رداؤها وحف قميص نومها النظيف ، ثم اغلقت الضوء . ورغم محاولات لينا لان تتحرك برقة وتكون اخف ما يمكن ، صر التخت تحتها ، همست بفعل هذا الصرير ، وحتى ان همسها كان مشوبا بشيء من الدعابة :

— اوه ، يا الهى ، اى كابوس هذا . . .

بقى دميتريييف صامتا ، ولم يتحرك . مر بعض الوقت ، ووضعت لينا يدها على كتفه . لم يكن ذلك ملاطفة ، بل ايماءة ودية ، بل وربما كان اعترافا صادقا بالذنب ورجاء بأن يدير وجهه اليها . ولكن دميتريييف لم يتحرك . واراد ان يغفو على الفور . تصنع ، ينتابه شعور من الانتقام ، بأنه يغرق فى النوم بلا حراك ، وبأنه لم يعد عنده متسع من الوقت ليسامحها ويتحدث معها هامسا ويدير وجهه اليها ويبدى شهامته ، كل ما يستطيعه هو ان يعاقب على انعدام الاحساس . اخذت يد لينا تمسح على كتفه مسحا خفيفا . استسلام نهائى ! كانت بلمسات وجلة ترثى له وتلتمس الصفح وتعتذر على خشونة روحها ، التى يمكن ، بالمناسبة ، ايجاد مبرر لها ، وتدعوه الى الحكمة ، والى الطيبة ، والى ان يجد فى نفسه القوة ويشفق عليها . ولكنه لم يتراجع . شيء لم يهمد فيه كان يمنعه من ان يستدير ويعانقها بيده اليمنى . رأى من خلال غفوة حلت طنـــف

يت خشبى وكسينيا فيودوروفنا تقف على اعلى درجات الطنف ونمسح يديها ببشكير مدعوك وقد صوبت نظرتها البطيئة الى عبنى دميتريييف مباشرة ، دون ان تعير انتباها الى لينا ذات لشعر الاشقر والفستان الحريرى الازرق الفاتح ، وسمع صوتها لخافت : «هل فكرت جيدا ، يا بنى ؟» كان خافتا لانه اتى من بعيد ، من ذلك اليوم القارس من ايام مايو ، حينما كان لجميع فى مقتبل العمر ، انحدر فالكا ليسبح ، وكان دميتريييف يرفع ثقلا وزنه اكثر من ٣٠ كغ ، وهرع توليك على دراجته النارية ليجلب نبيذا ، وفى الطريق حطم سياجا فاستدعوا الميليشيا ، وبعد ذلك فى الشرفة الباردة ، التى كان يهتز ضوء مصباح الشارع على زجاجها ، بكت لينا وتألمت وعانقته هامسة بأنه لم يكن ثمة احد ابدا فى كل حياتها ، وان هذا لا اهمية له . وفى الصباح استقلت ماما الدراجة وعلقت على المقود صفيحة وذهبت الى المحطة لتجلب حليبا وخبزا . مصيبتها انها تقول مباشرة ما يخطر على بالها . «هل فكرت جيدا ، يا بنى ؟» هل ثمة ما هو اعجز من هذه العبارة الخرقاء والهزيلة ؟ لم يكن يستطيع ان يفكر فى شيء . ان مايو برياحه القارسة ، التى تقطع من الاشجار اوراقها الغضة التى ولدت لتوها ، هو ما كـــان حينذاك ، وهو ما كانوا يتنفسونه . كانت ماما تتعلم الانكليزية لا لسبب ، بل لنفسها ، لتقرأ الروايات ، وكان دميتريييف ينوى الالتحاق بالدراسات العليا ، فأخذا يدرسان سوية مع ايرينا يفغينييفنا وانقطعا معا حينما ظهرت لينا : طرقت ماما زجاج الشرفة بطرف المظلة — لم يكن الوقت متأخرا ، بل فى حدود السابعة مساء : «انهض ! ايرينا يفغينييفنا تنتظر !» اختبأ دميتريييف ولينا تحت اللحاف القطنى العريض وتظاهرا بالنوم .

قرعت المظلة النافذة بتردد مرة او مرتين ، ثم خشخشت اكواز الصنوبر تحت الحذاء — ذهبت ماما فى صمت . هى نفسها لم تعد ترغب فى دراسة الانكليزية وفقدت اهتمامها بالروايات البوليسية . فى احد الايام سمعت لينا تقلد لفظها ضاحكة . من هناك ، من تلك الشرفة الريفية ذات الواجهة الزجاجية المشبكة ، بدأ ما يستحيل الآن تقويمه .

ابدت يد لينا اصرارا . فى غضون اربع عشرة سنة تغيرت هذه اليد ايضا — كانت فى السابق خفيفة ، ناعمة . اما الآن فان يد لينا ، وقد استقرت على كتف دميتريف ، تضغط بثقل كبير . استدار دميتريف الى جنبه الايسر من دون ان يقول اية كلمة وعانق لينا بيده اليمنى وقربها اليه موحيا الى نفسه من خلال نعاسه بان هذا من حقه ، لانه نام ورأى احلاما ، بل لعله لا يزال نائما . وهو على اى حال لم يقل شيئا ، وكانت عيناه مغلقتين كانسان نائم فعلا ، وفى تلك اللحظات ، حينما كان بود لينا جدا ان يقول شيئا ، تابع صمته . بعد ذلك فقط ، حينما نام حقا وبعمق ، فى حدود الثانية ليلا ، تمتم فى نومه بكلام غير مفهوم .

فى اغسطس بلغ دميتريف السابعة والثلاثين من العمر . كان يبدو له احيانا ان المستقبل لا يزال فى انتظاره .

نوبات التفاؤل هذه كانت تنتابه فى الصباح ، حينما يستيقظ فجأة خفيفا ، مفعما بنشاط غير متوقع — كان الطقس يساعد على هذا كثيرا — فيفتح الكوة ويبدأ يلوح بيديه وينحنى وينتصب بايقاع . كانت لينا وناتاشكا ينهضان قبله بربع ساعة . واحيانا كانت تأتى فيرا لازاريفنا فى الصباح الباكر لترافق ناتاشكا الى المدرسة . وكان دميتريف يسمع ، وهو مستلق مغمض

العينين ، المرأتين تخفقان بأقدامهما وتتحركان وتتحادثان بهمس مرتفع ، وتقرقعان بالصحون والملاعق وناتاشا تدمدم : «العصيدة مرة اخرى ! الا مخيلة عندكم ؟» وترد لينا بغضبها الصباحى المعهود : «سأريك ما هى المخيلة ! اجلسى كما ينبغى !» — وتتمتم حماته : «لو كان عند الاطفال الآخرين ما عندك . . .» كان ذلك كذبا متعمدا . فقد كان عند الاطفال الآخرين ما عندها وحتى اكثر . ولكن فى تلك الاصباح ، حينما كان دميتريف يستيقظ مفعما بتفاؤل غامض ، لم يكن يثير ضجره شىء . كان ينظر من علياء الطابق الخامس الى الحديقة ذات النافورة ، الى الشارع والعمود الذى يحمل لوحة موقف الترولى باص ، وقد ازدحم الى جانبه حشد من الناس ، ويحول نظره ابعد من ذلك فيرى البارك والابنية المتعددة الطوابق فى الافق والسماء . وعلى بلكون البناية المجاورة ، على مقربة شديدة ، على بعد عشرين مترا فى مواجهته ، تظهر امرأة صبية غير جميلة ترتدى نظارة وثوبا بيتيا قصيرا مزنرا باهمال . تجلس القرفصاء وتفعل شيئا بالزهور التى تطل من الشقوف فى البلكون . كانت تمسها وتمسدها وتنظر تحت الاوراق ، وكانت ترفع بعض الاوراق وتشمها . ولانها كانت تجلس القرفصاء ، كان ثوبها ينفتح فتظهر ركبتاها الكبيرتان البيضاوان المزرقتان . كان وجه المرأة بلون ركبتيها ، ابيض مزرقا . كان دميتريف يراقب المرأة وهو ينحنى وينتصب . كان ينظر اليها من خلف الستارة . لا يعرف السبب — فالمرأة لم تكن تعجبه على الاطلاق ، — ولكن مراقبتها خفية كانت تلهمه . كان يفكر فى انه لم يفقد كل شىء بعد ، وان سبعا وثلاثين سنة ليست سبعا واربعين ولا سبعا وخمسين ، وانه لا يزال يستطيع ان يحقق شيئا .

كانت ناتاشكا وفاليا بنت فانديف ، تلميذة الصف السادس ، يغادران البيت فى الثامنة والنصف ، ووقع اقدامهما يعلو فى الممر بهرج ومرج ترافقهما صيحات لينا : «اخذتما الكيسين ؟ لا تركضا عبر الشارع ! انتبها ، انتبها» . كان السلم يرتجف تحت قفزاتهما . كان دميتريف يهرع الى الحمام ويقفل على نفسه ، وبعد ثلاث دقائق يقطع طرق خفيف تفكيره : «فيكتور غيورغييفيتش ، اليوم الجمعة ، عندى غسيل ، اسرع ، ابتهل اليك !» كان ذلك صوت جارتهم ايرائيدا فاسيلييفنا التى لا تتحدث حماة دميتريف معها ، والتى كانت علاقة لينا بها باردة ، ولكن دميتريف حاول ان يكون لبقا ، فحافظ على موضوعيته واستقلاله . «حسنا ! — اجابها من خلال ضجيج الماء . — سأفعل !» شغل المسخن الغازى وحلق بسرعة ، مبللا الفرشاة بالماء المندفع الساخن ، ثم غسل وجهه على المغسلة القديمة ، المصفرة ، ذات الحافة المهشمة — كان ينبغى تغييرها منذ امد بعيد ولكن سيان عند فانديف على اية مغسلة يغتسل ، اما ايرائيدا فاسيلييفنا فضنت بالنقود — وما لبث ان رجع الى الغرفة يصفر تصفيرا خفيفا ويحمل الجرائد التى تناولها من الصندوق وهو يسير فى الممشى عائدا من الحمام . كانت الطاولة لا تزال مثقلة بالاوعية بعد الوجبة القريبة العهد التى تناولتها ناتاشكا ولينا . الآن عجلت لينا ، وذهبت بعد ناتاشكا بعشر دقائق ، وتولت حماة دميتريف مهمة خدمته الصباحية . لم يكن هذا يعجب دميتريف كثيرا ، وكانت الحماة ايضا تعتنى بصهرها بدون حماسة — كانت تلك تضحية صباحية صغيرة ، واحدة من المآثر المتواضعة التى تتكون منها كل حياة الكادحات والمتفانيات شأن فيرا لازاريفنا .

كان دميتريف يلاحظ احيانا ان لينا تحاول ان تتظاهر بأنها مشغولة ، اما فى الواقع فان عندها من الوقت ما يكفى تماما لاعداد القطور له ، ولكنها تتخلى عمدا عن هذه المهمة لأمها ليكون دميتريف مدينا لحماته بشىء وان كان زهيدا ، وان كان ذلك لدقيقة واحدة . وحتى انها كانت تستطيع ان تهمس فى اذنه : «لا تنس ان تشكر ماما !» فيشكرها . كان يرى كل هذه الحيل فى تنظيم الصلات العائلية فكان ، حسب مزاجه ، اما الا يعيرها اهتماما واما ان يتضايق بصمت . وكانت فيرا لازاريفنا ترد دائما على تضايقه الصامت بطريقتها الخاصة — بضغينة فى غاية الرقة . «بأية سرعة اخلى فيكتور غيورغييفيتش الحمام ! يا له من شاطر ! — قالت مبتسمة ومسحت ببشكير المطبخ الرطب مكانا لدميتريف على المشمع . — يكفيه ان تطلب الجارة فيفعل . . .» قاطعتها لينا بحزم : «ما شأن الجارة هنا ؟ فيتيا يغتسل بسرعة دائما» . — «وماذا اقول ؟ هو شاطر ، يعمل بسرعة على الطريقة العسكرية . . .» .

فى ذلك الصباح من مستهل اكتوبر لاحت السماء زرقاء من وراء النافذة ، وغمر الغرفة ضوء منعكس عن الواجهة الجانبية القرميدية–البيضاء للبيت المقابل الذى تغمره الشمس ، ولم يكن صوت فيرا لازاريفنا مسموعا . فى اللحظة الاولى ، ما ان فتح دميتريف عينيه حتى احس من غير وعى — نتيجة الشمس والضوء — بالسرور ، ولكنه تذكر كل شىء فى اللحظة التالية ، فكبت الزرقة ، وحل خلف النافذة نهار خريفى ساطع وبارد . قبل القطور لم يتبادل ولينا اية كلمة . ولكن بعد ان تلفن دميتريف لكسينيا فيودوروفنا — تلفن لاخته لورا فى بافلينوفو ، حيث تعيش أمه الآن ، وقالت له كسينيا فيودوروفنا بصوت

مفعم بالحيوية ان اسيدور ماركوفيتش مر عليها البارحة فى وقت متأخر ووجد حالتها جيدة وضغطها طبيعى ، ونصحها أن تذهب مع نزول الثلج الى مصح فى ضواحى موسكو ، ثم اعقبت ذلك اسئلة عن شؤون ناتاشكا ، وعن حالة عينيها ، وعما اذا كانت قد حسنت علامتها المنخفضة فى الفيزياء ، وعما اذا كانوا يقدمون لها الجزر الطازج المبشور ، الذى هو انفع دواء للعيون ، وما حل بمأمورية دميتريف ، — احس بارتياح مفاجئ ، يشبه ما يحس به المرء بعد نوبة صداع . وبدا له فجأة أن كل شىء قد يمر على ما يرام . اذ تحدث اخطاء ، اخطاء لا تخطر على البال . بهذا السرور الهزيل والامل الخاطف دخل الغرفة بعد المكالمة التلفونية — كانت ناتاشكا قد ذهبت ، اما لينا فكانت تخيط شيئا ما على عجل ولم تكن قد ارتدت سوى التنورة والقميص الداخلى الاسود ، وكانت كتفاها عاريتين ، واذ مر قرب لينا ، ضربها برفق تحت ظهرها وسألها بود :

— كيف المزاج ؟

اجابت لينا بجفاء فجأة ان مزاجها سيئ .

— ماذا تقولين ؟ — قال دميتريف ، وقد جرحه الرد الجاف على ما ابداه من ود . — مم ؟

— الاسباب ، فى رأيى ، اكثر من كافية . مرضت أمى .

— امك ؟

— أتعتقد ان أمك وحدها تستطيع ان تمرض ؟

— وماذا اصاب فيرا لازاريفنا ؟

— شىء خطير جدا بالرأس . انها مستلقية لليوم الثانى ، لم اقل لك البارحة ، ولكنى تلفنت صباح اليوم . . . تشنجات فى الدماغ .

انهت لينا الخياطة وارتدت البلوزة واقتربت من المرآة ، ناظرة الى نفسها بعجرفة . كانت البلوزة بكمين قصيرين ولم يكن فى هذا اى جمال — يدا لينا سمينتان من الاعلى ، وقد طفحت البشرة بفقاعات صغيرة بعد ان لوحتها الشمس فى الصيف . عليها الا ترتدى شيئا الا اذا كان بكمين طويلين ، ولكن مصارحتها بهذا امر يخلو من الحذر . اية رباطة جأش — ولا كلمة عن اقتراح الامس ! ربما خجلت ، ولكن ثمة هنا على الارجح شىء من الكبرياء : لقد اتهمت بانعدام اللباقة وبالتجرد من الحس ، اى بالصفتين اللتين يثير وجودهما فى النساس نفورها بشكل خاص ، فرضخت لهذا الاجحاف وحتى انها طلبت الصفح وتذللت . ولكنها لن ترجوه مرة اخرى ، لانها لا تريد ان تظهر دائما بمظهر ردىء . كلا ، سيخيب رجاؤها اذا فعلتْ . ثم انها فى شغل شاغل عن هذا ، وقد اقلقها مرض أمها (دميتريف مستعد ليراهن بمئة روبل مقابل روبل واحد على ان حماته تعانى مرضها المألوف ، الشقيقة) . يا رب ، كم تعلم ان يقرأ هذا الكتاب مغمض العينين ! ما ان اخذ دميتريف ، المفعم بالرضى عن النفس ، يتمتع بفكرته الاخيرة ، حتى صعقته لينا . قالت بلهجة عادية وسلمية تماما :

— فيتكا ، ارجوك تكلم اليوم مع كسينيا فيودوروفنا . ابلغها ان آل ماركوشيفتش قد يتفرجون على الشقة ، وينبغى اخذ المفتاح منها .

سألها بعد صمت :

— متى يريدون ان يروها ؟

— غدا او بعد غد ، لا اعرف تماما . سيتلفنون . اذا

ذهبت اليوم الى بافلينوفو ، لا تنس ، خذ المفتاح من كسينيا فيودوروفنا . ضع ، من فضلك ، اللبن فى البراد ، والخبز فى الكيس . دائما تتركه فيبيس . الى اللقاء !

لوحت مودعة ، وخرجت الى الممشى . صفقت الباب الخارجى . وهدر المصعد . اراد دميتريف ان يقول شيئا ، فكرة غامضة ومقلقة ترددت على عتبة فكره ، ولكنها لم تظهر ، فخطا خطوتين فى اثر لينا ، ثم وقف فى الممشى ورجع الى الغرفة .

لم يبق لزرقة الصباح اثر . حينما خرج دميتريف متوجها الى موقف الترولى باص ، كان ينزل مطر خفيف وكان الجو باردا . كانت الايام الاخيرة ماطرة كلها . ان اسيدور ماركوفيتش محق طبعا — فهو طبيب ضليع ، محنك يدعونه الى المدن الاخرى لاستشارته — يجب نقل الام الى الضواحى ، ولكن فى غير هذا الطقس الرطب الذى يسبب الانفلونزا . ولكن طالما انه ينصح بمصح فى ضواحى موسكو ، فهو لا يرى اخطارا قريبة — هذا هو الامر المهم ! وللمرة الثانية فى صباح هذا اليوم فكر دميتريف بوجل فى ان كل شىء قد يمر بسلام . سيتبادلون وسينالون شقة منفصلة جيدة وسيعيشون معا . وكلما اسرعوا بالتبادل كان ذلك افضل . من اجل صحة أمه . سيتحقق حلمها . هذا هو العلاج النفساني ، شفاء الروح ! كلا ، ان لينا حكيمة جدا احيانا ، يأتيها الالهام فجأة ، على البديهة ، شأن النساء . فقد تكون هنا الوسيلة الوحيدة والعبقرية التى تنقذ الحياة . حينما يعجز الجراحون تدخل الميدان قوى اخرى . . . وهذا ما لا يستطيع تحقيقه اى بروفسور ، اى كان ، اى كان ، اى كان !

لم يعد دميتريف يستطيع ان يفكر فى اى شىء آخر

وهو عند موقف الترولى باص ، تحت الرذاذ ، ثم بعد ذلك وهو يشق طريقه الى العربة وسط المشمعات المبتلة والحقائب التى تصدم الركب والمعاطف العابقة برائحة الجوخ الرطب ، وفكر فى هذا ايضا وهو يركض هابطا درجات المترو القذرة ، اللزجة بفعل ماء المطر الذى جلبته الوف الاقدام ، ويقف فى الطوابير القصيرة امام شباك الصرافة ليبدل بالخمسة عشر كوبيكا قطعا من ذوات الخمسة كوبيكات ، ويركض من جديد منحدرا على الدرجات ، ويقذف بقطعة الكوبيكات الخمسة فى شق الجهاز الاوتوماتيكى ، ويسير بخطوات سريعة على الرصيف الى الامام ليستقل العربة الرابعة التى تتوقف امام القنطرة المؤدية الى السلم الذى يصل به الى الممر الذى ينقله الى خط آخر للمترو . وفكر فى الامر نفسه حينما حمله الحشد المندفع فى ممشى طويل ، حيث الجو الخانق وحيث تفوح دوما رائحة الالاباستر الرطب ، وحينما وقف على السلم المتحرك واندس فى العربة ونظر الى الركاب والقبعات والحقائب وصفحات الجرائد وشنطات البلاستيك والوجوه المنتفخة فى الصباح والعجائز وقد وضعن الحقائب الكبيرة على ركبهن متجهات الى مركز المدينة للمشتريات ، — قد يكون عند اى من هؤلاء الناس عرضه المنقذ . كان دميتريف مستعدا لان يصيح على مسمع من العربة كلها : «من يحتاج الى غرفة جيدة بعشرين مترا ؟ . .»

فى التاسعة الا ربعا خرج من النفق الى الساحة ، وفى التاسعة الا خمس دقائق قطع الزقاق وتجاوز السيارات الواقفة قرب المدخل واجتاز بابا علقت قربه لوحة سوداء مغطاة بالزجاج كتب عليها «معهد اجهزة النفط والغاز» .

في ذلك اليوم بحثوا فى مسألة المأمورية الى غوليشمانوفو ، فى مقاطعة تيومين . لقد اقرت المأمورية منذ شهر يوليو ، ويجب ان يسافر دميتريف نفسه ، لا احد سواه . كانت المضخات ميدانه . وكان وحده مسؤولا عن هذا العمل ، ووحده يدرك فحواه كما ينبغى ، اذا لم يؤخذ سنيتكين فى الحسبان . منذ اسبوع حادثه دميتريف ، ولكن باشا سنيتكين ، الشخصية الداهية (لم يكن باشا سنيتكين يؤدى اى عمل لوحده ، بل كان يحسن دائما تدبير الامر بحيث يساعده الجميع) ، قال انه لا يستطيع ، للاسف ، السفر بحال من الاحوال ، وذلك لظروف عائلية ايضا . ولعله كان يكذب . ولكن هذا كان من حقه . فمن يرغب فى السفر الى سيبيريا فى الطقس الردىء والبرد ؟ كان من المحرج لسنيتكين ان يرفض ، فقال بتكدر : «قلت ان حالة أمك تحسنت ، أليس كذلك ؟»

لم يخض دميتريف فى التفاصيل ، بل لوح بيده فقط : «من اين هذا التحسن . . .» كان باشا يسأل دائما باهتمام عن صحة كسينيا فيودوروفنا ويعطى ارقام تلفونات الاطباء ، وابدى تعاطفه عموما ، وكان دميتريف لسبب ما على ثقة تامة بموافقته . ولكن لماذا ؟ وما المناسبة ؟ الآن اصبح واضحا ان هذه الثقة لم تكن فى محلها . كلا ، انهم لا ينافقون حين يبدون تعاطفهم ويسألون بحذر انفعالى : «كيف حال الاسرة ؟» — كل ما فى الامر ان لهذا التعاطف وذلك الانفعال مقاييسهما شأن الحذاء او القبعة . ولا يجوز مطهما بافراط . كان باشا سنيتكين ينوى نقل ابنته الى مدرسة الموسيقا ولم تكن تستطيع أمها ولا جدتها القيام بهذا العمل الصعب ، بل هو وحده . واذا سافر بمأمورية فى اكتوبر تضيع حتما مدرسة الموسيقا فى

هذه السنة ، مما يسبب صدمة قوية للفتاة وخسارة معنوية لاسرة سنيتكين كلها . يا رب ! هل تمكن المقارنة — انسان يموت وفتاة تنتسب الى مدرسة الموسيقا ؟ نعم ، نعم . تمكن . انهما قبعتان من مقاس واحد تقريبا — اذ كان يموت انسان غريب واذا كانت تنتسب الى مدرسة الموسيقا ابنتك ، من لحمك ودمك .

كان المدير ينتظر دميتريف فى الحادية عشرة والنصف . أمال المدير رأسه جانبا وقال ناظرا الى عينى دميتريف بدهشة وجلة :

— ما العمل ؟

اجاب دميتريف :

— لا اعرف . لا استطيع السفر .

صمت المدير وهو يلمس بأصابعه العريضة البيضاء جلد خديه وذقنه ، وكأنه يتأكد مما اذا كان قد حلق جيدا . اصبحت نظرته تنم عن التفكير . لقد استغرق فعلا فى تفكير عميق وحتى انه اخذ يترنم بلحن دون وعى .

— ماذا نفعل ، فيكتور غيورغييفيتش ؟ ايه ؟ واذا اقتصر السفر على قرابة عشرة ايام ؟

— كلا ! — قال دميتريف بحدة .

فهم انه يستطيع أن يقف كالصخرة ، ولن يحركه احد . ولكن لا ينبغى اعطاء اى تفسير . فكر المدير وذكر اسم تباغوسوف ، وهو شاب فى مقتبل العمر انهى المعهد منذ سنة ، وكان ، كما بدا لدميتريف ، مغفلا حقيقيا .

كان من شأن دميتريف منذ امد قريب ان يحتج ، ولكنه شعر الآن فجأة بأن لا اهمية لكل هذا .

وما المانع أن يكون تياغوسوف ؟ — قال :

— طبعا . سأجلس معه يوما او يومين واشرح له كل شيء . سيكون اهلا لهذا . شاب فطن .

واذ دخل دميتريف غرفته فى الطابق الاول ، اشتغل ساعة ونصف الساعة من دون ان يرفع رأسه : اعد الوثائق للمأمورية . ومع انه لم يكن يعتقد قبل ذلك انهم سيرغمونه على السفر ، فان فكرة المأمورية كانت على اى حال تضغط عليه ، كانت حملا يضاف الى كل اعبائه ، والآن ، حينما رفعوا عنه هذا الحمل ، تنفس الصعداء . وفكر براوده الامل فى ان هذا اليوم قد يكون موفقا . وشأن كل الناس الذين يرهقهم القدر ، اصبح دميتريف مستعدا لتقبل الخرافات : لاحظ انه توجد ايام يحالفها الحظ ، حينما تتوالى النجاحات يعقب احدها الآخر ، وفى تلك الايام ينبغى القيام بأكثر ما يمكن من الاعمال ، وتوجد ايام يرافقها النحس حينما تذهب كل المساعى سدى برغم كل الجهود والمحاولات . يبدو ان يوم الحظ قد بدأ . الآن يجب ان يستدين نقودا . لقد طلبت لورا ان يجلب ولو ما يعادل خمسين روبلا . فى غضون شهر دُفع لاسيدور ماركوفيتش وحده — اربعة فى خمسة عشر — ستون روبلا . ومن اين يأخذ النقود ؟ يا لها من شناعة : استدانة النقود . ولكن يجب ان يفعل هذا اليوم ، طالما انه **يوم الحظ** .

اخذ دميتريف يفكر : الى من سيلجأ ؟ وتذكر ان الجميع تقريبا اشتكوا مؤخرا ان لا نقود عندهم ، فقد انفقوها ابان الصيف . ساشكا بروتييف يبنى شقة تعاونية ، وهو نفسه غارق فى الدين . فاسيلى غيراسيموفيتش ، العقيد ، رفيقه فى لعب الورق وفى رحلات صيد السمك ، الذى كان يسعف دميتريف

دوما ، يعيش مأساة بعد ان هجر زوجته ، ومن المحرج الطلب منه . اصدقاء دميتريف الذين اندفع اليهم فى لحظات يأس حينما تشاجر ولينا ، اناس لا يملكون الكثير — لا تتجاوز ثروتهم سيارة او زورقا بمحرك ، او خيمة سياحية ، او زجاجات من الكونياك الفرنسى او الويسكى من ماركة «الحصان الابيض» اشتروها مصادفة فى متجر الخمور فى زقاق ستوليشنيكوف ويحتفظون بها فى خزانة الكتب فى البيت تحسبا لكل طارئ ، وهم لا يستطيعون اقراضه اكثر من خمسة وعشرين روبلا او اربعين فى احسن الحالات ، فى حين انه يجب ان يحصل على ما لا يقل عن مئة وخمسين . كانت هناك ، طبعا ، امكانية اخيرة تبلغ منتهى العذاب ، وهى الاستدانة من حماته . ولكن هذا يعنى السقوط . كان لا يزال فى وسع دميتريف ان يجهد نفسه ويتحمل العذاب ، ولكن لينا تعانى هذه الاشياء بألم مفرط . فهى تعرف أمها افضل . فجأة خطرت على بال دميتريف تلك الفكرة نفسها التى اقلقته على نحو غامض ، اما الآن فقد داهمته فجأة : كيف سيحدث أمه فى صدد التبادل ؟ فهى تعرف جيدا موقف لينا من هذه الفكرة ، فلماذا تقترح عليها الآن العيش سوية ؟ لماذا ؟

تفصد العرق من دميتريف حينما فطن فجأة الى كل هذا . خرج الى الممشى ، حيث يوجد تلفون على المنضدة ، وتلفن للينا فى العمل . لم يكن من السهل الاتصال بها عادة . ولكن اسعدته الظروف فى هذه المرة (يوم الحظ !) : كانت لينا فى المكتب ورفعت السماعة بنفسها . اعرب دميتريف عن شكوكه على عجل بجملة مشوشة طويلة . سكتت لينا ، ثم سألته :

— اى انك لا تريد ان تكلمها ؟

— لا اعرف كيف . لا استطيع ان اوحى اليها بالفكرة — أتفهمين ؟

صمتت لينا من جديد ، ثم قالت له ان يتلفن بعد خمس دقائق على رقم آخر ، حيث تستطيع التحدث بمزيد من الحرية . وتلفن . تحدثت لينا الآن بصوت مرتفع وبحيوية :

— قل هكذا : قل أنك تريد كثيرا هذا التبادل . وأنا اعارضه . ولكنك الححت . اى على الرغم منى ، مفهوم ؟ عندئذ يبدو الامر طبيعيا ، ولن تحزر أمك شيئا . حملنى كل المسؤولية . ولكن بلا افراط ، بل مجرد تلميحات . . . — غيرت فجأة لهجتها وقالت بصوت مداهن : — اعذرونى ، من فضلكم ، دقيقة واحدة ، سأذهب الآن ! هل كل شىء واضح ؟ الى اللقاء . انتظر ، فيتيا ، فيتيا ! تحدث فى العمل مع احد ممن قايضوا بنجاح ، أتسمع ؟ الى اللقاء !

ما قالته لينا كان ، بالطبع ، صحيحا وذكيا ، ولكن قلب دميتريييف انقبض كآبة . لم يستطع أن يعود فورا الى الغرفة وهام عدة دقائق فى الممشى الخالى .

قبل الغداء لم يذهب الى احد ولم يستعلم عن شىء ، وبعد الغداء صعد الى قسم الاقتصاديين فى الطابق الثالث . ما ان فتح الباب حتى رأته تانيا على الفور وخرجت . نظرت اليه بخوف من دون أن تسأله شيئا . قال :

— لا ، كل شىء على ما يرام . بل ربما كان الوضع افضل قليلا . تانيا ، أتعرفين احدا تبادل ؟ بدل شقته ؟

— لا أعرف . ربما جيريخوف . ما الامر ؟

— اريد ان اتشاور . يجب ان نبدل شقتنا فورا ، أتفهمين ؟

— انتم ؟

— نعم .

— تريدون . . . — احمر وجه تانيا ، — ان تسكنوا مع كسينيا فيودوروفنا ؟

— نعم ، نعم ! هذا مهم جدا . عموما يتطلب هذا شرحا طويلا ، كل ما فى الامر ان هذا ضرورى الآن .

اطرقت تانيا رأسها صامتة . كان فى شعرها الذى انسدل على وجهها الكثير من الشيب . عمرها اربعة وثلاثون عاما ، لا تزال امرأة شابة ، ولكنها هرمت كثيرا فى السنة الاخيرة . لعلها مريضة ؟ لقد هزلت جدا ، رقبتها النحيفة تبرز من ياقتها ، وعيناها الطيبتان على وجهها النحيل ، الشاحب ، ذى النمش تلمعان وحدهما بخوف دائم . انه خوف عليه ، لاجله . لعل تانيا بالنسبة اليه زوجة افضل . بدأ هذا منذ ثلاث سنوات واستمر صيفا واحدا وانتهى من تلقاء ذاته : حينما عادت لينا وناتاشكا من اوديسا . كلا ، لم ينته ، استمر متقطعا عدة أشهر او نصف سنة . كان يعرف ، لو حاكم الامور بتعقل ، انها زوجة افضل بالنسبة اليه . ولكن شريطة التعقل ، التعقل . . . كان عند تانيا ابن ، اسمه أليك ، وزوج له كنية غريبة ، وهى توفت . لم يره دميتريييف ابدا . كان يعرف ان زوج تانيا كان يحبها جدا ويغفر لها كل شىء ، ولكن بعد ذلك الصيف ، منذ ثلاث سنوات ، لم تعد تستطيع العيش معه فافترقا . تأسف دميتريييف كثيرا لما حصل ، ولان الزوج صار انسانا تعيسا وترك العمل وغادر موسكو ، ولان تانيا اصبحت تعيسة ايضا ، ولم تكن باليد حيلة . ارادت تانيا ان تترك معهد اجهزة النفط

والغاز حتى لا ترى دميتريف كل يوم ، ولكن تبين ان ترك العمل كان صعبا . ثم رضخت لكل هذا بالتدريج وتعلمت مقابلة دميتريف بهدوء والتحدث معه كرفيق قديم .

فهم دميتريف فجأة ما تفكر فيه الآن : اى ان كل شيء انتهى ، ولا سبيل اليه فى المستقبل . قال :

— ما العمل ؟ تفهمين انها فرصة ، امل ما . كانت امى تحلم بالعيش معى .

— ماذا تقول ؟ كانت تحلم ، ولا شك ، بأمر آخر .

— أعرف .

— اوه ، فيتيا . . . حسنا ، تكلم مع جيريخوف من قسمنا . سأستدعيه الآن . ولكنه ثرثار كبير وكذاب ، خذ هذا فى الاعتبار . — ثم سألت فجأة : — أتحتاج الى نقود ؟

— نقود ؟ كلا .

— فيتيا ، خذ . انا أعرف ما معنى المرض . عمتى مرضت ثمانية اشهر . ادخرت مئتى روبل لشراء معطف صيفى ، ولكن الصيف انتهى ، كما ترى ، ولم اشتر شيئا . وهكذا استطيع أن اقرضك بسهولة الى الربيع .

— كلا ، لا احتاج . عندى نقود . — قطب . لم ينقص الا هذا : الاستدانة من تانيا ! ابتسم فجأة : فعلا ، يا له من يوم غريب ! واحدة اثر اخرى . . .

— نذهب الى البيت بعد العمل ، فأعطيك النقود ، حسنا ؟

صمت قليلا وقال :

— انا اكذب ، ليست معى نقود . ولكنى لا اريد ان اخذ منك .

— احمق ! — وضربت خده برفق .

رأى دميتريف ان تانيا ابتهجت . وحتى انها أمسكت بيده حينما اقتربا من باب الغرفة التى كان جيريخوف يعمل فيها . صاحت تانيا :

— ليونيد غريغوريفيتش ! لو سمحت ، دقيقة واحدة !

جيريخوف شيخ بشوش ، قصير القامة ، اصلع تماما ، ذو اسنان اصطناعية منتظمة وبيضاء ، وقد اخذ يتحدث بلطف شديد وطيبة خاطر عن الكيفية التى بدل بها بيته . كان دميتريف يعرف جيريخوف معرفة سطحية ، ولكنه لاحظ انه لطيف وبشوش مع الجميع — ربما لانه ، وهو فى سن التقاعد ، كان يصارع من اجل البقاء فى وظيفته ويرغب فى ان يكون على علاقات حسنة جدا بالجميع بلا استثناء . ولهذا تحدث بتفصيل واسهاب لا يُحتملان . احدهم سافر الى الخارج . وآخر كان فى وضع لا مخرج منه . وثالث اضطر الى الدفع . كل هذا لم يكن المطلوب . ولكن جيريخوف هتف بعد ذلك فجأة ، واتسعت عيناه الزرقاوان من فيض اللطف :

— على فكرة ! يلزمكم التحدث مع نيفيادومسكى ! أتعرفون نيفيادومسكى ، اليكسى كيريلوفيتش ؟ من مكتب التصميم-٣ . جرت معه القصة نفسها ، وتبادل ايضا ، لان . . . — خفض جيريخوف صوت ، — حماته كانت مريضة مرضا مميتا . كانت عندها غرفة ممتازة تكاد تبلغ خمسة وعشرين مترا فى وسط المدينة . وكان اليكسى كيريلوفيتش يسكن فى شارع اوساتشوفكا . كان يجب انجاز كل شيء بسرعة شديدة . وقد تسنى له هذا ، تسنى على نحو رائع ! سيحدثكم بنفسه . كانت له ، والحق يقال ، صلات فى قسم توزيع المساكن فى

الحى . باختصار : تمكن من انهاء معاملات التبادل ، واجرى تصليحات فى تلك الشقة — أجبره على ذلك مكتب الاسكان — ونقل حماته وتلقى وثائق الشقة ، وبعد ثلاثة ايام ماتت حماته . أتتصورون ؟ عانى المسكين فى ذلك الشتاء ، ما زلت اذكر . وكاد ان يقعد به المرض . ولكن عنده الآن شقة ممتازة ، فاخرة ، لوكس . شرفات ، بلكونان ، منافع بأنواعها . وحتى انه يزرع البندورة فى احد البلكونين . مروا ، مروا عليه ، وسيحدثكم ! تمنياتى بالنجاح !

هزّ جيريخوف رأسه بمودة مودعا ، وتقهقر راجعا الى غرفته . حينما كان يتكلم كانت تانيا واقفة قرب دميتريييف تمسك طرف خنصره بشكل غير ملحوظ .

قالت همسا :

— فى السادسة ، انزل الى الاسفل ، ونذهب على الفور .

— يجب ان اذهب اليوم الى لورا فى بافلينوفو . أمى تنتظرنى . هى الآن عند لورا .

كان يعرف انه يوجه ضربة الى بعض آمال تانيا ، ولكن من الافضل ان يقول على الفور .

— حسنا . افعل ما تراه ضروريا . — انطبع كل شىء على وجهها بلحظة خاطفة : لقد تجهم .

— كلا ، اردت أن اقول ان . . .

— انا أفهم . امن المعقول انك تظن اننى لا أفهم ؟ لن اؤخرك ولا لثانية . تأخذ النقود وتذهب فورا .

اومأت وسارت بسرعة فى الممشى مبتعدة عنه . منذ عهد قريب ، لسنة حلت ، كان فى قوامها الممشوق شىء يثير دميتريييف . ولا سيما فى تلك اللحظات حينما كانت تبتعد عنه

فينظر فى اعقابها . ولكن لم يبق شىء الآن . اختفى كل شىء . هى الآن مجرد امرأة فارعة ، نحيفة ، طويلة الساقين جدا ، ذات حزمة من الشعر المصبوغ بالحنة على رقبتها النحيلة . ومع ذلك كان فى كل مرة ، اذ ينظر اليها ، يفكر فى انها زوجة افضل بالنسبة اليه .

رجع دميتريييف الى القسم وجلس نصف ساعة عاكفا على الوثائق — كانت افكاره تدور حول الامر ذاته : أمه ، لورا ، تانيا ، لينا ، النقود ، التبادل — وادرك انه ينبغى الخروج من العمل مبكرا ، والا وصل الى بافلينوفو فى وقت متأخر جدا . كانت تانيا تقطن فى مكان غير مريح بالمرة لا يخطر اردأ منه على بال — فى ناغاتينو . دخل دميتريييف مكتب رئيسته برباره اليكسييفنا سوتنيكوفا ، وقال انه يريد ، اذا امكن ، ان يذهب اليوم فى الخامسة . وافقت برباره اليكسييفنا . كان الجميع فى المكتب يعرفون ما يجرى فى حياة دميتريييف ، وتعاطفوا معه : فى كل اسبوع كان يستطيع ان يغادر العمل مرة او مرتين قبل الاوان . وحتى انه ارتكب ذنبا فى احد الايام ، حيث هرع بهذه الذريعة الى مخزن «موسكفا» واشترى بزة مدرسية لناتاشكا . صعد دميتريييف الى الطابق الثالث من جديد وقال لتانيا ان تطلب ايضا الذهاب فى الخامسة . ثم ذهب الى نيفيادومسكى فى مكتب التصميم-٣ الواقع هناك ايضا ، فى الطابق الثالث .

قرر دميتريييف الذهاب الى نيفيادومسكى بعد شىء من التردد . كانت العلاقات بينهما باردة بجريرة احد اصدقاء دميتريييف الذى لم يعد ، والحق يقال ، يعمل فى معهد اجهزة النفط والغاز منذ نصف سنة . لقد وقعت بين نيفيادومسكى وهذا الصديق مشاحنات فى اللجنة النقابية . لم يعودا يتبادلان التحية .

وحينما كان نيفيادومسكى يقابل دميتريف بصحبة هذا الصديق لم يكن — من باب المعاملة بالمثل — يسلم على دميتريف ، وكان دميتريف يتصرف على النحو نفسه تضامنا مع صديقه . ولكن حينما يتقابل نيفيادومسكى ودميتريف على حدة ، فانهما يتبادلان التحية بلباقة تامة ، وان كان ذلك بشيء من الفتور ، وحتى انهما يتحادثان بجملتين او ثلاث . كل هذا مجرد هراء ، لذا قرر دميتريف الا يهتم بالامر ويذهب اليه . فقد تكون عنده حيل حقا فيشاطره اياها ؟

رفع نيفيادومسكى ، وهو نحيل ذو شعر اسود ولحية جعداء ذات لون امغر مائل الى السواد ، حاجبيه دهشة حينما دخل دميتريف الغرفة وطلب منه «مقابلة قصيرة» . خلف طاولة فى الزاوية كان اثنان يخوضان معركة بالشطرنج ويحركان الاحجار بسرعة شديدة . وكان نيفيادومسكى يقف الى جوارهما وينظر . كان الشطرنج التسلية المفضلة عند العاملين فى مكتب التصميم-٣ ، فكانوا يلعبون البرتيات الخاطفة وبرتيات الدقائق الخمس ، اما عند العاملين فى مكتب التصميم-٢ فازدهرت كرة الطاولة . كانت المعارك تجرى فى فرصة الغداء ، ولكنها كانت تأخذ من وقت العمل احيانا ، ولا سيما فى نهاية اليوم . قال نيفيادومسكى : «دقيقة واحدة ! الآن ، الآن !» — واستمر يراقب اللاعبين اللذين كانا يضربان الاحجار على الرقعة بسرعة جهاز اوتوماتيكى الى ان صاح احدهما : «آه ، يا للشيطان !» واسقط ملكه بضربة من اصبعه . ضحك نيفيادومسكى بشماتة وقال :

— قال الاحمق بعتاب : من ركض خلف الرخص خاب !

بعد هذا تحرك نحو الباب بابتسامة شماتة على وجهه ،

ولكنه ، وقد وقع نظره على دميتريف ، طرد الابتسامة ، وارتفع حاجباه بدهشة مجددا . اخذ دميتريف يعرض بلا اتساق طلبه ، او بالاحرى تلميحا الى الطلب تكتنفه دمدمة سريعة ومشوشة . وكان على نيفيادومسكى ان يخمن ان المطلوب منه ان يشاطره النصيحة فى كيفية التصرف فى هذه الحالات التى يعرفها . ولكن نيفيادومسكى لم يخمن . ارتفعت لحيته الجعداء ذات اللون الامغر المائل الى السواد ونظرت عيناه ببرودة متزايدة ، وباستعلاء كما بدا لدميتريف .

— اعذرونى ، انا لا افهم ، ماذا . . .

— سأوضح الآن . القضية وما فيها ان الاسباب التى دفعتكم ودفعتنى . . . باختصار ، حالتنا واحدة . . .

— ماذا تقصد ؟

— ماذا اقصد ؟ — شعر دميتريف بأن الاحمرار يعلو رقبته وخديه . — اقصد ان علي ايضا ان اتبادل بأسرع وقت ممكن . واردت ان استشيركم فى كيفية القيام بهذا عموما ؟ بأى شيء ينبغى البدء ؟

— بأى شيء ينبغى البدء ؟ كيف — بأى شيء ؟ بمكتب التبادل ، طبعا . تدفعون ثلاث روبلات وتقدمون اعلانا فى النشرة .

— ولكنكم تفهمون انه اذا كان مرض الانسان خطيرا ، خطيرا جدا ، وكل ساعة غالية . . .

— لا تستطيعون البدء على اى نحو آخر . بمكتب التبادل . لا اعرف طرقا اخرى . — ادخل نيفيادومسكى ابهامه فى منخره وضغط عليه بالسبابة من الاعلى واخذ يخرج منه شيئا بتركيز . يبدو انه كان يفكر بتوتر فى ما اذا كان ينبغى او لا ينبغى اعلام

دميتريييف بحيله . وقرر : لا ينبغى . — لم تكن عندى اية طرق اخرى . — ضحك نيفيادومسكى فجأة ضحكة قصيرة ساخرة . — لقد ذكرتمونى بأسخف قصة ! حينما كنت طالبا مات ابى . مضى شهران او ثلاثة . . . — تابع ، وهو يتحدث ، اخراج شىء ما من انفه بواسطة الابهام . — وفجأة اتى الي جار لا أعرفه يسكن فى مدخل اخر من المبنى ، وقال : «مات ابى ، وقد سمعت ان اباكم ايضا مات مؤخرا ، وقد اتيت اليكم لنتعارف ولاطلب منكم ان تشاطرونى خبرتكم» . اية خبرة ؟ ماذا ؟ كيف ؟ ورحّلته بلطف ، طبعا .

«ويجب تحمل هذا ايضا ، — فكر دميتريييف شاعرا بالذهول . ينبغى ان يستدير ويذهب ، ولكنه استمر بالوقوف ناظرا الى اللحية المغراء المائلة الى السواد — على قبر حمانه بندورة . لا فرق . تحملت هذا وسأتحمل اشياء اخرى» .

— اذا اردتم عندى رقم تلفون سمسار اسمه ادم فيكينتييفيتش . استطيع ان ابحث عنه . . .

استدار دميتريييف ، متغلبا على ذهوله ، وانطلق الى الممشى . فى الخامسة خرج وتانيا الى الساحة ، وهناك — وهو امر نادر ! — اقتربت تكسى خالية . صفر دميتريييف ، وقفزا الى التكسى فانطلقت بهما . كان الزقاق غاصا بحشد يتحرك باتجاه واحد ، نحو المترو . فى ذلك الوقت تنتهى نوبة العمل فى المصانع — سارت التكسى ببطء . كان الناس ينظرون الى داخلها ، وطرق احدهم بكفه على سقفها . حينما تجاوزوا المترو وانطلقوا الى الشارع ، تكلم دميتريييف عن نيفيادومسكى بحقد .

اخذت تانيا يده .

— لماذا تحقد ؟ لا لزوم لهذا . كفى . . .

شعر بأن هدوءها وسرورها ينتقلان اليه . قالت تانيا مبتسمة :

— نحن مختلفون جدا . كلنا بشر . . . مات لقريبتى ابن صغير . انتابها ، طبعا ، حزن شديد وعانت كثيرا ، ولكن ظهر عندها حب عنيف للاولاد ، ولا سيما المرضى منهم . كانت تشفق عليهم جميعا وتحاول ان تساعدهم بشىء ما . وعندى واحدة من معارفى مات ابنها ايضا ، من سرطان الدم . هذه المرأة صارت تكره الجميع ، وتتمنى الموت للجميع . تفرح حينما تقرأ بالجريدة ان احدا مات . . .

اقتربت تانيا منه . وضعت رأسها على كتفه وسألته :

— ممكن ؟ الا اضايقك ؟

— ممكن .

سارت السيارة بهما فى اطراف المدينة ، عبر الاحياء الجديدة . تحدث دميتريييف عن كسينيا فيودوروفنا . سألته تانيا عنها بتعاطف صادق ، وكان دميتريييف يعرف انها تكن الود لأمه . وكذلك كانت كسينيا فيودوروفنا معجبة بتانيا ، وقد تقابلا صيفا مرتين او ثلاثا فى بافلينوفو . امسكت تانيا يده بيدها ، وكانت احيانا تبدأ بدغدغة كفه بأصابعها . كانت ملاطفات تانيا دوما اشبه بملاطفات تلميذة .

ومن دون ان ينزع يده تحدث بالتفصيل عن أمه : ما قاله البروفسور زورين ، وما قاله اسيدور ماركوفيتش . ضحكت تانيا :

— آه ، امرأة شنيعة ! تقرض نقودا وتضايق بملاطفاتها ، صحيح ؟ — دفعت فجأة انفها الى خده ، والتصقت به . — اعذرنى ، فيتيا . . . لا استطيع . . .

مسح على رأسها . بقيا طويلا صامتين . اجتازا فارشافكا .

سألها :

— ما بك ؟

— لا شيء . لا استطيع . . .

— ماذا ؟

— ارثي لك ولامك . . . ولنفسي ايضا .

لم يعرف دميتريف ماذا يقول . مسح على رأسها فقط . أخذت تنشق بأنفها ، واحس بأن خده صار مبتلا . عندئذ ابتعدت والتفتت واخذت تنظر الى النافذة . واخيرا اجتازت السيارة الكورنيش وسارت مع خط الترموای ، قرب احد المعامل ، على امتداد السور الحجری ، الطويل ، الاصم . قرب كشك البيرة اجتمع حشد كثيف من الرجال . كان بعضهم يقفون بعيدا فرادى وازواجا والكؤوس بأيديهم . شعر دميتريف بجفاف فی حلقة واراد ان يحتسی شيئا وينتعش . وفكر : «يجب ان أسألها . كان يوجد عند تانيوشكا احيانا . ولو ای شيء» .

كانت بناية جديدة من ستة عشر طابقا تنتصب على حافة الحقل . والطريق اليها يسير بالتفاف ، حول الحقل .

— هنا ، — قالت تانيا .

كان دميتريف يتذكر جيدا ان البيت هنا . وقد جاء اليه آخر مرة منذ سنة تقريبا .

— هل ستبقى السيارة ؟ — سألته تانيا .

كان يجب ابقاؤها طبعا . ولكن رخاوة طبعه الدائمة — رأى ان تانيا لم تكن تريد هذا ابدا — جعلته يجيب :

— فلتذهب . سأجد غيرها .

— ستجد ، طبعا ! — قالت تانيا .

صعدا الى الطابق الحادی عشر . كانت تانيا تسكن مع ابنها فی شقة كبيرة من ثلاث غرف . لقد بنى المسكين توفت هذه السفينة فی بناية تعاونية وما كاد ينتقل اليها حتى حصل ما حصل . كان أليك حينذاك فی المخيم ، وكان توفت يعمل فی داغستان — كان مهندس تعدين ، — وكانت تانيا تعيش وحدها فی غرف فارغة ، بلا اثاث ، تعبق برائحة الدهان . وكانت الجرائد مفرودة على الارض . وفی احدى الغرف ديوان ضخم ، ولا شيء آخر . لم يكن حب دميتريف ينفصل عن رائحة الدهان والارضية الحديثة المصنوعة من خشب البلوط التی لم تصقل بعد ولا مرة واحدة . كان يمشی حافيا على الجرائد متجها الى المطبخ ، ويشرب الماء من الحنفية . كانت تانيا تعرف الكثير من الاشعار وتحب تلاوتها بصوت منخفض اقرب الى الهمس . كانت ذاكرتها تدهشه . وهو نفسه ربما لم يكن يتذكر اية قصيدة غيبا باستثناء بعض الابيات . «ما زلت حية ، يا عجوزی ، وانا حی ، تحية الیك ، تحية» . اما تانيا فكان فی وسعها ان تهمس بالشعر ساعات . كان عندها قرابة العشرين دفترا من عهد الدراسة ، وقد كتبت فيها الطالبة المتفوقة بخط كبير وواضح اشعار مارينا تسفيتاييفا وبسترناك وماندیلشتام وبلوك . وفی فترات الاستراحة او حينما لم يكن هناك ما يمكن التحدث عنه فيصبح الجو كئيبا ، كانت تهمس بها . «ايه ، يا رب ، كم هی مكتملة افعالك . . .» او كذلك «ابعد كفك عن صدری ، نحن اسلاك تحت التيار» .

كان احيانا يتعب من حفيف الشفتين الرتيب فيقول : «حسنا ، يا ملاكی ، استريحی ، ولماذا خيجنياك هذا لا يسلم على برباره اليكسيفنا ؟» اجابت بحزن بعد فترة صمت : «لا

اعرف» . لم تكن تستاء الا للحظة خاطفة حتى حينما يكون استياؤها جديا . كان لامر ما واثقا بأنها **لن تكف عن حبه ابدا** . فى ذلك الصيف عاش فى حالة لم يختبرها من قبل ، وهى ان يكون محبوبا . حالة مدهشة ! كان يمكن تعريفها كحالة نعيم مألوف ، لان قوته كانت تتلخص فى الاستمرار ، فى كونه استمر اسابيع وشهورا وبقى حتى حينما انتهى كل شىء .

ولكن دميتريف لم يفكر فى الامر التالى : لقاء اى شىء كان هذا النعيم ؟ بم استحقه ؟ ولماذا هو بالذات — الرجل الذى لم يعد فى مقتبل العمر ، المائل الى السمنة ، الذى لا يوحى لون وجهه بالعافية ، ذو الفم الذى يعبق ابدا برائحة التبغ ؟ كان يبدو له ان ليس ثمة اى لغز هنا . هذا ما يجب ان يكون . وبدا له عموما انه عاش تلك الحالة الطبيعية ، التى يستحقها الناس حقا والتى يجب ان يعيشها الناس دوما ، وسوف يعيشونها مع الزمن . اما تانيا فكانت ، على العكس ، فى خوف دائم وحيرة متقدة . وكانت ، اذ تعانقه ، تهمس وكأنها تلقى شعرا : «يا رب ، لماذا ؟ لماذا ؟» .

لم تطلب شيئا ولم تسأل عن شىء ، وهو لم يعدها بشىء . كلا ، لم يعدها مرة بأى شىء . ولماذا يعدها اذا كان يعلم علم اليقين انها **لن تكف على اى حال عن حبه فى يوم من الايام** . كل ما فى الامر انه خطر على باله انها زوجة افضل بالنسبة اليه .

ظهر الآن فى الغرف اثاث جديد — فى احدى الغرف بوفيه وطاولة ملمعة مستديرة ، وفى غرفة اخرى خزانة كتب نصف فارغة . ولكن الباركيه بقى كالسابق غير مصقول ، وكان يبدو كأنه قذر . خرج أليك من الغرفة . لقد شب بشكل

ملحوظ ، وهو مخلوق انمش شاحب فى حدود الحادية عشرة يرتدى نظارة على انفه الدقيق . كان رأسه مائلا قليلا الى الوراء والى جنبه ، ربما لانه كان مريضا ، او ربما لانه يرى هكذا على نحو افضل من خلال النظارة . كان وضع رأسه هذا وفمه المضغوط الصغير يسبغان على الصبى ملامح الغطرسة .

— ماما ، انا ذاهب الى اندريوشا . سوف نتبادل الطوابع ، — قال بصوت رفيع واندفع عبر الممشى الى الباب .

— قف ! لماذا لم تسلم على فيكتور غيورغيفيتش ؟

— مرحبا ، — قال أليك من دون ان يلتفت .

فتح القفل على عجل وخرج مصفقا الباب خلفه .

— لا تتأخر عن الثامنة ! — صاحت تانيا وجهة الباب المغلق . — شاب بلا ادب .

— لعله نسينى . لم اكن هنا منذ زمن بعيد .

— حتى وان اتى شخص لا يعرفه ؟ الا ينبغى ان يسلم ؟ — سارت تانيا الى الغرفة الكبيرة وفتحت الباب الجانبى للبوفيه وقالت : — لم ينسك .

اخرجت من تحت عرمة من البياضات النظيفة حزمة ملفوفة بجريدة ، فتحتها واعطت دميتريف رزمة من النقود . اخفى النقود فى جيبه .

— حسنا ، اذهب ، — قالت تانيا . — ليس عندك وقت .

سحب الكرسى فجأة وجلس الى الطاولة الملمعة .

— سأجلس قليلا . لقد تعبت . — نزع القبعة ومس جبينه بكفه . — رأسى يؤلمنى .

— أتريد ان تأكل ؟ هل أحضر لك شيئا ؟

— أعندك ما نشربه ؟

— كلا . . . انتظر ! — لمعت عيناها سرورا . — اعتقد انه بقيت زجاجة كونياك لم نشربها انا وانت كلها . أتتذكر ، حينما كنت هنا آخر مرة ؟ لحظة !

هرعت الى المطبخ ، وبعد دقيقة اتت بالزجاجة . كان فى اسفلها ما يقرب مئة غرام من الكونياك .

— سأحضر مازة الآن . دقيقة واحدة !

— ولماذا المازة ؟

— الآن ، الآن ! — ومن جديد اندفعت مسرعة الى المطبخ .

نهض دميتريف وسار الى باب البلكون . بدا من الطابق الحادى عشر منظر رائع لارجاء الحقول والنهر والقبب المسودة لكاتدرائية فى قرية كولومينسكويه . فكر دميتريف ان فى وسعه ان ينتقل غدا الى هذه الشقة ذات الغرف الثلاث ويرى فى الصباح والمساء النهر والقرية ويستنشق رائحة الحقل ويذهب الى العمل بالباص حتى سيربوخوفكا ، ومن هناك بالمترو ، حيث الطريق لا يأخذ وقتا طويلا . أحضرت تانيا بوعاء من الزجاج سردينا وبندورتين وزبدة وخبزا وقدحين . صب قدحا كاملا لنفسه والباقى لتانيا . انها دوما تشرب قليلا وتسكر على الفور .

— اى نخب نشرب ؟ — سألته تانيا .

— نخب ان تجرى امورك على ما يرام .

— هيا ! كلا . لا لزوم لهذا النخب . بدون هذا ستجرى امورى على ما يرام . تعال نشرب نخب ان تجرى امورك على ما يرام . ايه ؟

— حسنا ، — لم يكن عنده فرق . لقد شرب واخذ يمضغ

البندورة . قال وهو يضحك ضحكة قصيرة : — أليست هذه البندورة من قبر حماة نيفيادومسكى ؟

قالت :

— لانه من المستبعد ، يا فيتيا ، ان تصبح احوالك جيدة . ولكن من يدرى ؟ فلنشرب نخب هذا .

لم يسألها عما تقصده بهذا . كلام زائد . بعد الكونياك احس بالدفء ، كان يمضغ البندورة بتلذذ وينظر الى تانيا التى تقوست مفكرة ، وقد اعتمدت بمرفقها على الطاولة تحدق الى زاوية الغرفة .

— لا تتقوسى ! — ضربها بين كتفيها ضربا خفيفا كما يفعل الأب .

اعتدلت تانيا واستمرت تنظر الى زاوية الغرفة . كان الالم يبدو بوضوح على وجهها الذى جمد ، والذى تعلو وجنتيه بقعتان موردتان بتأثير قطرة الكونياك . اشفق عليها بشدة للحظة خاطفة ، ولكنه تذكر على الفور انه فى مكان بعيد وقريب ، عبر موسكو بأسرها ، على ضفة هذا النهر نفسه ، تنتظره أمه التى تعانى آلام الموت ، اما آلام تانيا فتخص الحياة ، فلماذا اذا يشفق عليها ؟ لا شىء فى الدنيا غير الحياة والموت . وكل ما يخص الاولى هو سعادة ، وكل ما يخص الثانى . . . وكل ما يخص الثانى هو قضاء على السعادة . ولا شىء آخر فى هذه الدنيا .

نهض دميتريف دفعة واحدة ، بسرعة مفاجئة ، وكأن شخصا قويا امسك به وشده من يده . قال : «الى اللقاء ! انا ذاهب !» واندفع فى الممشى بخطوات سريعة متجها الى الباب . لم تتمكن تانيا من ان تقول له شيئا . ولعلها لم تشأ ان تقول له اى شىء .

وصل دميتريف الى المترو بالباص — لم تكن هناك اية تكسى ، طبعا — وغيّر القطار مرتين وخرج فى آخر محطة على الخط الجديد . السماء تمطر رذاذا خفيفا . وموسكو بعيدة تزهو بأبنية ضخمة بيضاء فى الافق ، وهنا حقل اعدت فيه حفر لاسس البيوت ، وتناثرت الانابيب على الطين الرطب ، واصطف قرب العمود فى الشارع طابور ينتظر الترلى‌باص . كانت السماء مغطاة بغيوم على شكل طبقات — انعقد فى الاعلى شىء بنفسجى غامق لا حراك فيه تتنقل تحته غيوم صافية ، هشة ، وفى الاسفل اشلاء بيضاء من الغيوم وكأنها مزق من البخار .

منذ قرابة الاربعين سنة حينما بنى غيورغى اليكسييفيتش ، ابو دميتريف ، بيتا فى بلدة «الانصار الحمر» ، كان هذا الموضع ، بافلينوفو ، يعتبر مصيفا . وكان يعتبر مصيفا قبل الثورة ايضا ، وكانوا يأتون اليه من طرف المدينة على قطارات تجرها الجياد . فى الثلاثينات كان الصبى فيتيا تلميذا متوسط الاجتهاد ، ولكنه كان راكب دراجة مواظبا وصياد سمك ولاعبا بالورق يلتهم كتابات سينكيفيتش وغوستاف ايمار ، وكان يأتى الى هناك فى ايام الصيف بباص قديم ذى صرير ينطلق كل ساعة من ساحة زفينيغورودسكايا المرصوفة بالحجر . كان الجو فى الباص خانقا على الدوام ، لم تكن نوافذه تفتح ، وكان يعبق برائحة الخيش . والى جانبه تتراكض اراض عراء ، حواكير ، قرية ، ثم حواكير اخرى ، منشأة تبريد ، صوار لاسلكية ، مدرسة خلف سور حجرى ابيض ، حقل وحواكير من جديد ، كنيسة على رابية ، وفجأة ينكشف قوس خزان الماء ، حيث تتراءى قوارب الصيادين بلا حراك ، فينقبض قلب الصبى فيتيا . كان

الطريق من محطة الباصات يمر بين اشجار الصنوبر ، قرب الاسوار المسودة من المطر التى لم تدهن منذ سنوات ، قرب البيوت الصيفية الكامنة خلف شجيرات الليلك والعليق والبيلسان ، بشرفاتها ذات الواجهات الزجاجية المشبكة التى تتألق من خلال الخضرة . ينبغى السير على هذا الطريق طويلا ، ينتهى الزفت ، ثم يأتى طريق مغبر ، والى اليمين ، على الرابية ، حرش صنوبر بقعة جرداء فسيحة — فى العشرينات سقطت طائرة واحترق الحرش — والى اليسار لا تزال الاسوار تتوالى . وخلف احد الاسوار يتراءى بيت خشبى من طابقين وقبو ، وهو بيت لا تحجبه ابدا اشجار البتولا الفتية ويشبه مبنى محطة تجارية اجنبية فى غابات كندا او مبنى فى سهوب الارجنتين اكثر مما يشبه بيتا صيفيا .

هذا البيت بنته تعاونية اطلق عليها الاسم الرنان «النصير الاحمر» . لم يكن غيورغى اليكسييفيتش نصيرا احمر . وقد دعاه الى التعاونية اخوه فاسيلى اليكسييفيتش ، النصير الاحمر واحد العاملين فى الادارة السياسية الموحدة الذى كان يملك سيارة «اوبل» رياضية بمقعدين . وفى الجوار ، فى المقسم نفسه ، كان يسكن فى بيت صيفى صغير الاخ الثالث ، نيقولاى اليكسييفيتش ، وهو ايضا نصير احمر يعمل فى وزارة التجارة الخارجية ويعيش اشهرا فى اليابان احيانا وفى الصين احيانا اخرى . وقد احضر نيقولاى اليكسييفيتش من الصين لعبة المانشونغ ، وهى علبة من خشب الماهوجنى تسحب منها اربعة رفوف يوضع عليها مئة واربعة واربعون حجرا من الخيزران من جهة ، ومن العاج من الجهة الاخرى . فى البداية صار الكبار يلعبون المانشونغ على النقود ، وفيما بعد ، حينما ملوا وانشغلوا بأمور اخرى ،

انتقلت اللعبة الى اولاد نيقولاى اليكسييفيتش وكل اطفال بافلينوفو . لم يبق شيء من تلك الامسيات التى يصدح فيها الحاكى بالتانغو «الشمس المتعبة ودعت البحر برقة» ، ويعلو الحديث بين النصيرين الاحمرين الاصمين اللذين يتناقشان دوما على شيء ما فى الطابق الثانى ، وتطقطق الاحجار الصينية على شرفة نيقولاى اليكسييفيتش . فى هذا العالم ، كما يبدو ، لا يزول الناس ، بل تزول مجموعات وقبائل كاملة بمعيشتها وحديثها والعابها وموسيقاها . تزول كلية بحيث يتعذر ايجاد اى خبر عنها . هذا مع ان لورا بقيت هناك ، فى بافلينوفو . ولكن لا احد ، ولا اى شخص غير لورا . من الاخوة مات قبل الجميع الاخ الاكبر ، غيورغى اليكسييفيتش . موت خاطف من الجلطة — كانت تسمى حينذاك بالسكتة القلبية — حدث ذلك فى يوم خانق فى الشارع مباشرة .

دميتريييف يتذكر اباه بشكل سيئ ، متقطع . يتذكر شاربيه ولحيته القاتمة ، ونظارته ذات الاطار الذهبى ، وقميصه المصفر الرقيق جدا والناعم الملمس ذى النقط البنية ، وبطنه السمين ، وضحكته الدائمة الساخرة على كل شيء وكل شخص . كان غيورغى اليكسييفيتش مهندسا فى الخطوط الحديدية ، ولكنه كان يحلم كل حياته بترك هذا العمل وممارسة تأليف القصص الهزلية . كان يبدو له ان مواهبه تكمن هنا . وكان يمشى دوما ومفكرته فى جيبه . لا يزال دميتريييف يتذكر كيف كان ابوه يؤلف القصص المضحكة بسرعة وسهولة — ذهبا مساء الى الحاكورة ليسقيا الخيار ورأيا ماريا بيتروفنا ، زوجة احد الانصار الحمر ، تحاول اسقاط كرة حفيدها بيتكا من شجرة الصنوبر . رمت اول الامر عصا ، فعلقت العصا على الشجرة ، وعندئذ اخذت تقذف

حذاءها ، فعلق الحذاء ايضا . والى ان وصلا الى الحاكورة كان الاب قد قص على دميتريييف حكاية مضحكة عن ماريا بيتروفنا التى قذفت الى الشجرة الحذاء الثانى ، ثم البلوزة والحزام والتنورة ، وكل هذا علق على الشجرة ، اما ماريا بيتروفنا فجلست عارية فى الاسفل ، ثم هرع العم ماتفى ، فأخذ ايضا يقذف حذاءه وبنطاله . وبعد عدة ايام أتى ابوه من المدينة ومعه مجلة نشرت فيها قصة «الكرة» . وكان غيورغى اليكسييفيتش يضحك على اخويه ويعتبرهما محدودين ويسميهما «ساطورين» مازحا . لقد انهى الجامعة ، اما اخواه فلم يتمكنا حتى من اكمال تعلمهما فى المدرسة الثانوية : نشبت الحرب الاهلية فقذفت بأحدهما الى القفقاس ، وبالآخر الى الشرق الاقصى . كان احيانا يبدى دهشته ، اذ يتحدث الى امه : «كيف يرسلون مثل هؤلاء الناس الى الخارج وهم لا يميزون الطين من العجين ؟» وكان ايضا يلوم اخويه على جشعهما ، وعلى حياتهما المتخمة ، ويسخر من الاحجار الصينية ، ومن الاشتغال الازلى بالسيارة فى ايام العطل — كانت التسمية التى يطلقها على «اوبل» اخيه تبدأ بالحرف «ط» . هذا فى حين كانت عماتهما فى كوزلوف يجعن ويمتن واحدة اثر اخرى ، ولم يكن عند ابنائهن من النقود ما يكفى للقدوم الى موسكو . وكان غيورغى اليكسييفيتش وحده يساعدهن بما يستطيع .

كانت تحدث مشادات كبيرة بين الاخوة ، وكانت تمر اشهر من دون ان يكلمهما او يكلماه . كانت الام تعتبر ان جريرة المشادات وكل مصائب الاشقاء اللاحقة تقع على الزوجتين ، ماريانكا ورايكا ، المصابتين بضيق الافق والانانية ، ولكن فيما بعد ذاقت المسكينتان الامرين ايضا .

كان ابوه عموما افضل من اخويه واذكى منهما ، وكان شخصا لا غبار عليه . ولكنه لم يكن محظوظا . وقد مات مبكرا قبل ان يفلح فى تحقيق شىء . ما الذى بقى من مفكراته التى كان فيها الكثير مما هو مضحك ورائع ؟ لقد اختفت المفكرات كما اختفى كل شىء آخر . كما اختفت رايكا ، زوجة نيقولاى اليكسييفيتش ، التى كانت فى يوم مضى حسناء واكثر نساء بلدة «الانصار الحمر» تقيدا بالموضة . وكما اختفى المنحدر الرملى على ضفة النهر ، حيث كان يمكن فى الصباح ، فى وقت مبكر جدا ، نيل صيد وفير . وبعد الثامنة كان السمك يغادر ذلك المكان ، حينما يبدأ الاوتوبيس النهرى يهدر بين المرسى والقرية وتظهر الزوارق ذات المحركات . كان يجب الانتقال الى ضفة اخرى ، كانت هناك خلجان هادئة يختبئ فيها السمك ، ولكن الجلوس تحت الشمس المحرقة كان امرا لا يحتمل ، لا شجر ولا شجيرة ، بل مجرد مرج ذى اعشاب قاسية .

قفز دميتريييف فجأة من الترولى باص قبل ان يصل بموقف واحد . اراد الاقتراب من المكان الذى كان منحدره المفضل فى يوم من الايام . كان يعرف ان هناك الآن كورنيشا من الخرسانة ، ولكن الصيادين يأتون على اى حال . الصيادون الجدد يأتون من الابنية ذات الطوابق الخمسة الواقعة خلف الجسر . وهذا مريح جدا لهم ، حيث يأتـــــون بالترولى باص .

هبط على الدرجات الحجرية — لقد صنع كل شىء على نحو متين ، كما فى حديقة الثقافة — وسار فى الاسفل على بلاط الخرسانة الذى يعلو قرابة المترين فوق مستوى الماء .

هكذا ، على امتداد النهر ، يمكن الوصول الى البيت تقريبا . الآن لا تزحف الضفة . فى كل ربيع كانت تنهار هنا اجزاء من الضفة ، احيانا مع المقاعد واشجار الصنوبر .

كانت السماء تنعكس على البلاط المبتل ، ولم يكن ثمة اى مغفل فى الجوار . ولكن لا ، كان يجلس بعيدا شخص منحن ، فسار اليه دميتريييف ببطء . بدت المياه نقية غير ملوثة ، ولكنها كانت قاتمة شأنها فى الخريف . توقف دميتريييف خلف ظهر الصياد واخذ ينظر الى العوامة . نظر قرابة خمس دقائق ، وهو يفكر بقلق متعاظم ووهن معنوى مفاجئ فى مدى صعوبة الحديث المقبل عليه . صعوبة لا تصدق . مع لورا ايضا . وحتى ربما سيكون حديثه مع لورا اصعب من حديثه مع أمه . ما العمل ؟ سوف تحزران ، طبعا . ربما لن تحزر امه اذا عرض الامر بالشكل الذى اقترحته لينا ، فأمه ساذجة جدا ، ولكن لورا ستحزر فورا ، لورا ماكرة وفطنة ولا تحب لينا ابدا . اذا كانت امه رغم كل كراهيتها لينا قد قبلت بها على اى حال وتعلمت ان تغض النظر عن شىء وتغفر شيئا ، فان لورا تزداد نفورا على مر السنين — بسبب أمها . وقد قالت يوما : «لا اعرف ، كيف ينبغى ان يكون الشخص لكى يعامل امنا بلا احترام» . هذا صحيح ، كسينيا فيودوروفنا يحبها الاصدقاء ، ويحترمها الزملاء ويقدرها جيران الشقة والبيت الصيفى فى بافلينوفو ، لانها محبة للخير ، متساهلة ، مستعدة للمساعدة **والتعاطف** . ولكن لورا لا تفهم . . . آه ، انها لا تفهم ، لا تفهم ! لورا لم تتعلم ان تنظر الى اعمق مما يقع على السطح . افكارها لا تنحنى ابدا . تبرز دائما وتخز ، كما يبرز شعر الخيل من جاكيت مخيط على نحو ردىء . كيف لا تفهم ان الناس لا

يُجابهون بالمقت بسبب عيوبهم ولا يُمحضون الحب بسبب فضائلهم !

كل هذا حقيقة ، حقيقة لا يرقى اليها الشك : أمه يحيط بها دائما الناس **الذين كان لها يد طولى فى مصيرهم** : يعيش فى غرفتها طويلا اناس مسنون لا تعرفهم الا قليلا ، اصدقاء غيورغى اليكسييفيتش ، وعجائز اكبر سنا من اصدقاء الجد ، واحيانا صديقات تعرفت بهن مصادفة فى دور الاستجمام يرغبن فى ايجاد منفذ الى اطباء موسكو ، او فتيات وفتيان ريفيون من اولاد الاقرباء البعيدين أتوا للالتحاق بالمعاهد . وتحاول الام ان تساعد الجميع من دون ان يكون لها اى قصد مغرض على الاطلاق . ولكن من اين لها ان تساعد ! لقد قُطعت صلاتها منذ امد بعيد ، وتلاشت قواها . ولكنها تساعد على اى حال بالمسكن والنصيحة والعطف . تحب جدا ان تساعد لوجه المساعدة . ولعل الادق هو انها تحب ان تساعد بحيث لا تنجم عن هذا ، لا سمح الله ، اية منفعة لها . ولكن هنا تكمن المنفعة : انها ، اذ تؤدى الاعمال الخيرة ، تدرك انها انسان جيد . ان لينا ، وقد احست بنقطة ضعف الام هذه ، كانت تقول لدميتريف فى لحظات الضجر انها منافقة . فكان يحتدم غيظا . ويصرخ : «من هى المنافقة ؟ امى منافقة ؟ وتجرئين على القول . . .» ويرغى ويزبد . . . لم تكن أمه ولا لورا تعرفان كيف يثور بسببهما . ثمة ، طبعا ، ما كانتا تخمنانه ، وثمة ما كانتا شهودا عليه ، ولكنهما بقيتا تجهلان ذلك بكل ابعاده ، بكل ما فيه من اهانات ، من بكاء ناتاشكا ، من **الانقطاع عن التحدث** عدة ايام على التوالى ، وحتى من المهارشات الخفيفة احيانا . واعتبرتا ، ولا سيما لورا ، انه خانهما . وقد

قالت اخته يوما : «فيتكا ، كيف اصبحت من آل لوكيانوف !» ولوكيانوف كنية ابوى لينا . قرر دميتريف فجأة ان عليه ان يفكر فى شىء مهم ، حاسم . لم تكن عنده القوة ليذهب الى البيت ، فكان يؤجل هذه اللحظة .

جلس غير بعيد عن الصياد على صندوق خشبى — لصياد ما ايضا — قد رُمي هناك منذ زمن بعيد ، فأصبح داكنا تتخلله الرطوبة . ما ان جلس دميتريف حتى اخذ الصندوق يميل ببطء ، فاضطر الى الاعتماد على قدميه بقوة ليحافظ على التوازن . وعلى الضفة المقابلة ، حيث كان يوجد مرج فى وقت مضى ، بني الآن بلاج شاسع بأجنحة واكشاك . كانت المضاجع الخشبية منضدة اكواما ، ولكن مضجعين بقيا لسبب ما منتصبين عند الماء مباشرة بلون ازرق مبهم على الرمل الرمادى القاتم . كان كل شىء على تلك الضفة رماديا قاتما بلون الاسمنت . وخلف البلاج ينتصب حرش بتولا حديث غرس منذ قرابة عشر سنوات ، ووراء الحرش ارتفعت المساكن كتلال ضبابية-بيضاء انتصبت فى وسطها بنايتان عاليتان بشكل خاص . كل شىء تغير على تلك الضفة . كل شىء اصبح من «آل لوكيانوف» . فى كل سنة كان يتغير شىء ما من حياته ، ولكن بعد مضي اربعة عشر عاما اتضح ان كل ما فى حياته اصبح من «آل لوكيانوف» بصورة نهائية وبلا عودة . ولكن لعل هذا ليس بالامر الردىء ؟ واذا كان هذا يجرى مع كل شىء — حتى مع الضفة ومع النهر ومع الاعشاب — فلعله امر طبيعى ، وهو ما يجب ان يكون ؟

فى السنة الاولى بعد زواجهما اضطر دميتريف ولينا الى العيش فى بافلينوفو . حينذاك عاشت لورا ، وكانت لا تزال بدون

فيليكس ، فى موسكو مع كسينيا فيودوروفنا ، وكان البيت الصيفى خاليا ، فأراد دميتريييف ولينا ان يكونا وحدهما . ولكن هذا لم يتسن لهما على اى حال . لقد اهمل البيت الصيفى فى بافلينوفو منذ امد بعيد . رشح السطح وتآكلت درجات المدخل . وكانت حفرة المجارى تسبب اكثر ما يكون من المتاعب ، حيث كانت تفيض من حين الى آخر ، ولا سيما ابان المطر ، فتنتشر فى المقسم رائحة لا تطاق مختلطة برائحة الليلك والزيزفون والقبس . لقد رضخ السكان منذ امد بعيد لتشابك الروائح الذى اصبح بالنسبة اليهم صفة ملازمة للحياة فى المنزل الصيفى ، ولفكرة ان تصليح الحفرة امر مستحيل ويكلف نقودا خيالية لا يملكها احد منهم . املقت البلدة ، واصبح سكانها غير السكان السابقين الذين مات بعضهم وذهب بعضهم كل الى حال سبيله ، اما ورثتهم ، من الارامل والاولاد ، فعاشوا حياة صعبة ليست حياة اصطياف بالمرة . فبيتكا ، مثلا ، حفيد ماريا بيتروفنا وابن البرفسور الاحمر ، عمل حمالا بسيطا فى قاعدة تجارة الاخشاب . اما فاليركا بن فاسيلى اليكسييفيتش ، عم دميتريييف ، فتصادق مع شقى واصبح لصا واختفى فى احد معسكرات الاعتقال . ان بعض الورثة ، وقد اضنتهم نفقات الاصطياف وتنبأوا بزحف المدينة على بلدتهم ، — باعوا حصصهم ، فظهر فى البلدة اناس غرباء تماما لا يمتون للانصار الحمر بأية صلة . بيد ان اشجار البتولا والزيزفون ، التى غرسها منذ اربعين سنة ابو دميتريييف ، المولع بزرع الجنائن ، نمت غابة جبارة وتلاصقت اوراقها معلنة باعتزاز للمارة الذين ينظرون عبر السور ان كل ما فى البلدة يغلى ويزهر وينمو كما ينبغى .

وفجأة قال ايفان فاسيليفتش لوكيانوف ، ابو لينا ، الذى

عرج لرؤية الزوجين الشابين وضيافتهما يوما ، ان كالوغين ، عامل التمديدات ، الذى كان يصلح الانابيب فى البلدة على امتداد ثلاثين سنة ، هو نصاب ومنحط وانه ، بالاشتراك مع منظفى المجارى ، الذين كانوا يُدعون بانتظام لتفريغ الحفرة ، ينهب الانصار الحمر ، وانه يمكن تصليح الحفرة بسرعة وبكلفة قليلة . صعق الجميع . جمعوا نقودا . وأحضر ايفان فاسيلييفيتش العمال ، وبعد اسبوع انتهى التصليح . خشى ورثة الانصار الحمر جدا ان يستاء كالوغين ويغادر بلدتهم ويتركهم تحت رحمة القدر ، ولكن ايفان فاسيلييفيتش تصرف بحيث لم يستأ السكير المسن من احد ، وحتى انه صار يكن الاحترام لايفان فاسيلييفتش ويدعوه «فاسيليتش» .

ان لورا ، بأسلوبها فى الافصاح عن رأيها بلا لف او دوران ، قالت حينذاك انه ربما كان هذا لان كالوغين رأى فى ايفان فاسيلييفيتش انسانا قريبا . كيف استأجر العمال ؟ وكيف حصل على الآجر ؟ والاسمنت ؟ من الواضح ، بطرق ملتوية . بطرق ليست شريفة جدا . غضبت امها . «من اين تعرفين ؟ بأى حق تفترين على الناس بهذه الفظاظة وبلا برهان ؟» — «لا اعرف ، لا اعرف ، ماما . لعلنى مخطئة . — ابتسمت لورا بغموض . — هذا مجرد افتراض . سنرى . . .»

كان ايفان فاسيلييفتش انسانا قادرا فعلا . كانت قوته الرئيسية تكمن فى صلاته ومعارفه على امتداد سنوات عديدة . فقد امن فى خلال نصف سنة تلفونا للبيت الصيفى فى بافلينوفو . كان ايفان فاسيلييفيتش دباغا من حيث المهنة ، وقد بدأ ممارستها عند رب عمل فى مدينة كيرسانوف ، ولكن فى عام ١٩٢٦ ، حينما رفع الى منصب مدير معمل — معمل صغير

فى حى ماريينا روشا مصادر من رب عمل من ايام النيب * — انطلق فى معاريج الادارة . وحينما تعرف دميتربيف به ، كان ايفان فاسيليفيتش طاعنا فى السن ، بدينا ، يعانى ضيق النفس بعد ان اصيب بالاحتشاء وعاش شتى النكبات والعواصف كالفصل من العمل والعقوبات الحزبية والاعادة الى المنصب والترقى والافتراءات والنمائم من مختلف الانذال الذين سعوا الى القضاء عليه ، ولكنه ، كما اعترف هو نفسه ، «كان ينجو من هذه الامور بأسلوب واحد : الحذر» .

ان عادة الشك الدائم واليقظة المتوفزة قد دخلت طبع ايفان فاسيليفيتش الى درجة انه كان يظهرها فى كل مكان ولأتفه الاسباب . فهو ، على سبيل المثال ، يسأل دميتربيف ليلا قبل النوم : «فيكتور ، هل اغلقت الباب بالمزلاج ؟» — «نعم» ، — يجيب دميتربيف ويسمع حماه يخطو فى الممشى نحو الباب ليتأكد . (كان ذلك فيما بعد ، حينما سكنوا فى شقة لوكيانوف فى المدينة .) احيانا يحتدم دميتربيف الى درجة يصرخ معها : «ايفان فاسيليفيتش ، لماذا تسألوننى ، بحق الله ؟» — «لا تغضبوا ، يا عزيزى ، انا افعل هذا تلقائيا ، بلا قصد سيئ» . من الطريف ان فيرا لازاريفنا قد اصيبت ايضا بعدوى الشك فى كل شىء وكل شخص ، ولا سيما فى الناس الذين يعيشون معها كتفا لكتف . احيانا تتلفن من مكان ما تطلب لينا . يجيب دميتربيف ان لينا غير موجودة . بعد عدة دقائق يرن التلفون مجددا وتطلب فيرا لازاريفنا ، وقد غيرت صوتها ،

* النيب (السياسة الاقتصادية الجديدة) مرحلة ما بعد الحرب الاهلية . وقد ازدهرت فيها التجارة ومشاريع الاعمال الحرة . الناشر.

لينا ثانية . واية مشاهد كوميدية تمثل فى الامسيات احيانا ، حينما يكون حموه وحماته قد اعطى احدهما للآخر دواء ! «ماذا اعطيتنى ، يا ايفان ؟» — «اعطيتك ما طلبت» . — «وماذا على وجه التحديد ؟ قل !» — «طلبت ، كما اعتقد ، ديبازولا» . — «انت اعطيتنى ديبازولا ؟» — «نعم» . — «تماما ؟» — «ولماذا تسألين ؟» — «اسمع : احضر ، من فضلك ، اللفافة التى اخذت منها ، — لسبب ما يبدو لى ان هذا ليس ديبازولا . . .»

هذه الاحاديث ، التى يسمعها دميتربيف بشكل عابر ، كانت فى وقت مضى تسليه شأن اسلوب حميه فى الافصاح عما يريد : «فى هذا الخصوص ، كسينيا فيودوروفنا ، اقول لكم بالاصالة عن نفسى البديهية التالية» . . او هكذا : «انا لم اكن ابدا منفذا تكنيكيا لابى ، وكنت اطلب من لينا الامر نفسه» . كان دميتربيف وامه يضحكان خلسة . وكانت الام تطلق على القريب الجديد لقب «الجار العالم» — فى غيابه ، طبعا — وتعتبره انسانا لا بأس به وحتى مستملحا من بعض النواحى ، مع انه ، للاسف ، لم يكن مثقفا بالمرة . وكان هو وفيرا لازاريفنا من صنف آخر — من الذين «يحسنون العيش» . فليكن ، فليس بالامر الردىء مصاهرة اناس من صنف آخر . حقن دم جديد . استخدام قدرة الآخرين . ان الذين لا يحسنون العيش فى ظل حياة مشتركة طويلة يبدأون يثقلون قليلا على بعضهم البعض ، وذلك على وجه التحديد بجهلهم النبيل هذا الذى يفخرون به سرا .

وهل كان فى وسع دميتربيف او كسينيا فيودوروفنا او اى شخص آخر من اقرباء دميتربيف ان ينظم وينجز تصليح البيت

الصيفى بالسرعة التى ابداها ايفان فاسيلييفيتش ؟ وقد اقرض ايضا نقودا على ايقاع هذه الموسيقا كلها . سافر دميتريييف ولينا الى الجنوب فى اول صيف لهما . وحينما رجعا فى اغسطس كانت الغرف القديمة قد تغيرت بحيث تتعذر معرفتها — كانت الارض تلمع والاطر والابواب تتألق بياضا ، وفى كل الغرف حل مكان ورق الجدران القديم ورق جديد غال برسوم بارزة بلون اخضر فى احدى الغرف ، وازرق فى الغرفة الثانية ، واحمر-بنى فى الغرفة الثالثة . ولكن وسط هذا الألق انتصبت الموبيليا السابقة ، الشوهاء التى كان قد اشتراها غيورغى اليكسييفيتش . لم تكن هذه الدرجة من الفقر ملحوظة فى السابق ، فأصبحت تلفت النظر ! شبكات حديدية على قوائم عوضا عن الاسرة ، طاولات وخزائن من الخشب المعاكس المطلى ، دكة مجدولة ، وكذلك شىء آخر مجدول ، عتيق بشكل غير معقول . اخرجت لينا ، طبعا ، من الغرفة الكبيرة المغطاة جدرانها بورق اخضر ، والتى يقيم فيها الزوجان الشابان ، كل سقط المتاع واشترت عدة اشياء بسيطة جدا ، ولكنها جديدة : حشية على ارجل ، طاولة للكتابة مما يستعمله التلاميذ ، كرسيين ، مصباحا ، ستائر ، واحضرت من الغرفتين الاخريين بساطين قديمين ، ولكنهما جيدان جدا ، من صنع بخارى ، احدهما للجدار ، والآخر للارض . تعجب دميتريييف : كيف تغير كل شىء على نحو مدهش ! وحتى انه قال لأمه : «انظرى ، اى ذوق عند لينا ! كم عشنا من السنين ولم يخطر على بالنا مرة تعليق هذا البساط على الجدار . كلا ، عندها ذوق مرهف جدا !»

فى الغرفة المتوسطة ، الزرقاء اقامت فيرا لازاريفنا وايفان فاسيلييفيتش موقتا لشهرى اغسطس وسبتمبر لكى يساعدا لينوتشكا

التى كانت على وشك الولادة ، وفى الغرفة الصغيرة ، الحمراء-البنية ، عاشت كسينيا فيودوروفنا وكانت تنزل فيها لورا فى احيان نادرة . حينذاك بدأت قصة لورا المضجرة مع فيليكس ، فكانت فى شغل شاغل عن البيت الصيفى . وكان الجد ، ابو كسينيا فيودوروفنا ، لا يزال حيا ، فكان يأتى ايضا لزيارتهم فى بعض الاحيان وينام على الدكة فى الردهة . تذكر هذا يدعو الى العجب . هل حقا كان الامر هكذا : يجلسون سوية على الشرفة يشربون الشاى خلف الطاولة الكبيرة ، كسينيا فيودوروفنا نصب لهم ، وفيرا لازاريفنا تقطع الفطيرة ؟ وكانت تدعو لورا يوما بلوروتشكا تحببا وتدللها على افضل خياطاتها ؟ كان ، ولا شك ، كان ، كان . بيد انه لم يبق فى الذاكرة ، مر مرور الكرام ، اختفى ، لان حياته كلها اقتصرت على لينا ولم يكن يرى احدا غيرها . كان هناك الجنوب ، والجو الخانق ، وباتوم الحارة ، والعجوز فلاستوبولو التى استأجرا عندها غرفة قرب السوق ، وابخازى تشاجر معه بسبب لينا على الكورنيش ليلا ، حاول الابخازى فى المطعم ان يدس رسالة للينا ، عاشا بلا نقود على الخيار وحده ، ابرقا الى موسكو ، استلفت لينا على الشرشف بلا قوة ، عارية وسوداء ، اما هو فهرع ليبيع الة التصوير . ثم استمر كل هذا ، ولكن فى موسكو ، صار يعمل — طار بلمح البصر صيف امضياه طليقين من كل القيود والارتباطات ، — ومن جديد استلقت لينا خلاسية على الشرشف ، ومن جديد كانت هناك سباحة فى الليل تقريبا وعبور الى الضفة الاخرى ومرج يتسلل اليه البرد واحاديث واكتشافات وهوى لا يكل ومرونة واصابع لا تستحى من شىء وشفاه مستعدة للحب دوما . وكذلك ، بالمناسبة ، قوة ملاحظة شيطانية ! كم كانت تحسن

ملاحظة ما هو ضعيف او مضحك ! كان كل شيء يعجبه ، وكل شيء يذهله ويدهشه فى قرارة نفسه ، ويلاحظه .

كانت تعجبه السهولة التى تعقد بها الصداقات وتصاحب الناس . هذا بالذات ما كان ينقصه . كان يتيسر لها على نحو رائع بشكل خاص التعرف **بمن تحتاج اليه** . ما ان استقرت فى بافلينوفو حتى صارت تعرف كل الجيران ورئيس الميليشيا وحراس محطة القوارب ، ورفعت الكلفة مع مديرة المصح الشابة فسمحت للينا بأن تشترى فى مطعم المصح الغداء الجاهز ، الامر الذى كان يعتبر فى بافلينوفو رفاهية وتوفيقا يفوقان الوصف بعيدين تقريبا عن متناول سواد الناس البسطاء . وكم قرّعت دوسيا ، التى تسكن القبو ، حينما مثلت بوقاحتها المألوفة تطالب بأن يفرغوا عنبرهم ، عنبر اسرة دميتربيف الذى كانت دوسيا ، والحق يقال ، تستخدمه وحدها فى السنوات العشر الاخيرة ! لقد وثبت دوسيا مبتعدة عن المدخل وكأن ريحا قذفتها . اعجب دميتربيف ، وهمس لأمه : «كيف ترين ؟ ليست خاملة مثلنا أليس كذلك ؟» ولكن كل اعجابه الخفى ما لبث ان زال من تلقاء نفسه ، لانه صار يعرف انه لا توجد ولا يمكن ان توجد امرأة اجمل واذكى واكثر حيوية من لينا . فلماذا يعجب ؟ كل شيء طبيعى ومفهوم بداهة . لم تكن عند احد بشرة ناعمة كبشرة لينا . لم يكن احد يستطيع ان يقرأ روايات اغاثا كريستى بمثل هذا الانجذاب ويترجمها من الانكليزية الى الروسية على الفور . ولم يكن احد يستطيع ان يحبه مثل لينا . اما دميتربيف نفسه — ذلك الشاب النحيف ، ذو الناصية المجعدة السخيفة — فعاش مصعوقا ومخدرا ، كما يحدث فى الحر حينما يتبلد تفكير المرء ولا يريد ان يأكل ولا يشرب ، بل يهوم فقط ويضطجع

على السرير نصف نائم فى غرفة اسدلت ستائر نوافذها .

ولكن فى مساء احد الايام ، فى اواخر الصيف ، قالت لورا : «فيتكا ، اريد ان احدثك بكلمتين . . .» نزلا من السلم الى الدرب ، وسارا صامتين وهما لا يزالان فى مجال الضوء الاتى من الشرفة ، وما ان دخلا العتمة ، تحت شجرة الزيزفون ، حتى قالت لورا ضاحكة بتردد : «اريد ان اتكلم عن لينا ، ممكن ؟ لا شيء يستحق الذكر ، لا تخف ، مجرد ترهات . انت تعرف ان علاقتى بها جيدة جدا ، وهى تعجبنى ، ولكن الامر الرئيسى عندى هو انك تحبها» . هذه المقدمة مسته على الفور ، لأن **الامر الرئيسى** لم يكن ابدا حبه لها . كانت رائعة بغض النظر عنه . اصغى اليها مرهف السمع .

«كل ما فى الامر ان هناك اشياء تدهشنى . امنا لن تتحدث ابدا ، ولكننى ارى . . . فيتكا ، الن تستاء ؟» — «كلا ، كلا ، ماذا تقولين ! تكلمى» . — «هذه بالفعل هراء ، تفاهات — كون لينا ، مثلا ، اخذت افضل فناجيننا ، وكونها تضع السطل قرب باب غرفة الماما . . .» («يا الهى ! — فكر بينه وبين نفسه . — وهذا تقوله لوركا !») — «لم الحظ ، — قال بصوت مسموع . — ولكن سأقول لها» . — «لا لزوم ، لالزوم ! ولم يكن هناك لزوم لان تلحظ . — ضحكت لورا ثانية بارتباك . — لم يكن ينقصك الا ان تلاحظ كل هراء ! ولكنى انبت ماما . لماذا لا تقول ببساطة : «لينا ، نحن بحاجة الى الفناجين ولا تضعى ، من فضلك ، السطل هنا ، بل ضعيه هناك» . هذا ما قلته اليوم ، وهى ، فى رأيى ، لم تزعل ابدا . مع ان التحدث عن تفاهات كهذه ، صدقنى ، امر مزعج جدا . ولكن صدمنى شيء آخر ، لامر ما نزعت صورة البابا من الغرفة

الوسطى وعلقتها فى الردهة . ماما تعجبت جدا . هذا ما يجب ان تعرفه ، لانه ليس امرا بيتيا تافها ، بل شىء آخر . شىء يخلو من اللباقة ، فى رأيى» . سكتت لورا ، وسارا بعض الوقت من دون ان يفوها بأية كلمة . مرر دميتريف كفه المفتوح على شجيرات الاسبيريا ، شاعرا بوخزات اغصانها الصغيرة الحادة .

«حسنا ! — قال اخيرا . — سأحدثها فى خصوص الصورة . ولكن لو انك ، يا لورخين ، وجدت نفسك فى بيت غريب ؟ الا تفعلين هفوات تخلو من اللباقة من غير ان تدرى ؟» — «ربما . ولكن ليس من هذا النوع . عموما ينبغى عدم الصمت ، بل التحدث — هذا هو الصحيح ، كما اعتقد — وعندئذ يستقيم كل شىء» .

لم يحدث لينا عن الصورة فى ذلك المساء ، بل صباحا . دهشت لينا . لم تنزع الصورة الا لانها كانت تحتاج الى مسمار لساعة الحائط ، ولم يكن فى هذا التصرف اى مأرب آخر . ويبدو لها غريبا الا تحدثها كسينيا فيودوروفنا عن هذا الهراء المطلق بنفسها ، بل ترسل اليها فيكتور سفيرا ، مما يسبغ على الهراء مغزى مبالغا فيه . قال ان كسينيا فيودوروفنا لم تكلمه عن هذا اصلا . فمن تكلم اذا ؟ هنا بدر منه بسبب غبائه — وكم سيبدر منه بسبب الغباء فيما بعد ! — ما يفيد ان لورا هى التى تكلمت . قالت لينا ، وقد علاها الاحمرار ان اخته اخذت على عاتقها ، كما يبدو ، دور ابداء الملاحظات لها : احيانا بنفسها ، واحيانا عبر اشخاص آخرين .

حينما رجع دميتريف فى ذلك اليوم من المدينة ، كان يسود البيت سكون غير مألوف . لم تخرج لينا للقائه فورا ،

بل ظهرت بعد حوالى الدقيقتين وطرحت عليه سؤالا لا لزوم له : «هل اسخن لك الغداء ؟» وكانت لورا قد ذهبت الى موسكو . ولم تخرج امه من غرفتها . ثم ظهرت فيرا لازاريفنا مرتدية ملابس المدينة ومطلية بالمساحيق ، والخرز على صدرها البارز بشدة ، وقالت مبتسمة انها وايفان فاسيليفيتش يعربان عن الشكر لحسن الضيافة ، وهما ينتظرانه ليودعاه . وسيأتى الآن ايفان فاسيليفيتش مع السيارة . رأى دميتريف من خلال الباب الذى فتح للحظة خاطفة صورة أبيه معلقة فى مكانها السابق . واستفسر : لماذا يسافران فجأة ؟ لقد ارادا ان يبقيا شهر سبتمبر كله . نعم ، ولكن ظهرت امور عند ايفان فاسيليفيتش فى العمل ، وعندها شؤونها البيتية ، يجب ان تحضر المربى ، وعموما — الم تملوا منا ، ايها الضيوف الاعزاء . . . خرجت كسينيا فيودوروفنا لتوديع القريبين — كان مظهرها ذاهلا — ودعتهما الى القدوم مرة اخرى . لم تعدها فيرا لازاريفنا . «اخشى الا ينسى ذلك ، يا عزيزتى كسينيا فيودوروفنا . المشاغل كثيرة جدا . كم من الاصدقاء يريدون رؤيتنا ، وهم يدعوننا الى بيوتهم الصيفية ايضا . . .» .

ذهبا ، اما دميتريف ولينا فانطلقا الى البيت المجاور لبلعبا بالبوكر . وفى وقت متأخر من الليل ، حينما عاد دميتريف ، دعته كسينيا فيودوروفنا الى غرفتها ذات الجدران المغطاة بورق احمر-بنى وقالت ان مزاجها متعكر ولا تستطيع ان تغفو بسبب هذه الحادثة . لم يفهم : «اية حادثة ؟» — «لانهما ذهبا» .

كان دميتريف قد شرب عند الجيران قدحين من الكونياك ، وكان متهيجا بعض الشىء لا يدرك الامور بوضوح ، فلوح بيده وقال بضجر : «آخ ، امر تافه ، يا امى ! وهل هذا ما يستحق

التحدث عنه ؟» — «كلا ، لورا تحتد بسرعة على اى حال . لماذا اثارت كل هذه الضجة ؟ ولماذا بلغتَ لينا التى بلغتْ امها ، فجرى حديث فى غاية الحمق . . . سخف مطبق !» — «لانه لا يجوز نقل الصور من مكان الى مكان ! — قال دميتريييف رافعا صوته ، وهو يهز أصبعه بصرامة . رأى نفسه فجأة فى دور حكم للاسرة ، الامر الذى بعث على ارتياحه . — حسنا ذهبا ، مع السلامة . لينا لم تقل لى اية كلمة **على الاطلاق** . انها امرأة ذكية . لذا لا تقلقى ، ونامى بهدوء» . قبّل خد أمه وخرج .

ولكن حين أتى الى لينا واستلقى قربها ، ابتعدت الى الجدار وسألته عما حدا به الى دخول غرفة كسينيا فيودوروفنا . انه ، وقد احس بالخطر ، اخذ يتملص وينفى ، وقال انه تعب ويريد شيئا آخر بالمرة ، ولكن لينا ، اذ تصرفت بصرامة احيانا وبلطف احيانا اخرى ، انتزعت منه ما كانت تريد معرفته . ثم قالت ان ابويها شخصان ابيان جدا . وفيرا لازاريفنا ابية وانوقة بشكل خاص . وفحوى الامر انها لم تكن كل حياتها فى تبعية لاحد ، ولهذا فهى حساسة ازاء ادنى تلميح الى التبعية . فكر دميتريييف فى نفسه : «كيف لم تكن فى تبعية ، وهى التى لم تشتغل فى يوم من الايام وتعيش فى كنف ايفان فاسيلييفيتش ؟» — ولكنه لم يفصح عن هذا ، بل سأل عن الامر الذى انتقص به من استقلال فيرا لازاريفنا . اتضح انه حينما نقلت لينا الى فيرا لازاريفنا الحديث فى صدد الصورة ، تأوهت قائلة : يا الهى ، هل تعتقد حقا اننا نطمع فى هذه الغرفة ؟ لم يعد دميتريييف يفهم شيئا : «كيف يطمعان ؟ لماذا يطمعان ؟» وعلاوة على ذلك كان يريد شيئا آخر . وانتهى الامر بأن جعلته لينا

يعد بأن يتلفن فى اليوم التالى من العمل لفيرا لازاريفنا ويدعوها الى بافلينوفو برقة ولطف دون ذكر للصورة وللاساءات . لن يأتيا طبعا ، لانهما انسانان انوفان جدا . ولكن ينبغى ان يتلفن . لاراحة الضمير .

وتلفن . فأتيا فى اليوم التالى . لماذا تذكر هذه الحادثة القديمة ؟ فقد وقعت بعدها حوادث كثيرة اسوأ واردأ . ولكن ربما لانها الاولى ، فانطبعت فى الذهن الى الابد . وحتى انه يتذكر المعطف الذى كانت ترتديه فيرا لازاريفنا حينما وصلت فى اليوم التالى وصعدت السلم بمظهر وقار لا يتزعزع — ناظرة امامها بكبرياء وانفة — وهى تحمل علبة تورت بيدها اليمنى .

ثم وقعت حوادث مع جده . فى ذلك الخريف حينما كانت لينا حاملا بناتاشكا . آه ، يا للجد ! لم يكن دميتريييف قد رأى جده منذ سنوات كثيرة ، ولكن منذ زمن بعيد لا يعرف مداه بقيت تحز فى قلبه تلك الشوكة المسماة باخلاص الطفولة . لقد كان الشيخ غريبا عن كل ما **له شبه بعائلة لوكيانوف** — حتى انه لم يكن يفهم اشياء كثيرة — بحيث كان من الجنون ، طبعا ، دعوته الى البيت الصيفى حينما كان هذان الشخصان يعيشان فيه . ولكن احدا حينذاك لم يكن يفهم شيئا او يستطيع التنبؤ بشىء . كان من الضرورى دعوة الجد ، فقد عاد مؤخرا الى موسكو وكان مريضا جدا وبحاجة الى الراحة . وبعد سنة تلقى غرفة فى حى يوغو–زاباد .

قال الجد لدميتريييف متعجبا : «اليوم أتى عامل لشد الكنبة ، فحادثته زوجتك ييلينا الرائعة وحماتك التى لا تقل عنها روعة بصيغة المفرد . ما معنى هذا ؟ هل هذه هى العادة الآن ؟ هل ممكن التحدث على هذا النحو مع رب اسرة وشخص

فى حدود الاربعين ؟» وفى مرة اخرى خاض حديثا مضحكا ومضجرا الى درجة لا تطاق مع دميتربيف ولينا لانهما اعطيا البائع فى مخزن اجهزة الراديو — وتحدثا عن هذا بمرح — خمسين روبلا ليبقى الجهاز لهما . ولم يستطع دميتربيف ان يشرح لجده شيئا . وقالت لينا ضاحكة : «فيودور نيقولاييفيتش ، انتم اعجوبة ! الم يقل لكم ذلك احد ؟ انتم اعجوبة لم تفقد رونقها !» لم يكن الجد اعجوبة ، بل كان مجرد طاعن فى السن — تسعة وسبعون عاما ، — ولم يبق من هؤلاء المسنين فى روسيا الا القليل ، اما الحقوقيون منهم الذين انهوا جامعة بطرسبورغ فأقل ، ومن مارس منهم العمل الثورى فى شبابه وسجن فى القلعة وارسل الى المنفى وفر الى الخارج وعمل فى سويسرا وبلجيكا وكان على معرفة بفيرا زاسوليتش * فيعدون على الاصابع . ربما كان الجد اعجوبة بمعنى من المعانى .

واى حديث يمكن ان يجرى بينه وبين ايفان فاسيلييفيتش وفيرا لازاريفنا ؟ مهما جهد الطرفان فلن يجدا اى شىء مشترك . لم يهتم ايفان فاسيلييفيتش وفيرا لازاريفنا بماضى الجد على الاطلاق ، اما الحياة المعاصرة فكان ادراكه لها قليلا بحيث لم يكن يستطيع ان يخبر بأى شىء مفيد ، ولهذا عاملاه بلا مبالاة : العجوز عجوز . يتمشى فى الشرفة مجرجرا قدميه ويدخن سكائر رخيصة تزكم رائحتها الانوف . كانت فيرا لازاريفنا تحدث الشيخ فى صدد التدخين عادة .

كان الجد قصير القامة ، جاف العود ، بوجه ذى بشرة

* فيرا زاسوليتش (١٨٤٩ — ١٩١٩) شخصية ثورية روسية . الناشر .

ملوحة نحاسية مزرقة ، وبيدين معوجتين لا تنحنيان شوههما العمل المرهق . كان لباسه متقنا على الدوام ، وكان يرتدى القمصان مع ربطة العنق . كان ينظف حذاءه حتى اللمعان ، وهو كحذاء صبى بمقاسه الذى لا يتجاوز الاربعين ، وكان يحب التجول على الضفة . فى يوم من ايام الاحد ، آخر احد دافئ فى سبتمبر اجتمع شملهم للنزهة ، — كانت الاحاديث قد اصبحت صعبة منذ امد بعيد ، — ولم تكن هذه الجولة ضرورية لاحد ، ولكن شاء القدر ان يجتمعوا ، فاجتمعوا فى وقت واحد ومشوا معا .

كان الناس فى ذلك اليوم لا عد لهم ولا حصر . كانوا يتدافعون فى الحرش وعلى الضفة ، وقد شغلوا كل المقاعد : بعضهم بملابس الرياضة وبعضهم بالبجامات ، مع الاطفال والكلاب والقيثارات وزجاجات المشروب الموضوعة على الجرائد . اخذ دميتربيف يتهكم على المصطافين الحاليين : الشيطان يعرف اى جمهور هذا . اما قبل الحرب فكان يتجول هنا ، كما يذكر ، اناس ملتحون بنظارات انفية . . . ايدته فيرا لازاريفنا فجأة وقالت ان بافلينوفو كانت حتى قبل الثورة مكانا مدهشا للاصطياف ، وكانت ، وهى فتاة ، تأتى الى هنا لزيارة عمها . وكان هناك مطعم فيه غجر يسمى «بوريتشييه» ، وقد أُحرق فيما بعد . وكان يعيش هنا عموما اناس معتبرون : مضاربون بالبورصة ، تجار ، محامون ، فنانون . وهناك عند الممر كان يقع بيت شلابين .

سألتها كسينيا فيودوروفنا عن عمها . فأجابت فيرا لازاريفنا : «كان ابى عامل فراء بسيطا ، كان عامل فراء ماهرا ومؤهلا جدا ، وكانت تقدم له طلبيات غالية . . .» — «ماما ! —

ضحكت لينا . — يسألونك عن عمك فتتحدثين عن ابيك» . اتضح ان العم كان صاحب مخزن مصنوعات جلدية : حقائب ، محفظات ، شنتات . وذلك فى شارع كوزنيتسكى موست ، فى الطابق الثانى ، حيث يقع الآن مخزن الالبسة النسائية . وبقى هناك مخزن المصنوعات الجلدية فى زمن النيب ايضا ، ولكنه لم يكن ملكا للعم ، لان العم اختفى فى عام ١٩١٩ ابان المجاعة . كلا ، لم يهرب ، ولم يمت ولكنه اختفى فى مكان ما . قاطع ايفان فاسيليفيتش عقيلته ، ملاحظا ان هذه المعطيات من سيرته قلما تهم احدا .

هنا انبرى الجد ، الذى بقى صامتا قبل ذلك ، وقال لدميتريف : «وهكذا ، يا عزيزى فيتيا ، تصور لو ان عم حماتك عاش حتى تلك الازمنة ، حينما كان يتمشى هنا اصحاب اللحى والنظارات الانفية ، فما الذى كان سيقوله ؟ لعله كان سيقول : اى جمهور هذا الذى فى بافلينوفو الآن ! رعاع بدراعات ونظارات انفية . . . ايه ؟ هكذا ؟ قبل ذلك كانت هنا عزبة ، افلس الملاك فباع البيت ، وباع الارض ، وبعد قرابة خمسين سنة يأتى الى هنا الوارث بزيارة عابرة ليشبع فضوله الحزين ، وينظر الى زوجات التجار والموظفين ، الى السادة بقبعاتهم السوداء ، الى عمكم ، — انحنى الجد لفيرا لازاريفنا ، — الذى وصل على حنطور ويفكر : «تفو ، يا للقرف ! يا للرعاع ! ايه ؟ — ضحك وتابع . — أليس كذلك ؟» .

قالت فيرا لازاريفنا بشىء من الدهشة : «لا افهم ، لماذا رعاع ؟ ما الداعى الى هذا القول ؟» عندئذ اوضح الجد : الازدراء حماقة . لا ينبغى ازدراء احد . قال هذا لاجل دميتريف الذى فكر فورا فى ان الجد مصيب فى شىء ما . . . فى شىء

يمس دميتريف عن كثب . فكر الجميع قليلا ، ثم قالت كسينيا فيودوروفنا انها لا تستطيع موافقة ابيها . اذا تخلينا عن الازدراء نجرد انفسنا من آخر سلاح . فليكن هذا الشعور داخل انفسنا وغير مرئى لاحد على الاطلاق ، ولكن يجب ان يكون . عندئذ قالت لينا مبتسمة بسخرية : «اما انا فعلى اتفاق تام مع فيودور نيقولاييفيتش . كم من الناس يتباهون بأشياء غير مفهومة ، بخيالات ، بأوهام . هذا مضحك !» — «من تباهى وبم ؟» — سأل دميتريف بلهجة نصف مازحة ، مع ان اتجاه الحديث اخذ يقلقه بعض الشىء . اجابت لينا : «لا يخلو الامر ! لا داعى الى ان تعرف كل شىء . . .» — «التباهى ، يا لينا ، والازدراء الهادئ أمران مختلفان» ، — قالت كسينيا فيودوروفنا مبتسمة . «هذا يتوقف على الجهة التى ننظر منها ، — اجابت لينا ، — وعموما انا لا احب العجرفة . فى رأيى ، لا يوجد ما هو اكره منها» . «انت تتحدثين وكأننى ابرهن على انه لا يوجد ما هو اروع من العجرفة . انا ايضا لا احب العجرفة» . — «ولا سيما اذا كانت بلا اسس . اذا كانت تقوم على فراغ . . .» .

من هنا ، من هذه المهاترة البريئة ، نما حديث انتهى فى الليل بنوبة قلبية عند لينا ، وباستدعاء الاسعاف ، وبصيحات فيرا لازاريفنا عن الانانية وقسوة القلب ، وبرحيلهم العاجل بالتكسي صباحا ، ومن ثم برحيل كسينيا فيودوروفنا وبالهدوء الذى حل على البيت الصيفى حينما لم يبق الا الاثنان : دميتريف والشيخ . كانا يتنزهان عند البحيرة ويتحدثان طويلا . كان بود دميتريف ان يتحدث مع الجد عن لينا — فقد اضناه رحيلها ، — وان يشتمها بسبب حبها للمشاكسة ، ويشتم والديها بسبب غبائهما ، وربما ان يلعن نفسه وينكأ هذا الجرح ، ولكن

الجد لم يتفوه بأية كلمة عن لينا ولا عن والديها . كان يتحدث عن الموت ، وعن انه لا يخاف منه . لقد ادى مهمته فى الحياة وكفى . «يا الهى ، — فكر دميتريف ، — كيف هى هناك ؟ واذا كانت مسألة القلب جدية ؟» .

قال الجد ان كل ما مر ، كل حياته الطويلة جدا امر لا يشغله . لا يوجد ما هو اغبى من البحث عن مُثُل فى الماضى . وهو ينظر بفضول الى المستقبل ولكنه لن يرى الكثير ، للاسف .

«هل أتلفن او لا ؟ — فكر دميتريف . — مهما كانت الحالة ، فهذا لا يعطينى الحق . . .» .

تلفن مساء . ومات الجد بعد اربع سنوات .

قدم دميتريف الى المحرقة من العمل مباشرة وبدا بمظهر احمق وهو يحمل حقيبته الكبيرة الصفراء التى تحتوى على بضع علب من «السردين» اشتراها فى الشارع مصادفة . كانت لينا تحب السردين جدا . حينما دخلوا مبنى المحرقة من الفناء ، سار دميتريف بسرعة الى اليمين ووضع الحقيبة فى الزاوية على الارض ، خلف العمود ، بحيث لا يراها احد . وأكد فى ذهنه : «لا تنس الحقيبة ، لا تنس الحقيبة» . وفى خلال مراسم التأبين تذكر الحقيبة عدة مرات ، ناظرا الى العمود وفى الوقت نفسه فكر فى ان موت الجد لم يكن محنة رهيبة ، كما كان يظن . اشفق على أمه كثيرا . كانت تدعمها من ذراعيها الخالة جينيا من جهة ، ولورا من الجهة الاخرى ، وكان وجه الأم أبيض من الدموع ، وكان يبدو غريبا فيه ملامح من الشيخوخة والطفولة فى الوقت نفسه .

وأتت لينا ايضا ، كانت تمخط وتمسح عينيها بالمنديل ،

وحينما حانت لحظة الوداع نشجت فجأة بصوت جهير مرتفع ، واخذت ، وقد تشبثت بيد دميتريف ، تهمس قائلة ان الشيخ كان انسانا جيدا واحسن واحد فى كل عائلة دميتريف ، وانها كانت تحبه جدا . هذا شىء جديد . ولكن لينا نشجت بصدق واغرورقت عيناها بدموع حقيقية ، فصدق دميتريف . وظهر ابواها ايضا فى اللحظة الاخيرة بمعطفين اسودين ومظلتين سوداوين ، وحتى ان فيرا لازاريفنا كانت تضع شريطة سوداء على قبعتها ، واسعفهما الوقت ليرميا باقة من الزهر على التابوت المبتعد الى تحت الارض . ثم قالت فيرا لازاريفنا بدهشة : «كم كان عدد الناس كبيرا !» لهذا اتيا ، بدافع الفضول الملازم للمسنين : لينظروا هل سيأتي اناس كثيرون لتشييع المتوفى . وقد اتى الكثير مما ادهش دميتريف . والامر الرئيسى انه جاء من مكان ما عدد لا يستهان به من اناس اختفوا ، لا ، لا ، ما زالوا احياء ، وهم شيوخ غرباء وعجائز مدخنات بأعين جافة غاضبة ، اصدقاء للشيخ يتذكر دميتريف بعضهم منذ الطفولة . واتت عجوز حدباء عمشاء بوجه هرم قالت عنها الأم يوما انها ثورية جريئة وارهابية قذفت قنبلة على احد ما . وهذه الحدباء القت كلمة التأبين . وفى الفناء ، حينما خرج الجميع ووقفوا زرافات لا يتفرقون ، اقتربت لورا من دميتريف وسألته عما اذا كان سيذهب ولينا الى الخالة جينيا ، حيث سيجتمع الاقرباء والاصدقاء . قبل هذه اللحظة كان دميتريف يعتبر انه سيذهب الى الخالة جينيا حتما ، ولكنه تردد الآن : فى سؤال لورا نفسه كان يكمن امكان الاختيار . وهذا معناه ان لورا وأمه كانتا تفترضان انه يستطيع الذهاب اذا اراد ، اى ليس عليه ان يذهب بالضرورة ، لانه — وهذا ما ادركه فجأة — لم يعد فى نظرهما

جزءا من اسرة دميتريف ، بل شيء آخر متحد مع لينا ، بل وربما مع ذانك اللذين بمعطفين اسودين وبمظلتين سوداوين ، ويجب ان يُسأل كرجل غريب .

«هل تذهبون الى الخالة جينيا ؟» طرح السؤال بسرعة ، ولكن كم فيه من المعانى ! وكان يعنى فيما يعنى : «لو كنت وحدك لما سألناك . نحن نريد رؤيتك دوما ، انت تعرف . ولكن ما حاجتنا الى الناس الغرباء ونحن فى مصيبة ؟ الافضل الاستغناء عنهم اذا امكن . اذا امكن ، ولكن — كما تريد . . .» قال دميتريف انهما لن يذهبا الى الخالة جينيا على الارجح . «لماذا ؟ اذهب انت ! — قالت لينا . — انا متوعكة ، اما انت فاذهب . اذهب ، طبعا !» كلا ، لن يذهب ، عند لينا صداع شديد . اومأت لورا الى لينا بتفهم ، وحتى انها ابتسمت لها بعطف وسألتها اذا كانت بحاجة الى حبة للصداع . قال دميتريف : «اف ! نسيت الحقيبة !» رجع الى مبنى المحرقة ، حيث كان يستلقى فى تابوت على القاعدة راحل جديد اجتمعت حوله حفنة متفرقة من الناس — فمشى الى العمود على رؤوس اصابعه . تناول الحقيبة ، وتوقف ليبقى دقيقة على انفراد . ان الشعور بالضياع **والانقطاع** الذى ينتاب المرء فى الجنائز — شيء ذهب بلا عودة ، انقطع الى الابد ، فى حين يستمر شيء جديد ، فى تراكيب اخرى ، — كان اضنى الم ، بل حتى اقوى من الحزن على الجد . فقد كان الجد مسنا ، وكان يجب ان ينطفئ ، ولكن اختفى معه شيء لا يرتبط به مباشرة كان موجودا على حدة : خيوط بين دميتريف وأمه واخته . وهذا الاختفاء انكشف بشكل لا يرحم وعلى الفور ، بعد مرور عدة دقائق على خروجهم من الجو العبق برائحة الزهور القوية الى الهواء

الطلق . وافقت لورا بهدوء على الا يذهب الى الخالة جينيا ، اما هو فرضخ بسهولة لهدوئها . الا ان أمه التفتت نصف التفاتة وودعته بحركة خفيفة من كفها ، فشعر على الفور بأنه زاد من ألمها واندفع للحاق بها — اندفع من الداخل ، للحظة خاطفة — ولكن كان الوقت قد فات لتلافى ما حسم امره . شدته لينا نحو التكسي للذهاب الى البيت .

سار ليفكا بوبريك فى الحشد المبتعد مع الأم ولورا وفيليكس والخالة جينيا والاقرباء الآخرين . لعله قدم قبل ذلك ، ولكن دميتريف لم يلحظه الا حينما خرجوا الى الفناء . كان ليفكا عارى الرأس ، اسود ، اشعث ، بنظارة تلمع لمعانا باهتا . لم يقترب من دميتريف ، بل اومأ اليه من بعيد . سألت لينا بهمس : «وما شأن بوبريك هنا ؟» قال دميتريف ، كابتا فى نفسه شعورا بالدهشة المزعجة : «كيف ؟ انه قريبنا من سابع جد» .

دميتريف يرى ليفكا بوبريك لاول مرة فى غضون عدة اشهر مرت على حادثة المعهد المضجرة . وتذكر فورا ان الجد الراحل ادانه بسبب ليفكا . وحتى انه جرى حديث قال فيه الجد : «كنتُ وكسينيا نتوقع ان تصبح شيئا آخر . لم يحدث اى شيء رهيب ، طبعا . لستَ انسانا رديئا . ولكنك لست مدهشا ايضا» .

كان وليفكا متعارفين منذ الطفولة ، ودرسا فى معهد واحد . لم يكونا بالصديقين الحميمين ، ولكنهما كانا رفيقين تربطهما اواصر البيتين والاسرتين . اذ ان ابا ليفكا ، الدكتور بوبريك ، الذى كان يداوى دميتريف منذ نعومة اظفاره ، هو اخو زوج الخالة جينيا الذى قتل فى الحرب . اى ان ليفكا هو ابن اخى

زوج الخالة جينيا . ذهب ليفكا بعد المعهد مباشرة الى بشكيريا وعمل هناك ثلاث سنوات فى حقول الغاز ، فى حين ان دميتريييف ، الذى كان اكبر سنا والذى حصل على الدبلوم قبله بسنة ، بقى يعمل فى مخبر مصنع الغاز فى موسكو . وقد اقترح عليه ايضا شتى الرحلات المغرية ، ولكن كانت تصعب الموافقة عليها . ارادت أمه جدا ان يذهب الى تركمانيا ، الى دارغان تبه ، لانها على مقربة من كونيا–اورغينيتش حيث تقيم لورا — ستمئة كيلومتر ، لا اكثر ! — وفى وسع الاخ والاخت ان يلتقيا ليتناولا فنجانا من الشاى ويحنا الى البيت سوية . لقد ولدت ناتاشكا ضعيفة ، وكانت مريضة ، وكذلك لينا التى جف حليبها ، فعثرا على المرضعة فروسيا ، وهى عاملة تنظيف فى مدرسة وتسكن براكة فى تاراكانوفكا ، فكان دميتريييف يذهب اليها مساء لاحضار الحليب . ويتحدثون عن دارغان تبه ! لم تكن هناك اية دارغان تبه . كانت هناك احلام فى هدأة الصباح ، حينما يستيقظ بنشاط غير متوقع ويفكر : «حبذا لو . . .» وكان يتصور كل شىء بشفافية ووضوح وكأنه صعد الى الجبل فى يوم صاف ونظر من هناك بعيدا الى الاسفل . «فيتيا ، — كانت تقول لينا (او فيتينكا فى فترة الهدوء والحب) ، — لماذا تخدع نفسك ؟ لا تستطيع الابتعاد عنا الى اى مكان . لا اعرف اذا كنت تحبنا ، ولكنك لا تستطيع ، لا تستطيع ! انتهى كل شىء ! تأخرت . كان ينبغى القيام بهذا سابقا . . .» وكانت تعانقه وتنظر الى عينيه بعينى ساحرة لطيفتين زرقاوين . كان يصمت لانها كانت تفصح عن افكاره الخاصة التى يخافها . نعم ، نعم ، لقد تأخر . فاته القطار . مضت اربع سنوات منذ ان انهى المعهد ، ثم مضت خمس وسبع وتسع . صارت

ناتاشكا تلميذة . المدرسة التخصصية الانكليزية فى زقاق اوتيني ، موضع الطموح والحسد ، معيار الحب الابوى **وبذل المستحيل** . المدرسة فى حى آخر ، والالتحاق بها مستحيل تقريبا . كان شيئا فوق طاقة اى كان باستثناء لينا . لانها كانت تعض على رغائبها كالبولدغ . يا لها من امرأة–بولدغ مليحة بشعر قصير له لون القش وبوجه ملوح دوما على نحو مستحب ومائل الى السمرة . لم تكن تترك رغائبها ابدا الى ان تتحول — وهى بين اسنانها — الى حقيقة راهنة . خاصية عظيمة ! رائعة ، مدهشة ، حاسمة بالنسبة الى الحياة . خاصية الرجال الحقيقيين .

«عدم الذهاب فى اية بعثة . الذهاب لمدة لا تتجاوز الاسبوع» — هذه هى رغبتها . رغبة بسيطة بائسة عليها اثار اسنانها الحديدية .

ورغبة لينا الاخرى التى شغلتها على امتداد عدة سنوات هى تأمين عمل لها فى معهد التنسيق الاعلامى الدولى . معهد التنسيق الاعلامى ، يا معهد التنسيق ، صعب المنال ، خلف السحاب كجومولونغما ! احاديث عن معهد التنسيق ، مكالمات تلفونية فى صدد معهد التنسيق ، يأس باك ، ومضات الامل .

«بابا ، هل تحدثت مع غريغورى غريغورييفيتش فى خصوص معهد التنسيق ؟» — «لينوتشكا ، تلفنوا لك من معهد التنسيق !» — «من اين ؟» — «معهد التنسيق !» «يا الهى ، من قسم الذاتية ، او زويكا ؟» صديقتان دبرتا امرهما على نحو مثالى فى هذه الحياة تعملان فى معهد التنسيق . واخيرا تسنى لها . وصار معهد التنسيق حقيقة راهنة وخشخش بين اسنانها كجنح دجاجة مقلى جيدا . عمل مربح ، على اساس القطعة ، وموقع رائع — يبعد مسيرة دقيقة عن مخزن الغوم ، — وكانت احدى

صديقاتها التى درست معها فى المعهد رئيستها المباشرة . كانت صديقة لينا تعطيها نصوصا للترجمة قدر ما تطلب . ثم اختصمتا ، ولكن كل شىء كان على ما يرام فى غضون ثلاث سنوات تقريبا . كن فى فرصة الغداء يهرعن الى الغوم لرؤية ما اذا كانت قد عرضت بلوزات جديدة . وكانوا يعرضون يوم الخميس افلاما اجنبية بلغاتها الاصلية . ولكن لينا لم تستطع ، للاسف ، اعداد اطروحة مكان دميتريييف . كان دميتريييف يتقاضى حينذاك فى المخبر ، مئة وثلاثين روبلا ، فى حين ان احد معارفه من ايام المعهد وابن صفه ، الضئيل التافه والمجد الكبير فى الوقت نفسه ، ميترى الداهية الذى كان يحرم نفسه من كل شىء وحتى انه أجّل زواجه ، فكان يتقاضى ضعفيه لانه عكف دون حراك على اعداد الاطروحة . كان بود لينا جدا ان يصبح دميتريييف مرشحا فى العلوم . واراد الجميع الامر نفسه . كانت لينا تساعده فى الانكليزية وأمه تشجعه وناتاشكا تتحدث همسا فى الامسيات ، وهدأت حماته ، ولكنه استسلم بعد نصف سنة . ربما للسبب نفسه : لان القطار فاته . لم تسعفه قواه ، كان يأتى كل مساء وفى رأسه صداع ، وفى نفسه رغبة واحدة ، وهى ان يأوى الى فراشه بأسرع ما يمكن . وكان يأوى الى فراشه فعلا اذا لم يكن فى التلفزيون ما يستحق المشاهدة : لعبة بكرة القدم او كوميديا قديمة . انه ، وقد استسلم ، كره كل الضباب الذى اكتنف الاطروحة ، وكان يقول ان تقاضى مئة وثلاثين بشرف افضل من العذاب وتقويض الصحة والتذلل امام الناس الذين يحتاج اليهم . وصارت لينا ايضا تعتبر الامر هكذا وتسمى بازدراء المرشحين فى العلوم الذين تعرفهم دهاة ومكارين . فى ذلك الحين جاء فى الوقت المناسب تماما — وربما فى وقت غير

مناسب — ليفكا بوبريك بطلبه فى صدد معهد اجهزة النفط والغاز .

بقى ليفكا ، بعد عودته من بشكيريا ، وقتا طويلا من دون ان يستطيع العثور على عمل مناسب . ووجد اخيرا معهد اجهزة النفط والغاز . ولكن ينبغى الالتحاق به اولا . ما كان فى وسع ليفكا ولا اى كان الالتحاق بمعهد اجهزة النفط والغاز لو لم يتلفن ايفان فاسيلييفيتش لبروساكوف . وحتى انه ذهب فيما بعد الى بروساكوف فى سيارته الحكومية . كان بروساكوف يحتفظ بهذه الوظيفة لشخص آخر ، ولكن ايفان فاسيلييفيتش ضغط على بروساكوف ، فوافق . لم يذهب حمو ليفكا الى بروساكوف فى نهاية المطاف ، بل حمو دميتريييف ! ذهب من اجل ليفكا والحق يقال . هذا صحيح . وذلك لان لينا رجت اباها ، فقد اشفقت على ليفكا وزوجته الخرقاء ، السمينة اينوتشكا . ثم اثارت اينوتشكا مشادة حامية وهم فى ضيافة اصدقاء مشتركين وصاحت على دميتريييف : «انت انسان فظيع !» ولكن لينا جابهت كل هذا بوعى وتصرفت بصمود وبرودة اعصاب شديدين . وقال الاصدقاء ان لينا تصرفت على نحو رائع . حملت نفسها المسؤولية كلها وقالت ان دميتريييف لم يكن يريد هذه الوظيفة ، ولكنها اصرت . «انا المذنبة ، انا وحدى ، لا تلوموا فيتكا ! وهل تريدون ان نعيش على مئة وثلاثين روبلا وان يهدر فيتكا ثلاث ساعات على الطريق ؟» .

وهذا ما كان ، طبعا . كانت اول من خطر على باله هذه الفكرة حينما اتى ايفان فاسيلييفيتش وتحدث عن هذه الوظيفة . ولم يكن دميتريييف يريد فعلا . لم ينم ثلاث ليال ، تردد وتعذب ، ولكن ذلك الذى لم يكن يجوز حتى مجرد التفكير

فيه ، ناهيكم عن فعله ، تحول بالتدريج الى شيء طفيف ، منمنم ، مغلف جيدا كبرشانة ينبغى ، بل ومن الضرورى للصحة ، بلعها على الرغم مما تحويه فى داخلها من شناعة . فهذه الشناعة لا يلحظها احد . ولكن الجميع يبلعون البرشان . قالت لينا : «انا احترم ليفكا ، وحتى احبه ، ولكنى لسبب ما احب زوجى اكثر . واذا كان بابا ، الانسان المسن ، الذى لا يقبل ان يطلب معروفا من احد ، قد حزم امره وذهب . . .» .

كان ينبغى ابلاغ ليفكا وزوجته فورا ، ولكن لم تسعفهما الجرأة ، فماطلا وسكتا . علم ليفكا بطريق غير مباشر . فانقطع كل شيء فجأة : لم يأتيا ولم يتلفنا . الشيطان وحده يعرف ، ربما كانا محقين ، ولكن هذا ليس تصرفا ايضا : تعالا وتحدثا بالتى هى احسن واعرفا كيف ولماذا . وحينما التقوا عند الاصدقاء ، اشاح بوبريك بوجهه ، اما اينوتشكا فصرخت كبائعة فى السوق . فليكن ، ما عليهما الا ان يهملا الامر وينساه . ولكن بعد اربع او خمس سنوات — فى يوم ميلاد كسينيا فيودوروفنا ، فى الشتاء ، فى اواخر فبراير — تحركت هذه القضية مجددا . كانت الام والجد يلومان دميتريف فى السابق ايضا ، ولكن لومهما لم يكن يتسم بحنق شديد ، لانهما كانا يعتبران بحق ان كل ذلك كان من تدبير لينا . وماذا يستطيعان فعله ازاء لينا ؟ كان عليهما ان يهادنا لينا ، كما يهادنان الطقس الردىء . ولكن حينذاك ، فى يوم ميلاد الأم . . .

يتذكر ذلك بوضوح وكأنه جرى الآن : صعدوا على السلم وتوقفوا عند الباب . ناتاشكا تحمل الهدايا : علبة سكاكر وكتاب «سوق الغرور» لثاكيراى باللغة الانكليزية ، اما لينا فأسندت كتفها الى الباب وهمست مغمضة العينين ، وكأنما بينها وبين

نفسها ، ولكنها كانت تخاطب دميتريف ، طبعا : «اوه ، يا الهى ، يا الهى ، يا الهى . . .» . وكأنها تقول : أنظر ، على اية محن اقدم من اجلك . فيبدأ يغلى كعادته . لا تحب لينا ان تأتى الى حماتها . فى كل سنة تقسر نفسها على ذلك اكثر واكثر . ما العمل ؟ لا تحب ، لا تستطيع ، لا تطيق . يضجرها كل شيء . مهما اطعموها الحلو ، ومهما اغدقوا عليها اللطف ، لا فائدة : كمن يحاول تدفئة شارع . يعانق دميتريف ابنته ويقول لها بلطف متعمد : «هل انت راضية لانك اتيت الى جدتك ؟» — «نعم» . — «أتحبين ان تأتى الى هنا ؟» — «أحب !» اما لينا فتضيف مبتسمة : «قولى : احب ، ولكن يجب ان انام باكرا . وقولى لبابا الا يطيل الجلوس حتى لا يجر بالقوة من خلف الطاولة . قولى : فى التاسعة والنصف ننهض ونذهب» .

لو لا تلك الحمقاء مارينا ، ابنة خالته ، لسار كل شيء حينذاك على ما يرام . ما ان رأى سحنتها الحمراء خلف الطاولة فوق الفطائر والبسكويت حتى ادرك على الفور ان الامور لن تسفر عن خير . لينا اذكى منها بكثير ، ولكن ثمة شبه بينهما . كلما التقيا فى حفلة عائلية نشبت مشادة بينهما . احيانا تتجادلان صراحة ، واحيانا تتبادلان الملاحظات اللاذعة بمراوغة ، فلا ينتبه اليها من ينظر الى الامر نظرة جانبية . وذلك شأن لاعبى كرة الماء الذين يضربون بعضهم البعض بالارجل تحت الماء ، الامر الذى لا يراه المتفرجون . فى الليل صعقت دميتريف فجأة هذه الكلمات : «لماذا بقيت ابنة خالتك تلسعنى كل المساء ؟» — «كيف تلسعك ؟» — «ألم تسمع ؟» — «ماذا على وجه التحديد ؟» — «يكفى ما قالته فى صدد نساء الشرق ؟ فى صدد مؤخراتهن

وارجلهن ؟» — «ولكنك ، كما اعتقد ، لست امرأة من الشرق ؟» — «آه ، ما جدوى التحدث معك . . .» .

وحينذاك ، فى فبراير ، بدأ الحديث — لامر ما علق فى ذاكرته حتى آخر كلمة — ببراءة ما بعدها براءة ، بدفعات تحت الماء . تذكره ، لانها كانت المرة الاخيرة التى تأتى فيها لينا لزيارة أمه . وبعدها لم تأت ابدا . انقضت خمس سنوات ولم تزرها ولا مرة . كسينيا فيودوروفنا تأتى وتزور حفيدتها ، اما لينا فلا تذهب اليها . «كيف تعيشين ، مارينا ؟ كل شىء عندك على سابق عهده ؟» — «طبعا . وانت ؟ أتعملين فى المكان نفسه ؟» . هذه العبارات ، التى قيلت بابتسامة وحسب الاصول ، كانت تعنى فى الواقع : «كيف ، يا مارينا ، ألم يقع بعد فى فخك أحد ؟ انا واثقة بأن احدا لم يقع ولن يقع ابدا ، يا عانسى العزيزة» . — «هذا لا يقلقنى لانى اعيش حياة ابداعية . لا كما تعيشين انت . انت تمارسين وظيفة ، اما انا فأبدع واعيش بالابداع» . كانت مارينا تعمل حينذاك محررة فى دار للنشر . اما الآن فتعمل فى التلفزيون . «وهل اصدرتم شيئا جيدا فى المدة الاخيرة ؟» — «ثمة ما اصدرناه . ما هذا القماش ؟ اشتريته فى الغوم ؟» هنا كانت ضربات اخرى تحت الماء : «عن اى ابداع تهذرين ؟ هل حرّرت او اصدرت ولو كتابا جيدا واحدا ؟» — «طبعا . ولكن لا جدوى من التحدث معك عن هذا ، لان هذا لا يثير اهتمامك . البضائع هى التى تهمك» . وجرت مناقشات حول الاشعار ، وحول ضيق الافق العالمى . كانت مارينا تحب هذا الموضوع جدا ، ولم تكن تفوت فرصة لتدوس على ضيق الافق . اوه ، ضيقو الافق ! حينما ارغت وازبدت فى صدد الذين لا يعترفون

بيكاسو أو ارزيا ، كان فمها ، وكأنه يتفجر حقـــــدا .

كل ما هو مقيت مما يرتبط فى ذهن مارينا بكلمتى «ضيق الافق» كان يتلخص عند لينا فى كلمة «النفاق» . فأعلنت ان «كل هذا نفاق» . «نفاق ؟» — «نعم ، نعم ، نفاق» . — «حب بيكاسو نفاق ؟» — «طبعا ، لان الذين يقولون انهم يحبون بيكاسو لا يفهمونه عادة ، وهذا هو النفاق» . «يا الهى ! امسكونى ! — قهقهت مارينا . — حب بيكاسو نفاق ! ها — ها — ها !» توهج وجهاهما ، واتقدت عيونهما بألق لا يعرف المزاح . بيكاسو ! فان غوغ ! التصعيد ! التسريع ! بول جيكسون ! اى بول جيكسون ؟ لا يهم ، لانه نفاق ! نفاق ؟ نفاق ، نفاق . كلا ، وضحى اذا : ما الذى تسمينه نفاقا ؟ حسنا ، كل تصرف لا يصدر عن القلب ، بل بتفكير مسبق ، برغبة فى الظهور بأفضل مظهر . «اذا ، انت تمارسين النفاق حينما تأتين الى الخالة كسينيا فى يوم ميلادها وتقدمين لها السكاكر ؟» .

نظرت لينا الى دميتريف بابتسامة فيها ما يشبه النصر (لقد توقعت ، ولكنك اصررت ، فخذ وذق !) ، وقالت انها وكسينيا فيودوروفنا لا تربطهما افضل العلاقات بالفعل ، ولكنها لم تأت لتهنئتها بدافع النفاق ، بل لان فيتيا طلب منها ذلك . لو شيئا من هذا القبيل . ثم حلت فترة صمت . انصرف الضيوف . كانت الأم تمشى متعثرة . وبدأت الخالة جينيا تتحدث لسبب غير معروف عن ليفكا بوبريك . انها تريد دوما ان تتصرف على افضل نحو ، ولكن ينجم العكس . قالت الأم انها قصة مشينة وقد بقيت امدا طويلا لا تصدق أن فى وسع فيتيا ان يتصرف هكذا . «آه ، انتم تعتبرون اننى المذنبة فى كل شىء ؟ اما ابنك فيكتور فلا شأن له ؟» — «انا لا ابرر

فيكتور» — «ومع ذلك انا المذنبة ؟ !» — تغطت وجنتا لينا بحمرة شديدة وتجمد وجه كسينيا فيودوروفنا .

«طبعا ، انا قادرة على كل شيء . فيكتور صبى جيد ، وانا افسدته» . قالت الخالة جينيا ، وهى تهز رأسها الاشيب بعطف : «عزيزتى لينا ، ولكنكم انتم شرحتم الامر على هذا النحو لليفا ، اتذكر ذلك جيدا» . — «استطيع ان اشرح كما اشاء . كان ذلك بدافع اهتمامى بزوجى . اما انتم فلا يحق لكم ، لا يحق . . .» — «كفى صراخا !» — «انت خائن ! لا اريد ان اتحدث معك» . اخذت ناتاشكا واندفعت من خلف الطاولة . «لماذا تسكت دائما حينما يهينونني ؟» وانطلقت الى السلم ، الى الصقيع ، الى غير رجعة .

هرع الى الاسفل ، زلت قدمه على البرك المغطاة بالجليد . قفزت لينا وناتاشكا بحمق بعيدا عنه الى الترولى باص ، واغلق الباب ، ولم يعلم الى اين الذهاب وما الذى سيحصل . لم يكن يستطيع الذهاب الى اى مكان . لم يكن يستطيع ، وقد انهار البيت ، الذهاب الى اى مكان والى اى كان . كلا ، فى احد الايام بعد شهر فبراير ذاك أتت الى أمه — لم يكن هناك مخرج . كان ايفان فاسيليفيتش طريح الفراش بسبب نزيف فى الدماغ وكانت الحماة تمضى بجانبه الليل والنهار ، وكاد دميتريف ولينا ان يضيعا بطاقة الاستجمام فى «الرمال الذهبية» ، اذ لم يكن هناك من يبقيا ناتاشكا عنده . فى بلغاريا كانا يتجولان بالكنزة مساء وتبادلا الحب بقوة شديدة . وفى النهار كانت غرفتهما تحمى رغم انهما كانا يسدلان الستارة وكان الماء فى الدوش ساخنا . ولم يحب احدهما الآخر بمثل هذه القوة فى يوم من الايام .

وقف دميتريف امام البيت ونظر الى النافذة الوحيدة المضاءة — نافذة المطبخ . كان الطابق الثانى من البيت وجانبه الايسر مظلمين . فى هذا الفصل من السنة لا يعيش احد هنا . كانت لورا تفعل شيئا فى المطبخ . رأى دميتريف رأسها المنكس الى الطاولة وشعرها الاسود الذى وخطه الشيب ، والذى كان يلمع تحت المصباح الكهربائى وجبينها الملوح — ان العيش خمسة اشهر كل سنة فى آسيا الوسطى جعلها اوزبكية تقريبا . لقد نظر الى لورا من عتمة الحديقة كامرأة غريبة على شاشة مضيئة — رأى افول شبابها وامراضها التى اكتسبتها بسنوات من العمل فى الخيام ، ورأى الكآبة الشديدة لقلبها الذى يشغله الآن هم واحد .

ماذا تفعل هناك ؟ هل تكوى ؟ شعر بأنه لن يستطيع ان يقول لها شيئا . لن يستطيع اليوم ، الآن على اى حال . فليذهب كل هذا الى الجحيم ! لا يحتاج احد الى هذا ، لن ينقذ احدا ، ولن يجلب سوى معاناة والم جديد .

لانه لا يوجد ما هو اغلى من روح الانسان القريب .

حينما صعد على درجات المدخل ، اشتد وجيب قلبه . كانت لورا تقص بالمقص على طاولة المطبخ جريدة الى شرائط طويلة . دخل فيليكس بقصعة فيها نشاء مطبوخ . اخذ دميتريف يساعدهما . فى البداية الصقوا الشرائط على شقوق نافذة المطبخ ، ثم انتقلوا الى الغرفة الوسطى . لقد غفت الام منذ الساعة السادسة ، ولكنها ستستيقظ قريبا على الارجح . فى قرابة الرابعة والنصف ساءت حالتها واحست بالالم . فزعت لورا جدا وارادت ان تدعو الاسعاف ، ولكن الأم قالت ان لا جدوى من هذا ، بل تنبغى دعوة ايسيدور ماركوفيتش او طبيب من المشفى .

فيكتور» — «ومع ذلك انا المذنبة ؟ !» — تغطت وجنتا لينا بحمرة شديدة وتجمد وجه كسينيا فيودوروفنا .

«طبعا ، انا قادرة على كل شيء . فيكتور صبى جيد ، وانا افسدته» . قالت الخالة جينيا ، وهى تهز رأسها الاشيب بعطف : «عزيزتى لينا ، ولكنكم انتم شرحتم الامر على هذا النحو لليفا ، اتذكر ذلك جيدا» . — «استطيع ان اشرح كما اشاء . كان ذلك بدافع اهتمامى بزوجى . اما انتم فلا يحق لكم ، لا يحق . . .» — «كفى صراخا !» — «انت خائن ! لا اريد ان اتحدث معك» . اخذت ناتاشكا واندفعت من خلف الطاولة . «لماذا تسكت دائما حينما يهينونني ؟» وانطلقت الى السلم ، الى الصقيع ، الى غير رجعة .

هرع الى الاسفل ، زلت قدمه على البرك المغطاة بالجليد . قفزت لينا وناتاشكا بحمق بعيدا عنه الى الترولي‌باص ، واغلق الباب ، ولم يعلم الى اين الذهاب وما الذى سيحصل . لم يكن يستطيع الذهاب الى اى مكان . لم يكن يستطيع ، وقد انهار البيت ، الذهاب الى اى مكان والى اى كان . كلا ، فى احد الايام بعد شهر فبراير ذاك أتت الى أمه — لم يكن هناك مخرج . كان ايفان فاسيليفيتش طريح الفراش بسبب نزيف فى الدماغ وكانت الحماة تمضى بجانبه الليل والنهار ، وكاد دميتريف ولينا ان يضيعا بطاقة الاستجمام فى «الرمال الذهبية» ، اذ لم يكن هناك من يبقيا ناتاشكا عنده . فى بلغاريا كانا يتجولان بالكنزة مساء وتبادلا الحب بقوة شديدة . وفى النهار كانت غرفتهما تحمى رغم انهما كانا يسدلان الستارة وكان الماء فى الدوش ساخنا . ولم يحب احدهما الآخر بمثل هذه القوة فى يوم من الايام .

وقف دميتريف امام البيت ونظر الى النافذة الوحيدة المضاءة — نافذة المطبخ . كان الطابق الثانى من البيت وجانبه الايسر مظلمين . فى هذا الفصل من السنة لا يعيش احد هنا . كانت لورا تفعل شيئا فى المطبخ . رأى دميتريف رأسها المنكس الى الطاولة وشعرها الاسود الذى وخطه الشيب ، والذى كان يلمع تحت المصباح الكهربائى وجبينها الملوح — ان العيش خمسة اشهر كل سنة فى آسيا الوسطى جعلها اوزبكية تقريبا . لقد نظر الى لورا من عتمة الحديقة كامرأة غريبة على شاشة مضيئة — رأى افول شبابها وامراضها التى اكتسبتها بسنوات من العمل فى الخيام ، ورأى الكآبة الشديدة لقلبها الذى يشغله الآن هم واحد .

ماذا تفعل هناك ؟ هل تكوى ؟ شعر بأنه لن يستطيع ان يقول لها شيئا . لن يستطيع اليوم ، الآن على اى حال . فليذهب كل هذا الى الجحيم ! لا يحتاج احد الى هذا ، لن ينقذ احدا ، ولن يجلب سوى معاناة والم جديد .

لانه لا يوجد ما هو اغلى من روح الانسان القريب .

حينما صعد على درجات المدخل ، اشتد وجيب قلبه . كانت لورا تقص بالمقص على طاولة المطبخ جريدة الى شرائط طويلة . دخل فيليكس بقصعة فيها نشاء مطبوخ . اخذ دميتريف يساعدهما . فى البداية الصقوا الشرائط على شقوق نافذة المطبخ ، ثم انتقلوا الى الغرفة الوسطى . لقد غفت الام منذ الساعة السادسة ، ولكنها ستستيقظ قريبا على الارجح . فى قرابة الرابعة والنصف ساءت حالتها واحست بالالم . فزعت لورا جدا وارادت ان تدعو الاسعاف ، ولكن الأم قالت ان لا جدوى من هذا ، بل تنبغى دعوة ايسيدور ماركوفيتش او طبيب من المشفى .

تناولت بابافيرينا فزال الالم . ما الامر ؟ الام منقبضة جدا . هذا التردّى المفاجئ لحالتها يحدث لها لاول مرة بعد خروجها من المشفى . وهى تقول ان كل شيء كما كان فى مايو تماما : الاوجاع نفسها وفى المكان نفسه .

تحادثوا بصوت خافت :

— تلفنتُ لك بعد الساعة الثالثة . . .

— نعم ، وكان كل شيء على ما يرام . ولكن بعد ساعة . . .

كان فيليكس يترنم همسا ويحشو بسكين المطبخ جوربا قديما من النايلون فى الشق بين درفتى اطارى النافذة ، وكانت لورا تدهن شرائط الجريدة بالنشاء ودميتربيف يلصقها . ثم جلسوا يشربون الشاى . وكانوا ينصتون كل الوقت الى غرفة الأم . كانت عينا لورا حزينتين ، وكانت اجاباتها فى غير محلها ، وحينما خرج فيليكس من الغرفة لامر ما ، همست بسرعة :

— ارجوك : سيبدأ الآن الحديث عن كونيا–اورغينتش ، قل له انك معارض بحزم . . . انك لا تستطيع . . .

رجع فيليكس بمغلف اسود فيه صور . اخذ يعرضها وهو لا يزال يترنم . كانت صورا ملونة لحفريات كونيا–اورغينتش : كسارات ، ابل ، اناس ملتحون . لورا ببنطال ومعطف مضرب ، وفيليكس يجلس القرفصاء مع شيوخ يجلسون القرفصاء ايضا . قال فيليكس انه ينبغى السفر فى اواخر نوفمبر . اقصى موعد هو بداية ديسمبر . فى الخامس عشر من الشهر يجب ان يكون هناك حتما . قالت لورا انه سيكون هناك ، سيكون ، لا داعى للقلق . ستتركه يذهب . السفر ضرورى ، طبعا ، ثمانية عشر شخصا ينتظرون . قال فيليكس ، وهو يجمع الصور ويدسها فى المغلف

الاسود — كانت اصابعه ترتجف قليلا — انه يجب على لورا ، للاسف ، ان تذهب ايضا . لان الاشخاص الثمانية عشر ينتظرونها كذلك .

— ولكننا اتفقنا : فى البداية تذهب انت . . .

— كيف تتصورين الامر ؟

كانت النظارة تقفز على انف فيليكس الضخم ، فكان يرفعها بحركة خاصة من خديه وحاجبيه .

— وكيف تتصوره انت ؟

— ولكن يوجد فيتيا ، والابن ، فى رأيى . . .

— يكفى ! فيتيا ، فيتيا . وماذا فيتيا . . . ليس هذا موضوع نقاش اليوم .

خبأ فيليكس المغلف فى جيب سترته المصنوعة من الفلانيليت واتجه الى الباب المؤدى الى الغرفة الاخرى ، ولكنه توقف عند الباب .

— ومتى تأمرين بمناقشة الامر ؟ ينبغى ارسال برقية الى ماميدوف .

لوحت لورا بيدها مرة اخرى بقوة اشد ، فاختفى فيليكس مغلقا الباب بهدوء . قالت لورا ان فيليكس جيد جدا يحب الاما ، والاما تحبه ، ولكنه بليد فى بعض الاحيان . بليد الى درجة لا تصدق . حتى انه يبدو للورا احيانا انه يوجد هنا شيء من الشذوذ . ثمة اشياء يستحيل تفسيرها له ، عندئذ ينبغى ان يقال له بحزم : هكذا ، ولا شيء آخر ! فيرضخ . انه لا يحسن النقاش . ينبغى أن يقول له دميتربيف بصرامة انه لا يستطيع البقاء مع الاما ، وعندها يتوقف عن المماحكة . وبالفعل ، كيف يستطيع دميتربيف البقاء ؟ وهل يأخذ الاما

اليه ؟ او ينتقل الى شقة أمه ؟ لينا لن توافق على هذا ولا على ذاك . من المهم لفيليكس ، طبعا ، ان يسافر الى كونيا ، ومن المهم لها ايضا ، كل هذا صحيح ، ولكن ما العمل ؟

بقى الهدوء فى غرفة كسينيا فيودوروفنا مسيطرا كالسابق . اخذ فيليكس سطل الفحم وانطلق عبر الشرفة وهبط السلم الى العنبر . سمع ضجيج المجرفة وهو يجمع الفحم . قال دميتريييف انه يمكن ، طبعا ، بذل محاولة لمقايضة الغرفتين بشقة من غرفتين — الامر الذى حاول فعله فى وقت مضى — ليعيشوا سوية مع الماما ، ولكنها مشكلة طويلة عريضة . وليست بالامر السهل . رغم انه توجد فرصة كهذه الآن .

لم يشأ ان يقول هذا ، ولكنه انطلق على لسانه من تلقاء نفسه بسهولة وفى الوقت المناسب . نظرت لورا الى دميتريييف بشىء من الدهشة . ثم سألت :

— هل هى فكرة لينا ؟

— كلا ، فكرتى . فكرتى القديمة .

— ولكن ، لا تخبر فيليكس **بفكرتك هذه** ، حسنا ؟ لانه سيتمسك بها . وليست ماما بحاجة الى هذا ابدا . فى حالتها هذه ، ثم تعانى بالاضافة الى ذلك . . . انا اعرف : فى البداية سيبدو كل شىء لطيفا ، نبيلا ، ثم يبدأ الضجر . كلا ، انها فكرة رهيبة . كابوس . اتصور هذا ! — وهزت لورا كتفيها اعرابا عن الخوف المفاجئ والاشمئزاز . — كلا ، سأبقى مع ماما ، ولن اذهب الى اى مكان ، اما فيليكس فسيستغنى عنى بشكل من الاشكال .

رجع فيليكس بسطل الفحم . كان مسموعا كيف كانت يداه تخشخشان فى السطل بهدوء ، كى لا يوقظ كسينيا

فيودوروفنا ، فيلتقط الفحم قطعة قطعة ثم يضع القطع بحذر على الصحيفة الحديدية امام المدفئة . ارتفع من باب المدفئة الحديدى صرير خفيف مصحوب برنين . ابتسمت لورا بسخرية تريد ان تقول شيئا ، ولكنها تابعت صمتها .

— ماذا ؟ — سألها دميتريييف .

— كلا ، لا شىء . انا ، بالمناسبة ، غالبا ما اتعجب : لماذا لا تبنيان لنفسيكما شقة تعاونية ؟ ليست غالية . ونسيباك يساعدانكما . فهما يحبان حفيدتهما كثيرا . . . — كان وجهها يبتسم ، ولكن عينيها تشعان ضغينة . انه وجه لورا المألوف ، المعهود فى السنوات السالفة . غالبا ما كانا يتشاجران فى طفولتهما ، وكان فى وسع لورا ، اذ تحتدم ، ان تضرب بأى شىء يقع تحت يدها : بالشوكة ، بالابريق .

— عم تتحدثان ؟ — سأل فيليكس من المطبخ . لقد شعر بشىء ما فى صوت لورا .

— انا اقول : لماذا لا يبنى فيكتور ولينا شقة تعاونية ؟ صغيرة ، بغرفتين . صحيح ؟

قال دميتريييف بصوت متهدج :

— لا نحتاج الى اية شقة . لا نحتاج ، اتفهمين ؟ على الاقل ، انا لا احتاج . انا ، انا ! لا احتاج الى اى شىء ، على الاطلاق . سوى ان تكون امنا فى وضع حسن . كانت تريد دوما العيش معى ، وانت تعرفين هذا ، واذا كان هذا يمكن ان يساعدها الآن . . .

غطت لورا وجهها براحتيها . لم يبق ظاهرا سوى شفتيها : كانتا تتقلصان بعذاب . فكر دميتريييف بيأس : «احمق ! لماذا اقول هذا ؟ فأنا بالفعل لا احتاج الى اى شىء . . .» كان

بوده لو يندفع الى اخته ويعانقها . ولكنه تابع الجلوس مسمرا الى الكرسى . اخذ فيليكس ، وهو واقف عند الباب ، ينظر بشرود الى زوجته مرة ، والى شقيق زوجته مرة اخرى . كان يسير فى هذه الغرف كربّ بيت ، قصيرا مجهولا بسترته المصنوعة من الفلانيليت ذات الجيوب المركبة ، مخلوقا كالزاغ ، مستديرا ، غريبا ، يرتدى خفين بيتيين بسلفتين يحدثان صريرا — يسير فى الغرف التى امضى فيها دميتريف طفولته . نظر دميتريف الى اخته الباكية بحيرة ، كما ينظر الى فوضى فى البيت ، الى باب بوفيه مفتوح بلا سبب ، ثم تمتم :

— فيليكس ، ابتعد لدقيقة !

ابتعد الشخص ذو السترة المصنوعة من الفلانيليت . اقترب دميتريف من لورا وربت على كتفها بارتباك :

— يكفى ، يكفى . . .

هزت رأسها ، ولكنها لم تكن قادرة على رفعه .

— كما تريدان ، كما تريدان . . . ان كانت ماما تريد ، فليكن . . .

بعد دقيقة تماما سمع صوت فيليكس من وراء الباب : «ممكن ، يا صديقيّ ؟» .

دخل ومعه ظرف .

— انظرى ، استلمت اليوم رسالة من ماميدوف . يسأل المسكين ، هل يشترى لنا كيسى نوم . هذا فى تشارجو ، فى القاعدة عند غوبير . معه نقود ، ولكن ينبغى ان نجيب فورا : يشترى او لا يشترى . حتى بالتلغراف .

كان يترنم ويزقزق بالسلفتين ، وهو واقف قرب كرسى لورا وبيده الظرف . سمع ضجيج فى غرفة كسينيا فيودوروفنا .

اندفع دميتريف الى الباب على رؤوس اصابعه . رأى فورا ان وجه أمه قد تغير .

— هل ترى هذه القباحة ؟ — قالت كسينيا فيودوروفنا بصوت ضعيف وحاولت ان تنهض قليلا .

سقط على الارض كتاب موضوع على اللحاف . انحنى دميتريف : الكتاب نفسه «الدكتور فاوستوس» بمؤشرة ضمن الصفحات المئة الاولى .

— ولكنى تحادثت معك اليوم صباحا ! — قال دميتريف بلوم شديد ، وكأن هذا الواقع فى غاية الاهمية بالنسبة الى حالة أمه ومسيرة المرض بأسرها .

سألتها لورا :

— وكيف حالك الآن ، يا ماما ؟ اليك الدواء وضعي ميزان الحرارة .

جلست كسينيا فيودوروفنا على السرير لحظة بلا حراك ، وبملامح تعبر عن الانسلاخ والتركيز غارت بكل شعورها فى اعماق نفسها . ثم قالت :

— الآن كأنما . . . — مدت يدها بحذر وتناولت فنجان الماء من لورا . انحنت الى الامام قليلا . — كأنما لا بأس . يا للهراء ! — ابتسمت واشارت الى دميتريف ان يجلس على الكرسى الى جانب السرير . — على كل حال مرض القرحة هذا شىء شنيع . انا ساخطة ، اريد ان اكتب احتجاجا . ان اطلب دفتر الشكايات . ولكن ممن ؟ ربما من الاله ؟

سألتها لورا :

— هل الاستلقاء هكذا مريح لك ؟ اقتربى الى هنا .

الآن ضعى ميزان الحرارة ، ثم احضر لك الشاى . اعطينى كيس الماء .

خرجت لورا . وجلس دميتريف على الكرسى . قالت كسينيا فيودوروفنا :

— ايه ، فيتيا ! انه لامر حسن انك اتيت ، تراهنا اليوم انا ولورا على لوح شوكولاته . اترى ما رسمته وانت طفـــل ؟ ها هو هناك ، على حافة النافذة . وجدته لورا فى الخزانة الخضراء . اعتقد انك رسمته فى صيف عام تسعة وثلاثين او اربعين ، اما لورا فتقول انك رسمته بعد الحرب . حينذاك كان يعيش هنا ذلك ، اتذكر ، ما اسمه . . . ايـــه ؟ انسان غير مستحب ، له كنية شرقية . نسيـــــت ، قل انت .

لم يتذكر دميتريف . ولم يتذكر الرسم ايضا . لقد امحى الى الابد كل ما يخص فنه . ولكن أمه كانت حريصة على هذه الذكريات فقال : نعم ، فى عام تسعة وثلاثين او اربعين . بعد الحرب لم يكن يوجد سور مزخرف ، احرقوه . سألته كسينيا فيودوروفنا عن مأمورية دميتريف ، فقال انه قُرر اليوم بالذات الا يذهب .

توقفت كسينيا فيودوروفنا عن الابتسام .

— آمل ان ذلك ليس بسبب مرضى ؟

— كلا ، اجلوها وهذا كل ما فى الامر . وما شأن مرضك هنا ؟

— لا اريد ، يا فيتيا ، ان تختل اقل اعمالكما شأنا . لان العمل هو قبل كل شىء . وكيف يمكن غير ذلك ؟ كل العجائز يمرضن ، هذه هى مهنتهن . نستلقى ، نتأوه ، نقف

على ارجلنا ، وانتم تضيعون الوقت الثمين وتحطمون عملكم . كلا ، هذا لا يجوز . مثلا ، الآن تعذبنى . . . — خفضت صوتها . — لوروتشكا . وهى تكذب علي دون وازع من ضمير ، وتقول ان السفر فى هذه السنة ليس الزاميا ، وفيليكس ايضا يمغمغ ويتملص من الجواب . ولكنى اعرف ما يجرى عندهما ! لماذا يتصرفان هكذا ؟ وهل انا مسنة عاجزة لا يجوز تركها وحدها ؟ لا شىء من هذا القبيل ! قد تحدث ، طبعا ، انتكاسات ، كما جرى اليوم ، وحتى اوجاع شديدة ، انا اعرف هذا ، لان العملية تجرى ببطء ، ولكنى من حيث المبدأ اسير نحو الشفاء . استطيع ان ادبر امرى بنفسى على نحو رائع . وسوف تتردد اليّ الخالة باشا . وانت قريب ، ويوجد تلفون ، فأية مشاكل ؟ وهناك ، اخيرا ، مارينكا ، وهناك فاليريـا كوزمينيتشنا ، وهى بطيبة خاطر . . . — سكتت ، لان لورا دخلت الغرفة تحمل الشاى .

— ماما ، لا تثيرى اعصابك ، — قالت لورا . — دعى فيتكا يتكلم واستمعى اليه . لماذا تهيجت هكذا ؟

— يثيرنى بعض الناس الذين لا يقولون الحقيقة .

— هكذا ؟ اعطينى ميزان الحرارة . . . — اخذت لورا ميزان الحرارة . — طبيعية . فيتكا ، لا تترك أمنا تثير اعصابها . استمع . والا طردتك . وتعال للعشاء بعد عشر دقائق .

حينما خرجت لورا ، همست كسينيا فيودوروفنا مجددا متحدثة عن الامر نفسه : كيف السبيل الى تنظيم الامور بحيث يستطيع المسنون ان يمرضوا بهدوء دون ان يختل شىء عند اولادهم . تحدثت الأم ، شأنها دائما ، بكلام بين المزاح والجد . اخذ دميتريف يضجر بالتدريج . لماذا تسهب فى

الحديث عن هذا ؟ انها احاديث فارغة . يستحيل تغيير اى شيء مهما كان الامر . ثم استدعي دميتربيف الى التلفون . كانت لينا تسأل ما اذا كان سيأتى الى البيت او سيبقى فى بافلينوفو للمبيت . كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة . قال دميتربيف انه سيبقى هناك . اوصت لينا بأن يبلغ كسينيا فيودوروفنا تحياتها الحارة وسألته عما اذا كان قد اخذ المفتاح . اجابها : «تصبحى على خير» ، — ووضع السماعة .

كان ذلك يخصه وحده . وهو وحده الذى كان يستطيع ان يقرر : هل يطلب المفتاح او لا . بعد قرابة الساعة والنصف ، قبل ان يأوى الى الفراش ، انتهز فرصة وجود كسينيا فيودوروفنا وحدها ، وقال :

— ثمة ايضا هذا الحل : يمكن ان نقوم بالتبادل ونسكن معا فى شقة واحدة ، وعندئذ تصبح لورا طليقة . . .

— التبادل معك ؟

— كلا ، ليس معى ، بل مع احد ما لتعيشى معى .

— هكذا ؟ أفهم ، طبعا . كنت اريد جدا ان اعيش معك ومع ناتاشكا . . . — صمتت كسينيا فيودوروفنا . — اما الآن فلا اريد .

— لماذا ؟

— لا اعرف . لم تعد عندى هذه الرغبة منذ زمن بعيد .

صمت مصعوقا .

نظرت كسينيا فيودوروفنا اليه بهدوء ، اغمضت عينيها . كان يبدو انها تغفو . ثم قالت :

— لقد بادلتَ ، يا فيتيا . تم التبادل . . . — وحل

الصمت من جديد . وبعينين مغمضتين همست بشيء غير مفهوم : — كان ذلك منذ زمن بعيد جدا . وهو يحصل كل يوم ، لذا لا تعجب ، يا فيتيا . ولا تغضب . هكذا بشكل غير ملحوظ . . .

جلس قليلا ، ثم نهض وخرج على رؤوس اصابعه .

نام دميتربيف فى الغرفة التى اقام فيها مع لينا فى وقت مضى ، فى اول صيف . هناك كان على الجدار ، كالسابق ، البساط الذى علقته لينا . ولكن ورق الجدران الجميل ذا اللون الاخضر والرسوم المضغوطة كمدت وبهتت بشكل ملحوظ . فكر دميتربيف ، وهو يغفو ، فى الرسم المائى القديم : جزء من الحديقة والسور ومدخل البيت الصيفى والكلبة نيلدا على السلم . كانت كلبة تشبه النعجة . كيف استطاعت لورا ان تنسى ان نيلدا لم يعد لها وجود بعد الحرب ؟ صار بعد الحرب يرسم كالاهوس . ولم يكن يفارق الالبوم . وكان يرسم على افضل نحو بالريشة والحبر الصينى . لو لم يسقط فى الامتحان ويندفع بسبب الحزن الى اول معهد يصادفه ، لا فرق — معهد الكيمياء او النفط او الصناعات الغذائية . . . ثم صار يفكر فى غولشمانوفو . رأى الغرفة فى البراكة ، حيث عاش شهرا ونصف الشهر فى السنة الماضية . وفكر ايضا ان تانيا افضل زوجة بالنسبة له . استيقظ مرة فى منتصف الليل وسمع فيليكس ولورا يتحادثان بصوت خافت فى الغرفة وراء الجدار .

فى الصباح ذهب دميتربيف مبكرا ، وكانت كسينيا فيودوروفنا لا تزال نائمة . اعطى لورا مئة روبل . وقالت لورا انها انت فى الوقت المناسب تماما . فطروا على عجل ، ثم هرع

الى الترولى باص . كان الشروق مظلما . وفى الحديقة كان مطر الليل يقطر من الاشجار . فى الموقف كان ينتظر شخصان ، وبعيدا عنهما بعض الشىء جلست على الارض كلبة كبيرة . لم يكن مفهوما لمن هى . اقترب ترولى باص خال ، فصعدوا اليه كلهم ، وبعد الجميع قفزت الكلبة بصورة مفاجئة الى الترولى باص . كانت الكلبة حاملا ، وقد قفزت بصعوبة وجلست على الارض قرب صندوق التذاكر . سار الاثنان الى الامام بفزع ، اما دميتريييف فتوقف مترددا . نظرت الكلبة الى النافذة . كان يلزمها شىء فى الترولى باص . وفكر دميتريييف فى ان السائق قد ينقلها بعيدا ، فتهلك . اذ لا احد يستطيع ان يفهم ما الذى يجرى معها ولماذا هى فى الترولى باص . فى اقرب موقف ، حيث تنحى الناس عن الباب ، نزل دميتريييف ودعاها : «اخرجى ، اخرجى» ، فقفزت الكلبة مذعنة وجلست على الارض . وافلح دميتريييف فى ان يقفز عائدا . ومن خلال زجاج الترولى باص المبتعد رأى الكلبة تنظر اليه .

تلفنت كسينيا فيودوروفنا بعد يومين الى دميتريييف فى العمل وقالت انها موافقة على الانتقال الى شقة واحدة شريطة الاسراع فى ذلك . وبدأ الاخذ والرد . آل ماركوشيفيتش سقطوا من الحساب ، طبعا ، ثم سقط بعدهم الكثيرون الى ان ظهر استاذ فى رياضة الدراجات وتم انجاز كل شىء معه فى اواسط ابريل . لم تكن حالة كسينيا فيودوروفنا بالرديئة . وحتى انهم احتفلوا بالانتقال الى الشقة الجديدة ، وأتى الاقارب باستثناء لورا وفيليكس اللذين لم يرجعا من كونيا التى بقيا فيها ، كالعادة ، حتى موسم الحر . ولكن المتاعب لم تنته عند هذا الحد : كان لا بد من تسجيل وثائق الشقة الى اسم دميتريييف ، الامر الذى اتضح انه

عمل اصعب من التبادل . فى البداية رفضت اللجنة التنفيذية لان الاستدعاء لم يصغ بالشكل الصحيح ، ولان الاوراق لم تكن كاملة . والشيخ سبيريدون صمويلوفيتش ، السمسار ، الذى كان دائما يتباهى بأنه كان على معرفة وثيقة بحقوقي قسم الاسكان فى الحى اتضح انه مجرد كذاب . وحتى ان الحقوقي لم يسلم عليه حينما التقيا وجها لوجه . وكان ذلك الحقوقى لولب القضية الرئيسى ، لانهم لم يكونوا يستدعون مقدمى الاستدعاءات الى الجلسة ، ولم يكن الحكم يتخذ الا على اساس قرار الحقوقى والوثائق المقدمة . فى اواخر يوليو تردت صحة كسينيا فيودوروفنا بشدة ، فنقلت الى المشفى الذى كانت فيه قبل سنة تقريبا . توصلت لينا الى النظر فى الاستدعاء ثانية . فى هذه المرة كان مزاج الحقوقى كما ينبغى ، وكانت كل الوثائق على ما يرام : أ) وثيقة تؤكد علاقات القربى ، اى شهادة ميلاد دميتريييف ؛ ب) نسختان عن الاذنين اللذين اعطيا فى حينهما لشغل المساحات السكنية ؛ ج) نبذ من سجلات السكان للاقامة ؛ د) نسخ عن الحسابات الشخصية المالية المقدمة من محاسبة ادارة المساكن ؛ هـ) نبذة محضر اللجنة الاجتماعية-السكنية لدى ادارة المساكن التى تطلب فيها اللجنة الاجتماعية-السكنية من اللجنة التنفيذية تلبية طلب ضم الحسابين الشخصيين . وفى هذه المرة كان القرار مرضيا . بعد موت كسينيا فيودوروفنا اصيب دميتريييف بنوبة ارتفاع فى الضغط وبقى فى البيت ثلاثة اسابيع طريح الفراش مع التقيد بنظام سريرى صارم .

ما الذى كنت استطيع ان اقوله لدميتريييف حينما التقينا يوما عند معارفنا المشتركين فحدثنى عن كل هذا ؟ كان يبدو متوعكا . وكأنه انهار دفعة واحدة ووخط الشيب شعره . ليس

بعد مسنا ، ولكنه كهل ، عم غائر الخدين . اتذكره صبيا فى بيوت الاصطياف فى بافلينوفو . كان بدينا حينذاك . فكنا نطلق عليه لقب «السمين» . انه يصغرنى بثلاث سنوات تقريبا ، وفى ذلك الزمن كانت اواصر الصداقة تربطنى بلورا ، اكثر مما تربطنى به . وقد هُدم مؤخرا البيت الصيفى لاسرة دميتريف فى بافلينوفو ، شأن كل البيوت المجاورة ، وبنى مكانها ستاد «بوريفيستنيك» وفندق للرياضيين ، وانتقلت لورا وفيليكس الى بناية من تسعة طوابق فى زيوزينو .

١٩٦٩

ترجمة د. ابو بكر يوسف

الوداع الطويل

فى ذلك العهد ، منذ حوالى ثمانية عشر عاما ، كان فى هذا المكان الكثير من البنفسج . وهناك ، حيث يوجد الآن «متجر اللحوم» ، امتد سور خشبى أصفر من اسوار البيوت الريفية — كان كل شىء هنا يبدو ريفيا ، وكان القاطنون هنا يعتبرون انفسهم من سكان البيوت الريفية — وفوق السور استقرت اغصان البنفسج . ولم يكن فى وسع السور الصغير ان يحيط بالاغصان المنفوشة فامتدت متدلية عبره الى الخارج . كان البنفسج كيانا عنفوانيا . ومهما أخذ المارة من اغصانه ، ومهما قصقصوه وكسروه وشدوه فقد ظل محافظا على استدارته الانثوية ، وكل ربيع يذهل هذا الشارع التافه المعفّر بالزهور والاريج . وعندما يزهر ويقف مغطى كله بالزبد ، كان يبدو اشبه بمدينة . . مدينة قديمة على البحر فى الجنوب ، حيث الشوارع محفورة فى الصخور ، وحيث البيوت تتكدس فوق بعضها ، مدينة بأديرة وسلالم حجرية ملتوية ، حيث تجلس العجائز فى الظل على الاحجار ويبعن علبا من المحار . كان اشبه بمدينة قديمة ساعة الغسق .

ولكن ذلك كله ، على العموم ، كان منذ زمن بعيد . أما الآن فتقوم مكان البنفسج عمارة من ثمانية طوابق ، وفى الطابق

الارضى منها «متجر اللحوم» . فى ذلك الحين ، فى عهد البنفسج ، كان سكان البيت الصغير الواقع خلف السور الريفى الاصفر يسافرون بعيدا لشراء اللحم مستقلين الترام حتى سوق فاجانكوفو . اما الآن فكان من السهل عليهم ان يشتروا اللحم . غير أنهم ، للأسف ، لم يعودوا يسكنون هناك .

عندما وصلوا الى ساراتوف كان كل شىء فى البداية فظيعا للغاية : فقد نزلوا فى فندق سيئ ، وكان الجو قائظا ، ولم يقبل الجمهور على العروض ، وكان كل شىء يعتريه الفشل ، ومرض الممثلون ، اما سرجى ليونيدوفتش ، الذى لا يطيق الحر والفنادق السيئة ، فقد قفل عائدا الى موسكو وترك سمورنى فى محله . وسمورنى هذا التحق بالمسرح منذ حوالى عامين ، وعلى الفور كما لاحظت لالا «وضع عليها عينه» . لكنها صدته عنها دون تردد لان شائعة قد سرت بأنه يتآمر على سرجى ليونيدوفيتش ويريد ان يشغل مكانه ، وبدا ذلك لها دناءة رهيبة ، و لم تكن تطيق الأدنياء . صحيح انها لم تعرف بالضبط مدى أبعاد دناءة سمورنى وكيف يتآمر على سرجى ليونيدوفيتش بالتحديد ، ولكن الناس قالوا ان هناك دناءة ، فصدقت لالا هذه الأقاويل بحدسها الخاص الذى اعتادت ان تثق به . لقد كان مسرفا فى التهذيب والتأنق وبياض الوجه ، وبعينين فاترتين ، ثم هذه الطريقة الريفية فى تطويح الشعر المتهدل على الجبين الى الوراء بحركة أبية حادة من الرأس . وذات مرة بيَّن سرجى ليونيدوفيتش ساخرا كيف رأى بالصدفة سمورنى وهو يركض بخطواته القصيرة السريعة النشطة عبر البهو الخالى ، واذ به قد توقف فجأة امام المرآة ، ثم تأمل نفسه بنظرة طويلة ثاقبة ، وبحركة من رأسه

طوّح شعره الى الوراء بلذة أبية ، حتى ان سرجى ليونيدوفيتش ، حسبما قال ، أصيب بالذهول الى حد ما . نعم ، سرجى ليونيدوفيتش يعرف كيف يقلِّد الاخرين بطريقة قاتلة . ودون ان يقول شيئا يقدم صورة مكتملة ، كل شىء فيها واضح . وبالطبع لم ينس سمورنى أن لالا صدته ، فراح يضايقها بكل الطرق ويحاصرها ويكيد لها ، أو كما يقولون فى المسرح **يزنق عليها** ، بينما كان فى الوقت ذاته يجس نبضها ، ترى ماذا ستفعل ؟ وقد اخرج مسرحيتين ، اذ كان سرجى ليونيدوفيتش مريضا ، وفشلت المسرحيتان ، احداهما تجرجرت نصف موسم ، اما الثانية فلم تكمل حتى النصف ، ولكن ، ولكن المسألة ليست فى ذلك ، بل فى انه لم يختر لالا فى المسرحيتين . وكان أحد الأدوار مناسبا لها بالضبط ، والفرقة كلها ترى ذلك ، ومع ذلك مكن من ابعادها عنه واسنده الى متدربة من مدرسة المسرح . وعلى العموم كان كل شىء واضحا . وقالت لها صديقاتها : «ما لك تحرنين ؟ لقد جرحت كرامته ، فلتوافقى من باب المزاح ، ماذا يهمك ، لن ينقص منك شىء» . ولكن لالا بدت وكأنها استغلقت . ما كانت لتوافق فحسب ، بل وما كانت تستطيع حتى ان تجلس معه الى طاولة واحدة فى البوفيه .

لقد عاشت وضعا مماثلا فى نهاية الحرب * . . وكانت لالا آنذاك فى الثامنة عشرة ، وفى حارة بوتنيكوف تجمعت شلة مرحة عند أللاتشكا شليفر ، بعض افرادها جاء من الجبهة ،

---

* الحرب الوطنية العظمى التى خاضها الشعب السوفييتى ضد الفاشية من يونيو ١٩٤١ حتى مايو ١٩٤٥ . **المعرب** .

وبعضهم من المستشفيات واخرون من مواطن التهجير ، من امكنة مثل كاميشلوف أو نامانجان . وبدأ كل شيء من جديد . . الآمال والاغانى ، والاقبال الشاب على الحياة والتكون ، والحب والشفقة على كل من عادوا ، والمصاحبات الطويلة عبر موسكو ، ومداخل البيوت الليلية . . وفجأة جاء احدهم . . اشيب ، فى الثلاثين ، بعينين صافيتين رائقتين كالبلور ، لم يترجّ ولم يدع احدا لأن الجميع ذهبوا اليه بلا دعوة . قال انه سيوسس ستوديو «السفينة الزرقاء» . وكانت للالا رغبة شديدة فى الالتحاق بالاستوديو ، لأن الأمر حُسِم ، فبدون المسرح لا معنى للحياة وبالطبع اخفقت فكرة الاستوديو ، ولكنهم آمنوا بها طويلا . فى ذلك الوقت كان هناك ياشا ولازيك ، وكانت حائرة ممزقة بينهما ، وتشعر بالشفقة عليهما معا : ظهر ياشا أولا ، فى عام ثلاثة واربعين ، بعد ان خرج من المستشفى ، وقد هلكت اسرته كلها قرب مينسك ، وكان اكبر منها باثنى عشر عاما ، ولكنه عاجز . عديم الحيلة كطفل ، وعقلية رياضية عظيمة . اما لازيك فكان شاعرا ، اعرج ، فَقَدَ ساقه فى الحرب قرب لينينغراد ، وكان يؤلف الاغانى وينشدها على الجيتار بصورة رائعة . لكن الرجل ذا الشعر الأبيض والعينين الرائقتين كان مختلفا عنهما تماما . . لقد كانت الحياة رهنا به . ولم تعرف لالا كيف تسلك معه . وكان يوم سبت عندما تكدس فى شقة اللاتشكا الواسعة الخالية (فقد كان ابواها مشغولين باعمال رسمية هامة فى ألمانيا المهزومة) حوالى عشرين شخصا من معشر الشباب ، واذ به يسحب لالا فجأة الى بسطة الدرج ، ويقول لها بلهجة الاوامر انهما سيذهبان معا الى بيته وسيعطيها الكتاب الذى وعدها به منذ وقت بعيد . ولم تستطع لالا أن تتفوه بكلمة واستولت

عليها رعشة . وظلت ترتعش طوال الطريق وهما فى الترام وتكتم رعشتها مطبقة على اسنانها حتى لا تصطك . كلا ، لم تكن خائفة ، ولم تكن الرعشة بفعل الخوف ، بل كان ذلك وجيب حلمها «بالسفينة الزرقاء» ! لم يتكلم مع لالا قبل الآن مطلقا ، ويبدو حتى انه لم يلحظها . ولم يدر بينهما حديث عن اى كتاب . وما ان دخلا الغرفة ، وقبل ان يشعلا النور ، وحتى قبل ان تنزع لالا المعطف ، أطبق على كتفها وكاد يلقى بها ، وبحركة خشنة عثر بشفتيه على فمها بأسلوب صاحب الأمر والنهى ، حتى ان الغضب أعماها فراحت تدفعه عنها وهو لايفلتها ويشدها الى مكان ما ، وتصارعا فى الظلام ، ثم ضربته بقبضتها فى وجهه ، ويبدو انها كانت ضربة قوية اذ صرخ من الالم فانفلتت راكضة . وظلت يومين حبيسة «السندرة» فى الطابق الثانى وتدعى انها مريضة ، بينما كانت تنتحب لأن الحياة انتهت ، ولأن الاحلام لا تتحقق ، ولا يمكن ان تثق بالناس ، ولكنها خرجت فى اليوم الثالث من البيت ، وسارت حتى محطة مترو «سوكول» وابتاعت آيس كريم — وكان ذلك شيئا جديدا ، عاد من ايام ما قبل الحرب الحلوة ، فقد بدأ لأول مرة بيع الآيس كريم بصورة حرة وان كان بسعر تجارى ، مرتفع ، ولكن ذلك كان يعنى ان البطاقات ستُلغى حتما ، والسعادة السابقة قريبة ، والسعادة الجديدة غير بعيدة . . وحلت طمأنينة وسكون روحى ، الأمر الذى يحدث دائما على غرة بسبب اشياء غاية فى التفاهة . فلم تعد تأسى على «السفينة الزرقاء» المنهارة ، ولا تأسف لصفعها رجلا كهلا على وجهه ، ولا لانها لن تذهب بعد اليوم الى اللاتشكا شليفر . ولكنها ، وهى تتذكر ما حدث وتفكر فيه ، اكتشفت نفسها فى صورة جديدة . وهكذا فكرت : اذن فأفظع

شيء والاكثر استحالة هى التبعية . عندما تكون هناك تبعية فمعنى ذلك النهاية ، معناه المأزق ولا مخرج منه . لقد كانت تدرى وهما يستقلان الترام ، وبينما كانت تكبت الرعشة بكل قواها ، **ما الذى سيحدث ولأى غرض تذهب** . وكان عليها ان تقرر . وهناك ، فى الترام أيضا ، أدركت أنْ لا . لقد ارتكبت خلال حياتها القصيرة الكثير من الاخطاء ، ولكنها كانت اخطاء انفعالات واحاسيس لا اخطاء حسابات . وبعد ثلاث سنوات التقت بذلك الرجل عرضا عند احد اصدقاء جريشا ، فتظاهرا كلاهما بعدم معرفة احدهما الآخر .

ومثله ايضا مثل ذلك الرجل ذى العينين البلوريتين ، كان سمورنى يعجب الكثيرات ، وخاصة النساء الشابات اللائى يكثر عددهن دائما بعد الحرب الطويلة . وفى المسرح تنامت عظمة سمورنى شهرا بعد شهر ، خاصة اثر مرض سرجى ليونيدوفتش وتغيبه لفترات طويلة . وكان معروفا للجميع ان سمورنى طلق زوجته وترك لها شقة كبيرة ، وهذا تصرف نبيل للغاية ، ولم يأخذ سوى غيارين والة كاتبة (وكان اللغز هو : ما حاجته الى الالة الكاتبة ؟) ، وانه فى سن رائعة ، فى الثامنة والثلاثين ، ويعيش وحده فى غرفة متواضعة قرب كراسنيه فوروتى وبالطبع كان واضحا للجميع انه سيحصل على كل ما يبغيه وستكون لديه كل نعم الحياة . وكانت لالا تتعثر فى اذيال الادوار الثانوية ، ومع ذلك استغلقت . وسرعان ما اصبح لا يوليها حتى نظرة . وفى ساراتوف ، عندما حل محل كبير المخرجين ، حشرها فى اسوأ غرفة ، فى الطابق الاول مع عاملة المكياج .

عرضوا فى ساراتوف المسرحية التى اخرجها سرجى ليونيدوفتش فى الربيع ، حيث كانت لالا تمثل مشهدا تافها عبارة عن

خروج مرتين الى الخشبة ، وخمس وعشرين كلمة . ولم تكن المسرحية ناضجة ولكن الذنب لم يكن ذنب سرجى ليونيدوفتش بل ذنب المسرحية نفسها . فهى شيء ممل عن غرس الاشجار . وقد اخرجوها بدافع موضوعها . ومدحتها الصحف ولكن الجمهور لم يقبل عليها . وكتبت صحف ساراتوف عن المسرحية بحماسة خاصة لأن مؤلفها — المسرحى الناشئ سموليانوف الذى لا يعرفه الكثيرون — هو من اهالى ساراتوف — بالاحرى هو الان من اهالى موسكو ، ولكنه قضى طفولته وصباه فى ساراتوف . وقد جاء المؤلف الآن ، فى ايام عرض المسرحية ، الى مسقط رأسه حيث تعيش أمه العجوز وابنته الصغيرة المريضة . وذات يوم اثنين ، عندما كانت الفرقة فى اجازة ، فى يوم حار من ايام يوليو ، دعا جميع الممثلين الذين يمثلون فى المسرحية الى تناول العشاء فى منزله .

وقد بدأ ذلك اليوم بالمنغصات . ففى الصباح التقى سمورنى مع لالا فى ممر الفندق فدعاها الى غرفته دون ان يبادرها بالتحية ، الأمر الذى كان غريبا عليه كشخص مهذب .

قال لها :

— خمس دقائق !

ولوح بغباء براحته مباعدا بيد اصابعه امام وجه لالا .

وفى غرفة سمورنى ، التى كانت افضل غرف الفندق ، وكانت تسمى «اللوكس العائلى» ، حيث كانت الستائر من المخمل الاحمر الداكن ، وكان مفرش الطاولة البيضاوية تحت الابريق من نفس المخمل ، وحيث كانت هناك حنية بستائر من نفس المخمل وفى عمقها لاح شيء ابيض ، وحيث فاحت رائحة

اعقاب السجائر الخانقة وكولونيا ماركة «شيبر» ، جلست لالا الى الطاولة البيضاوية ، بينما اختفى سمورنى فى الحنية للحظة وعاد على الفور حاملا ورقة وقال لها :

— تفضلى تفرجى ، جاءت امس مع البريد من موسكو . محولة من المراجع العليا . كانت معنونة الى هناك ، لكنهم أعادوها .

ورأت لالا عدة صفحات مكتوبة بالحبر الأسود ، فعرفت فيها — لهولها — خط امها !

هذا هو افظع شىء واخشى ما كانت لالا تخشاه . امها تنشد العدالة . يا الهى ، كم مرة قالت لها ، وكم توسلت اليها وجثت امامها على ركبتيها لكى لا تتدخل ابـــدا ، ولكى لا تكتب اى رسائل او شكاوى ! فكتابة الرسائل هوايتها المفضلة . فى زمن ما كتبت الى مدير المدرسة وطالبت بمناقشة رسالتها فى مجلس الاباء ، وكتبت الى قسم التعليم فى المنطقة ، وبعد ذلك ، عندما لم تقبل لالا فى مدرسة التمثيل ، كتبت الى الوزارة . وحتى فى البيت ، عندما تغضب من احد ما ، فانها تستوضح الامور معه عن طريق الرسائل . ولم يكن نادرا ان تستيقظ لالا من نومها فتجد على طاولتها صفحتين او ثلاث او اربع ، واحيانا اكثر من ذلك ، بل وربما دفترا مدرسيا كاملا مكتوبا باسطر كبيرة متصلة بدون علامات تنقيط : «حبيبتى عليك ان تعرفى انك حينما تأخذين شيئا ليس لك فعليك ان ترديه دون انتظار لان يطالبوك برده فهذا ليس من اللباقة انت اخذت لفاعى الفرائى الاسود . . .»

كتمت لالا انينها وقربت منها الوريقات المكتوبة ، وعلى الفور عرفت دفتر الحسابات الكبير العائد لابيها ، والذى انتزعت

منه هذه الوريقات ، وراحت تقرأ بعجل وهى تقفز فوق الاسطر ، لم تكن لديها القدرة على القراءة المتأنية والامعان فى كل كلمة .

«تكتب اليكم والدة ممثلة شابة . . . منذ جماعة التمثيل المدرسية التى كان يشرف عليها الفنان القدير . . . وللعام السادس بعد التحاقها بالفرقة . . . هل ينبغى على ممثلينا الشبان . . . والى متى يستمر تعسف المخرجين . . .»

— ماذا بوسعى ان أقول يا جيرمان فلاديميروفيتش ؟ — ونحّت لالا الوريقات جانبا ونظرت نظرة يأس الى سمورنى الذى انحنى فوق الطاولة وهو ينظر اليها من اعلى بابتسامة جامدة — الكاتبة هى امى ، وانا كما تعلم ، لست مسئولة عن تصرفها . وفوق ذلك فهى شخص مريض .

— شخص مريض ؟ لا يبدو ذلك من الرسالة . العبارات مترابطة والاتهامات خطيرة رغم انها بلا اثبات ، اى انها شكوى كيدية . ولكنها مكتوبة بدهاء ، ومن بين السطور تبدو بعض الاشياء . المرضى لا يقدرون على ذلك .

— ما هو الذى رأيته بين السطور ؟

— انظرى هنا — واشار باصبعه — هذا الموضع الفواح .

ورأت لالا عبارة كانت قد تخطتها فى القراءة الاولى :

«. . لم تستجب له ، فتبع ذلك انتقام المخرج منهـــا ، فالمسرحيتان اللتان أخرجهما . . .» أوه ، يا الهى ، لم هذا ؟ لماذا ، لماذا ؟ ولم يعد بوسع لالا الآن ان ترفع عينيها الى سمورنى ، وراحت تمط الوقت وهى تحرك شفتيها متظاهرة بانها تفك طلاسم الخط بصعوبة . وانتظر سمورنى بصبر ثم سألها :

— حسنا ، اود ان اسمع . . .

— وماذا بوسعى ان اقول ؟

ونظرت لالا اليه . . لم يكن يبتسم ، وعيناه صارمتان معدنيتان ، وشفتاه مزمومتان .

ـــ كيف هذا ؟ اسمحى لى ان اعرف : ما معنى هذا الهذيان ؟ اى انتقام تعنى ؟ ما هذا اللف والدوران ؟

ـــ انا لا ادرى يا جيرمان فلاديميروفيتش ، اقسم لك . .

وفجأة لم تتمالك نفسها فأفلتت منها ضحكة ، لان الامر كله لم يكن يعدو مجرد تفاهة . وهل كان بوسعها ان تذكره بما كان منه . وذلك الوجه المحتقن المحمر غضبا . بالطبع امها ارتكبت حماقة ، ولكنها ذكرت الحقيقة . وهو يدرى انها ذكرت الحقيقة ، ولكنه يجعل عينيه معدنيتين ويطالب ، يا الهى بماذا يطالب ؟ بان تشعر لالا بالخجل من امها ، بان تموت خجلا ، وبحيث يكون هذا الخجل نوعا من التعويض عن المنغصات التى سببتها له هذه الرسالة المحولة من المراجع العليا . الآن لم يعد يهمها شيء . واذن فلا داعى للشعور بالخجل من امها . فلم الخجل من امرأة تعيسة تتعذب ولا تذوق النوم بسبب مشاكل ابنتها وتبذل جهدها بقدر ما يسعفها فهمها . . . ولكن الشيء المهم انها ذكرت الحقيقة ! الحقيقة كلها من اول سطر الى اخر سطر .

واذ اطمأنت لالا تماما وهدأت فقد باحت بكل ذلك لسمورنى : ماما طبعا ليست دبلوماسية ، وتتصرف بحماقة ، وسوف تحاسبها لالا على ذلك ، ولكنها محقة فى بعض الامور . ماذا تقولين ، كيف هى محقة ؟ نعم ، اقول كذا وكذا ، عما تعرفه انت جيدا . انت مغرورة بنفسك بصورة فظيعة ! كلا ، ولكن ليس لدي ما اخاف ان افقده . كلا يا عزيزتى ، لديك ما تفقدينه . ليس هذا مخيفا يا جيرمان

فلاديميروفيتش . لو حتى فنانة القاء فى «مسرح المتنوعات» او فى الاذاعة لهو خير من ان اكون هنا ، تحت جناحكم . لا تظنى انه من السهل العثور على وظيفة ، خاصة بالنسبة لك ، بلا تعليم عال مسرحى . لا بأس ، ساحصل دوما على الستمائة وخمسين روبلا التى اتقاضاها الان * ، بل واكثر . حسنا ، انا لا تهمنى مشاريعك الخاصة ، اما هذه الكعكة فسوف نرسلها اليوم الى سرجى ليونيدوفتش ، فليأكلها . المراجع العليا تطلب ردا . وانا لا يهمنى ، افعل ما تريد . حسنا ، اتفقنا . مع السلامة . طاب يومك . نعم يا جيرمان فلاديميروفتش ، ينبغى ان تهوى الغرفة ، فالرائحة هنا فاسدة .

هرولت لالا من غرفة سمورنى الى الشارع ، ودارت فى المتنزه ووقفت فى طابور ما دون غرض ، ثم عادت الى غرفتها فى الفندق واستلقت على الفراش . كان قلبها يدق بعنف ، وتواردت الى لسانها شتى الكلمات الغاضبة والعادلة التى لم تقلها . فلماذا مليوتينا ، التى لم تلتحق بالمسرح الا بالامس ؟ وهكذا وما الى ذلك . فلندع جينكا مليوتينا فى حالها ، مسكينة ، فهى ام وحيدة . ولكن يا له من وغد ، يقول : بلا تعليم مسرحى عال ! للمرة الثانية يخزنى بذلك . من الممكن ان تكون معك شهادة وانت لا تفقه . وما اكثر الامثلة ! الناس لا يصبحون ممثلين بل يولدون كذلك ايها المغفل . لقد قبلوها فى الفرقة برجاء شخصى من سرجى ليونيدوفتش ، وهو بلا شك يفقه اكثر مما يفقه امثال سمورنى . ولكن المصيبة ليست فى

---

* بعد الاصلاح النقدى فى عام ١٩٦١ اصبح هذا المبلغ يعادل الان ٦٥ روبلا . **المعرب** .

22-264

هذا ، المصيبة هى انها تخجل من امها ، كلا بل من نفسها ، وبصورة لا تطاق ! وهذا ما كان يسعى اليه . . ان تحترق خجلا . وبالفعل فهى تريد ذلك . هكذا ، تتمدد مشدودة الاطراف ، مزمومة الاسنان ، مغمضة العينين ، دون ان تتحرك **وتحترق خجلا** ! تتفحم وتندثر . لن تكتب لها الحياة فى المسرح ، وسرجى ليونيدوفتش سيلعنها ، والممثلون سوف يضحكون منها ، وكما يقول بوب ميرونوفتش سوف «يتسالطون» عندما يعلمون ، وهم حتما سيعلمون ، فسيبذل سمورنى جهده من اجل ذلك . وستضطر الى الرحيل . ولكن ذلك مستحيل ، ولا مكان تذهب اليه . لو ان امور جريشا تقدمت قليلا ، اذن لأمكنها ان تغامر . . اما الان فكيف ؟ من اين تأتى بالستمائة وخمسين روبلا ؟ وكما هى العادة عندما تتلقى لالا نقرة على انفها — وما اكثر ما تلقت فى حياتها من نقرات كانت تزداد ايلاما مع كل عام — كما هى العادة بعد الاحساس بالاهانة واليأس الصامت والافكار المتسرعة والملهوجة : ما العمل ، وكيف تحتج . . بعد ذلك يأتى احقر شىء ، الشىء القاتل : الشكوك . فماذا لو كانوا على حق ؟ ماذا لو انها حقا بلا موهبة ؟ والجميع يرون ذلك ويدركونه ، وسرجى ليونيدوفتش يشفق عليها لصداقتهم القديمة ، اما سمورنى فلا حاجة به الى الشفقة .

رقدت لالا طويلا بلا حراك فى الغرفة الخاوية — فقد ذهبت عاملة المكياج الى مكان ما ولم يكن ثمة من تفضى اليه باحزانها — وقد ارهقتها افكارها الرهيبة حتى انتشلتها من جمودها الكئيب صيحة فى الدهليز : «تليبنيوفا ، اخرجى» . اه ، اليوم الاثنين ! وامها تخابرها كل يوم اثنين ، فى يوم عطلة المسرح . كان الصوت مسموعا جيدا .

— يا بنيتى ! كيف حالك ؟ كيف اخبارك ؟

كان الهاتف فى الدهليز ، والناس يروحون ويجيئون . مر باشا كورنيلوفتش مع ماكييف نحو الباب ومعهما حقيبة يد ، يبدو انهما ذاهبان الى السوق . وعندما مر باشا بجوارها ضربها على مؤخرتها براحته ، هذا الوغد ، دائما يضربها . ومع ان لالا كانت محزونة ومستغرقة فى الحديث ، لكنها غطت السماعة بيدها وصاحت :

— شد ! شد فورا !

وعاد باشا منصاعا وشد تنورتها : حتى لا ينفضّ عنها المعجبون . وبالطبع كان من غير المعقول ان تقول فى هذا المكان لامها كل ما يعتمل فى صدرها . وسألتها فعرفت ان اباها بخير ويسعى من اجل الحصول على قطعة ارض للحديقة دون تقدم . وجريشا يعيش فى غرفته فى باشيلوفكا ، وقد احضر مؤخرا حسب طلبها خضروات ، ولكن البطاطس ليست جيدة فهى صغيرة الحبات وغالية ، فالبطاطس الجديدة تباع فى كل مكان بثلاثة روبلات ونصف اما هو فلم يوفق فى شرائها ، اذ انه ذهب فى الصباح عندما كانت تباع باربعة روبلات . وقد بعث حديث البطاطس شيئا من القلق فى نفس لالا ، فثمة فيه ايماءة مبطنة الى سخط امها المعتاد على صهرها ، فقاطعتها لالا بنوع من العصبية قائلة لها ان اسعار البطاطس لا تهمها ، ولكنها تريد ان تعرف شيئا عن امور جريشا ، هل ردوا عليه من استوديو السينما ؟ وكأنما امها تتوقع هذا ، اذ اجابت بنبرة شكوى عدوانية :

— الا تعرفين ان زوجك جريشا لا يحدثنا بشىء عن اموره !

ولو كانت لالا فى حالة اخرى لتجاهلت هذه الجملة باعتبارها شيئا عاديا ، اما الآن ، وهى بالكاد تتمالك نفسها من ان تصرخ فى امها ، فلم تستطع ان تصمت واجابت هى ايضا بروح هجومية :

— كان يمكنك ان تستفسرى منه ، اليس كذلك ؟ انت تعرفين كم يهمنا هذا .

— لا احب ان اتدخل فى شؤون الآخرين .

فاندفعت من لالا الكلمات :

— بل تحبين ! تحبين ، تحبين !

وهنا لم تستطع ان تتمالك نفسها فأفصحت عن كل شىء : مائة مرة طلبت **الا تفعلى ذلك** ، توسلت ، شرحت ، وها هى تفعل **ذلك** وارسلوه الى هنا ، فما اشد عنادها وما اسوأها ، ها هى الآن تواجه فضيحة هنا ، طيب ، ما معنى الكلام ، لن تنصلح الامور ، وكل شىء فى غاية السوء . ولم تفهم الام فمضت تصيح فى طرف الخط الاخر :

— ماذا ؟ كيف ؟ تحدثى بوضوح !

— عن **اشعارك** اتحدث !

— اى اشعار ؟

— تلك التى تحبين **نظمها** وارسالها الى شتى المجلات !

— اه يا الهى . . . ولكن . . متى كان ذلك ؟ منذ اربعة اشهر ؟

لم يكن للحديث معنى ، فقالت لالا بصوت واهن : «طيب يا ماما ، مع السلامة» ووضعت السماعة .

كانت الممثلة العجوز الماظوفا تمضى نحو الغلاية لاحضار بعض الماء الساخن ، فتباطأت فى الدهليز وارهفت سمعها ،

وعندما ألقت لالا بالسماعة ومضت عينا العجوز للحظة بنظرة شرهة . واما ان الماظوفا قد سمعت شيئا وخمنت ، ام ان سمورنى اذاع الامر ، فقد مالت احدى الممثلات على اذنها فى المساء وهم فى بيت مؤلف المسرحية فسألتها همسا منفعلا :

— هل صحيح ما يقال من انك كتبت شكوى فى مسئولينا ؟

كان مزاج لالا من الاعتلال بحيث بدا من الافضل الا تذهب اصلا الى ذلك العشاء . وترددت فى الذهاب ، ولكن ماذا لو بقيت ، هل هذا افضل لو مكثت فى الغرفة وحدها ؟ ستموت من الملل . كما انهم هناك سيطعمونهم ، ومن الممكن تناول قليل من النبيذ فيعتدل المزاج . ولكن كان من الثقيل على النفس الجلوس فى تلك الحجرة الكبيرة حيث التصقوا جنبا بجنب محشورين حول الطاولة ، برئاسة سُمورنى ، ورؤية وجهه المغرور امام عينيها وملاحظته وهو يطوح شعره الى الوراء وهروب النظرات ، وسماع الانخاب والنكات الحمقاء والوخزات الساخرة . ومما اسخط لالا ان الممثلين ، وخاصة باشكا كورنيلوفتش وماكييف — بطريقة فجة ، ومعهم سمورنى بصورة ادهى — راحوا يسخرون من المؤلف المسكين ، ويهزأون به سرا ، وهو لا يفهم ، واذا فهم فليس كل شىء ، فيرد بمزاح بائس ، وكانت امه العجوز ترقّع فتتأوه او تشكر الضيوف من صميم قلبها وقهقه الضيوف . ودارت كل النكات حول الطعام المقدم لهم .

— باشا ، الكرنب فى الشطائر تفوح رائحته ، الا ترى ذلك ؟

— لا ارى ذلك يا صاحب السعادة ، ولكن الفطر ، ولتسمح لى ان اقول ، هو يعنى ليس كما ينبغى . . .

ـ ليس كما ينبغى ؟ كيف ؟ ولماذا سكتّ ؟ انا التهمت منه طبقين !

ـ الفطر فى المعدة لا يطول عمره يا صاحب السعادة . . التشريح سيبين . . .

بهذا الاسلوب جرت اللعبة ، ومزح الممثلون ، وسالت دموعهم من الضحك ، وشربوا ومضغوا واكلوا ، وفجأة كان احدهم يقفز فيهتف باندفاع :

ـ ايها العزيز نيكولاى ديميانوفتش ! شكرا لكم على كل سطر كتبتموه ! شكرا لكم على انكم موجودون !

ويصفقون ويهتفون «هورا !» . اما سموليانوف التعيس فيربد وجهه من الخجل ـ هكذا كان لون وجهه فى الربيع فى ليلة الافتتاح ـ ولا يدرى أيشكرهم ام يرد بمزحة ، فيلزم الصمت ويهز رأسه مبتسما كالاخرس .

ويصيح ماكييف :

ـ يانيكولاى دميانوفتش ، لقد تثرثر وحدك بلا انقطاع ، انك لا تدع احدا يفتح فمه !

ومن جديد تدوى القهقهات ، اما سموليانوف فيهز رأسه ويبتسم .

لم يعجب ذلك لالا ، اذ لم تكن تحبهم وهم «يتسالطون» . فلتكن مسرحية ضعيفة ، وماذا فى ذلك ، هل هو شكسبير ؟ وربما كان هذا الرجل شخصا طيبا . لقد دعاهم من صميم القلب ، وانفق من النقود ما لا يقل ، ربما ، عن ثلاثة الاف . وها هم قد جاءوا جميعا ، لم يتخلف احد ، وسمورنى ايضا جاء ، رغم ان لالا نفسها سمعته ذات مرة فى غرفة المدير يلعن سموليانوف ، ناعتا مسرحيته بانها من «مسرح

الزواحف» . وكان هنا ايضا بوب ميرونوفتش ، بجوار شطائر اللحم والفودكا ، وهو الذى وقف فى المجلس الفنى معارضا لمسرحية سموليانوف وجادل المدير وحاول اقناع سرجى ليونيدوفتش بالعدول عن اخراج المسرحية . كانوا كلهم ، كلهم هنا ، النقاد السريون ، الهازئون ، المحتقرون ، ركضوا جميعا ليأكلوا مجانا ، هؤلاء الممثلون التعساء . استبدت بهم الرغبة فى الشرب وتناول المزات . اه يا الهى ، النظر اليهم يثير القرف ، وفى نفس الوقت يثير الاسى والاشفاق على هؤلاء المساكين ، والضحك . فانهم كالاطفال ! يلعبون ويتعابثون ويمرحون لاشياء تافهة ، ويسببون الالم بقسوتهم ، تماما كالاطفال . وعندما نهض فجأة ذلك الممثل البائس ايفان فاسيليفتش يروشكين ، وراح هو الاخر يدلى بدلوه حتى لا يتخلف عن الاخرين ، قائلا : «ايها المؤلف العزيز ، اسمح لى ان ارفع هذه الكأس نخب ان تتحفنا بالكثير والكثير من روائع الـ . . . (وقفة قصيرة) الشطائر المحشوة بالكرنب !» ـ وترددت صيحات «هورا» و«برافو» . . لم تتحمل لالا رؤية المؤلف المعذب فنهضت وخرجت الى الغرفة المجاورة . وراحت هناك تساعد ام سموليانوف العجوز يفدوكيا نيلوفنا فى اعداد المائدة للشاى .

كانت العجوز فى غاية الارهاق . وقد احبتها لالا منذ ان رأتها ، فقد كانت تشبه جدتها ، ومثلها كثيرة السعى والحركة ، والانشغال بالامور التافهة . توفيت الجدة منذ عامين ، وكانت تعيش فى اسماعيلوفو ، فى منزل الجد القديم .

وهمست لها لالا قائلة :

ـ لا داعى لتقديم الشطائر ! البسكويت يكفى .

فقالت العجوز برهبة :

— لا داعى ؟

— دعيك منهم ! كفاية عليهم .

كانت ترثى لجهود يفدوكيا نيلوفنا ، فقد التهم الضيوف فى نصف ساعة طبقين من الارز باللحم وصفحة ضخمة مملوءة بالشطائر . ثم صعدت لالا الى الطابق العلوى على سلم ذى صرير الى غرفة صغيرة ، فقد اخذتها العجوز لتعرفها على الصبية المريضة . وعادت لالا الى الاندهاش ، ففى موسكو لديها مثل هذه الغرفة فى الاعلى ، غرفة سندرة ، حيث قضت طفولتها كلها وصباها ، وحيث تعيش الان مع جريشا . كانت الصبية فى حوالى الثالثة عشرة ، بدينة وافرة الجسم ، بصدر مكتمل كالانسة البالغة ، ولكن وجهها كان خلوا من المعنى ، مثل النعجة ، ونظرتها فارغة . وكان واضحا ان الجدة تحب حفيدتها جالوتشكا جدا ، فقد شرعت تتحدث معها برقة وبصوت خافت ، وهى تسوى لها جواربها وتزرر الابزيم فى الحذاء ، وعندما هندمتها — وكانت جالوتشكا تجلس فى مقعد هزاز وتتأرجح وهى تلهو بكرة صغيرة مربوطة بأستك وتدق بها على الارضية دقات منتظمة — قدمت لها قطعة من الكعك على طبق مع فنجان شاى . ولم ترغب جالوتشكا فى تناول الشاى فازاحته عنها بيدها ولكنها اكلت الكعكة دون ان تترك كرتها ، بل مضت تدق بها على الارضية .

وقالت لالا :

— اه ، وانا اقول : من هذا الذى يدق فوقنا ؟

فقالت العجوز بلطف :

— دِبْ — دِبْ ! هذه جالوتشكا تدب ، دب — دب . . . — وانحنت على اذن لالا فهمست — هكذا طول

النهار ، يا للمصيبة التى حلت بنا . . .

وفى الغرفة الكبيرة فى الاسفل تردد الغناء ، وراح احدهم يرقص ، وتناهى وقع اقدام وضجيج تحريك الاثاث . وفجأة شعرت لالا باحساس حاد : ان تعود الى البيت ، وترى اباها ، وجريشا ! ان تخرج الى الحديقة . وتذكرت انهم فى البيت كانوا يغنون احيانا هكذا ويرقصون . عندما يجتمع الاقارب ، والخال كولا والخالة جينيا مع اولادها والخال ميشا ، او يهجم اقارب الوالد من الاورال ، فينشدون الاغانى ، واحيانا تمل لالا من ذلك ، فتهرب الى غرفتها فى الاعلى ، الى السندرة ، فتقرأ كتابا ، بينما يتردد الصخب والرقص من اسفل . ومضت الصبية تقذف الكرة دون ان تنظر الى لالا بل وبدا انها لا تلاحظ وجودها . وافصحت العجوز هامسة : ان جالوتشكا هى ابنة نيكولاى من زوجته الاولى ، التى ماتت من كمدها على ابنتها ، اما زوجته الجديدة ، مارتا ، فامرأة انانية ، لا تريد حتى ان تعرف جالوتشكا ، وان ترى يفدوكيا نيلوفنا ، ولم تأت الى هنا ابدا ولم تكتب رسائل ، كما تمنع نيكولاى ديميانوفتش من المجىء لزيارتنا . تقول له ارسل لهم نقودا ، ولا داعى لأكثر من ذلك . واى نقود ؟ يا له من معاش ، اربعمائة روبل هى كل ما يرسل . وهو لا يأتى الا عندما يتخاصمان ، مرة كل كم سنة . يقول لى يا ماما ، انها امرأة سيئة ، بل وسيئة جدا ، امرأة صياحة ، ولكنى احبها ، وهى تعيننى فى عملى .

اصغت لالا الى العجوز ، وشاطرتها اساها ، وتطلعت الى وجه الصبية البليد النعجى وفكرت : «كل شخص لديه مأساته . . . وان كان لهذا حظه كمسرحى . . .» . وبفعل هذه الفكرة ، وهى ان لكل شخص مأساته ، وان مآسى الاخرين قد

تكون اشد وطأة ، خفت حدة منغصاتها وذابت .

وبعد ساعة أخذ الضيوف يستعدون للانصراف ، واستدعى المدير عربة باص ، وسحبوا ايفان فاسيليفتش بروشكين المسكين وهو يجرجر ساقيه ، واذن فقد اساء التصرف ، لم يتوان عن ذلك ، وانصرفوا قرب منتصف الليل ، اما لالا فقد اشفقت على العجوز فمكثت لتساعدها فى غسل الانية . ووعد سائق الباص بالعودة بعد نصف ساعة . ولكنه لسبب ما لم يعد . وراح سموليانوف يتمشى فى البيت فى سروال البيجاما والفانلة مغنيا وهو يعيد الاثاث الى موضعه ساحبا قطعه على الارضية ، وينقل الانية المتسخة الى المطبخ ، ويقترب بين الحين والحين من البوفيه فيجرع كأسا . وظنت لالا انه على وشك ان يفقد وعيه . ولكن المؤلف صمد ، وتطلع الى لالا بعينين زرقاوين طيبتين عبر نظارة مدورة الاطار وهو يبتسم كالنادل . وكان باديا عليه السرور لانصراف الضيوف وانتهاء الامر .

واستمرت لالا تأمل فى ان يفقد وعيه ويخلد الى النوم كما ينبغى لشخص ثمل ، وكما كان يحدث دائما لابيها وللخال ميشا والخال كولا ، وجريشا ايضا . . فقد كان بوسع جريشا ان ينام ويشخر فجأة وهو جالس الى المائدة فى حضور الضيوف ، بيد ان المؤلف ، فيما يبدو ، كان من معدن اصلب . كان ظهره عريضا كظهر لاعب جمباز ، وعلى ساعده الايسر ، اعلى المرفق ، وشم لحورية بحر بذيل ، وثمة اسمان منقوشان بجوار الحورية . وعندما تفحصت لالا الحورية احست بالاضطراب ، اذ فكرت : فى هذه اللحظة ، فى وسط الليل ، وفى منزل ليس به سوى عجوز وطفلة مريضة ، فان المؤلف ليس مؤلفا على الاطلاق بل رجل قوى قد يرتكب الحماقات بفعل الخمر . بيد

ان سموليانوف لم يظهر ميلا الى الحماقات ، بل ولم يبد عليه انه قد ادرك ان امرأة شابة بقيت للمبيت فى بيته ، فالى اين تذهب والساعة تدور فى الثانية ؟ وفجأة امسك بيدها ونقرها فيها بشفتيه الرطبتين — هكذا نقرها انذاك على خشبة المسرح فى ليلة الافتتاح — وغمغم بصوت باك بكلمات غير مفهومة .

— اعذرينى يا عزيزتى الطيبة . . لا تغضبى منى ، حسنا ؟

فقالت لالا :

— لست غاضبة ابدا يا نيكولاى ديميانوفتش .

وسحبت يدها بحذر تحوطا .

ومضى سموليانوف يدمدم :

— انا رجل صغير ، غير ملحوظ ، اعرف قيمة نفسى ، انا لست ابدا هذا . . . اى هذا انا بحق الشيطان ؟ ولكنهم هم ايضا اناس حقراء . . . لا تغضبى ارجوك ، حسنا ؟ يا عزيزتى ، يا طيبتى . . .

وعاد يحاول نقر يدها .

وادرك لالا القلق فنادت بصوت عال :

— يا يفدوكيا نيلوفنا !

واعتمد هو بمرفقه على الطاولة ، واجهش فجأة بالبكاء ، ونزع نظارته ، وراح يمسح عينيه براحته .

لم يكن امامها مخرج ، فاستلقت على الكنبة وتدثرت بالمعطف . ولكن النوم جافاها ، فقد كانت تحس بالقلق وبحرج لا يطاق . كانت تحس بالذنب لتصرف باشا ، وكل هؤلاء الحمقى . حسنا ، لاى داع اهانوه ؟ هذا الرجل القوى ، الربعة ، العريض المنكبين والصدر ، والذى لم يهرم بعد وان كان ذا

صلعة ، ها هو يبكى لسبب ما ويتعذب . من المفروض ان يكون غنيا . كلا ، الغنى لا يهب السعادة . لا بد من شيء اخر ، شيء اساسى . وبسبب هذه الفكرة احست بفرحة مبهمة وبشعور بالتفوق ، احست بشيء ما غامض ، ضرورى للسعادة موجود لديها كما بدا لها . وما كان بامكانها ان توضح بثقة ما هذا ، ولكنها كانت على يقين من ان هذا الشيء لديها . لانه عندما كانت التعاسة تحل بالاخرين ، تود لو تشفق عليهم وتخفف عنهم وتقدم لهم شيئا ما ، واذن فقد كان لديها ما تقدمه مادامت هذه الرغبة تراودها . واحيانا كانت ترجع ذلك الى انها ليس لديها اطفال . ولكنها فكرت فى الامر بصورة اعمق فادركت انه حتى لو كان لديها اطفال لما خفف ذلك من رغبتها فى ان تهب الاخرين الشيء الضرورى للسعادة ، ذلك لان ابناءها ، لو وجدوا ، سيكونون ايضا كأنهم هى نفسها .

وتزايد القلق لدى لالا فسألته هل تعد له قهوة ثقيلة ، فوافق . وذهبت لالا الى المطبخ واعدت القهوة ، وجاءت بفنجانين . وبعد القهوة — وكانت الساعة قد بلغت الثانية والنصف — تبددت الرغبة فى النوم تماما . وافاق سموليانوف وحكى لها مدى ما يعانى من عناء فى الحياة والعمل ، فلا اصدقاء لديه ، والناس يستريبون فيه ، وحياته العائلية غير موفقة . وقد انتقل الى موسكو منذ اربع سنوات ، وقبلها كان يعمل فى الاقاليم ، وفى زمن الحرب عمل فى جريدة جبهة ، وقبل ذلك ، فى الثلاثينات ، كان من العاملين فى الدائرة القطبية الشمالية ، وقضى الشتاء فى جزيرة ديكسون ، وخدم فى قوات الحدود وفى المباحث الجنائية ، وعمل فى مؤسسات التربية البدنية ، وكان ملاكما . وذات مرة اطلق الرصاص على احد

المجرمين فى محطة كالاتش فارداه قتيلا . والان تعرض مسرحيته الثالثة ، والمسرحيتان السابقتان تعرضان فى الاقاليم ، وثقافته غير كافية ، وكل شيء يبلغه بنفسه ، بكده وجهده ، وفى الشتاء ، عندما سعى للموافقة على اخراج «افاق الغابة» عانى مشقة كبيرة لا توصف . ارادوا خنقه ، وقد جهزوا له الانشوطة بالفعل ، ولكنهم لم يستطيعوا . وهو الان يعرف اى اوغاد يعيشون فى هذه الدنيا . وفى مسرحها المحبوب ايضا يوجد هؤلاء ، نعم ، نعم . وضحك . . تتقززون من شطائر الكرنب ؟ لا بأس يا اعزائى ، لا بأس ، سوف تتوسلون الي ، ستركعون زاحفين : يا عم ، اعطنا شطيرة كرنب ! وكانت لالا تصغى بانتباه نهم وهى تدهش : نعم ، يبدو كذلك ، يبدو كذلك . انهم يخزونه بنقص تعليمه كذلك ، مستغلين هذه الفرصة . وتصورت كيف ينقضون جميعا على هذا العملاق المعروق ومعهم الانشوطة ، اما هو فينهال عليهم باللكمات .

لاحت تباشير الفجر ، وتصايحت الديكة ، فخرج سموليانوف ولالا الى الحديقة ثم هبطا مع الدرب عبر الاعشاب العالية ، وفاحت رائحة القريص الخانقة ، ومرا بجوار مقابر قديمة ذات صلبان مائلة فى شتى الاتجاهات ، ووصلا الى الجرف العالى لشاطئ الفولجا وجلسا هناك على جذع .

وتحدث سموليانوف فقال :

— صبای كله مرتبط بهذا الجذع العزيز . كيف لم يحرقه احد اثناء الحرب ؟ لم يكن هناك رجال . . .

انكمشت لالا واحست بالبرد فضمها اليه . وكان النهر مغطى بقطع الزبد البيضاء ، ولم تلح المياه داكنة الا عند الشاطئ ، وظهر نتوء لصندل اسود وشيء اخر بدا اسود على

الشاطئ ، ربما كان قوارب . وهناك ، وسط ذلك السواد على رمال الشاطئ اشتعلت نيران . وقال سموليانوف انه هناك يوجد مأوى بعض الاشقياء ، والمرور من هناك خطر . ولو هبط احد الان الى الاسفل لذبحوه بكل سهولة دون ادنى ذنب — وروى اشياء ما عن الاشقياء والمجرمين من ذكرياته . وكان حديثه مشوقا ولا يبعث الخوف ، وان شعرت بالبرد . وعندما سارا فى طريق العودة استمر فى ضمها اليه . وفجأة اوقفها ، وشدها اليه بصورة خرقاء يريد ان يبعث فيها مزيدا من الدفء . . وهكذا ظلا واقفين . وبالفعل كان البرد لا يطاق ، حتى ليبدو غير معقول ان النهار كان حارا . وراح يدفئها بحركة من راحته على جسدها كله ، بينما استمر يتكلم ويدمدم ويدندن ويدلكها على مهل وبقوة ، بمزيد من القوة ، وكلما طال ذلك ، وكلما احست بقوته اكثر فاكثر ، ازداد اشفاقها عليه لسبب ما .

وبعد عودتهما الى البيت شربا قليلا من الفودكا طلبا للدفء ، وصعدا الى الطابق الثانى ، وتسللا الى غرفة صغيرة يسودها الظلام ، وستائرها مسدلة ، وفاحت منها رائحة مسكن عزوبى مهمل . وتبادلا الحديث همسا حتى لا يوقظا الصبية النائمة فى الغرفة المجاورة .

راح يدمدم محنقا ، بكلام غير واضح ، مهددا اشخاصا ما ، بينما لم تستطع لالا ان تتنصل من احساسها بالخجل لسلوك الممثلين ، وبدا لها ان عليها حتما ان تعتذر عنهم وتعزيه ، فقد اهانوه دونما مبرر ، بل وجزاء له على طيبته . وراحت تواسيه بحرارة ، بقدر ما استطاعت . لا ينبغى ان تغضب منهم ، فهم سذج وطيبون ، طيبون جدا ، ويا لهم من رفاق رائعين ، يتقاسمون معك اخر ما يملكون ، ولكنهم احيانا

يتحامقون ويقولون اشياء غبية ، جريا وراء جميل العبارة ، ولكن لا بأس ، لالا دائما تغفر لهم لان حياتهم ، انظر ، ما اتعسها ؟ فلتحاول ان تعيش بسبعمائة روبل . اما ايفان فاسيليفتش ، بروشكين ، فلديه اسرة من خمسة اشخاص . هنا لا بد ان يكون لدى المرء حب ، حب عظيم ، منزه عن الغرض الى ابعد الحدود . وهى ، لالا ، لديها اعداء ، يكيدون لها ، ويزنقون عليها ، ولكنهم لا يستطيعون مع ذلك ان يفسدوا عليها فرحتها . . وفى سبيل هذه الفرحة ، بل وربما السعادة ، ولتكن سعادة قصيرة ، ستصبر على كل شىء ، وتغفر كل شىء ، لانه . . . لاى غرض غير هذا تعيش اذن ؟ وتسلّى عن حزنه بالفعل وراح يهز رأسه : «نعم ، نعم ، افهمك . . .»

ثم كانت اخر مظاهر طيبة لالا واخر شفقة لديها . . . وفى ساعة متأخرة من الصباح فتحت جفنيها بصعوبة وهى لاتعى جيدا ما حولها فسمعت دقا . ثم تذكرت فجأة ان الصبية المريضة خلف الجدار هى التى تدق بالكرة .

بعد شهر ونصف ، فى اول يوم تقريبا لوصول لالا الى موسكو بعد العروض الخارجية وبعد الراحة فى القرم التقت بسموليانوف . واخبرها انه يكتب مسرحية جديدة . وقد احضر لسرجى ليونيدوفتش الفصل الاول وانه ، فيما يبدو ، قد استحسنه .

كانت لالا تعرف انها تبدو جميلة دائما بعد الراحة فى القرم . وعموما فالناس جميعا يبدون كذلك فى العادة ، ولكنها تبدو جميلة بشكل خاص . وكما تقول صديقتها الوفية ماشكا : جميلة بصورة محنقة ، لانها تستلقى فى الشمس دون خوف وتحمر تحتها حتى السواد ، ويبهت لون شعرها حتى يصبح

بلون القش ، ويزداد سطوع عينيها الزرقاوين على وجهها الاسمر ، ولانها تسبح بلا كلل ، وتتوغل فى البحر ولا تتخلف عن اقوى السباحين ، وفى المساء تلعب الكرة الطائرة والتنس ، ربما لا تلعب ببراعة ولكن بحماسة ، المهم ان تتحرك ، وتقفز ، وتقهقه ، وتتعب ، وتبلغ بجسمها درجة الانهاك . ولا مجال ابدا لاى غراميات مصيفية ، فى داهية ، فى داهية ، فلا نفع منها ولا جدوى . وفى المقابل تعود مترعة بالقوة والشوق الى زوجها ، وصديقاتها ، والمسرح بل وحتى الى شارعها الصغير الراكض بجوار الكنيسة الصغيرة ومتجر الخضروات . . . وتفحص سموليانوف لالا باهتمام وهو يبتسم ، وكان فى نظرته ذلك الشىء الرجولى والمفرح والصريح الذى كانت لالا تحب ان تشعر به ، لان هذا الشعور كان يعنى انها **تمام التمام** ، وان كل شىء لديها **كما ينبغى** . وفى تلك اللحظات من الاعجاب الخفى بنفسها كان صوتها يتغير . وحيت سموليانوف بصوتها المتغير مادة له يدها وهى تسمع صوتها منغما وأخن قليلا :

— حسنا يا نيكولاى ديميانوفتش ، اذن فسوف تفرحنا بشىء جديد ؟ هذا عظيم ، رائع !

واثناء ذلك فكرت بدهشة فى انه كانت ثمة ليلة اشفقت فيها بحرارة على هذا الرجل ذى الوجه الباعث على الملل ، يا الهى ، ماذا كان فيه ؟ كان فى وجه سموليانوف شىء نيىء ، غير مخبوز جيدا .

مضى يدمدم على عادته ، بصورة غير مفهومة ، وهو يفرك راحة لالا . وقالت لالا بخفة : «يا نيكولاى ديميانوفتش ، سنراك ثانية ! الى اللقاء» وركضت ، ثم توقفت لثانية والتفتت وهتفت :

— انا سعيدة جدا انك عدت الى مسرحنا ثانية !

ولكن ما ان مرت عدة ايام حتى تبخر كل ما علق بها من القرم ، او ربما كان ذلك بتأثير موسكو التى هجمت عليها ببردها وامطارها وعجلتها ومرض ابيها ، وبسرجى ليونيدوفتش الغاضب ، والاضطراب والقلق بسبب المسرحية الجديدة ، والركض على المتاجر بحثا عن حذاء بنعل مطاطى للجو الرطب .

وفى المسرحية الجديدة لم تحصل لالا بالطبع على شىء . ولكن سموليانوف احضر فى ديسمبر مسرحية «اجنات تيموفييفتش» وصار يتردد على المسرح كثيرا ، مرة لحضور قراءة المسرحية ، ومرة لمناقشتها ، ومرة لادخال تعديلات عليها ، ولتوزيع الادوار. فى البداية لم يعدوها بشىء ، ثم اعطوها دورا تافها ، ثم دورا جيدا ، لاحدى بطلات المسرحية . ولم تكن لالا قد طلبت اى شىء على الاطلاق ، ولكن سموليانوف فطن بنفسه ، فتحدث مع سرجى ليونيدوفتش . وعارض سمورنى اثناء اجتماع المجلس الفنى ، ولكن نيكولاى ديميانوفتش قال باصرار : «هذا ما اقول !» فخرس سمورنى .

ورغم ان الدور الذى اخذته — دور يفدوكيا زوجة اجنات تيموفييفتش ، ناظرة مدرسة ريفية اعدادية — لم يكن دورا يعتد به ، فهو مباشر الى حد كبير ، حيث الغيرة ، والعذاب ، والاحاديث الوعظية ، لكن لالا أُمّلت فى ان تذهل الجميع وتبدى لهم براعتها و«تصنع من الفسيخ شربات» على حد تعبير سرجى ليونيدوفتش . وانهمكت فى التحضير باستمتاع . وعثرت فى دورها على جوانب دقيقة وعلى عمق جديد ، حتى ان المؤلف ابدى دهشته بصراحة وسذاجة :

— يا سلام ! لم يخطر لى هذا على بال . . .

وعموما ، فمهما قال عن سموليانوف شتى انواع المتحذلقين من امثال بوب ميرونوفتش ونيكا جيراسيموف او حتى زوجها جريشا ، البعض بدافع التعالى ، والبعض — بصراحة — بدافع الغيرة من الناجحين ، فقد كانت الصحف تذكر اسمه مقترنا بالمديح اكثر فاكثر ، وعرضت مسرحية «الغابات» فى اربعين مسرحا ، وكان فى هذا الريفى شىء طيب ، راسخ ، نوع من القدرة المتمهلة ، ولكنها متسلطة ، على الاخضاع ، والوصول بخطوة الدب الحثيثة الى الجوهر ، الى الهدف . اصبح سموليانوف الان يأتى الى المسرح يوميا ويشهد التدريبات . واحيانا ينصرف بعد التدريب بصورة غير ملحوظة مع لالا ، فيذهبان الى المطعم ، الى مطعم «موسكفا» اغلب الاوقات ، الى الطابق العاشر حيث كان مدير المطعم من معارفه ، ومن هناك يذهبان الى شقة خالية لصديق من اصدقاء سموليانوف سافر الى الصين وترك له المفتاح . وذات مرة ابتاعا حذاء بنعل مطاطى فى متجر احذية فى اطراف موسكو كان مديره من معارف سموليانوف (ظلت تبحث عن هذا الحذاء طول الخريف وما ان ذكرت له ذلك حتى كان جاهزا !) ودهشت لالا : انه ساكن حديث من سكان موسكو ، وها هو يعرف جميع المداخل والمخارج ، ولديه عدد لا يحصى من المعارف . مع انه شخص ليس اجتماعيا بما يكفى ، بل ويبدو عبوسا ، وليس من اولئك «الشاطرين» . واذن فلديه موهبة خاصة . فهناك اناس كهؤلاء ، ينجحون فى امورهم دون ضجة ، وتسير احوالهم ، والنقود تتدفق عليهم ، والنساء ينجذبن اليهم ، هؤلاء الحمقاوات الغبيات . الموهبة ! اثمن موهبة هى ترتيب الحياة ، تأثيثها كما الغرفة . لو ان جريشا يملك منها القليل . واصبح ما وقع فى ساراتوف بالصدفة ، ما كان نزوة شفقة ،

وضغث احلام قبيل الفجر ، لا تدرى باليقين أكان ام لم يكن ، اصبح الان ، فى نهاية الشتاء امرا عاديا وبسيطا ، وكأنما لا يمكن الاستغناء عنه ابدا . وفى مارس ، عندما اصبح حفل الافتتاح وشيكا ، لاحظت لالا ان سمورنى اخذ يبتسم لها ويبادرها بالتحية من بعيد باحترام .

. . . يطوى النسيان كل ذلك الجو المتقلب الكريه ببرده ووحله ، ويخيل للنفس ان الدفء والشمس كانا دائما ، والمهم انهما **سيبقيان ابدا** . وعندما وقع فى حياة لالا ما كانت تحلم به سنينا دون امل تقريبا ، لانها فى اعماق روحها كانت تظن ، مع بعض الخوف والتسليم ، انها من الخائبات الابديات — كان سرجى ليونيدوفتش يدربها الان وحدها لفترات طويلة ، واصبحت عاملة المكياج ، تلك المرأة غير الصادقة ، تدعوها الان بـ«لودميلا بتروفنا» * ، وحدث ذات مرة ان ارسلوا سيارة المدير الى لالا لتستقلها الى الاذاعة كى تتحدث هناك هى والمدير وسرجى ليونيدوفتش عن العمل فى المسرحية الجديدة . . . عندما وقع كل ذلك وغيره من الامور المماثلة ، فى حياة لالا فى نهاية شتاء عام الف وتسعمائة واثنين وخمسين ، وقد بلغت الخامسة والعشرين من عمرها الفت بسرعة فائقة ، بل وربما فى لحظة ، ما حدث من تغيير ، وفكرت فى ان ذلك **سيكون هكذا دائما** ، وفى المستقبل لن يكون الا افضل .

اما ما الذى ادى الى تغيير حياتها فقد ظل بالنسبة لها لغزا ، بل انها حتى لم تفكر فى ذلك . أهى الريـــاح

---

* المناداة بالاسم الكامل مع اسم الاب هو من تقاليد الاحترام فى المخاطبة الروسية . **المعرب** .

تغير مسارها هناك فى اعالى السماء ؟ ام ان الاعاصير هبت فى مكان ما على بعد الاف الاميال ؟ كانت المرحومة جدتها تؤثر هذه الحكمة : «حين يأتى الزمن يحين الحين» . وها هو زمن لالا قد جاء ، ولم لا ؟ كم انتظرت وكم صبرت . بالطبع اعتبرت امها ان التحول الى الافضل حدث بفضلها ، فقد جاءت الشكوى القديمة بنتيجة . وربما كان الامر كذلك . وربما كان ذلك بتأثير نيكولاى ديميانوفتش . اما الاكثر احتمالا فهو ان سرجى ليونيدوفتش ، الذى كان موقفه منها طيبا عموما بل واكثر من طيب منذ امتحانات القبول بمدرسة التمثيل والتى اسقطوها فيها . . قد الفها ونظر اليها بامعان وفجأة رآها بعين جديدة فاصابه الذهول : «ما هذا الذى نصنعه يا رفاق بلودميلا تيليبنيوفا ؟» وقد نقلوا اليها انه قال عنها ذات مرة : «حسنا ، انها ذات لطافة ، وماذا بعد ؟» . ولكن اذا توفرت اللطافة فهذا كثير جدا . اللطافة ليست شيئا ملقى فى الشارع . «اللطافة هبة من الله — قال كسينوفونت فيودوروفتش ، الرسام الذى نقل اليها ما سمعه — ينبغى رعايتها والحدب عليها لا ان نذير الرأس عنها» . لقد كان كسينوفونت فيودوروفتش شخصا رائعا . كان يحب لالا كابنته . ومات المسكين بازمة قلبية ، فقد كان يفرط كثيرا فى الشرب .

ومع ذلك فالجدة هى احكم الجميع . . . لقد جاء الوقت فحان الحين .

أُنزل الستار فاندفع الممثلون على عجل الى الكواليس ، ولكن لالا لم تلحق بالاخرين ، وعندما انفرج الستار ثانية غمرتها موجة ضجيج قادمة من الصالة ، ووجدت نفسها وحدها على الخشبة ، ولم تستطع ان تقرر هل تنحنى محيية وحدها ام تنتظر

عودة بقية الممثلين . والتقط احدهم يدها وجرها الى مقدمة الخشبة ضاغطا على اصابعها بصورة مؤلمة . وانحنت ورأت بطرف عينها ذلك الذى سحبها . . انه ماكيف . كان يبتسم ويهمس لها بغيظ :

— انحنى ، هيا ! انهم يحيونك انت . . .

وتكرر الامر السابق ، اذ ركضوا جميعا الى الكواليس متزاحمين ، يدفعون بعضهم بعضا وتأخرت لالا لسبب ما ، وغمرتها الموجة وحدها . ورمى احدهم باقة زهر . وتوقف الممثلون عن الانحناء ، واصطفوا فى صف غير منتظم واخذوا هم ايضا يصفقون ، والتفتوا جميعا ناحية الكواليس اليمنى التى ظهر منها سرجى ليونيدوفتش بوجه شاحب قليلا ومتقزز كوجهه فى نهاية التدريبات بعد ان يدركه التعب . ونظرت لالا الى سرجى ليونيدوفيتش وهى تحبس دموعها بالكاد ، وتملكتها الرغبة فى ان تعانقه وتقول له كم هو عظيم ورائع . ودون ان تتوقع امسك بيدها وسحبها الى المقدمة ، ووقفا وحدهما امام الصالة التى صارت فارغة الى نصفها ولكنها كانت تدوى وترعد وتتزاحم على الخشبة باقوى من ذى قبل .

وقالت لالا :

— شكرا يا سرجى ليونيدوفتش . . شكرا لكم . . .

فدمدم وهو لا يتطلع اليها :

— انظرى الى الصالة ، الى الصالة !

ثم ظهر على الخشبة نيكولاى ديميانوفتش فى بدلة فاتحة رائعة ، بمنديل ابيض فى جيب الصدر ونظارة جديدة ذات اطار امريكى اسود سميك ، وقد غيرت هذه النظارة هيئته تماما ، وعموما فقد كان منظره غير مألوف . لم يعد ينحنى حتى يكاد

يلامس الارض كالنادل ، ولم يعد وجهه يكتسى بالشحوب القاتل ولا يلمع بحبات العرق ، بل وقف منتصب القامة وهو يحيى برصانة محنيا رأسه وكأنه يوافق على كلام شخص ما : «نعم ، نعم ، نعم !» ثم اقترب من سرجى ليونيدوفتش ، وعانقه وقبله . ولاحظت لالا ان سرجى ليونيدوفتش قد تضرج بالحمرة وهو يشد اليه نيكولاى ديميانوفتش بحرارة ويسر اليه بشىء ما فى اذنه . وبعد ذلك اقترب نيكولاى ديميانوفتش من لالا وهمس مقبلا يدها :

— ينبغى ان نحتفل اليوم . . .

ولم تتمكن لالا من ان تقول شيئا فقد ابتعد عنها وهو يشد على ايدى الممثلين ويقبل ايدى الممثلات . واخيرا هدأت الضجة وتلاشت ، وهبط الجميع على درج ضيق وهم يتحدثون بصوت واحد ويقهقهون ويهنئون بعضهم بعضا . وامسك سرجى ليونيدوفتش بمرفق لالا واسنده اليه .

وصاحت مساعدة المخرج ليمبرج التى كانت واقفة اسفل الدرج وقد رفعت كلتا يديها واشارت باصابعها المنفرجة الى رقم سبعة :

— سبع مرات استدعاء ! سبع مرات ! هذا نجاح يا سرجى ليونيدوفتش !

فهز كبير المخرجين رأسه :

— نعم ، نعم ، سنرى . . . ولكنك يا آدا مكسيموفنا تتعجلين اسدال الستار ورفعه . كأننا نستجدى ، على الطريقة الريفية .

— انت طلبت ذلك بنفسك يا سرجى ليونيدوفتش !

— ينبغى ان تقدرى وتفهمى ، فاذا رأيت ان النجاح

واضح فلا داعى لاستعجال الستار ، فالتصفيق مضمون بدون ذلك . قدرى وافهمى . ولكن لا بأس ، هذه سفاسف . اننى اهنئك — وابتسم بارهاق وشد على يد ليمبرج — سجلى عندك : ينبغى نزع السحاب فى الفصل الثالث . لا جدوى منه ، بل مجرد خليط ما .

ومضى سرجى ليونيدوفتش قدما ، بينما ضمت ليمبرج لالا من الخلف من كتفيها وقبلتها فى خدها بصوت مسموع :

— لالاتشكا ، تهانى ! اوه ، عفوا لقد لطختك ! لا بأس ستمسحين المكياج الان . كل شىء كان ممتازا ، رائعا ، فقط فى الفصل الاخير هناك موضع ، عندما يقترب ماكييف من سلم الدرج وانت تستديرين . . .

راحت ليمبرج تثرثر فى انفعال ، محركة شفتى فمها الواسع المصبوغ ، ولكن لالا لم تفهم جيدا ، فقالت :

— شكرا يا ادوتشكا ، شكرا جزيلا .

اخذت تهز رأسها وتبتسم بطريقة غير واعية تقريبا ثم طبعت هى ايضا قبلة على خد ليمبرج . وخطر لهما معا انها منذ شهر (بل اى شهر ، بالامس فقط) ما كانت لتجرؤ على تقبيل آدا مكسيموفنا بل حتى مناداتها بـ«ادوتشكا» ، اما الان فقد حدث ذلك بصورة طبيعية ، ويبدو حتى ان ليمبرج مسرورة بتقبيل لالا لها . واستمر كل ما حولها فى التغير ، وهى ايضا كانت تتغير ، وتحس بذلك . هذا ما ينبغى ان يكون ، ولا غرابة فى الامر . لا داعى للدهشة . كل ما احاط بها وكان مرتبطا بها اخذ يتغير ، يتغير بلا رجعة وكل ثانية ، ويبدو ان الناس احسوا بذلك ، كما تحس الطيور بقرب تغير الطقس .

وعندما نزعت لالا المكياج وبدلت ثيابها وخرجت الى قاعة الكواليس ، كان سرجى ليونيدوفتش واقفا وسط الممثلين الذين احاطوا به يوجه بعض الملاحظات حول احد المشاهد . كان يبين بنفسه ما كان ينبغى عمله وموضع الخطأ ، وكان واضحا من الطريقة المضحكة والاستغراق الذى يبين به ان مزاجه رائع وانه يحس بالتوفيق وقد سمع من احد ما تنبؤات مشجعة . وكان الجميع يدركون ذلك ، واخذوا يقهقهون باعجاب وهم ينظرون الى سرجى ليونيدوفتش وهو يبين . وكان سمورنى ايضا هنا ، وراح هو الاخر يبتسم وهو يتطلع الى سرجى ليونيدوفتش وعلى وجهه تجمد تعبير فرحة مبالغ فيها . وقال مخاطبا لالا :

— رائع ، رائع جدا يا لودميلا بتروفنا . اهنئك من صميم قلبى .

وكان واضحا من عينيه انه يكذب . كذلك كذبت جينكا مليوتينا التى قبلت لالا وهى تقول لها انها فى غاية السعادة من اجلها ، وقد آن الاوان اخيرا لوضع حد لارهاب العجائز وان على الشباب ان يتحد . وفى السابق ، عندما كانت جينكا على ما يرام وكانت لالا «مزنقا عليها» لم تقترح هذا الاقتراح . غير ان ذلك كله لم يكن له تأثير فى لالا الان ، ولم تتذكر السيئات ، وراودتها الرغبة فى ان تكون طيبة ، سمحاء ، وعندما قرأت فى عينى سمورنى الودودتين خوفا صغيرا مخبأ فى اعماقهما شعرت نحو عدوها السابق بنوع من التعاطف ، فاجابته بفرح :

— شكرا يا جيرمان فلاديميروفتش ، شكرا لكم !

وهنا ظهر فى الصالة نيكولاى ديميانوفتش ، وقال شيئا

ما بخصوص حفل فى «جراند–اوتيل» يوم الاثنين فيما يبدو ، اذ لم تسمع لالا جيدا وهى مشغولة بالتفكير فى الطريقة التى ينبغى ان تتصرف بها ، فزوجها ينتظرها فى الاسفل ، واذن فسيكون عليها ان تعرفه به . واقترب نيكولاى ديميانوفتش من لالا وقال لها بصوت خافت ولكن بهدوء شديد وكأنما لم يكن حولهما احد :

— سوف انتظر تحت ، عند مكتب المدير . هناك معى صديقان .

ثم اختفى .

وعادت لالا الى غرفة ملابسها ، ووضعت اشياءها فى الحقيبة ، واخذت الزهور ، وقبل ان تنصرف جلست لحظات امام المرآة . كانت نفسها مضطربة . اختلطت الفرحة بالقلق ، وكان بانتظارها حرج هائل . لم يكن جريشا يتوق الى حضور حفل الافتتاح ، فهو لا يحب المجىء الى هنا ، اذ انه شديد الحساسية ، وهنا كانوا يسيئون اليه . ولكنها اصرت ان يحضر . كذلك اخذت امها ، التى لم تستطع ان تترك اباها المريض ، تلح عليه بطريقتها : «اذهب ، اذهب ، لا بد ان يذهب احد لاستقبال لالا ومرافقتها الى المنزل» . وسيأتى كثير من الاقارب : الخال كولا بكامل اسرته ، واخت ماما الصغرى فيرونيكا ، والخالة جينيا والخال ميشا وابنتهما مايكا وابنهما بوركا ، ولا بد ان تأتى مايكا اذ هى اصبحت من رواد المسرح الدائبين . وارادت فالنتينا ابراموفنا ، شقيقة الخال ميشا ، ان تأتى ، والعمة توما نوت ان تحضر خصيصا من الكسندروف . وقد دعتهم امها جميعا ، حتى ان لالا تشاجرت معها ، فما الداعى لتسيير مظاهرة **تلينيوفية** فى

المسرح ! والاحرى ان نقول مظاهرة **فوميتشوفية** ، باسم عائلة امها ، لان الجميع من اقارب الام ، واذا جاء احد من اقارب الاب ، فربما واحد فقط ، هو سلافيك ابن العم فيديا . ولكنها اكدت على الجميع تأكيدا قاطعا : ممنوع الانتظار فى الردهة اطلاقا او ترتيب اى حشود عائلية ، او هتافات ، او باقات . . الخ . وبعد الفصل الثالث عليهم بارتداء المعاطف والاخفاف والى اللقاء . سنلتقى فى البيت ، شارع بوتشتوفايا الرابع ، منزل رقم اثنان وثلاثون . ولم يسمح الا لبوركا فقط ، كمصور شغوف بالتصوير ، بالتقاط صورتين او ثلاث فى مكان ما من الردهة بعد انتهاء كل شىء . ولن يستقبلها الا جريشا فحسب . ومعه ستعود لالا الى البيت . ولكن جريشا كان الوحيد الذى سيأتى الى هنا دون رغبة — وكانت لالا تعرف ذلك — بل وعلى الارجح حتى دون باقة زهر . فليكن ، لا يهم . فمزاجه عكر للغاية وبوسعها ان تغفر له . واحيانا كانت تشفق عليه الى حد الجنون ، وتقضى الليالى ساهرة تفكر : ما الذى يمكنها ان تفعل من اجله ، وكيف تساعده ؟ وخيل اليها انها اذا لم تخرجه الى المسرح فسوف يشعر بمزيد من الضيق فى البيت او فى مكتبته الحبيبة . وكانت الامور ستجرى طبيعية لو لم يعرض عليها نيكولاى ديميانوفتش الذهاب الى مكان ما . وحده ، بدون زوجته . واذن فهو متخاصم معها من جديد . يا لها من امرأة فظيعة ، أتتخاصم معه فى يوم كهذا ! تسمم له جميع الاعياد . اه ، ما اجمل ان تذهب الى مكان ما ، فتتناول طعاما شهيا وتشرب نبيذا ، من النبيذ الاحمر الخفيف ، فى مطعم «اراجفى» مثلا . . . حتى لقد شعرت بدغدغة فى معدتها

واحست فى فمها بطعم الشركسية . ولكن جريشا . . . وماذا لو ذهبوا جميعا ؟ وبالفعل فماذا فى ذلك ؟

نظرت لالا الى نفسها فى المرآة : كان وجهها شاحبا ، بحمرة قليلة على الوجنتين . واضفت الصبغة الالمانية الرقيقة على شفتيها لمعانا رطبا وطازجا للغاية وعذريا . كان الجميع يقولون ان لدى لالا ثغرا جميلا ، وكانت تعرف ذلك . وتطلعت الى ثغرها بارتياح . وتباطأت . . فلينصرف الممثلون ، لا داعى للعجلة ، فمن الاسهل الالتقاء بنيكولاى ديميانوفتش فى الردهة الخالية ما امكن ، ثم تعرفه فى مكان ما قرب المشجب فى المدخل بجريشا . ولينصرف الاقارب ايضا . وكان الخطر الاكبر يتمثل فى مايكا والحاحها وزوجة الخال كولا ، ليبا ، او اولمبيادا افاناسييفنا ، تلك الحمقاء العائلية «الماركة المسجلة» . ومن الطبيعى انها لن تستطيع تجنب الحرج المرتبط بجريشا ونيكولاى ديميانوفتش . ربما يكون جريشا قد شعر بشىء ، ولكن الاقرب الى الصواب انه لم يشعر ، فهو مهموم جدا بمتاعبه . وقد وقع حادث اخرق عندما اشترت لالا قميصا لتهديه لنيكولاى ديميانوفتش فى عيد ميلاده ، واحتفظت بالقميص فى الكمودينو ، وعثر عليه جريشا صدفة فدهش وسألها : لمن . كانت الياقة كبيرة جدا ، مقاس خمسة واربعون سنتيمترا . اما جريشا فمقاسه واحد واربعون . واضطرت الى الكذب فقالت انهم ينوون تقديم هدية جماعية الى شخص طيب ، هو عازف التيلونشيل تماركين بفرقة المسرح الموسيقية . وشعرت بالخجل ، ولكن ما العمل ؟ فقول الحقيقة معناه اولا : انزال ضربة هائلة بجريشا ، الامر الذى سيكون عملا لاانسانيا ، وخاصة

الان ، وهو فى هذه الحالة . وثانيا : لم يكن ذلك حقيقة ، او بالاحرى هو حقيقة جزئية ، حقيقة غير محققة . ذلك لان ما كان بين لالا وسموليانوف لا يمكن تسميته بالولع ولا باى اسم اخر محدد . لم تكن لالا تعرف ما ذلك . ولم تطلب منه شيئا ولم تنتظر منه شيئا . ولم يكن ثمة ذلك الالتهاب ، وتلك الحاجة الماسة لرؤيته والوجود معه كل يوم وكل ساعة ، تلك الاحاسيس التى خبرتها لالا فى زمن ما مع اخرين . كان بوسعها الا ترى سموليانوف عدة اسابيع دون ان تعانى من كونه لا يتصل بها هاتفيا فى المسرح ولا يبحث عنها . ولكنها عندما تلتقى به تحس دوما بالراحة . ودائما ما كانت ترثى له لسبب ما وتشفق عليه . كانت تدرك انه بحاجة الى شفقتها ، فلا زوجته الانانية ، ولا ابنته المريضة ، ولا امه العجوز المقيمة فى مكان ما بعيد ، ولا بالاحرى الجمهور ولا اصدقاء المسرح يستطيعون ان يهبوه ذلك . وهو نفسه كان يقول : «انت الوحيدة التى تفهم فىَّ ولو شيئا !»

ايمكن ان تهجر جريشا من اجله ! ربما كان هذا ما يريده سموليانوف ولكن الحديث لم يجر عن ذلك ، ثم ان لالا ما كانت لتوافق ابدا ، اذ كانت ستتعذب عذابا اشد من اجل جريشا . حياتها كلها مرتبطة بجريشا رغم انهما لم يسجلا زواجهما . ولكن القضية ليست هنا ! مع جريشا كانت المدرسة ، والصبا ، والحرب ، والجوع ، والاحلام . والاطفال الذين لم يولدوا . والان ، وعندما لاح الضوء فى افق حياتها . . .

وشعرت لالا بغصة فى حلقها عندما تصورت فجأة جريشا وقد هجرته . مستحيل ، ابدا ! المطر الان يسقط فى الخارج

ويقرقع فى ماسورة المزراب ، وجريشا الان لا بد ينتظرها لا فى المسرح ، ولا حتى تحت سقيفة مدخل المسرح ، بل فى مكان غير بعيد ، وهو ينكمش الى الجدار . هو هكذا . كل ما فيه مريض ، ملوى . وعجلت لالا ، فالتقطت الحقيبة والزهور ، واطفأت النور وخرجت على عجل .

وعندما سارت فى الدهليز بخطى سريعة ، وهى تكاد تركض سمعت طرف حديث :

— هل لاحظت كيف ابرزت نفسها ؟ بقيت وحدها على الخشبة عدة مرات . اسلوب ممثلات الادوار الاولى الريفيات .

— يا الهى وماذا تريدين ؟ فى مسرحنا لا يتقدمون سوى بهذه الطريقة . . .

وراودها للحظة اغراء العودة لتنظر من هؤلاء ؟ ولكن لا قيمة لهذا . فمنذ الان سوف يتكرر ذلك ، وهذا ما ينبغى ، هذا سليم . كان البهو شبه مظلم ، وقد انصرف الرواد كلهم تقريبا ، والحمد لله اذ لم تجد هنا وجوها ممن تعرفهم . وفجأة توهج ضوء مبهر من الناحية اليسرى ، انه بوركا قد اقترب منها والتقط لها صورة على مقربة لصيقة . ولكن لالا لم تنظر حتى ناحيته . كان نيكولاى ديميانوفتش يتحدث مع رجلين لا تعرفهما ، وهنا ايضا وقف رومان فاسيلييفتش ، المدير ، والمشرف الادارى برافين . ومرت لالا بهم واومأت مودعة بتواضع :

— طاب مساؤكم !

رد عليها الرجال بمرح وتنافر ، يبدو انهم كانوا منتعشين قليلا بفعل الكونياك ، ولمعت اسنان المدير الذهبية وهو يبتسم ،

وصرخ المشرف الادارى برافين : «يا لودتشكا ، عليك ثمن الشاى ، بمناسبة الافتتاح» اما نيكولاى ديميانوفتش فقال : — يا لودميلا بتروفنا ، اتريدين ان اوصلك ؟ معى سيارة .

بالطبع لم يحضر جريشا ربروف المسرحية . ايحضر مسرحيات سموليانوف ، هل هذا معقول ! استقر منذ الساعة الحادية عشرة فى مكتبة لينين فى القاعة العلمية الثالثة يقرأ عن ايفان جافريلوفتش بريجوف . كان قد طلب مسبقا كل ما وجده فى دليل : «الارشيف الروسى» لعام ١٨٦٦ و«تاريخ الحانات» و«الشحاذون فى روسيا المقدسة» ومقالات فى مجلات «الصوت» و«اخبار موسكو» و«اخبار سانكت–بيتربورج» وكتاب آلتمان ، وهو مجموعة مقالات ورسائل عام اربعة وثلاثين ، و«السنوات الماضية» ومواد اخرى كثيرة . كمية رائعة تكفى للقراءة عدة ايام . لم يدر ربروف نفسه لماذا لجأ الى دراسة بريجوف . لا بد انه كان بحاجة اليه لسبب ما ! لقد اصبح الجلوس فى المكتبة والتهام الكتب والمجلات والصحف القديمة عادة ثقيلة لا تقهر ، مثل الولع بلعب الورق او ادمان المخدرات . لقد عثر ربروف ببريجوف عرضا وهو يبحث فى نيتشايف . وعموما فلم يعرف بهذا الاسم الا منذ عام ، وهو يقرأ هنا ، فى هذه القاعة الثالثة ، اعدادا من المجلات القديمة . ولم يكن هناك داع لذلك . . كان نوعا من غيبوبة لا يمكن التخلص منها . ومرت به ايام لم يذهب فيها حتى للغداء ، ولم يغادر القاعة الا ليدخن . هذا فى الوقت الذى كان عليه فيه ان يكتب مقالة ادبية ويعمل فى السيناريو ! كلا ، ايفان

جافريلوفتش بريجوف لا فائدة منه مطلقا ، وقد نسيه الجميع منذ زمن بعيد ، متمرد فاشل ، مؤرخ ، سكير وشحاذ ، رجل فى غاية النبل ، مسجل واصف للحياة الشعبية ، عاش منذ مائة عام . . . هذا الرجل امسك بتلابيب ربروف . وربما كان ذلك فضولا احمق بلا قرار ، او ربما كان كسلا اكثر حماقة . مكث ربروف فى المكتبة حتى الساعة السادسة ، الى ان تراقصت الحروف امام عينيه ، ونقل حوالى عشرين صفحة — يا الهى ، لاى غرض ؟ — من مختلف الوقائع والاعتبارات المستقاة من حياة ايفان جافريلوفتش ومن مؤلفاته . وبعد ذلك ذهب الى مقهى «ناتسيونال» ليتعشى . واستقر هناك الى طاولته المفضلة قرب النافذة وشرب القهوة ، وامضى المساء كله فى مضغ قطعة لحم باردة مع بطاطس محمرة جافة لا يجيدون اعدادها كما ينبغى الا هنا فى «ناتسيونال» ، وشرب كأسى كونياك ضيافة من معارف جاءوا اليه . لم يكن معه نقود . ففى الصباح اخذ من لالا عشرة روبلات . وفى «ناتسيونال» سار كل شىء على نسقه المعهود : كان الناس يأتون فيجلسون مع الجالسين ، ويتعرفون ، وينصرفون ، وينقلون الاخبار ، ويبلغون ، ويمزحون ، ويخوفون ، ويسخطون ، ويقرضون ، ويرتبون الامور ، ويسكرون ، ويعربدون . وفى بداية السابعة جاءوا من سباق الخيل فتحدثوا عن الارباح والخيل الجديدة ، وفى التاسعة كالعادة جاء المصور ريسيف ، الذى قالوا ان على المرء ان يكون معه على حذر ، وفى بداية العاشرة بدأ يفد الممثلون غير المشغولين فى الفصول الاخيرة .

«. . يقولون فى مسرح المالى فشل تام . . .» ، «هل استبعدوا ميشيكوف حقا ؟» ، «اسمعوا ، وهذه النكتة . هل

تعرفونها : ذهب حاخام الى مومس . .» ، «هذه السلعة ينبغى احضارها من ريجا !» ، «انظروا الى تلك الحسناء التى مع صديقنا !» ، «وما معنى هذا : لدى لالكا افتتاح وهو هنا يسكر ! لماذا لا تجلس فى مقصورة المدير ايها الشرير ؟»

واتى ربروف بحركة احتقار وانية من يده وهو لا يرغب فى تقديم التفسيرات ، وكان الاحتقار موجها الى لب المسألة والى من وجه السؤال ، فهل سيقدم تقريره الى كل من هب ودب من رواد الحانات المقيمين . وعلاوة على ذلك فقد احنقته كلمة «الشرير» و«لالكا» . يا لهذا التبسيط الدائم لدى الممثلين . كان لا يزال تحت تأثير ايفان جافريلوفتش ، واخذ يفكر فيه وهو يتحدث مع رواد الحانات . يبدو ان الية الحانات ظلت كما كانت بلا تغيير : نفس الرغبة فى المخالطة ، فى النسيان . وقد احرق بريجوف المجلدين الاخيرين من «تاريخ الحانات» الذى الفه وليس ذلك من باب الصدفة فقد خاف ان تشدد الحكومة من رقابتها وتضيق الخناق على هذه الاندية التعيسة . ولم يستطع احد ان يدرك ما الذى كان يحدث لربروف .

وفى حوالى العاشرة ، وبينما كان ربروف يستعد للانصراف — كانت المسافة حتى المسرح يقطعها الترولى باص فى ما لا يزيد عن ربع ساعة — ظهر شاخوف ، وهو كالعادة مستعجل وسأل ربروف بسرعة عن اخباره . كانت هيئته اشبه بهيئة مفتش ، تتسم بالعملية ، وبينما كان يسأل راح يجيل على الموائد المجاورة نظرة صقر ، اذ لم يضيع دقيقة واحدة . واجابه ربروف بانه ليس هناك ما يستحق الذكر . واضاف على طريقة بريجوف :

— اموت ولكن ساقى ترتعش .

فقال شاخوف وهو يبحث بعينيه عن شخص ما فى زاوية بعيدة فى الصالة :

— اسمع يا عزيزى . خابرنى بعد حوالى خمسة ايام ، او اخابرك انا . ربما تمكنا من عمل شىء ما ، ولنرتعش سوية . . .

كان الجو باردا والمطر ينهمر . وكان الرواد قد بدأوا يسيلون من المسرح لا تيارا بل جدولا ، اولئك الذين انصرفوا قبل النهاية . ولم يقف ربروف تحت سقيفة مدخل المسرح ، حتى لا يلقى الممثلين وشتى المعارف ، رواد حفلات الافتتاح المعتادين ، وكان اكثر ما يخشاه ان يلتقى باقارب لالا . وليست المسألة انه لا يحب هؤلاء الناس الذين كانت غالبيتهم من عشيرة ايرينا اجناتيفنا ، ولكنه حاول ان يكون بعيدا عنهم ، وربما كان الكثيرون منهم اناسا رائعين ، وعلى قدر من الفضيلة ، ولكنه كان يتخيل فى كل منهم جزءا من حماته . ووقف بجوار الحائط حتى يتقى المطر وفى الوقت نفسه يراقب الخارجين . ولكن لماذا — ذلك هو السؤال — لماذا لم يكن فى وسعه ان يقف فى المدخل ، ويقابل المعارف بابتسامة ، ويصافح الاقارب ، ويرد بمزاح خفيف على التحايا ؟ : «الزوج قلق ؟» — «ها العمل ، سى لا فى !» وكان الافضل لو انه وقف فى الردهة ، فى الاسفل ، حاملا باقة زهر ، ثم يندفع لملاقاتها على مرأى من الجميع فيعانقها ويمطرها قبلا بينما تتصاعد همهمات الاستحسان من الجمع ؟

لكن ذلك كله كان **فى حكم المستحيل** . فاخشى ما يخشاه ربروف ان يبدو مضحكا .

وهذه الخصيصة المميزة للاشخاص ذوى الانفة والانطوائيين جلبت لربروف الكثير من المتاعب فى الحياة . وقد بدأت متاعبه منذ زمن بعيد ، من ايام المدرسة . وكان يدرس مع لالا فى صف واحد ، واعجبته ايما اعجاب ، وتعذب لذلك فى صمت . ولم يفهم بم اعجبته ، ابضفيرتيها ، ام بصوتها ، ام بقوامها المبكر الانوثة ، ام بجسارتها فى المسرح المدرسى فى دور نيللى من مسرحية «اولينشبيجل» . وكان من المستحيل ان يبوح لها ، حتى النظر ناحيتها كان امرا لا يقوى عليه . . ويا له من عذاب . وذات مرة خرج راكضا مع الاولاد بعد انتهاء الدروس ، وكانت لالا فى الفناء فسألته : «اذاهب الى المنزل ؟» وبدلا من ان يصيح : «طبعا ، هيا بنا !» ، كادت انفاسه تحتبس وغمغم : «لا ، كلا ، انا هنا . . .» اه لو لم يكن الاولاد هنا ! ولكنهم كانوا بجواره ويتابعون ما يجرى بعيون يقظة ، فانصرفت ، ولم تعد الى سؤاله ابدا ، وهكذا امضيا عاما بكامله ، بل حتى عامين ، وهما يسيران فى نفس الاتجاه ولكن ليس معا .

وبعد ذلك ، وفى الصف التاسع ، كانت قاعة سينما مظلمة فى احد النوادى بشارع تفيرسكايا-يامسكايا ، فى عرض مسائى ، وكانوا على الشاشة يطاردون المخربين ويطلقون النار ويركضون بالخيل . ولم تفهم لالا وربروف الجالسين فى اخر صف شيئا مما يحدث . كانت يده اليمنى قد اشتبكت مع يدها اليسرى فى الظلام وراحتا تداعبان بعضهما البعض وتتعانقان وتضغطان الواحدة على الاخرى حتى الالم . واستمر ذلك ساعة ونصف . ولم يتفوه ربروف ولالا بكلمة واحدة ،

وكان وجهاهما ينظران نحو الشاشة . وعندما اضيئت الانوار نهضا وهما يخفيان نظراتهما ، ومضيا الى باب الخروج فى صمتهما السابق . وفى الشارع قهقهت لالا فجأة وقالت انه مضحك للغاية . فدمدم وقد اصاب ذلك منه مقتلا : «انت ايضا مضحكة !»

نعم ، نعم ، الخوف القديم من ان يبدو مضحكا . ولكن ذلك كان يؤدى الى وضع اسوأ . كان مجرد القول «انا احبك» يبدو له حماقة مضحكة ، وانتهاكا لكافة اصول اللياقة والادب ، وفى النتيجة كان يصمت ببلادة ، الامر الذى كان يبدو اكثر حمقا . هى التى بادرت فعرضت عليه ان تكون زوجته ، فى شتاء عام سبعة واربعين . وفى ذلك الحين كان قد وقع بينهما ما يقع بين الرجل والمرأة . ولكنه لم يستطع طويلا ان يحسم الامر : فماذا لو رفضوه ؟ ماذا يفعل حينذاك ، يلقى بنفسه تحت القطار ؟ ومن حولها كان رجال ، ذلك الاعرج ، ثم ذلك الذى الحقها بالمسرح ، وكان ثمة من يدعى ياشا ، ومن يدعى فاليرى ، صديق الطفولة ، ابن احدى صديقات حماته . منذ زمن بعيد وحماته تحلم بتزويج لالا من هذا الفاليرى ، ويبدو ان هذا الامل الجنونى لم يزايلها بعد .

لقد احبها جريشا دائما ، طوال هذه السنوات الثلاث عشرة . لم يمر به يوم دون ان يفكر فيها . وعندما كانت تسافر مع المسرح للعروض الخارجية او للراحة فى الجنوب — كانت تحب الراحة وحدها ، فهكذا سارت الامور من زمان — كان القلق يستبد به ولا يجد لنفسه مستقرا ، ويكاد يموت من الوحشة ولا يقدر لا على العمل ولا على الراحة . وكان

زملاؤه يعرفونه بالفتيات محاولين التخفيف عنه ، ولكنه كان يفقد كل اهتمام بالنساء فى غيبة لالا ، اى فى الوقت الذى يبدو انه انسب الاوقات . فلو انها كانت فى موسكو وكل شىء على ما يرام ، فما كان ليمانع . ولكن ذلك كان كلاما اكثر منه فعلا . كان يقول احيانا لاحد زملائه ، وهما يتناولان القهوة ، ناظرا الى بعض الطالبات الشاحبات فى مطعم المكتبة : «اه لو اننى ، يعنى ، استطعت الان ان انفصل . . .» . اوه ، يا الهى ، ربما لم يحدث له خلال هذه السنين كلها ان ينفصل سوى مرتين او ثلاث . فهل هذا شىء معدود بالنسبة لرجل شاب ؟ انه يكاد يكون صفرا . كان ثمة نوع من التطير ، شىء اقرب الى الخوف الدفين الذى لم يعترف به حتى لنفسه : فلو انه سمح لنفسه بذلك ، فسوف يُسمح هناك ايضا بشىء من هذا . وربما كان يُسمح هناك بشىء من هذا بالفعل . وكان هذا هو العذاب الاكبر فى حياته . فيالها من سذاجة مدهشة ، فليس اسهل من ان تقبل ، وترد على الغزل بسهولة . كلا ، لم يكن هذا يعنى انها ستمضى الى النهاية ، لكنها قد تقطع بضع خطوات فى الطريق الى النهاية دون تفكير . والمسألة هنا ليست فى انها ممثلة ، ولا فى الوسط المحيط بها ، بل فى طبعها نفسه . تلك الطيبة ، عليها اللعنة . كان ثمة حادث قديم ، وقع قبل الحرب ، نعم ، طبعا قبيل الحرب مباشرة ، فى يونيو . بعد الامتحان ذهبا معا للاستحمام على بلاج شوكينسكى . ولم يكن هناك قبل الحرب اى بلاج ، بل جرف رملى عال شديد الانحدار . وكانت المياه باردة بالطبع ، اذ كان ذلك فى اوائل الصيف ، فغاصا فيها مرتين ثم استلقيا على الرمل ،

وهنا ظهر من حيث لا يدرى احد ثلاثة شبان وراحوا يغازلون لالا ويتحرشون بربروف ويدفعون الامور الى العراك . وكالعادة فى مثل هذه الاحوال صبر ربروف طويلا وهو يسخن ، ثم كأنما انفجر فجأة ، اندفع بلا وعى يسدد اللكمات ، ورد عليه الشبان بالمثل . وكان من الممكن ان «يشبعوه قتلا» كما كانوا يقولون فى الشارع انذاك ، ولكن لالا انقضت تدافع عنه صارخة : «كفى ! ماذا تفعلون ؟ ماذا تريدون منا ؟» ثم قالت فجأة : «اتريدون ان اقبلكم جميعا ؟» . وبالفعل قبلتهم ثلاثتهم ، الواحد تلو الاخر . وبهت الشبان ، اما هى فأخذت ربروف من يده وسحبته بعيدا . وجاءت به الى بيتها بالترام . وفزع اهلها ، ووضعوا له الكمادات وسقوه شايا ، وابقوه للمبيت فى شرفة البيت الريفى . وفى الليل جاءت اليه لالا ، ولم يحدث بينهما شىء سوى الملاطفات والشفقة الفوارة لدى لالا ، ولم يشعر ربروف بالحاجة الى البرهنة على انه رجل حقا ، فقد كان مليئا بهذا الاحساس بكل جسده الابى المضروب . وظلت فكرة واحدة تؤرقه ، وفى الصباح — عبر شدو الطيور واشعة الشمس النافذة من خلال الغصون — ايقظته تلك الفكرة على الم بغيض : كيف امكنها ان تقبلهم ؟ ثلاثتهم ؟ بهذه البساطة ؟ يا الهى ، ولكنها ارادت ان تنقذه . بالفعل انقذته ، انقذته ! هل انقذته ؟ وماذا لو تطلب انقاذه ان . . . تفعل ما هو اسوأ ؟ مع ثلاثتهم ؟ تمهلت قليلا ثم اجابت بحزم : لو كان ذلك من اجل انقاذه لفعلت . نعم كان بامكانها ان تفعل . بلا شك كان بامكانها ان تفعل لو كان ذلك من اجل انقاذه . وتأوه وارتمى على الكنبة وهو يدمى شفته باسنانه . لم يكن الباعث على

اليأس هو انها كانت قادرة على ذلك ، بل فى اقدامها عليه بكل بساطة وحزم ودون تردد . وفيما بعد ، عندما التقى بها صدفة بعد ثلاث سنوات من دوامة الحرب — بعد الجبهة ، والاصابة ، والمستشفى العسكرى فى سيبيريا — فى احد البيوت عند سيريتينسكى فوروتا ، ورأى بجوارها الشاعـــر الاعرج ، الذى اشتهر بتأليف الاغانى للمعوقين والعميان ، ذلك المخلوق البائس التافه السكير ، وقيل لربروف ان لالا ترعى لازيك — هكذا دعوا ذلك الاعرج — وكأنما مربية ، ومخلصة له بلا حدود ، وعندما هجرت ذلك الشاعر ، وان كان ذلك بصعوبة ، وانتهى كل شىء ، وشطب الماضى وطلى بطلاء من القطران الاسود ، رغم ذلك فقد لاح من خلال ذلك السواد لازيك ، والفتيان الثلاثة على الشاطئ ، واحد الاوغاد الذى حاول اغتصاب لالا ، وكثيرون غيرهم ممن لا يعرفهم ولا يدرى بوجودهم على وجه اليقين ولكنه يخمن به . لم يكن بوسعه ان يمحو اى واحد منهم الى الابد .

فى شتى الاوقات ظهرت شتى المخاوف : فمرة ماكيف ، ومرة سرجى ليونيدوفتش نفسه ، الذى كانت تتحدث عنه مبهورة وكأنه كائن سماوى ، وتارة كان يقلقه المخرج سمورنى رغم ان لالا كانت تمقته ، وفى ذلك كان ثمة نوع من الضمان ، ولكن ربروف كان يعرف انه مع طيبة قلب لالا يمكن للكراهية الشديدة ان تتحول بسهولة الى اشفاق مشبوب ، بل والى مشاركة ، ومن ثم ينبغى ان يكون على حذر . وكان يشعر بالنفور من فاليرى وامه ، اللذين كانت حماته تحب ان تدعوهما الى زيارتهم . واحيانا كان كتاب المسرحيات يثيرون شكوكه ، وخاصة الناجحون منهم مثل فيدكا ارنولدوف ،

ذى الشعر الاسود الفاحم ، على ذوق لالا ، وسموليانوف ايضا يمكن ان يشكل خطورة ، اما اكثر من اثار غيظه فهو ذلك الممثل الملقب كورنيلوفتش والمدعو ياشا . فتحت ستار الزمالة كان يعامل لالا معاملة متبسطة للغاية ، ويسمح لنفسه فى حضرة ربروف بالقاء النكات السليطة على لالا ، ويخاطبها بصيغة المفرد ، ويعانقها ويمسك بذراعيها . ولذلك لم يكن ربروف يحب الجلوس فى صحبة الممثلين ثم ما الذى يمكن ان يتحدث عنه معهم ؟ كانت صحبتهم مملة ، وفوق ذلك كانت اعصابه تتوتر وهو يكظم فى نفسه الغيرة ، مما كان يفضى به الى الاحساس بالمهانة والقرف . وكانت مشكلته انه لا يرغب فى اظهار ما يعتمل فى نفسه من عذاب . وكان مستعدا ان يموت مختنقا بالقهر والوحشة ليلا على ان يخف الى المدينة التى تقدم فيها حفلات مسرحها الخارجية او الى المصيف الذى طارت اليه لالا مع صديقتها ، ولم يتصل بها بالهاتف ابدا اثناء غيبتها . ايرينا اجناتيفنا هى التى كانت تتصل . ثم تفضى بكل الاخبار . اما هو فيتصيد بنهم كل كلمة تقولها مضفيا على هيئته مظهر الهدوء الكئيب بل وحتى الشرود ، مما يجعل حماته تصب عليه سرا جام غضبها ، معتبرة انه لا يبدى قلقا وبالتالى فهو لا يحبها كثيرا ، وهذا ما اكد ظنونها .

ولكن عندما كانت لالا تعود — يا لها من ايام سعيدة ! — ومنذ اللحظات الاولى ، من المحطة او المطار ، كان يسعى بطريقة مرهفة للغاية الى اكتشاف ومعرفة شىء ما . كان يجرى دراسة لادق التغيرات التى طرأت اثناء فراقهما على عاداتها ، وصوتها ، وصحتها ، وعلاقتها به ، وفى الليلة الاولى كان

حبها له يتعرض لاختبار خفى قاس ، خشية ان تكون قد ظهرت لديها خبرة جديدة ما . وبالطبع لم تكن تخمن شيئا . ولكل ذلك ربما لم يكن قادرا على المجيء الى هنا بحرية والتحدث ، مبتسما ، مع كل هؤلاء الاشخاص . وعندما جاءوا صيفا من ساراتوف واستقبلها زبروف على محطة القطار ، قال كورنيلوفتش بصوت عال عمدا مخاطبا لالا بصوت المهرجين : «ماذا يا لالا ، هل نعترف لجريشا بكل شيء ؟ هه ؟ هيا نعترف !» وقهقه الممثلون ، وحمل جريشا نفسه على الابتسام ، بينما نهشت قلبه الشكوك ، فماذا لو كان ثمة شيء ؟

ولم يكن يحب المجيء الى المسرح للسبب التالى ايضا : لقد كانوا هنا يهينون لالا . ولم يكن بوسعه ان يدافع عنها او يحميها . فهو ايضا كان يهان . قدم لهم مسرحيتين ، احداهما شبابية ، عن بناء جامعة ، والاخرى بمثابة حكاية اطفال ، عن الحرب الكورية . ورفضت المسرحيتان . وكانت نظرة زبروف الى مسرحياته مزدوجة ، فمن ناحية بدا وكأنه لا ينظر اليها نظرة جدية ، ويرى جوانب ضعفها ، والهفوات الواضحة فيها ، ولكن ذلك لم يحزنه كثيرا ، باعتبار ان هذه المسرحيات هى بالنسبة له امر ثانوى ، ليس اساسيا . ومن ناحية اخرى كانت امرا اساسيا تماما بل واساسيا للغاية بالمعنى المعيشى ، فقد كان المستقبل يقوم عليها . ثم انه لشيء مهين الا يقبلوا مسرحياته ، لماذا ؟ امن المعقول انها اسوأ من المسرحيات الاخرى ، حتى من ذلك الهراء الذى يكتبه سموليانوف ؟

كان الجمهور الان يسير جمعا غفيرا ، وازداد هطول

المطر ، وتحدث المارة عن التاكسى والمترو ، وعن ضرورة التعريج على المخبز ، ولم يتحدث احد عن المسرحية . وفكر زبروف دون دهشة : «طبعا ، كل شيء صحيح !» . لم يكن متعرفا بسموليانوف ، ولم يشاهد مسرحياته ولم يقرأها ، ولكنه لسبب ما كان مقتنعا بان سموليانوف خال من الموهبة وشاطر ، اما مسرحياته فهى هراء .

وظهر المشرف الادبى بوريس ميرونوفتش ماريفين ، الذى كانوا يدعونه فى المسرح بوب . احتجز مسرحيات زبروف اربعة اشهر ، هذا الخنزير ، ولم يبلغه الا مؤخرا ، عن طريق لالا ، انها غير مناسبة . لم يتكرم حتى بدعوته والتحدث معه ، ولم يكتب اى رسالة رسمية . وما الداعى للرسميات ؟ زبروف ليس غريبا ، زوج لالا ، ليس مؤلفا حقيقيا . وعندما يقدم له بيرج او فيدكا ارنولدوف مسرحياتهما لا بد انه يزدردها فى ليلة واحدة ، ويسارع فى الصباح الى المخابرة : «اسمع ، ما هذا الذى فعلته بى ؟ لقد حرمتنى من النوم ، لم استطع التوقف عن القراءة . . .» فى الشارع يبدو ماريفين الرهيب ، الذى يرتعش المؤلفون فى حضرته ، شخصا مختلفا تماما عما هو عليه فى مكتبه ذى طاقم المحبرة المصنوعة من الرخام الاخضر ومساند الاقلام البرونزية . كان يبدو بائسا . وخاصة تحت المطر . سيد قمىء المنظر قصير القامة ، يضع على رأسه «بيريه» ، ويرتدى معطفا حقيرا ليس بافضل من معطف زبروف ، ويمسك بحقيبة ، خرج راكضا تحت المطر منقوسا ، وارعش ساقيه النحيلتين كسيقان بعوضة ، وتطلع الى الجانبين ورأى زبروف فحياه بانحناءة . ورد زبروف بايماءة متعالية . وفى تلك اللحظة هبت دفقة مطر قوية مصحوبة بالريح على

ماريفين ودفعت به الى جدار المنزل ، فاقترب ماريفين رغما عنه من ربروف حتى اصبح من المستحيل الا يحييه ويتبادل معه بعض الكلمات .

— تنتظر لالا ؟ اليوم عيد كبير لديها . اهنئك انت ايضا . .

ولم يرغب ربروف فى الحديث معه عن لالا ، فسأله :

— وكيف المسرحية ؟ نجاح مذهل ؟ الجمهور يعوى ؟

فهمس ماريفين :

— هل جننت ! سخافة من المستوى المتوسط . اتمنى لك التوفيق . . .

وركض مبتعدا وهو يتقافز . وفجأة خطر لربروف خاطر : من الممكن ان يؤلف مسرحية رائعة عن ايفان جافريلوفتش . كل شىء هنا متوفر : الدراما ، والوفاة ، والاسمال الجميلة ، واخلاص المرأة ، وحياة العذاب لاديب فقير مستعد لبيع مخطوطته لقاء قدح فودكا ! وماذا عن القتل ؟ ولكنه لم يرد قتل ايفانوف ، بل امتنع ، وتوسل ، وقال انه عجوز واعمى ، ولكنهم قالوا : «سوف نحملك» ، ويبدو انهم سقوه فودكا . تلك هى الفظاعة . لقد ابدع دوستويفسكى صورة كاريكاتيرية عبقرية فى رواية «الابالسة» ولكن اذا توخينا البساطة ، مثلما كان الامر . . . حسنا ، ولاى غاية ؟ لمن ؟

ظهر فى الباب ماكييف فى معطف فاخر بياقة طويلة وقد دس يديه فى جيبيه ، ملفعا حتى انفه بلفاع ابيض ، ومن خلفه جرجر شخص ما حقيبته . وهتفت المعجبات بماكييف المنتظرات تحت القوس بصوت رفيع : «ماكييف حبوب ، نعم ، نعم ، نعم !» . ثم خرجت مجموعة كبيرة

فى وسطهم لالا . كانت تحمل على يدها اليسرى المثنية باقة ازهار ضخمة وكأنها تحمل مولودا . وودعوا بعضهم بعضا فى صخب وهم يتصايحون ويلوحون بالقبعات ، وقبلت امرأة ما لالا ، وسرعان ما تفرق الجمع . تراجع ربروف قليلا ووقف تحت المطر . واستمرت لالا فى الحديث مع شخص ما . وعرف ربروف فى ذلك الرجل سموليانوف . وتوتر . التصق بمكانه قائلا لنفسه انه لن يخطو خطوة واحدة نحو لالا ، فلتأت هى اليه . واقتربت لالا وسموليانوف من ربروف ببطء وهما يتحدثان . وقد رأته لالا ، ولكنها كانت منهمكة فى الحديث حتى انها لم تومئ له او تبتسم ، ولم تأت باى حركة تدل على انها عموما قد لاحظته . بل يبدو حتى انهما لم يلحظا المطر . «يا للشيطان ، لماذا تسحبه ؟» — قال ربروف لنفسه وقد انتابه القلق . واقترب سموليانوف ولالا وتوقفا على بعد خطوتين منه ، ودون ان تنظر لالا الى ربروف مدت له الباقة .

فسألها ربروف وهو يتناولها منها :

— ما هذا ؟ هدية لى ام ماذا ؟

— جريشا ، امسك — قالت لالا وهى تتطلع اليه لاول مرة . كانت نظرتها مذهولة قليلا وعيناها تلمعان — اوه ، عفوا يا جريشا ، الا تعرفان بعضكما البعض ؟ هذا سموليانوف نيكولاى ديميانوفتش وهذا ربروف جريجورى فيدوروفتش . يا جريشا ، نيكولاى ديميانوفتش يدعونا للاحتفال فى مكان ما . . .

رفع سموليانوف قبعته قليلا وصافحه ، واذ بيده تبدو قوية على غير توقع .

ـــ اهنئكم ، يعنى ، بهذا العيد الكبير . . . ـــ دمدم ربروف وهو يحس فى صوته بنوع من الدناءة . وفى اللحظة التالية قال لنفسه مبررا : «وما ذنبه المسكين فى انه خال من الموهبة ؟ ايا كان الامر فالليلة ليلة افتتاح مسرحيته» .

ويبدو ان سموليانوف لم يسمع اذ لم يشكره ولم يأت حتى بانحناءة خفيفة ردا على التهنئة ، وبدلا من ذلك غمغم بسخافة :

ـــ يا له من امر غريب يا جريجورى فيدوروفتش ، لم امثل ولم اركض ، بل كنت جالسا فى المقصورة اتفرج ، ومع ذلك ، اتدرى ، ظهرى يؤلمنى وكأنى نقلت اكياسا من البطاطس . يا له من عمل ! لو كان بيدى لصرفت للمسرحيين لبنا بالمجان باعتبار عملهم من الاعمال الضارة بالصحة .

اقترب شخصان ، فعرفه سموليانوف بهما : كان احدهما من ادارة المسارح ، والاخر من بلديـى سموليانوف ، من ساراتوف ، وهو الان يعمل فى موسكو . وودعهم بلدى سموليانوف بينما دعا الاخر جميع الحاضرين ليركبوا سيارة «بوبيدا» . وعندما هموا بالجلوس فى السيارة ظهر فجأة من حيث لا يدرى احد اقارب لالا ، حوالى خمسة او ستة اشخاص تقودهم الخالة ليبا ، تلك الحمقاء العالية الصوت . وانقض كل ذلك على لالا بالقبلات والباقات والصيحات ، ووميضت اضواء التصوير ، فقد كان احد ما يصور هذا الهرج ، واخيرا افلتت لالا ، وهربت الى داخل السيارة ، وزحف ربروف فى اثرها ، ولم يره احد لحسن الحظ ، وانحشر سموليانوف اخرهم واغلق باب السيارة . كان لا يمكن التحرك داخل السيارة بسبب باقات الزهور . وقهقهت لالا بجنون لسبب ما .

الى اين يذهبون ؟ قرروا ان يذهبوا الى الفندق الجـديد «سوفييتسكايا» فى طريق لينينغراد . يقال ان مطعمه به فرقة غجر.

قبل الثورة كان البيت الصغير الذى يقطنه ال تليبنيوف بيتا صيفيا لاحد مستخدمى المصانع او موظفى الدولة الصغار ، ممن لم تسمح لهم امكانياتهم بالسكن فى بيت صيفى حقيقى فى ضواحى موسكو على شاطئ نهير فى «جزيرة الايائل» او منطقة كوسكوفو ، بل كانت الوظيفة تفرض عليه السفر يوميا الى موسكو ، مما جعل القرب من المدينة يلعب الدور الحاسم فى اختيار البيت . ثم جاءت الثورة فالقت بجميع مالكى البيوت الصيفية الكبار والصغار خارجا واسكنت فى جميع الغرف الصغيرة والردهات والشرفات العمال والجنود السابقين والفلاحين والفلاحات الذين تدفقوا على العاصمة من المناطق التى سادها الجوع . وانذاك ، فى عام ١٩٢٢ ، سكن هنا ، فى هذا المنزل الذى كان يقع وقتها خارج المدينة ، جندى الجيش الاحمر المسرح بيوتر تليبنيوف ، الذى كان من متوسطى الحال فى مدينة يكاترينبرج ، وكانت حرفته سمكرى مراجل ولكنه كان يهوى فلاحة البساتين . وتعلم فى المصنع ، وعمل فى البداية اسطى ، ثم ترقى الى منصب مهندس نوبة فى المصنع الكبير الجديد الذى شيد غير بعيد عن المنزل ، فى حقل خودينكا القديم .

لكن حب بيوتر تليبنيوف لحديقته التى رعاها خلال ثلاثة عقود كان اقوى من حبه للمصنع ، وللمراجل العزيزة على قلبه ولربما اقوى من حبه لزوجته وابنته . وكانت زهور الداليا كثيرة هنا بصفة خاصة . واشتهر بها تليبنيوف فى موسكو

كلها . وفى اوساط مربى الازهار كانوا يقولون «داليا تليبنيوف» ، واحيانا يقولون «التليبنيوفية» اذ كان كل شخص يدرك ما هى الزهور المقصودة بذلك . وكان فى الحديقة زهور اخرى : الاقحوان والاسطر ، والكريزانتيم ، والمنثور ، والسوسن الرائع الذى لا يقل عن الداليا شهرة ، وكان هناك البنفسج الغزير ، ثمانى عشرة خميلة ، بحذاء السياج كله . ولكن بيوتر تليبنيوف كان لسبب ما لا يهتم بالحرص على البنفسج حرصه على كثير من الزهور الاخرى ، فكان يسمح بقطفه ، وينزع منه خمائل بكاملها ويهديها ذات اليمين وذات الشمال ، خاصة وان نصف سكان موسكو كانوا من اقاربه .

واثناء الحرب كاد البستان يهلك . فمن ذا الذى يمكن ان يهتم بالازهار عندما كانوا يعيشون بالكاد ، شبه جوعى ، وليس لدى الصغيرة ثوب او حذاء ، وفى شهر مايو كانت تركض فى الدفء والجفاف فى حذاء شتوى من اللباد ، بينما تعانى ايرينا اجناتيفنا من القرحة وترقد فى المستشفى بالاسابيع . ومع ذلك ظلوا على قيد الحياة وانقذوا البستان . . انقذه بيوتر الكسندروفتش . . بالساعات والليالى التى انتزعها من الحياة وبايمانه بانه سيأتى وقت يفيق فيه الناس فيتساءلون : «ثمة شىء ينقصنا ، كان شىء ما يرتفع فوق المائدة ، فى الوسط ، اليس كذلك ؟» وبالفعل عاد الناس الى الازهار ، وبدأ الاقبال على بطاطس لورخ والفجل البدرى يخف شيئا فشيئا رغم انهما لم يتركا بعد مكانهما فى الحدائق المنزلية ، ولكنهما لم يعودا المسيطرين اصحاب السيادة ، بل مجرد سكان مؤقتين يحتملهم صاحب الدار نظير الاجر الجيد وهو يتمنى ان يتخلص منهم بسرعة ، وهنا برز خطر جديد من غير توقع . فبعد عامين من انتهاء

الحرب شرعوا فى بناء المنازل الحجرية فى شوارع بوتشتوفيى . واصبح خطر الازالة يتهدد بستان البنفسج والانواع الثمانية والاربعين لازهار الداليا . ليس البيت مهما ، فليذهب الى الشيطان ، فهو كومة احطاب ، وسيعطونهم شقة بدلا منه واحسن منه ، ولكن البستان كان عرضة للموت .

وانطلق بيوتر الكسندروفتش يجمع شتى الاوراق ، ويزور زبائنه المشهورين الذين اهداهم البنفسج فى زمن ما ، ليحصل على توقيعاتهم ، وكتب الشكاوى الى مجلس الحى والى ادارة مساكن الحى والى بلدية موسكو والى ادارة الاسكان بموسكو ، والى كبير معماريى المدينة برجاء واحد : الابقاء على البستان دون مساس به باعتباره بستانا فريدا لا نظير له ستؤول ملكيته الى الدولة بعد وفاة بيوتر الكسندروفتش ، واعطائه شقة فى اقرب منزل لمواصلة العناية بالبستان ومتابعة احواله ، الامر الذى يعد ذا اهمية علمية مسلم بها .

استمر ذلك ثلاث سنوات . كان بيوتر الكسندروفتش يكتب ويخابر ، ويطوف بالدوائر ويطرق جميع الابواب . وراحت البيوت الحجرية تقترب ، واستكمل بناء الشارع كله من الكنيسة حتى تركانوفكا ، وردموا النهير العطن بالمخلفات ، وجلبوا التربة ، وشيدوا حديقة صغيرة ، ومدوا خط الترولى باص ، ولعبت لالا ثلاثة ادوار فى المسرح ، ولكنها لم تكن راضية ، وارادت ان تترك المسرح ، وتارة كانت تفترق عن صاحبها المسكين جريجورى وتارة تعود ، وهنا ولدت ومانت على الفور ابنتها الوحيدة فارنكا بالتهاب الغشاء السحائى ، بينما لم يبب فى موضوع البستان .

وقال له مهندس الحى : «منزلكم فى المربع السكنى

الثامن . ونحن الان نجهز على مربعين خلف تركانوفكا ، والدور التالى دوركم . فاذا لم يصدر قرار من بلدية موسكو حتى ذلك الحين فلتنتظروا حلول الجرار ضيفا عليكم» .

وعلاوة على ذلك كان الجيران فى بيتين خشبيين مثل هذا البيت يفسدون الأمر ، اذ راحوا هم ايضا يدبجون الشكاوى ويجمعون التواقيع . ولكنهم سعوا الى العكس ، فقد كانوا يستعجلون هدم البيوت ، ويسبون بيوتر الكسندروفتش افظع سباب . وقد ارهقه بصفة خاصة جاره ، الشرطى كورتوف . في وقت ما عاشا معا في وفاق ، وشربا الفودكا سـوية ، واصطادا السمك معا ، وتصادقت ابنتاهما لالا ومرجريتا وكانتا تدرسان في صف واحد ، أما الآن ، وبسبب هذه المشاحنة فقد تشاجروا تماما .

اربد وجه بيوتر الكسندروفتش ، وتقوس ظهره من كثرة الركض هنا وهناك والقلق . وفي سبتمبر خرج الى البستان ليقطف «الامبريال» البيضاء–الصفراء هدية للعقيد المتقاعد دوداريف الذى بلغ الستين ، وكانت الداليا في هذا الخريف رائعة بشكل نادر ، تستحق ان ترسل الى المعرض في جنيف . . وفجأة خطر له انه في العام القادم لن يكون موجودا لا هو ولا الداليا الامبريال في هذا المكان ، بل ستكون هنا حفرة وبقع الجير هنا وهناك ، والنساء يحملن قوالب الطوب بالنقالات . وفي نفس اللحظة انغرز شيء ما ، كالمثقاب الصغير ، في قلبه واطاح به . وتمدد في حوض زهور السوسن وهو في كامل وعيه ، لكن الألم كان يفرى قلبه والخوف يتملكه . . كان يخشى ان يتحرك . وراح ينادى بصوت واهن : «ايرينا ، ايرينا !» ، وبالطبع لم تسمعه ايرينا اجناتيفنا ، لكن الكلبة

الذكية كانديدكا نبحت عند السور ، وبعدها بقليل خرجت زوجته فرأته . ورقد بيوتر الكسندروفتش شهرين طريح الفراش في البيت . وأمروه ان يستلقى في العشرين يوما الأولى دون حركة من رأسه ، ودون ان يتقلب من جنب الى جنب . وشيئا فشيئا اخذ يسترد قواه ، ثم نهض وسار على قدميه . وفي يناير ارسلوه الى المصحة لمدة شهر ونصف . وعندما عاد بدا وكأن الأمور على ما يرام ، ولكن لم تكن هناك ثقة ، فالحال خلاف الحال وان بدا مثل السابق .

واستقبل بيوتر الكسندروفتش وهو في حالة سيئة النبأ السعيد : حفل افتتاح لالا ونجاحها الكبير . بالطبع كان بيوتر الكسندروفتش مبتهجا بابنته ، وبصفة خاصة بزوجته التي جعلها نجاح لودميلا تزدهر وتمتلئ فخرا وتنسى قرحتها ، ولكن التفكير في البستان كان يؤرقه دون هوادة .

وخطرت له افكار . ماذا لو كتب المسرح رسالة ؟ موقع عليها من جميع الممثلين والعاملين ؟ الممثلة الجديرة فلانة الفلانية ، ممثل الشعب فلان الفلانى ، مع ادخال كبير المخرجين في الموضوع . . . «اننا واذ علمنا بالعزم على الابادة البربرية لهذا الركن الحضارى لتربية الأزهار في حـــي لينينجرادسكي . . .» . ووعدته لالا بأن تتحدث في الأمر مع المشرف الادارى الأول الرفيق برافين . وبرافين هذا ، على حسب كلامها ، رفيق نافع ونبيه جدا ، والجميع يستشيرونه في كافة الامور ، وهو يدبج العرائض ويزور المحاكم ، ويتوسط في قضايا الطلاق والاسكان . ولم تتمكن لالا ابدا من الكلام معه ، اذ لا بد من مفاتحته على انفراد ، وشرح الموضوع جيدا ، ولكنهم في المسرح مستعجلون دوما ، والازدحام

شديد ، وليس هناك دقيقة سكون واحدة . ولكنها وعدت بانجاز الأمر . قالت : «ربما ادعوه الى البيت على قدح فودكا ، ولن يرفض» . وخطرت له فكرة اخرى : كتابة مقال ساخر ، نعم ، من اجل هذا الهدف ينبغي ان يضغط على جريجورى ، فلديه معارف في دنيا الصحافة ، كما ان يده خفيفة في الكتابة . وتحدث معه فوعده ، ولكنه — كالعادة — يحتاج الى تذكيره عشر مرات حتى يتحرك من مكانه . اما التذكير فليس ايضا بالأمر البسيط ، اذ يتطلب اختيار اللحظة المناسبة ، وكثيرا ما يكون جريجورى معتل المزاج ، يكتم سخطا على ايرينا اجناتيفنا ، ومتشاجرا مع لالا ، واحيانا غاضبا من بيوتر الكسندروفتش لسبب غير مفهوم . وفي بعض الاحيان تحذرهم لالا نفسها : «ترفقوا اليوم بجريشا فلديه منغصات في العمل ، وهو متكدر جدا» . حسنا ، وهل كانت لديه اشياء سارة ؟ ليس عنده طوال هذه السنين سوى المنغصات والكدر .

كانت اللحظة المناسبة لتذكيره وحثه توافق ، في رأى بيوتر الكسندروفتش ، يوم الاثنين بعد عودة جريجورى ولالا من الحفل ، بالطبع اذا لم يعودا بعد منتصف الليل . وقد لاحظ بيوتر الكسندروفتش ان جريجورى عندما يشرب — ولم يكن يشرب كثيرا ، فمن أين له بالنقود ، كما ان الكرماء لم يعودوا كثيرين في هذه الايام — يصبح اكثر اقبالا على الحديث والمخالطة ، بل ولا يعود بخيلا . وعموما كان بيوتر الكسندروفتش يعتبر صهره بخيلا . ليس بخيلا بالنقود بقدر ما هو بالأشياء ، اذ كان يحدث ان يطلب منه شيئا نافها ، موسى حلاقة ، او فرشاة ، او لفاعا يرتديه ليخرج الى الشارع ،

فلا يعطى الا على مضض ، وليس على الفور . او تطلب منه كتابا مثلا . . وقد طلب منه كتاب جوكوفسكي ، وأناتول فرانس ، فمكتبته في باشيلوفكا مكتبة عامرة ، حافلة بالكتب المنتقاة . . فيعد قائلا : «حسنا يا بيوتر الكسندروفتش ، سأحضره غدا» . وفي الغد : «آه ، نسيت ! عندما سأذهب الى هناك مرة أخرى حتما سأحضره» . وظل يماطله في جوكوفسكي شهرين ، ثم قال : بحثت عنه بالأمس خصيصا فلم أجده ، اختفى في ركن ما . نعم ، بخيل قليلا بالفعل ، ولكن ما العمل ، حياته ايضا ليست سهلة ، منذ كم سنة وهو يجاهد دون فائدة . لا أحد يقبل مسرحياته ولا سيناريوهاته أيضا . مع ان كتاباته لا بأس بها ، رائعة ، ولديه موهبة كبيرة . ليست بأسوأ مما لدى الآخرين . اعطاه ليقرأ ما كتبه عن الانتفاضة في سيبيريا . . شيء ممتاز ! لغته جيدة جدا ، قوية ، والوقائع وفيرة . يبدو ان علاقاته قليلة . وبدون ذلك لا يمكن ان تخطو خطوة هناك . يمكنك ان تطرق الابواب مائة سنة دون جدوى ، لا تأمل في شيء . .

نعس بيوتر الكسندروفتش ولما يجيء جريجورى ولالا بعد . كان نوما مضطربا : رأى الجرار يمزق السياج في صرير ويحطم الأعمدة ويزحف الى البستان ويدوس احواض الزهور ، زهور الداليا أولا ، ثم زهور الفلوكس الوردية الرقيقة وهي في روعتها الخريفية ، ثم السوسن ، فالمنثور ، ويحيل كل ذلك الى خليط . والى عجلة قيادة الجرار جلس ميتكا كورتوف وهو يصيح بحقد : «كفى ! انتهت اللعبة !» واستيقظ وقلبه يخزه ، وأخذ ينادى ايرينا عبثا ، فقد تعالى اللغط والصخب وراء الجدار . وترددت ضحكات لالا المرحة . وكانت الساعة

تشير الى الواحدة والنصف .

وفجأة دخلت ايرينا اجناتيفنا مسرعة ملهوفة :

— ايها الاب ! ألست نائما ؟

فدمدم بصوت ضعيف ساخط وهو ما يزال تحت تأثير الكابوس :

— أين أنت ايتها الشيطانة ؟ الساعة تدور في الثانية ايها الطيبون . . . الا تشبعون احتفالا . . اعطيني نقاط القلب ، وقليلا من الماء — عندما يثقل عليه قلبه ويهاجمه الخوف وكأن الموت على مقربة منه يبدو كل شيء تافها : فرحة زوجته ، ونجاح لالا واخفاقها ، كل شيء ، كل شيء . ولا يهمه سوى شيء واحد : البستان — اطلبي من جريجورى ان يأتي اليّ .

فهمست ايرينا اجناتيفنا وهي تنحنى بشدة نحو وجه بيوتر الكسندروفتش . ولسبب ما ابتسمت في الظلام بغباء :

— يا بتراشا ، الضيوف هناك يشربون الشاى . الكاتب المسرحي الذى لعبوا مسرحيته . . .

— فليكن كاتبا ، يا للاهمية ! ادعي جريجورى فورا ! قولي له أرجوه ، بسرعة !

وبعد فترة دخل جريجورى وقد فتح الباب على مصراعيه ، وجلس بحذر على الكرسى بجوار الكنبة . واخذ يتمايل . وانتشرت في الغرفة رائحة خمر قوية .

— يا جريشا ، المسألة يعنى انه . . . — بدأ بيوتر الكسندروفتش محاولا أن يضفى على صوته نبرة عملية صارمة . وأوضح له انه لا ينبغي اضاعة يوم واحد ولا ساعة واحدة . بخصوص الجريدة . ينبغي عليه غدا ، من الصباح ، ان

يخابر من ينبغي مخابرتهم ، ويكتب ، ويوصل ، يا للعبث الصارخ ، انه تخريب من الدرجة الأولى ، لو تحكى عنه لاحد فلن يصدق بأن ذلك يحدث في العام الخامس والثلاثين على قيام السلطة السوفييتية .

جلس جريجورى منكسا رأسه ، مركزا مرفقيه في ركبتيه وهو يهز رأسه مطرقا :

— نعم . . نعم . . نعم . . — ثم رفع رأسه فجأة وسأل — يا بيوتر الكسندروفتش ، لماذا لا تهنئنى ؟

— على أى شيء ؟

— على حفل الافتتاح لزوجتى غير الشرعية لودميلا بتروفنا تليبنيوفا .

— آه ، حسنا ، تفضل ! اهنئك .

فلوح جريجورى باصبعه مهددا :

— ينبغى عليك ان تهنئنى . الجميع يهنئوننى وأنا اشكر الجميع . منذ قليل اخذ الجميع فى مطعم «سوفيتسكايا» يشدون على يدي قائلين : «تقبل تهانينا ايها العزيز» او يقولون : انهنئك من صميم القلب يا حضرة !» . وكنت أنا أشكرهم . شكرا لكم ، اشكركم . لأن الشكر واجب ! ستهلك البشرية من نقص الشكر ، الشكر بمعنى الكلمة النبيل السامى . . .

كانت ايرينا اجناتيفنا الواقفة فى الباب وراء ظهر صهرها تأني بحركات معناها : دعه ينصرف ، انه سكران ، ألا ترى ؟ ومن حركاتها المشوشة وابتسامتها الغبية ادرك انها هي ايضا قد ثملت ، وقررت هذه الحمقاء ان تسقيهم شايا فى نصف الليل .

فقال بصوت واهن :

— طيب ، انصرف . . . غدا . اهنئك .

— شكرا ، شكرا ، ممنون لكم جدا . . — همس جريجورى وهو يحك الأرض بقدميه وينحنى بشدة كالمهرج . عندما يكون ثملا يهمس دائما هكذا ويهرج .

اطفأت ايرينا اجناتيفنا النور في الطرقة . وبعد نصف دقيقة أشعله جريجورى من جديد واندفع الى الغرفة هامسا :

— بالمناسبة ، المسرحى سوف يبيت هنا . لأن الوقت متأخر . يقول : اتشاجر مع زوجتى ، لا أريد ان اعود الى المنزل .

فقال بيوتر الكسندروفتش :

— حسنا ، فليبق . المكان يتسع . أهو الرفيق سموليانوف ؟

— الرفيق سموليانوف . يجب ان اقول انه شخص غامض الى أبعد الحدود . عندى شك ، حسب بعض المعلومات والملاحظات الدقيقة ، بأنه — ومال على بيوتر الكسندروفتش وهمس : انه لم يقرأ دوستويفسكي !

فسأله بيوتر الكسندروفتش وكأنه قد شعر بخوف :

— ماذا تقول ؟ !

— لم يقرأه . اقسم لك ! صه . . . — وضحك جريشا بدون صوت وهو يلوح بيديه فوق بيوتر الكسندروفتش الممدد — وتولستوى ايضا ، على ما أظن ، لا يعرفه جيدا . . . بالمناسبة ، هناك لدى دوستويفسكي في «الأبالسة» فكرة تقول ان الانسان يحتاج لكي يكون سعيدا الى قدر من السعادة يساوى نفس القدر من الشقاء . هذه فكرة عميقة يا بيوتر الكسندروفتش ! هل تفهم ، ان ايفان جافريلوفتش بريجوف . . . ألم احكِ

لك ؟ طيب ، لا يهم . انه مسجل اعتبارى • متقاعد . انها قصة كاملة . لا يهم ، لا يهم . وهكذا كانت حياة بريجوف هذا عذابا لا يتصور ، وسلسلة من المآسى ، ومع ذلك ، أتدرى يا بيوتر الكسندروفتش ، كانت لديه سعادة . تسألني ما هي ؟ زوجته ، أولجا جريجوريفنا مارتوس . . . امرأة متفانية . . . تعذبت معه في موسكو ، وهم دائما مفلسون ، والاخفاق حليفهم الدائم ، وهو سكير رهيب ، لا يمكن شفاؤه ، وعلاوة على ذلك مضت وراءه الى سيبيريا . . . أنظر الى ما يحدث ! . . . — كان جريجورى واقفا يترنح وهو يمسح خديه براحته ، وظل واقفا هكذا دقيقة كاملة ، ثم انصرف على اطراف اصابعه .

في اليوم التالي جاءت لالا بالمسرحي الرفيق سموليانوف لتعرفه بأبيها . وبينما مضت لالا وأمها والخالة توما ، التي وصلت يوم السبت من الكسندروف خصيصا لتحضر افتتاح لالا ، يجهزون الافطار ، واسرع جريجورى الى «الكنسي» — فهكذا كانوا يسمون المتجر المجاور للكنيسة ، وهو اقرب متجر عبر الحديقة — لشراء زجاجة خمر للصحوة . تبادل بيوتر الكسندروفتش ونيكولاى ديميانوفتش الحديث . واتضح ان المسرحي رجل ممتاز ، طيب القلب . كان يعانى من صداع الخمرة بشدة وينتظر زجاجة الصحوة . تحدثا عن صيد السمك ، فاتضح انه من الهواة . ولديه قرب ساراتوف زورق بمحرك ومعدات صيد ، وكان يختفى هناك كل صيف شهرا او شهرا ونصف هربا من زحام موسكو الفظيع . وقال انه ليس من

• رتبة مدنية من الرتب الدنيا في روسيا القيصرية . **المعرب** .

النادر ان تصطاد هناك حفشا تزن الواحدة منه بودا * . اما أبوه فكان من صيادى الاسماك وكان يملك في عهد بعيد زورقين من نوع «استراخانكا» . وروى انهم في عصره كانوا يصطادون من الحفش ما تزن الواحدة خمسة بودات . وانتقل الحديث دون قصد الى البستان ، فباح بيوتر الكسندروفتش بكل ما يعتمل في نفسه . ووعده نيكولاى ديميانوفتش بالمساعدة والتحدث مع بعض الاشخاص ، وقال انه لو كان هنا هاتف لخابر الآن فورا ولاستوضح بعض الأمور .

وبُعث بيوتر الكسندروفتش الى الحياة فنادى زوجته ، وأمرها بأن تأخذ الضيف الى البستان وتفرجه عليه . ودق قلبه في صدره : ربما يستطيع حقا ان يساعد ؟ انه رجل مرموق . اذا أراد فعل ! وأمرها ان تأتي بمحافظ الاوراق ، وبسط على البطانية كل مذكراته وعرائضه وبرقياته وتوسلاته .

— وهذا ما يقوله الدكتور في العلوم ستروجانينوف . . انه رفيق مرموق : «علمت بمشاعر السخط . . .» .

وهنا عاد جريجورى بالزجاجة ، وجلسوا الى الافطار ، وأمسكت لالا بالجيتار ، واذ بقرع على النافذة . ودخل كورتوف ، جارهم ، في بزة ملازم أول شرطة ، وجارهم الآخر المتقاعد بيسبالوف ، والعمة روزا خالدوفا ، كناسة المدرسة . كانت ايرينا اجناتيفنا على علاقة ممتازة مع روزا هذه في السابق ، فكانت روزا تأتي اليها لتغسل الملابس ، وتذهب الى السوق واحيانا تبيع الازهار ، بينما ايرينا اجناتيفنا تعطف عليها ، وتعطى لأولادها بين الحين والحين بعض الاشياء ، فلروزا

---

* البود وحدة وزن روسية تعادل حوالي ١٦ كيلوجراما . المعرب .

اربعة اولاد ، وزوجها استشهد . ولكنهما اصبحتا في العام الاخير عدوتين بالطبع .

وعلت الضجة مرة اخرى ، فقد انطلقت العمة روزا تزعق بصوت رفيع ، ولا يمكن فهم ما تصيح به ، والمتقاعد كان يدمدم ويلوح بقبضتيه . وحاولت لالا أن تهدئهم وتمنع وقوع الفضيحة — عيب عليكم ، امام الضيف ! — ولكنهم تمادوا في اندفاعهم وراحوا يلوحون بورقة من معمارى الحى . وكان بيوتر الكسندروفتش يعرفه ، انسان حقير ، يوقع على اى شيء !

تمدد على الكنبة في صمت وراح يصغى لقلبه الذى كان يدق بعنف . ودب الخدر في ذراعيه ، وفي جسمه كله انتشر خرس كريه رخو .

وفجأة صرخت ايرينا اجناتيفنا :

— ماذا تفعلون يا اوغاد ! هنا رجل مريض راقد ، ألا ترون ؟ أيها السفلة !

وقال بيوتر الكسندروفتش في نفسه بما يشبه اللامبالاة : «لماذا السباب ؟ لا داعي لذلك ، لا فائدة . . .»

وأرعد ميتكا كورتوف وهو يقول شيئا ما عن مكتب الضمان الاجتماعي للحي . «سنحرمك من المعاش . . يضاربون بالازهار . . .» .

وقال بصوت خافت فلم يسمعه أحد اغلب الظن :

— أنت احمق يا ميتكا .

وفجأة تضرج نيكولاى ديميانوفتش وارتعش خداه ، وهوى بقبضته على الطاولة صائحا :

— اخرجوا جميعا من الغرفة حالا ! برّه ، برّه ، برّه ! فورا ، حالا ! أما أنت ايها الرفيق الملازم أول — ودس

اصبعه في صدر كورتوف المذهول — فسوف أتحدث عن سلوكك هذا مع ايفان جريجوريفتش ! من أى قسم انت ؟ من حي لينينجرادسكي ؟

واخرجوا من الغرفة ، واستمرت الضجة خلف الحائط ، وجلست ايرينا اجناتيفنا بجوار الكنبة وغطت وجهها واجهشت بالبكاء .

— في مثل هذا اليوم يا لاليتشكا ، الاوغاد . . وماذا يا بتراشا لو انهم . . . فليذهبوا الى الشيطان . الحياة أغلى . . .

ولزم بيوتر الكسندروفتش الصمت وهو ينصت . أصبح كل ما بداخله رخوا ، هشا ، ولم تكن به رغبة لا في الحديث ولا في الحركة ، لأن ما يضغط عليه كان قادرا على تحطيم تلك الهشاشة ، بل وشرع في تحطيمها ، اذ داهمه الألم . لا في مكان واحد ، في قلبه او في وسط صدره ، بل في كل مكان ، في عموم جسده ، ألم واحد ضخم . وعاد المسرحي فقال : «سوف نجعل لهم عقولا ! بسيطة ، لا تقلقوا» . وكان جريشا يصرخ بصوت رفيع في الفناء . وبدون ذلك كان الألم الرهيب يحرقه مع كل ثانية اكثر فأكثر . وقال متحاملا على نفسه بصعوبة :

— هلاّ دعوتم الطبيب . . .

في الصيف كانت لينينجراد لأول مرة فى العمر ، والفسح ، وفندق «أستوريا» ، فرقة الجاز الحقيقية القادمة من مكان ما في الصين ، والرقص ، لا يهم مع من ، حتى ساعة الاغلاق ، وكان نيكولاى ديميانوفتش ثقيلا ، يسكر بشدة ، وفي الليل يستدعون الطبيب ، وكان قلبها يتمزق من

الشفقة على هذا وذاك الذى بقى في موسكو ، وله اشترت معطفا جلديا في متجر قومسيون في شارع نيفسكي ، والبكاء في الليل ، والهرب الى باشيلوفكا ، وفي المسرح تغير كل شيء : بدأ الموسم الجديد بأعلى رهان ، اذ كانت مسرحية «اجنات تيموفييفتش» مرشحة للجائزة ، واشترى نيكولاى ديميانوفتش سيارة ، وانتقل الى شقة جديدة ، وانتفخ الكيس القماشى الموضوع على الصندوق في المدخل من كثرة الرسائل ، وكان اكثرها من الجنود ، وبعد ان نشرت صورة لالا على غلاف المجلة اخذ سمورني يتملقها ، وظهر لدى صديقاتها اسوأ ما فيهن ، ما كان مخفيا ، واختفت بعضهن اذ لم يستطعن ان يتحملن ، وتعذب ابوها المسكين في مستشفى بوتكين ، اذ دخلها ثانية في نهاية الخريف اثر الذبحة الصدرية الثالثة .

ومن جديد جاء ديسمبر ، والثلج ، ولكنه ديسمبر آخر تماما وثلج آخر . خرجت لالا الى فناء المستشفى — كانت قد مكثت لدى ابيها وقتا طويلا ، وحملت له بعض اليوسفى وكتابا جديدا ، «حجر القمر» ، الذى كان الجميع يركضون وراءه ، ودست في يد المربية العجوز خمسين روبلا لتحسن رعايته — وسارت ببطء في حارة شبه مظلمة مغلفة بدخان بارد ، وكان المارة يلحقونها ويسبقونها حاملين الاكياس واللفائف ، راكضين الى الترام ، اما هي فسارت على مهل ، وكانت في انتظارها سيارة ، ولأول مرة شعرت لسبب ما في هذا المكان ، بعد زيارة المستشفى ، وفي لحظة ارهاق وأسى على ابيها ، شعرت فجأة شعورا هادئا لم تخبره من قبل بأنها **امرأة غنية** .

كل هؤلاء الراكضين في الأمام ، المهمومين بمآسى اقاربهم ، يسرعون لقضاء شئونهم الكئيبة والطويلة مثل سور

المستشفى هذا ، اما هي فتسير على مهل وتتنفس بعمق وأسى وهدوء كما ينبغي **لامرأة غنية** . كان هذا الشعور متعدد الطبقات ، ولم يكن يعنى أبدا ان في حقيبة لالا الكثير من النقود — بالعكس ، لم يكن فيها نقود ، اذ كانت تنفقها بسرعة — بل كان يعنى أشياء مختلفة . . كان يعنى مثلا ان لالا تشعر بالدفء في الصقيع ، فربما لأول مرة في حياتها لا تشعر بالخوف من الصقيع وهي في هذا المعطف الدافىء الفاخر من فراء الغنم ذى الرائحة الطازجة الرائعة . وكان يعنى أيضا الطمأنينة في اهم شيء ، الشيء الذى بدونه لا تقوم للحياة قائمة ، فالآن لا يجرؤ احد ان يقول عنها كلمة سوء بل ولا يجرؤ حتى ان يفكر في ذلك ، فقد اثبتت جدارتها ، وهذا معترف به ، ويكفى ان تنظر الى وجوه الممثلات وهي تنقلب غما حين تدخل هي صالة التدريب ، أو حين ، وحين ، وحين . . . وكان ذلك الشعور يعنى انها محط اعجاب ، وحب ، وبسببها يتعذبون ، ويعنى انها كان بوسعها ان تشترى ما كان يبدو في الماضى بعيد المنال ، مثل طاقم الشاى الصينى ، وفي المساء بوسعها ان تأكل ما تحب : طبق الدجاج المحمر «على الطاوة» والجبن المحمر في السمن «سولجونى» وتشرب النبيذ الأحمر ، وتتعرف على اناس جدد رائعين .

كانت المسرحية تتلو المسرحية ، ثم الاذاعة ، ثم الدعوة للعمل في استوديو «موسفيلم» ، والمقالات والاستعراضات النقدية ، والصورة على الغلاف ، وزيادة الراتب ، والوعد بشقة جديدة ، والترشيح للمؤتمر ، وللمقابلات وللجائزة ، وعندما كانوا في محل الفراء في سريتينكا يبحثون عن قبعة فرائية لجريشا ، رأتها مديرة المتجر ، وهي امرأة كهلة تضع نظارة

وعلى ذقنها بقع حساسية ، وفجأة تضرجت بالحمرة وسألتها :

— عفوا ، ألستِ من مسرح الدراما ؟ لقبك تليبنيوفا ؟

وجئ بالقبعة من كواليس المتجر وهي ملفوفة في صحيفة لكي لا يثيروا استياء الواقفين في الصف . وعندما خرجت الى الشارع بالشروة ، دمدم جريشا مقهقها :

— يا للشيطان ، شهرة مذهلة ! يكاد المرء يشعر بالحرج من السير الى جواركم يا مدام . . .

نعم ، نعم ، يشعر بالحرج . أحست لالا كيف كان ينكمش عندما تخزه شهرتها في جنبه أو في ظهره . بالطبع كان يفرح ويتهلل في السر — بل وبكى ذات مرة ، فقد رآه احدهم يمسح دموعه اثناء الحفل الذى غنت فيه اغانى يفدوكيا من مسرحية «اجنات تيموفييفتش» ، هذه الاغانى التي أصبحت رائجة الآن ، واخذت هي تغنى كثيرا في الحفلات ، بل وتسافر الى المدن الاخرى — ولكن شيئا في دخيلته كان ينهشه ويعذبه دون ان يستطيع له دفعا . فأعماله هو لم تتقدم خطوة واحدة ، ولا حتى سنتيمترا واحدا ! كان ذلك عذابا جديدا عليها يعوق شعورها بأنها **امرأة غنية** من ان يتحول الى سعادة حقيقية وربما حتى الى نعمة . فلم تكن المسافة جد بعيدة حتى بلوغ النعمة . ولكن ها هى آلام شخص قريب تعوقها . وعاقتها كذلك أمها بأعصابها ، وهزالها ، وخوفها اليومي على الأب ، وعاقها أبوها الذى بقى مصيره غامضا ، فمرة يبدو أنه يتماثل للشفاء ، ومرة يزحف الرعب .

دفع نيكولاى ديميانوفتش باب السيارة من الداخل ففتحه ، ولملمت لالا أطراف معطفها الفرائى الطويل — في السابق كانت تنظر فقط وهي في الشارع الى النساء وهن يلملمن

اطراف فرائهن الثمينة بحركة معهودة لا مبالية قبل أن يغبن في اعماق السيارة ، وها هي الآن تفعل ذلك تشيعها نظرات الحسد من النساء العابرات — انزلقت بخفة الى المقعد الخلفى . وسألها سموليانوف عن أبيها . وجاوز السائق محطة بيلوروسيا ، وميدان مایاكوفسكي ، وانعطف يسارا الى الطريق الدائرى .

فسألت لالا :

— الى اين نمضى ؟

— سنتعشى عند الكسندر فاسيليفتش . لقد دعانا .

كان الكسندر فاسيليفتش أغابيكوف ، صديق نيكولاى ديميانوفتش ، يعيش قرب محطة كورسك . ولم تكن لالا تعرف بالضبط ما هو عمل الكسندر فاسيليفتش ، ولكنه موظف كبير . ولم تكن لالا قد زارته من قبل . ولا رغبت في زيارته . وعموما لم ترغب في الذهاب الى اى مكان . كانت تتعذب : فجريشا يتسكع في مكان ما وهو يزداد مرارة ، في المكتبة او عند احد المعارف او في البيت ، يدور في الغرفة كالذئب ، وينتظرها . فما العمل ؟ كيف تساعده ؟ انه انسان طيب ، موهوب . انسان رائع ! ذو صفات نادرة ، مثقف حقيقى ، يعرف التاريخ والادب معرفة ممتازة ، وتعلم اللغة البولندية بنفسه ليقرأ الصحف . وعموما فهو موهوب في كل شيء ، يرسم بأسلوب جيد جدا ، ويحب الموسيقي . ولكن سوء الحظ يلازمه . وفي النتيجة تتسرب الحياة بلا عطاء .

استمع نيكولاى ديميانوفتش اليها بشيء من البرود . ثم قال فجأة :

— ليس لديه أرض يقف عليها ، تلك هي المصيبة .

فتذكرت لالا انه قال مثل ذلك من قبل ، بل هذه الكلمات نفسها : الأرض ، المصيبة .

كان ثمة لقاء ما في حديقة جوركي صيفا ذات مساء مع الرواد على خشبة مسرح مكشوفة ، حيث قدموا مشاهد من المسرحية ، وتحدث سموليانوف ، ولسبب ما كان جريشا حاضرا ، ثم تعشوا في مطعم «العوامة» . وكان سرجى ليونيدوفتش حاضرا ايضا ، وبعض الممثلين . ونشب جدال حول قضايا معقدة ، وكان جريشا منفعلا ، متماحكا ، فقال سموليانوف : «مصيبتك هي انك . . .» بالطبع ما كان ينبغى ان يقول ذلك ، كان ينبغى الحذر . فالتهب جريشا وراح يصيح : «أى أرض ؟ عم تتحدث ؟ عن الأراضى السوداء ؟ عن الأراضى البيضاء ؟ عن الروث ؟ ان أرضى التي أقف عليها هي الخبرة التاريخية ، هي كل ما عانته روسيا !» ، ولسبب ما راح يقول ان احدى جدتيه هي من البولنديين المنفيين ، وان ابا جده كان من رقيق الأرض ، وكان جده ضالعا في اضطرابات طلابية فنفي الى سيبيريا ، وان جدته الاخرى كانت تعطى دروسا في الموسيقى في بطرسبرج ، وكان ابو هذه الجدة من الكانتونيين ، اما أبو جريشا نفسه فقد شارك في الحرب العالمية الأولى والحرب الاهلية ، رغم انه كان شخصا مسالما ، عمل قبل الثورة احصائيا ، ثم اقتصاديا ، وكل ذلك صاح به جريشا في سورة انفعال ، وان لديه أرضا ، لديه الخبرة التاريخية ، لديه روسيا ، عليك اللعنة بعقلك المقلوب ! وساد شعور كريه ، وفاحت رائحة شجار ، واخذ سرجى ليونيدوفتش يهدئه قائلا ان نيكولاى ديميانوفتش كان يقصد ، فيما يبدو ، الخبرة الحياتية ، وان جريشا ليس

محنكا بعد ، وما يزال شابا ، ولكن سموليانوف اصر في عناده المخمور على رأيه مغمغما : «كلا ، الأرض ، حتما ، ضرورى . . .» فقال له جريشا عبارة حادة قاسية . وهنا حدثت مفاجأة ، فعلى الطاولة المجاورة نشب فجأة عراك وحشي ، وخفت الشرطة الى المكان . وعندما خرجوا الى الشارع لم يعودوا الى الحديث عن «الأرض» .

وقالت لالا الآن :

— أى ارض هناك ! ينبغي مساعدته .

لزم نيكولاى ديميانوفتش الصمت . ثم قال :

— وماذا لو وجدنا له وظيفة ما ؟ ليس ذلك سهلا بالطبع ، ولكن يمكن ان نحاول . . .

— كلا ! انت تعرف انه شديد الكبرياء ومن السهل جرحه . . .

— يمكن ان نجد له وظيفة لائقة .

— لا يا كوليا ، ينبغي مساعدته في الابداع ، في احد الاماكن قد يحتاج الى دفعة ، أو تمد له يدا ، وبعد ذلك سيمضى بنفسه . ولو حتى كلمة تشجيع . . .

تهدّج صوت لالا قليلا . فهي لم تطلب ابدا أى شيء من نيكولاى ديميانوفتش بهذه الصراحة ، واذا كان قد عمل من اجلها شيئا ، فقد عمله من نفسه ، دون رجاء او تذكير . وها هي ترجوه لأول مرة . وعلى الفور شعرت بالضيق لأنه أصبح مشدود الاعصاب على نحو ما . مع أنه طيب . كانت لالا تعرف انه ساعد الكثيرين ، وخاصة بلدييه والشباب ، والفقراء ، والسيئي الحظ ، وكانت تعرف انه لا يستطيع ان يهجر زوجته رغم انه لا يحبها ، وكان يتحمل سوء طباعها ،

ولا يقوى على هجرها لأنه كان يشفق عليها ، اذ كانت عليلة نفسيا .

أما الوضع هنا ، مع جريشا ، فكان مختلفا ، وحدست لالا ان الأمر لن يخلو من توتر ، ولكنها أقدمت عليه رغم كراهيته . يبدو انه لم ينس الشجار في «العوامة» ، وان لم يصرح لها بأى شيء أبدا . مرة واحدة فقط أبدى ملاحظة وجلة : «لا أفهم كيف تستطيعين الحياة مع شخص تافه كهذا ؟» وغضبت لالا . كلا ، لن تسمح بمثل هذه الأشياء ! جريشا ليس مجرد شخص ، بل هو انسان بالمعنى الكبير والحقيقى للكلمة . «وأنت ، كيف تستطيع العيش مع زوجتك الهستيرية ؟» فقال مبررا : «مارتا ليست هستيرية ، بل امرأة مريضة . ولم يعد عندى نحوها اى مشاعر اللهم الا الشعور بالواجب والخوف من ان ألحق بها اهانة قاتلة . اما أنت فلا تستطيعين ان تنفصلى عن جريشا وكأنما لصقتِ به» . وكان محقا في ذلك ، فلماذا الانكار ؟ جريشا هو جريشا . مثلما لدى تشيخوف في أحد مؤلفاته : «الزوجة هي الزوجة» . وأغرب ما في الأمر أن جريشا ليس حتى «زوجة» ، يعنى ليس زوجا ، فزواجهما غير مسجل ، ولدى جريشا غرفته الخاصة به في باشيلوفكا ، التي يهرب اليها بانتظام اثر مشاجراته مع لالا ، أو في الأيام التي تزداد عليه فيها وطأة المعاناة الروحية . وهو لا يطعمها ولا يكسوها كما ينبغى للزوج ان يفعل ، ومع ذلك — وهذا غير مفهوم ، ولا يمكن شرحه ! — مع ذلك لا تقوى على انتزاعه من قلبها . لقد التصق بها وانصهر معها بكل معاناته الطفيفة ، بكل حصباته وحمياته القرمزية ، بكل لثغته وطفحه الجلدى وحرارته . . .

وضع نيكولاى ديميانوفتش يده على يد لالا .

— حسنا ! سنرى . . .

كان لدى أغابيكوف ضيوف . وفي غرفة الاستقبال الضخمة — لم تر لالا أبدا مثل هذه الغرف الكبيرة ، حوالى اربعين مترا — جلس بضعة رجال ونساء الى مائدة تحت الثريا ، مثلما في المسرح ، وكان العشاء في أوجه ، والطعام كثيرا ، منتقى ، وبدا واضحا على الفور انه من المطعم وليس معدا في المنزل . وانتهز نيكولاى ديميانوفتش فرصة فهمس في أذنها :

— نسيت ان أخبرك ، اليوم عيد ميلاد أبيه . . .

جلس الى صدر المائدة عجوز صغير بوجه متورد لامع الى درجة غير عادية وكأنه صنع من الشمع ، يرتدى حلة شركسية سوداء . ألقيت الخطب والانخاب .

ورفعت احدى النساء بحماس مفاجئ نخب «الجالسة هنا بيننا ، الممثلة الرائعة . . .» وتطلع الرجال بوله . وتعالت الصيحات :

— لودميلا بتروفنا ، في صحتك ! اشربي للثمالة ! ليشرب الجميع نخب لودميلا بتروفنا !

وصاح شخص ما :

— احذركم ، من لا يشرب نخب لودميلا بتروفنا حتى الثمالة . . .

وهاجوا وماجوا ، واسرعوا يقرعون الكؤوس ، وشعّ منهم الولاء السار بل وحتى الولع ، ورغم ان لالا ادركت أن هذا ليس سوى عبث سكارى ، فمعظمهم لم يروها على خشبة المسرح ابدا ، بل وربما لم يسمعوا باسمها ، ومع ذلك

راودها أحساس سار ، بل وسار جدا . وظهر قيثار ، واخذت لالا في الغناء ، في البداية بدون رغبة ، فقط لانهم ألحّوا عليها جدا ، أما نيكولاى ديميانوفتش فقد ضغط على ركبتها تحت المائدة وقال بصوت خافت : «ارجوك ، لا ترفضى» ، وبعد ان شربت كأسا ثم اخرى من الخمر ، أقبلت نفسها على الغناء وغنت «بين العوالم ووميض النجوم» ، وغنت الاغانى الغجرية ، واغنيتها المفضلة منذ الطفولة والتي علمتها أمها اياها : «مثيرا غبار الطريق» . وحدق الكسندر فاسيليفيتش في لالا مباشرة ، دون ان يطرف . كانت نظرته غريبة ، مركزة على فمها ، ولهذا السبب ، لأنه لم يحدق في عينيها ، بل في فمها المغنى ، راودها احساس كريه . كان ثمة شيء غير حي في نظرة هذا الرجل العريض الجبين ذى الشوارب الرفيعة ، تلك النظرة التي اخذت تزداد زجاجية اكثر فأكثر حتى اصبحت زجاجا تاما باردا ، بعث فيها الرعب للحظة ، ثم طرف جفناه فاختفت الزجاجية من عينيه . وأخذ الجورجيون ينشدون بلغتهم بنغم جميل جدا ، وحاولت لالا ان تصاحبهم بالقيثار . وفجأة قفز أحد الضيوف وراح يصفق . ثم غنى بلكنة جورجية :

سوف نغنى ، سوف نغنى
وسوف نمرح . . .

وتبعه الجميع وراحوا يصفقون ، وانتقلوا الى غرفة أخرى وسحبوا لالا معهم — كان رأسها يدور قليلا وارادت أن تعبث ، وما دام الأمر كذلك فلتكن اذن أميرة الحفل ! — فارتمت

بالقيثار على فرو دب مفروش على الأرض ، وغنت صادحة من اعماق قلبها ، وغطى صوتها على الاغنية المنبعثة من الحاكى :

حسب الله يا شجاع
يا ذا البيت الفقير !

ما سبب هذا المرح ؟ كانوا يغنون «حسب الله» هذه في البيت . يغنى الأب بصوت باص ، اما العم ميشا ، زوج الخالة جينيا ، فكان يصيح بكل قوته بصوت رفيع . وعندما عادت بعد نصف ساعة الى الغرفة الكبيرة ذات الثريا وخزها شيء حاد فجأة بصورة مؤلمة ، كأنما التوى ضلعها بحركة غير موفقة ، ولكن ذلك كان خاطرا ورد في ذهنها عن جريشا . ولم يكن يجلس الى الطاولة سوى الرجال وهم يتجادلون في شيء ما ، وليس بينهم نيكولاى ديميانوفتش . قيل لها انه رحل مع زميل وسوف يعود قريبا . وأصغت لالا الى النقاش ، كانوا يتحدثون في السياسة ، يقولون شيئا ما عن الرئيس الأمريكي ، وعن المانيا ، ويوغسلافيا . لم يكن ذلك كله يثير لدى لالا أدنى اهتمام ، واحست بالملل . ومرت ساعتان .

جلس الكسندر فاسيلييفيتش ولالا الى طاولة صغيرة في غرفة مكتبه ، واشتعلت ثلاث شمعات في شمعدان مذهّب فوق رأسيهما . وكان الجو حارا بسبب المدفئ الملتهبة والخمر . وأرخى الكسندر فاسيلييفتش رباط العنق وفك زرار ياقة القميص الابيض . كانا يتحدثان عن الموسيقى . درست لالا في طفولتها ثلاث سنوات فى مدرسة موسيقية ، وقالوا

ان لديها حاسة سمع مطلقة وصوتا جيدا . ولكن كان من المطلوب شراء بيانو ، بينما لم يستطع ابوها ابدا توفير المبلغ ، اذ كان ينفق كل ما لديه على البستان ، ولم يتمكنوا من شرائه الا قبيل اندلاع الحرب مباشرة ، ولكنهم باعوه عام ثلاثة واربعين عندما اشتدت وطأة الجوع عليهم . غير أن أمها اشترت آنذاك قيثارا . وقال الكسندر فاسيلييفتش انه يهوى الغناء الايطالي وان لديه الكثير من الاسطوانات الألمانية بأصوات كاروزو وجيلييسى وتوتى دال مونتى . وتحرقت لالا شوقا الى سماعها ، فذهبا الى غرفة أخرى وجلسا على كنبة . لم يبق أحد من الضيوف ، واصبحا وحدهما . وكانت الاسطوانات من الروعة حتى ان لالا نسيت كل شيء . نسيت انهم ينتظرونها في البيت ، وان نيكولاى ديميانوفتش اختفى في مكان ما ، وان الكسندر فاسيلييفتش لم يكن يعجبها جدا في السابق ، اذ كانت تحدس فيه زير نساء . لم تكن لديها اى أدلة ، ومع ذلك كانت ترتاب فيه . مجرد حماقة ، بسبب الشوارب الرفيعة والمعاملة المتلطفة للغاية ، كان يبدو وكأنه يحذر ان يلمس لالا باصبعه . ولم تكن لالا تطيق أزيار النساء .

وعندما اقتربت الساعة من الواحدة ليلا تملك لالا قلق شديد :

— أين نيكولاى ديميانوفتش ؟ قد يكون وقع له مكروه ؟

فوعدها الكسندر فاسيلييفتش بقوة :

— نيكولاى سيأتي . سيأتي حتما .

— ولكني أرهقتك !

— لا تقلقي بشأني ، فأنا لا أنام الليل بل اعمل .

واذا كنت اتثاءب فذلك بسبب القلب ، المحرك يدق ، واذن ينبغي تناول الدواء — واخرج من جيبه قارورة زجاجية وسكب منها بضع كرات حمراء صغيرة على راحته .

— هل احضر ماء ؟

— لو سمحت ، اذا لم يزعجك . . .

هرولت الى المطبخ وأشعلت الضوء ، فوجدت ان المطبخ هو غرفة ضخمة ، مثل غرفة الطعام ، وخلف الستار ارتفع شخير شخص ما ، وصبت في الفنجان ماء مغليا من الغلاية كان قد برد . كان الكسندر فاسيلييفتش ممددا على الكنبة ، وعيناه نصف مغلقتين . أصبح وجهه ، الذى كان متوردا من الخمر منذ قليل ، شاحبا ، ضامرا . وبدا ذلك كله غير مبشر بالخير . وبعد تناول الدواء أمسك بيد لالا قائلا :

— لا تنصرفي يا لودميلا بتروفنا .

— لن أنصرف . . — قالت لالا وفكرت : «الى أين امضى ؟ الساعة تدور في الثانية . تأخرت عن المترو ، ثم ان حالته تبدو سيئة ، وهناك جريشا . . .»

— اجلسي بقربي ، نعم هنا . هنا من فضلك — وظل قابضا على يدها بقوة ولا يفلتها ، وبدا وكأنه يخشى ان يفلتها كما يخشى المريض ان يفلت المربية التي ترعاه ، ولكنها لسبب ما لم تشعر بالشفقة عليه . وفجأة دق الهاتف في الغرفة الكبيرة . جاء صوت نيكولاى ديميانوفتش ضعيفا لا يكاد يسمع عبر الطقطقة — كان يتحدث من هاتف عمومى ، وأخبرها ان سيارته انغرزت في قناة الطريق في منطقة زاموسكفوريتشييه ، ولا توجد سيارات ولن ينتشله أحد حتى الصباح .

— فلتعذريني اذن ، واقضى ليلتك هناك ، عند الكسندر فاسيلييفتش وفي الصباح سآخذك . ولكن فليكن سلوكك حميدا ، اتسمعين ؟ فليكن سلوكك حميدا !

فصاحت بخوف :

— وأنت ، سليم ؟

— نعم ، نعم ، سليم ! اعذريني .

ولم يكن مفهوما لماذا يعتذر .

— نيكولاى ديميانوفتش لن يأتي . . — قالت لالا وهي تدخل الغرفة التي كان الآخر راقدا فيها — سأذهب يا الكسندر فاسيلييفتش ، حسنا ؟ ربما لحقت الترولى . الى اللقاء ! أين حقيبتي ؟

فجأة داهمها الاحساس بضرورة الانصراف فورا ، وألا تبقى بعد الآن ثانية واحدة . كان ذلك يحدث لها ، ولا تدرى ما السبب ، ولا تستطيع اى قوة ان تمنعها من الذهاب . وحاول صاحب البيت أن يقنعها بالعدول عن رأيها ، بل لقد قفز من الكنبة ناهضا بحيوية غير متوقعة . الى أين تذهبين ؟ ماذا حدث ؟ ولم يعطها الحقيبة . كلا ، كلا ، ينبغي ان اذهب حتما . ولكن الساعة الآن حوالي الثانية ليلا ! لا بأس ، هناك تاكسيات . وماذا لو طلبنا تاكسى للبيت ؟ كلا ، كلا . كلا ، كلا ، كلا ! كلا ، لا يمكن ، مستحيل ! اترك لك الحقيبة للذكرى . انا ذاهبة ، ذاهبة . عفوا ، شكرا جزيلا . وما الداعي لهذه العجلة ؟ ما الأمر بالضبط ؟ نظر اليها بنوع من الدهشة المبالغ فيها ، بل وبما يقرب من التعالى :

— ماذا قال لك سموليانوف ؟

— قال بأن يكون سلوكى حميدا . ما معنى هذا في رأيك ؟

— هذا يعنى . . حسب رأيي . . . — وأمسك بيديها وشدها اليه — انه مغفل ! ما حاجتك اليه ؟

وهنا دهمها الادراك ، فتثلجت . هي هكذا دائما : في البداية تشعر ، بالغريزة ، ثم بعد ذلك تدرك . في اللحظة الأولى لم تصدق نفسها ، ولكنها بعد ذلك صدقت ، نعم ، هذا جائز ، ليس اتصاله بالهاتف صدفة . والا لماذا اعتذر اذن ؟ الشخص السكران لا يجيد المكر . واذن فقد زل لسانه دون قصد : طلب منها العفو .

— نحن بحاجة الى ان نتحدث عن اشياء كثيرة . لم يسعنا الوقت . . .

كان الرجل ذو الجبهة العريضة يتحدث الآن بصرامة بالغة وهو يمسك بيدى لالا بقوة وهي تنتزعهما منه ولكن ليس بكل قوتها بعد ، لأنه مريض نوعا ، فكانت تخشى ان تؤذيه . كان يتكلم عن المسرح الاكاديمى ، ويقول انه سيرتب لها الأمر ، وينقلها ، ويعينها ، ويرقيها ، ويقدم لها كل الحفلات والرحلات ، والا فعليها ان تفهم ان امرأة بمثل هاتين الشفتين . . . ولكن لا ! بمثل هذه الطريقة لم يحصل أحد منها على شيء أبدا . وفجأة سألته برقة :

— خبرني ، هل نيكولاى ديميانوفتش يخشاك جدا ؟

— ماذا ؟ أمّال !

وضحكت لالا . حاسب ، حاسب ، استرح ، هذا ضار لك . راودها الملل والاحتقار لذلك الكذاب الذى تحول فجأة الى حثالة لا بشرية بائسة . واقسمت في سرها انها

لن تنظر اليه نظرة واحدة ولن تقول له كلمة واحدة . وهرولت عبر الزوبعة الثلجية في الطريق الدائرى الواسع الخاوى . الى أين ؟ بعد ان ركضت طويلا ادركت فجأة انها تركض دون غاية ، وينبغى ان تركض نحو مركز المدينة ، فالمترو مغلق .

وانعطفت نحو بوكروفكا لتصل الى البوليفار ، ثم الى ماشا فى تشيستي برودى . وبعد نصف ساعة سارت منهكة في البوليفار الهادئ العارى كالغابة ، لا متسكعين فيه ولا شرطة ، بل ارائك مكللة بدرع سميك من الثلج ، وفكرت والدموع في عينيها : «يا الهى ، يا لي من حمقاء ! فيم أبـــدد حياتي . . . وجريشا ، الحبيب . . .» .

كان ربروف يكسب قليلا من الرد على رسائل القراء في جريدتين ومن كتابة مقالات ادبية للاذاعة . وعلاوة على ذلك كان ينشر أحيانا بعض التعقيبات التاريخية في المجلات الهزيلة . وكان ذلك كله اشياء طفيفة ، لا يكفى الا للطفو على السطح فقط . وفي افضل الاوقات كان دخله يصل الى ألف روبل في الشهر . وأحيانا يتحصل على سبعمائة ، أو ثلاثمائة ، واحيانا لا شيء . والآن ، وبعد ان اصبحت لالا تأتي بمرتب كبير ، ويصادف أن يحصلا على مكافآت غير متوقعة ، بدا وان حياتهما ترسخت ، ولكنها لهذا السبب اصبحت اكثر اثارة للقلق والضجر . في السابق عندما لا يكون لديهم نقود فلا بأس ، ما العمل . يكتفى بفنجان قهوة ، فليس من الأمراء . أما الآن فبوسع لالا أن تعطيه ثلاثين روبلا او مائة ، ولكن ينبغي ان يطلب منها . وفوق ذلك فايرينا اجناتيفنا تعكر دمه . خيل اليها انه يرغم لالا على

الجرى وراء الحفلات طمعا في النقود ، اى انه يستغلها .

كان ربروف يحس بأفكار حماته هذه — وهي لم تعرب عنها ، صراحة ، ولكنها اومأت اليها ، واحيانا كانت عينه تقع على خطاباتها الى لالا التي كانت تتركها حيثما كان — وشعر في بعض الاوقات انه بدأ يمقتها . وفي الأماسى كانت تتناهى الى سمعه شكواها منه الى لالا : «دخل المطبخ فلم يسلّم علي . . . طلبت منه ثلاث مرات ان يقطع الحطب . . .» . كان ذلك كله شيئا مضجرا ، لا يمكن احتماله . وهمّ مرارا بالهروب الى باشيلوفكا فتوسلت لالا اليه ان يبقى ، والا فسوف تضطر هي ايضا للرحيل الى باشيلوفكا — كما حدث في السابق — بينما لا تستطيع ان تترك أمها وحدها . وهي وان كانت توسلت اليه ، فلم تزجر أمها كما ينبغى ، أعوزتها العزيمة .

ولزم الصمت ، وتحمل ، وسعى الى الهروب مبكرا الى المكتبة والعودة متأخرا .

في ذلك اليوم ، وكأنما عن عمد ، عاد الى البيت مبكرا . كان مستاء ، ففي احدى المجلات ، حيث كانوا يستكتبونه الرد على رسائل القراء بصفة منتظمة ، أخبروه فجأة ان رئاسة التحرير الجديدة تعيد النظر في قائمة المتعاونين مع المجلة من الخارج وان اسمه محل تساؤل . لماذا ؟ وما المناسبة ؟ هز الرجل الذى يعرفه كتفيه قائلا :

— لا افهم شيئا . اعتقد ان الموقف سوف يتضح بعد فترة .

وقالت امرأة يعرفها بتهكم :

— يبدو انك الآن لست محتاجا جدا للنقود ؟ زوجتك

في اوج ازدهارها ؟ وهناك أشخاص تعتبر هذه الرسائل بالنسبة لهم المصدر الوحيد لكسب لقمة الخبز .

ربما كان ينبغي عليه ان يكون ملحاحا ، وان يشكو ويتباكى ، فقد كانوا مترددين ازاءه ، ولكن مرضه القديم — الخوف من أن يبدو مضحكا ، مثيرا للرثاء ، سائلا — تغلب عليه ، فتنازل . بالطبع هناك من هم أفضل منه ، وهل ثمة خلاف ؟ كل شيء صحيح . كان الخبر مزعجا الى اقصى حد ، ولكنه لم يظهر أى رد فعل ، بل مزح قليلا وروى نكتة ، وانصرف في اباء وكبرياء . لقد تقلصت الميزانية بمقدار الثلث . وكان عازفا عن رؤية أحد ، كل ما يريد هو العودة الى البيت ، الى لالا . هي وحدها القادرة على تهدئته وتطييب خاطره بكلمات تافهة .

كان من المفروض ان تزور لالا أباها في المستشفي في الساعة السادسة وتعود الى البيت في حوالي السابعة ، فلم تكن لديها اليوم حفلة . ولكنها لم تحضر لا في السابعة ولا في الثامنة ولا في العاشرة . وبدأت حماته تفقد اعصابها الأمر الذى تجلى كالمعتاد في صورة حركات مضطربة لا معنى لها . فتارة تقرر الركض الى محطة المترو لسبب ما ، وتارة تريد الاتصال بمستشفي بوتكين من الهاتف العمومي ، وتارة اخرى تقرر التوجه الى المستشفي مباشرة . واقنعها ربروف بالكاد بأن ازعاج الأب حماقة . وكانت تمارا اجناتيفنا ، الخالة توما من الكسندروف ، تعيش لديهم منذ عدة أيام ، جاءت لتساعد حماته قليلا في شئون البيت . هذه العجوز الطويلة الهادئة ذات المصير المأساوى — فقد لقى كل اطفالها وزوجها مصرعهم في اماكن مختلفة — كانت اقامتها الدائمة

في مدينة الكسندروف ، على بعد مائة كيلومتر ، ولكنها كانت تعيش فترات طويلة في موسكو عند شقيقتيها جينيا وفيرونيكا ، او عند شقيقها كولا في اسماعيلوفو ، وفي بعض الاحيان هنا ، عند حماته ، ولكن في احوال أندر . وكانت خياطة منزلية ليست ماهرة ، تعلمت الخياطة لكي تجد مصدرا ما للرزق ، وكثيرا ما كانت تبقى بالاسابيع عند اناس غرباء تماما . ولم تكن حماته تعطف على اختها تمارا . أما لالا وبيوتر الكسندروفتش فعاملاها بطيبة أكثر من معاملة اختها الشقيقة ، التي كانت تحاول بشتى الحجج ان تتملص من اقامتها وخدماتها . وكانت الذريعة الدائمة هي الخوف من الغرامة ، لأنها تقيم عندهم بدون تسجيل للاقامة . فاذا راعينا ان جارهم الشرطى مشبع بالحقد على بيوتر الكسندروفتش ، فان مثل هذه الغرامة يمكن ان تحدث ببساطة .

ولكن الحقيقة كانت غير ذلك . . كان الأمر مرده الى غيرة حمقاء من عجوز ، غيرة ذات خلفية ترجع الى حوالي ربع قرن . وعندما نزل بيوتر الكسندروفتش المستشفي للمرة الثانية كتبت الحماة بنفسها الى الخالة توما وطلبت منها المجيء . وانفجر كل ما تراكم في صدر ايرينا اجناتيفنا من خوف على زوجها وانزعاج من صهرها وقلق على ابنتها وعذاب من القرحة ، انفجر كالرعد وانهال على الخالة توما الهادئة الطويلة . وقد تحملت هي ذلك وصبرت ، وسامحت وهدأت . وها هي الآن تحاول تسكين ايرينا اجناتيفنا ، أو على الاقل تسعى لاقناعها بالعدول عن الذهاب الى مستشفي بوتكين ، الأمر الذى تلقت عليه ضربة قاسية من ايرينا اجناتيفنا :

— أنت بلا زوج ولا اطفال من زمان ، وليس بامكانك ان تفهميني !

ولكن بحلول الساعة الحادية عشرة ساور القلق ربروف نفسه ، فهرول الى الهاتف العمومي وخابر ماشا صديقة لالا ، التي كانت لالا تترك عندها الاخبار لتوصيلها اليه كوسيلة للاتصال . ووجد ماشا في البيت . كلا ، لم يتصل أحد . اسمع ، ربما تكون قد استدعيت لحفلة مفاجئة ؟ اظن انها كانت تستعد لحفلة في كراسنوجورسك .

— وانت ، لماذا لم تذهبي ؟ . .

سألها ربروف مرتابا ، رغم انه شعر بقليل من الراحة . فأوضحت ماشا :

— ليست حفلتنا بل حفلة «موس استرادا» . غير انى لا أعرف بالضبط . هذا مجرد تخمين .

روى ربروف لحماته ما سمعه عن الحفلة ، فبدا وكأنما هدأت . وجلسوا يتناولون الشاى . ولم تأت لالا في الثانية عشرة ، ولم تأت في الواحدة . الحفلات التي تقيمها «موس استرادا» يذهبون اليها عادة بالباص ، ولالا ايضا كانوا يوصلونها الى البيت بالباص . ومع ذلك التقطت الحماة معطفها في منتصف الواحدة ليلا وتلفعت بالمنديل وهرولت الى محطة مترو «سوكول» لاستقبالها . من ذا الذى يمكن ان تقابله ؟ حاول ربروف ان يبين لها ان ما تفعله حماقة وتبديد للجهد بلا طائل . ولكن ايرينا اجناتيفنا كانت في تلك الحالة الأشبه بالجنون التي لا تجدى معها حجج المنطق .

ودمدمت تقول :

— بالطبع ليس السير في الشارع ليلا أمرا لطيفا . .

الأفضل منه الجلوس في البيت الدافئ . . .

— استطيع ان اذهب معك ، تفضلي ، ولكن لا معنى لذلك .

— المعنى ، المعنى ! كل ما تريده هو المعنى ، ولكنك لا تستطيع ان تفهم ان قلبي يحترق ، ولا اجد لنفسي مستقرا .

نبحت كانديدكا في الفناء بصوت رفيع فرح ، واذن فهي تفكها لتأخذها معها . ولا داعي ثمة للقلق ، فكانديدكا قادرة على وقف اى معتد عند حده . ولكن في هذا المشهد كله — في هذه الهرولة الاستعراضية العقيمة — كان ثمة شيء مهين له . فهي لم تركض الى سوكول للقاء لالا ، وهي نفسها لم تكن تعول على ذلك ، بل لكي تهينه وتتهمه . لكي ترى شقيقتها كم هو فظيع ، بلا احساس ، اذ يبقى في البيت بينما العجوز وحدها في الليل . . . بيد انه لم يكن مستعدا للقيام بتصرفات حمقاء فقط من اجل ان يبرهن على شيء ما !

خرجت تمارا اجنائيفنا بهدوء من غرفة بيوتر الكسندروفتش . وكان يبدو في هيئتها الاحساس بالذنب . تحركت في الغرفة بعض الوقت وهي تحك الارضية بحذائها اللباد ، ثم قالت :

— اردت ان اذهب معها ولكنها طردتني . . . غضبت لأنني دافعت عنك . . . فماذا ، أليس لي حق التصويت ؟ انني لا أقول الا ما أراه أمامي . . .

وجلس ربروف الى الطاولة يدخن .

وظلت العجوز الطويلة تحك الأرض من حوله ، وتطن شاكية :

— انا لست عالة ، لست متسولة . انا عندى بيتي . عندى اصدقاء ملء موسكو . زوجة الجنرال ، نتاليا اليكسييفنا ميخناتشوفا ، كم توسلت الي لكي اعيش عندها ، وبعثت برقيتين . وانا ، لماذا جئت ؟ اشفقت على ايرينا ، فهي تكاد تجن هنا بدون بيوتر ، ارتبكت وفقدت اعصابها ، وأنا اعرف انها لم تمر بما مررنا نحن به . . . واشفق على لالا ، واردت ان أعينها . . . فلماذا ينبغي علي ان اسمع كل هذا ؟ تقول لا اجيد هذا ، ولا افهم ذاك . «ولماذا تتملقينه ؟» . أنا اذن اتملقك ! هلا قلت لي لو سمحت ، أليست حمقاء ؟ لأى غرض أتملقك ؟ هل ستعطيني معاشا مثلا ، أوستطعمني شيكولاتة ؟

فقال ربروف :

— اختك تهوى اذلال الناس .

— صحيح يا جريشا ، صحيح ، تهوى ذلك جدا . كلامك مضبوط . لاحظنا ذلك عليها من ايام المدرسة . ذات مرة أرغمت فيرونيكا ، شقيقتنا الصغرى ، على اكل الطباشير . فقد رجتها فيرونيكا شيئا ما ، ان تريها رسالة . . . فى اسرتنا لم تكن ايرينا محبوبة . . ولكن انظر ، انها اسعدنا حظا ! كلنا اسرنا تهدمت ، أو حدث شيء ما على غير ما يرام . لدى جينكا يعتبر ميخائيل ابراموفتش زوجها الثاني ، فقد مات الأول قبل الحرب . وفيرونيكا ليس لها زوج اصلا ، كان لديها سكيّر ما وطردته ، أما عنى فحدث ولا حرج . وكولا ايضا ، ماذا لديه ؟ زوجته اولمبيادا في غاية البخل والأنانية . هي التي قصّرت عمر ماما . كلا ، ليس بيننا محظوظات غير ايرينا وحدها ، ومع ذلك ، أنظر ، ها هو القدر يترصدها . . . وماذا قلت لها عنك ؟ لم اقل ما يستحق

الذكر . قلت انني دائما اعطف على جريشا لأنه وحيد كاليتيم . لا أب ولا أم ولا اخوات ولا اخوة ، لا أحد ابدا . أليس كذلك ؟

فقال جريشا :

— بلى ، ولكن لا داعي للرثاء لي .

— جريشا ، انني لا أرثي لك ، انني اقول فقط : بالامكان فهمه . اقول لها : أنت لديك لالا وبيوتر ونحن ، اهلك الذين هم كذا وكذا ، نملأ قرية ، اما هو فمن لديه ؟

— لا داعي ، لا داعي للعطف علي . أنا لا ارغب في ذلك .

— أما هي فردت عليّ «أنت تتملقينه !» اذا كان وحيدا فليس هذا من أفضاله . انت ايضا وحيدة . وعندئذ كففت عن الحديث ، قلت في نفسي ، سامحك الله ، الحياة لم تعلمك بعد ، ولكنها ستعلمك . نعم . . . — وفجأة جلست الى الطاولة تحت المصباح الذى اضاء على الفور وجهها كله ، الكبير الأنف ، المخدّد بالسنوات والمصائب الكثيرة ، والذى كان يجمع بصورة غريبة بين وجه عجوز لا حاجة اليها ووجه بحار جلدته الرياح البحرية ، وقالت بصوت ناعم بل وبما يشبه الرجاء — ومع ذلك لا تغضب منها ، حسنا ؟ أتدرى كم كانت ايرينا جميلة ؟ وما اكثر العرسان الذين تقدموا لخطبتها في عام ثلاثة وعشرين ! لقد كانت رائعة . انها راقصة باليه . درست على يد بولياكوف في استوديو بروناية . كنا نركض الى هناك عصابة كاملة لنتفرج . وعرض عليها بولياكوف السفر الى ريجا ، فلم تسافر ، اشفقت على ماما ، فقد كان ابونا قد مات لتوه ، وكان لدى كولا

مشاكل . . . وفي ذلك الوقت كان بيوتر قد ظهر ، ولكن لم يدر أحد . . ولكن لا ، بسبب ماما لم تسافر ، بسببها فقط . انني اقول انها سعيدة ، فأى سعادة ؟ نبش الأرض والروث ، وزرع البطاطس ، ونشر الحطب وتقطيعه كالرجال . كل الاقارب قالوا لها : بيعوا هذا البيت وهذا البستان ، فما الحاجة اليه في موسكو ، واشتروا شقة صغيرة ، مريحة ، في وسط المدينة ، وسوف تعيشون كالآدميين . ولكن لا ، بيوتر لا يستطيع ، لا يقدر ان يعيش بدون البستان . والأمر الذى لا انكره عليها هو اخلاصها للأسرة . فصباها كله ، وكل أحلامها ، ومواهبها — ايا كانت هذه المواهب فقد كانت لديها — كل ذلك راح في الأرض . فانظر يا جريشا الى هذه السعادة ، ان الحياة على وشك ان تنتهى . وماذا ، لا قدر الله ، لو حدث مكروه لبيوتر الكسندروفتش ؟ لن تقوى على احتمال ذلك . . أوه يا لها من حمقاء ، ساذجة ، لو رويت لك . . . .

مضت تمارا اجناتيفنا تدمدم ، واصاخ ربروف السمع ، فلم يسمع صوت الكلب او اصواتا اخرى . وفكر في نفسه : ما أبشع الوجه البشرى ، في الغالب ، لو نظرت اليه بعدسة مكبرة ، سترى كل المسام ، والشعيرات ، والتنوءات في الجلد . . . ونحن لا نفعل شيئا سوى النظر بالعدسة المكبرة . كل دقيقة ، كل ثانية هي تكبير ألف مرة ، بينما ينبغي دائما رؤية السنين ، والكل لا الجزء . عندئذ ما كانت الكراهية لتظهر . لا ينبغي ان تكره المرأة التي انجبت امرأة اخرى . . تلك التي لا تستطيع ان تعيش بدونها ، فهذا مستحيل ، لأنهما كل واحد لا ينقطع . هما كالشجرة والغصون . والألم

لا يمكن اقتسامه . ارادت ان تصبح راقصة باليه فعاشت حياة بائسة ، حياة فلاحة وبستنة ، فليكن ، وماذا ؟ لا ينبغي ان يكره . فالمرء لا يشعر كيف يتحول الى شيء آخر . . .

عادت ايرينا اجناتيفنا بعد ساعة ، وحينما عرفت ان لالا لم تعد أعولت . ربروف ايضا تخيل في ذهنه شتى المصائب والمواقف العاصفة والاعتداءات . ولم يكن ثمة أى مجال للنوم ، ولكنه لم يستطع ان يبقى في غرفة واحدة مع حماته المعولة ، فصعد الى أعلى ، الى السندرة ، وحاول ان يقرأ فلم تواته الرغبة ، فرقد على السرير ، ودخن ، وكابد الانتظار ، واحيانا كان النعاس يغالبه ، وتمر بضع دقائق وهو في حالة الهذيان ، ثم ينتفض واقفا ويسرع الى السجائر . ولم يدر متى ظهرت ايرينا اجناتيفنا — وجهها متورم ، وخصل شعرها المشعث تطل من تحت المنديل — وهتفت وهي عند العتبة :

— عليها اللعنة هذه النقود ! لن تكسب كل النقود ! لماذا ترسلها وراء الكسب ؟ كيف لا تستحى ؟

وشعر ربروف بشيء ما يخنقه :

— من ذا الذى يرسلها ؟

— انت ! أليس عندك ضمير ؟ — ولم يكن في عينيها البيضاوين الدامعتين حقد بل ثقة مطلقة فيما تقول ، ويأس ازاءه ، هو الشرير .

وصرخ ربروف مختنقا :

— لا أحد يرسلها ! انها أنت . . . انا ! . . انت تهدمين حياتنا ! انت لا أنا ! انت ! أنت !

— اخص عليك ! ترسلها وراء الكسب . . .

— لا تكذبى ! لقد دمرت حياتنا بالفعل ، نعم ، نعم ! أنت تمنعين لالا من عقد قرانها بي ! تطالبينها باجهاض الحمل في كل مرة !

— وأنت لست زوجها . فلماذا تنجب منك ؟

— كلا ، انا زوجها ، اما أنت فلست أمها ، لأنك لا تصنعين لها سوى الشر ، الشر وحده !

وهنا حدثت نوبة عويل اخرى ، وصراخ من خلال الدموع :

— اياك ان تقول ذلك ! أنا احب ابنتي اكثر من حياتي ! — وبعد أن تمخطت بأناقة ومسحت دموعها : — انت لست زوجا بل شخصا بائسا ، وابنتي معك تعيسة .

وهرول الى تحت ، والتقط المعطف والقبعة ، ودس قدميه في الحذاء اللباد ، وانفلت خارجا الى البستان . واخذ يدور هناك وسط الثلوج في الظلام . تملكه احساس مقزز : الخوف من نفسه ، من لحظة الكراهية ، لحظة الجنون تقريبا . ماذا حدث ؟ ألم يكن منذ لحظات يفكر في العجوز بهدوء ؟ انه يفقد عقله ، يتحول الى مخلوق حاقد . ينبغي ان يفعل شيئا ما . أ يطلب منها العفو ام ماذا ؟ كلا ، ليس هذا هو المطلوب . ينبغي أن يفعل شيئا بنفسه . وعاد الى البيت في الثالثة وقد تجمد من البرد ، وتهالك على السرير . وفي الصباح جاءت لالا متوردة الخدين من الصقيع ، واخذت تقبل ربروف بشهوة وبفروغ صبر نهم ، ورثت لأمها .

— يا الهى ، انت لم تنامى ! وانت يا خالتي توموتشكا لم تنامى ؟ يا لي من شريرة ، كم عذبتكم . . .

فقالت الحماة باكية :

— لالا ، لماذا ترهقين نفسك بالحفلات ؟

— لم اكن في حفلة . بطريقة غبية وصلت الى احد البيوت ، ووعدني سموليانوف بالمرور على ، ولكن سيارته تعطلت ، فسرت على قدمي الى ماشا في الثانية صباحا . وعموما شيء رهيب .

— آه يا لالتشكا !

وتنهدت الحماة ولكن كان واضحا انها اطمأنت على الفور عندما سمعت اسم سموليانوف و«احد البيوت» . وفطن ربروف الى ما كانت تحلم به .

واستبد به قلق جديد : ترى أين كانت حقا ؟ ألم يحتك بها احد ؟ ها هو سموليانوف يظهر ثانية . ورغم القلق كان سعيدا لأنها تعذبت باخلاص لعذابه ، وقبلته بشهوة دون ان تستحى من أمها وخالتها . واذ اشتمت لالا أن هناك توترا بين امها وزوجها — وكانت تشتم ذلك فورا — سألت ربروف عما اذا كان كل شيء على ما يرام . وصعدا الى السندرة . وقال ربروف ان كل شيء عادى .

وهمست لالا بايحاء :

— جريشا ، انني ارجوك **بشدة** ، كن اكثر لطفا مع أمي . انها تكاد تفقد رشدها بسبب بابا . . .

فقال ربروف :

— حسنا .

وألقت لالا عنها المعطف ، والحذاء ، وارتدت الروب ورقدت . اختفت حمرة الصقيع من وجنتيها ، وتمددت مغمضة العينين ، شاحبة ، وبقع الارهاق على خديها .

— ومع ذلك ، اين كنت ؟ قبل ان تذهبي الى ماشا ؟

— اوه يا جريشا ، موضوع غير شيق أبدا . كنت في احد البيوت ، وهناك كانوا يحتفلون بعيد ميلاد شيخ ما . . . سأحكى لك فيما بعد . أريد ان انام قليلا .

— عرضوا عليك عروضا دنيئة ؟

— طبعا . . من جميع الجهات . . . — وانقلبت على جنبها فأولت وجهها للحائط — أيقظني بعد ساعة . في الحادية عشرة والنصف ستأتي السيارة . غطني بالبطانية . شكرا يا جريشنكا !

وخرج ربروف . وفي الممر اصطدم بحماته ، وقال بصورة مفاجئة تماما له :

— بالأمس صرخت بأشياء حمقاء ، فلا تهتمى بذلك يا ايرينا اجناتيفنا . . .

— نعم ، نعم ، انني افهم ، فقد كانت اعصابنا جميعا مرهقة . هذه الشريرة هي السبب . جريشا ، ارجوك ، اذهب لشراء اللبن — وارتسمت على وجهها ابتسامة تأثر ورجاء وكأن شيئا لم يكن — انها تسعل ، أريد ان اعطيها شيئا ساخنا . . .

أسرع ربروف الى المتجر بخفة ، وعاد بزجاجتي لبن ، وصعد الى أعلى ، الى «غرفة مكتبه» .

كانت هناك غرفة صغيرة جدا بجوار السندرة ، شق بسقف مائل ، من احد الجانبين جدار الغرفة ، ومن الناحية الأخرى ألواح السقف . وفي هذا «المكتب» كانت توجد طاولة كتابة وكرسى ولا شيء غير ذلك ، ولكن كان به طاقة ، ويمكن العمل فيه . وراح ربروف يرص حافظاته ودفاتره السميكة . وقرب منه احداها ، وكان مكتوبا على غلافها «خطوط عامة لـ(م . ع . ش .)» ومعناه «خطوط عامة لمسرحية عن الشعبيين» .

كان يعمل في ذلك طوال الاسابيع الاخيرة ، منذ حوالي شهر تقريبا ، منذ أن أولع بنيكولاى فاسيليفتش كليتوتشنيكوف ، الذى كان عميلا للشعبيين في القسم الثالث * . وقد تعرف على كليتوتشنيكوف لأول مرة منذ اربع سنوات عندما صدرت عن دار نشر أكاديمية العلوم طبعة جديدة لمذكرات موروزوف ، ثم قرأ عنه في كتب أخرى ، في كتاب «الاحداث» ** وعند فيجنر *** . ولكن فكرة المسرحية لم تظهر الا مؤخرا ، وبصورة مفاجئة ، كالمعتاد . وانكب على العمل بحماسة . بنفس الحماسة التي بدأ بها العمل في وقت سابق في كتابة رواية عن الديسمبريين **** ، ثم عن انتفاضة البولنديين المنفيين فى سيبيريا ، ثم عن ايفان بريجوف ، وعن الشاعر ميخايلوف . كل تلك الاعمال غير المكتملة ، المشوّشة ، كانت تستقر اكواما من المسودات في الحوافظ التي لا حصر لها ، بانتظار اليوم الموعود . وفجأة كان يأتي ذلك اليوم الذى يبرز فيه السؤال الذى لا يزال بعد وجلا ، مائلا الى البرودة والمبشر بجليد هائل : لأى غرض ؟ وبعد ذلك يحدث كل شيء بسرعة . يكف المحرك عن الدوران ، ويزحف الملل ، وفوق

---

* احدى ادارات الشرطة السرية القيصرية . **المعرب** .

** «احداث وخواطر» كتاب ذكريات للمفكر الثورى الروسى الكسندر جيرتسين (١٨١٢ — ١٨٧٠) . **المعرب** .

*** فيرا فيجنر (١٨٥٢ — ١٩٤٢) ثورية من الشعبيين سجنت ونفيت ولها كتاب ذكريات . **المعرب** .

**** الديسمبريون مجموعة من النبلاء الثوار الذين قاموا بأول انتفاضة مسلحة ضد القيصر فى ديسمبر ١٨٢٥ (ولذلك سميوا بالديسمبريين) . **المعرب** .

ذلك يكون عليه ان يسرع الى العمل من أجل لقمة العيش .

استخرج رزمة اوراق دقيقة . كان على الورقة الأولى بجوار بعض الفقرات المكتوبة بالحبر رسوم لوجوه ذات سوالف ، وسيوف ، وخيول . كان ربروف يهوى رسم الخيول . وعموما لم يكن ذلك هوى بالخيول ، ولم يكن رسما بأى حال ، بل نوعا من النوراستينيا بالرسم ، اذ كانت هذه المسوخ المشعثة تولد من تلقاء نفسها ، بطريقة ميكانيكية ما أن يشرد بذهنه .

كان وجود عدد كبير من الجياد المشوهة على الورقة المليئة بالشطب نذيرا سيئا يشير الى اقتراب الجليد . آه ، هو نفسه كان يعرف سر ذلك ! هو المذنب . لقد تحدث منذ ثلاثة أيام مع أحد المعارف من العاملين في المجلة ، فسمع هذا ما قاله له عن كليتوتشنيكوف ثم قال : كلا ، لا اعتقد ان هذا سيثير اهتمام أحد . وكان ربروف نفسه يخمن ذلك . ومع ذلك ما كان ينبغي ان يسأل . مسكين نيكولاى فاسيليفتش كليتوتشنيكوف ، رئيس القلم بادارة الشرطة ، الذى مات في هدوء مضربا عن الطعام في حصن اليكسي بعد حياة خافتة ، بطولية ، قصيرة ، فيم كان بوسعه ان يأمل بعد سبعين سنة ؟ كان مريضا مرضا لا برء منه ، ومحكوما عليه . محكوما عليه بالنسيان . وليس هنا أى آفاق ، وحتى الاحمق يعرف ذلك ، وكان عليه ان يحسم الأمر . ربما كان عليه ان يرحل الى مكان ما . الى مدينة اخرى ، الشيطان يعلم أين هي . ولكن لالا لن تذهب الآن الى أى مكان ، فأحوالها رائعة . كانت يد ربروف ترسم بيأس معتاد ماهر — وفي الوقت نفسه بسرعة مخيفة — الحصان تلو الحصان ، الحصان تلو الحصان . . .

منذ حوالي عامين عرضوا على ربروف وظيفة في جريدة في مدينة برناؤول ، وكتبت لالا الى مسرح المدينة ، وكانت على وشك الرحيل ، ولكن حماته استطاعت في اللحظة الاخيرة بجهود خارقة — بالدموع والديماجوجية — ان تثنيها عن عزمها . ولكن المسألة ليست مسألة حماته ، التي كانت تخشى من ان تزداد الرابطة بين ربروف ولالا قوة ، تخشى من اتحادهما للأبد . وكانت برناؤول تعنى : الى الأبد . وبالنسبة لربروف كانت تلك تضحية هائلة وخسارة للكثير : للقاعة العلمية الثالثة ، للكتب القديمة ، لهواة الكتب ، للاصدقاء ، للمجلات الهزيلة التي كان ينشر فيها فذلكاته التاريخية (هل يرسلها بالبريد ؟ أمر مشكوك فيه ! ثم من أين يأتي بها ؟) ، ومع ذلك أقدم على كل شيء . **بصورة مؤقتة** بالطبع . بل كان يندفع الى هذه الخسائر ، الى الكسر والبدء من جديد . أليست الحياة طويلة . نعم ، كانت حماته تحتج بكل قواها ، ولكن لالا كثيرا ما كانت تتصرف على غير رغبة أمها ، فليست مطيعة الى هذه الدرجة . . فعلى غير رغبة أمها هجرت مدرسة الموسيقى ، وعلى غير رغبة أمها ارتبطت بذلك الشاعر ، وهربت اليه ، وعاشت عنده ، وها هي معه هو منذ خمس سنوات خلافا لرغبة أمها . واذن فهي التي لم تجرؤ على الحسم في السفر الى برناؤول ، ليكون ما بينهما الى الأبد . لقد كان عليه ان يمر بفترة اختبار ، وان يبرهن على شيء ما ، ويقدم ضمانات . تحدثت حماته عن ذلك صراحة ، اما لالا — وكان على يقين من ذلك — فكانت تفكر خفية في الشيء نفسه ، بل وخفية عن نفسها . ولكن اذا تعمقنا في التفكير ، حتى النهاية . . . عندئذ لا نجد

ان المسألة هي في لالا ، بل فيه هو . هو ذاته لا يستطيع أن يجزم لها أو لنفسه ويبت في الأمر الى الأبد . هذا اذا فكرنا حتى النهاية . لا لأنه لا يحبها بما فيه الكفاية ، بل لأن هذا الحب اكثر مما ينبغي ، والمكان ضيق والقارب سينقلب ، وثمة خوف من الخروج الى عرض البحر . عليه اولا ان يبرهن لنفسه . ان يقدم الضمانات لنفسه . وهي تشعر بذلك . تقول : «الآن يا جريشا ، عندما لم يعد هناك حاجة للتفكير في لقمة الخبز ، تستطيع أن تجلس لتعمل في هدوء . . .» .

على الافطار تحدثت لالا بعجلة عن زيارتها لأبيها ، ربما يخرج من المستشفى في فبراير . وتحدثت قليلا عن المسرح ، وعن مكائد سمورنى ، وعن نشوب نزاع بين سرجى ليونيدوفتش وسموليانوف ، فهو لا يريد ان يخرج مسرحيته الجديدة . وبوب متفق معه في الرأى ، ولكن مدير المسرح يصر ويهدد بوب بالفصل ، أما سمورني فيرفع ذيله في وجه سموليانوف . واخذت ايرينا اجناتيفنا تسألها بنهم . اما ربروف فلزم الصمت . لم يكن يحب في حضرة حماته ان يتحدث مع لالا عن شئون المسرح . وفجأة افلتت منه :

— حسنا يفعل اذ لا يخرج مسرحيته ! اخيرا ثاب الى رشده .

— لماذا حسنا ؟

— لأن هذا كلام فارغ . لا أحد بحاجة اليه . . .

— لست محقا يا جريشا ، واعذرني فأنت تحسده قليلا . لدى سموليانوف مسرحيات لا بأس بها ، والجمهور يتقبله .

— الجمهور يتقبله ! يا له من معيار ! لو وضعت على الخشبة أحمقين وجعلتهما يضربان بعضهما البعض . . . والمهم انني احسده ! علام احسده ؟ على نقوده أم ماذا ؟ واذن فيجدر بي أن أحسد جارنا الاسكافي اركاشكا صانع الاحذية الموضة .

وتدخلت الخالة توما في الحديث :

— اتدرى يا جريشا ، انا لست متفقة معك . لقد اعجبتنى المسرحية التي مثّلت فيها لالا . لقد ضحكت كثيرا فيها .

فقالت الحماة بصرامة :

— لا تشغلوها بالكلام الفارغ . انها لا تتمكن من اكل أى شيء .

وضحك ربروف وقال :

— لا ، انك تدهشينني ! امن المعقول انك تأخذين كل هذه الضجة على محمل الجد ؟ كل ما يسمى بالنجاح والصخب والدوى ؟

لسبب ما احتدم وراح يتفوه بأشياء لا داعي لها . وسألته حماته على الفور :

— وأنت تعتبر انه لم يكن هناك نجاح ؟

— جريشا ، ها هو سموليانوف يظهر اكثر منك طيبة . انت تتحدث عنه بهذه الكراهية ، بينما هو يريد مساعدتك .

— أولا ، اتحدث عنه بدون أدنى كراهية . وثانيا : من الذى يريد مساعدته ؟

— بالأمس تحدثت معه . بخصوصك .

— ماذا بخصوصي ؟ — وحدق فيها مذهولا . وتضرج

وجهها . ولم تكن لالا تتضرج الا نادرا ، واذا حدث ذلك فمعناه ان له اسبابه — حسنا ، وعم يمكن ان تكوني قد تحدثت معه ؟

— عموما لقد ارتكبت حماقة . انه شخص لا يعتمد عليه ، لم يكن ينبغي ان احدثه . . .

— عم تحدثت ، عمّ ؟

— يعنى ، عن المساعدة بصورة ما . في الابداع . . .

ودمدم : «يا له من هراء . . كيف يمكنه ان يساعدني ؟ — ولوح بيده وخرج . لقد اثار سخطه عدم لباقتها ، اذ تتحدث في ذلك أمام حماته ! وعلاوة على ذلك أراد فورا ، في التو واللحظة ، ان يسألها عن سموليانوف كل شيء . ليبدد أو يعزز الشك الذى انغرز فيه كالشوكة ، ولكنه لم يكن يستطيع ان يفعل ذلك في حضور العجوزين . ولذلك صعد الى السندرة وراح ينتظرها على أحر من الجمر . وأخيرا ركضت لالا صاعدة على الدرج — كانت سيارة المسرح تنتظر عند البوابة — واخذت تستعد للخروج على عجل وتلقى بالملابس في الحقيبة . وسألها : كيف بدأ الحديث عنه ؟ فأجابت لالا اجابة ما . عندئذ قبض على كتفيها وضغط عليها محدقا فيها بصلابة ويأس :

— انت على علاقة به !

نظرت لثانية باستغراب ، ثم تضرج وجهها من جديد :

— طبعا ، وكيف لا ، أليس كاتبنا المسرحي ! مصيرنا متعلق به . كلا يا جريشا ، لقد اتضح انه غبي . وكما تعلم فأنا لا اعبأ بالأغبياء . انا ذاهبة ، الى اللقاء !

نظر ربروف من اعلى الى المعطف الفرائى وهو يلوح

في البستان بين الاشجار العارية وسط البياض . لم يتضح شيء . بالطبع كانت تمزح ، والا فذلك غير معقول . انها تعرف انه في هذه الحالة لن يستطيع ان يعيش .

بعد ساعة رحل بالترام الى باشيلوفكا . كان ينبغي ان يأخذ عدة كتب قرر ان يبيعها بعد ان انتزعها من قلبه منذ فترة طويلة وألف ذلك في دخيلته . وقال جاره كانونوف ان هناك من جاؤا من ادارة البيت وطالبوا بحزم بأن تحضر شهادة من مقر العمل . وهددوا بالغاء الاقامة والترحيل من موسكو . كان جاره رجلا غير أصيل ، وقد احتل الغرفة التي يسكنها عنوة بعد الحرب بحجة انه من المعوقين . وفي السابق كانت هذه الغرفة لأناس طيبين ، جيران ربروف القدماء ، وقد تأخروا في العودة من التهجير ، فجاء هذا وسكن احدى الغرفتين اللتين كانتا لهم ، وبعدها استحال القضاء عليه لا بالماء المغلى ولا بالكيروسين .

كرر ما قاله بخصوص الشهادة ثلاث مرات ، بل وأطل برأسه في الغرفة بوقاحة .

— قالوا يا جيورجي فيدوروفتش بأنك اذا لم تقدمها حتى الأول من الشهر فسيبلغون الشرطة .

— حسنا ، حسنا ، سأقدمها .

— فلتهتم اذن بالموضوع ، وذلك لأنهم عينوني مفوضا مشرفا على هذا المدخل .

— تشرفنا . . . — وحرك ربروف الباب بصعوبة اذ كان جاره يعوقه ، واغلقه .

بعد دقيقة دق الباب ، وتناهى صوت جاره اكثر تشددا وحدة :

— وأرجوك ان تسد شقوق النافذة ! انك تعيش ، الله يعلم أين ، وتترك الشقة تبرد . ارجو ان تسد الشقوق بلا ابطاء .

ودمدم ربروف بصوت غير مسموع : «فلتذهب في داهية» ولكنه لم يقل شيئا جهرا . كان ما يشعر به هو النرفزة والخور . لا داعي للشجار مع اشخاص من نوع كانونوف . يريد شهادة ؟ سنحضرها . سد شقوق النافذة ؟ تفضل . ودون ان يضيع وقتا اخذ يبحث في الصوان على الارفف عن الكتب المعدة للبيع . وكان يعثر على دفاتر كشكول قديمة وألبومات برسومات مدرسية قبيحة ، وها هو كتاب اللغة البولندية ، وكتاب تعليم اللغة الايطالية ، يا الهي ما اكثر ما كان من نوايا طيبة ! وكانت الكتب في حالة من الفوضى مما جعله ينفق ساعة ونصف ، كما أنه كان ينشغل عن البحث بدس أنفه في الدفاتر القديمة الغبراء ، ناسيا كل شيء ، مستمتعا بقراءة لا جدوى منها ، الى ان جمع العدد المطلوب من الكتب ، بحوالي مائة وعشرين روبلا . وأخيرا ، وبعد أن ملأ حقيبته عن آخرها ، خرج من البيت الذي كان بيته الحبيب الوحيد في زمن ما ، ولكن بعد وفاة والديه ومصرع أخيه ، بعد أن انقلبت حياته على يدي لالا ، أصبح مبنى غير سكني ، بمثابة مخزن حاجيات .

كان يحصل على الشهادة المطلوبة لادارة المنزل طوال عامين من المجلة التي استغنت عن خدماته كمحرر من خارج الهيئة . واذن فعليه ان يبحث عن مخرج . وبغاية السرعة ! فهذا العم سيسير في الأمر الى نهايته . يبدو انه استهدف غرفته . طبعا ، فلديه اسرة ، والمكان ضيق عليه ، أما

هنا فلا أحد يعيش بالأشهر ، ليس هذا عدلا . وربما قد نسوا في ادارة المنزل أمر الشهادة ، فقد احضر لهم في العام الماضى واحدة ، ولكن كانونوف سينبههم . ترى ماذا يعمل هناك ، في مجمع تجهيز اللحوم ؟ اسطى ، مهندس ، ملاحظ ، الشيطان يعلم . يصنع السلامي . فما أن تسهو عن نفسك قليلا حتى يضعك في الآلة ، هوب ، فتخرج من طرفها الآخر اسطوانة سلامي ماركة «لوبيتلسكايا» مغلفة بالسلوفان وبأذيال أنيقة . لو ان الاستوديو قبل منه السيناريو ، او قبل أى مسرح مسرحيته ، ولو لاخراجها فيما بعد ، بعد التعديل ، ولكن بعقد ، لحسم الأمر وضمن الشهادة . أما الآن فهو صفر ، زيرو ، بائع هواء . مصنع الطوب الرملى دائما بحاجة الى عمال ، وهناك يعطونك شهادة . انه ليس حتى زوج ممثلة مشهورة . يبدو ان كانونوف اشتم شيئا ، فليس صدفة انه سأله : «فلماذا لا تسجل اقامتك في مسكن زوجتك ؟ هل أنت عضو اتحاد ابداعي ؟» .

كل شيء واضح : لقد بدأ كانونوف يتحرك . في المرة السابقة حاول بطريقة لطيفة للغاية ان يعرف عنوان لالا بحجة ارسال البريد حتى لا يتراكم هنا ، ولكن ربروف فطن الى الخطر ولم يعطه العنوان ، لا بأس ، فليتراكم . والا جاء ذات يوم هناك قائلا : «لقد جئناك يا جريجورى فيدوروفتش بخصوص الشهادة» .

التفت ربروف لا راديا . كان الشارع خاويا ، والريح تسفى الثلج على الرصيف الهزيل .

باع الكتب في ممر المسرح الفنى ، في المتجر الرابع عشر حيث كان يعرف احد الباعة ، وحصل على تسعين روبلا ،

وركب على الفور الى مقر المجلة في بوليفار جوجول حيث كانوا يأخذون منه احيانا «مفارقات تاريخية» و«حقائق منسية» . وهناك قالوا له انهم لا يستطيعون اعطاءه شهادة لأنه ليس ضمن القائمة الرسمية . اما الذهاب الى المجلة الاخرى التي لم يكن يحصل منها على عمل الا نادرا — ردود على رسائل القراء — فكان لا معنى له اصلا .

جر ساقيه الى «ناتسيونال» ، فكان شاخوف أول من وقع نظره عليه في الصالة .

— آه . . . — قال شاخوف بلهجة تبدو وكأنها ودية — كيف احوالك يا فتي ؟ اجلس واشرب كأسا . منظرك يبدو أشبه بسمكة مجمدة .

— احوالي رائعة . . . — قال ربروف وهو يجلس ويصب لنفسه كأسا من الكونياك من دورق شاخوف . كان يتصرف بوقاحة لانه قرر ان يطلب مائتى جرام كونياك دفعة واحدة ، — اسمع ، لقد اقترحت على شيئا ، اتذكر ؟

— ماذا ؟ نعم اذكر . ماذا ؟ بل نسيت . . . — وقهقه شاخوف غامزا بعينه . واهتز خداه الاحمران المائلان الى الزرقة وقد امتلآ بالدم بسبب الكونياك ، واطلت من عينيه نظرة تبدو وكأنها ثملة ، ولكنها فى الوقت نفسه فاحصة ، نافذة — سنبحث الامر . املأ بطنك بالطعام ، اطلب سمك السلطان . انه اليوم هائل .

كان عرضه كالتالى : هناك احد الاشخاص يمكن ان يساعده . ينبغى ان يحضر له كل ما لديه : السيناريو والمسرحية ، ويعرضها عليه ، وسوف يشير اليه بما يفعل وأين وكم . انه شخص مهم للغاية ، ذو خبرة كبيرة . ما هذا ، عرض

بالمشاركة فى التأليف ؟ لماذا تستبق الامور هكذا ؟ كما يقال «سوف ننظر» . ولكن ذلك غير مستبعد . كلا ، مستبعد ! فليذهب الى الشيطان ! ومن هو هذا الشخص المهم للغاية ؟ مهلا ، مهلا ، لا تفقد اعصابك ، وخصوصا مع سمك السلطان . فيه شوك كثير .

— كما يقال : ما علينا سوى العرض ، ولكم القبول او الرفض . . .

كان بعينيه الحمراوين ، الرطبتين دائما ، يشبه كلب السيتر العجوز المريض بالتهاب الملتحمة . انه فى حوالى السبعين ، ولكن الجميع ينادونه كوستيا * . يبدو انه كان يقوم بعمل ما فى صحيفة «انباء البورصة» . وكان بمقدوره ان يقوم بعمل ما منذ سبعين عاما ، ومنذ مائة عام ، قبل ذلك . سواء فى «الصوت» عند كرايفسكى ، او فى «اخبار موسكو» ** عند كاتكوف . . عند اىٍّ كان . يا عزيزى كوستيا ، ان هذه وقاحة لا تستحى ، تفوق كل الحدود ! لماذا ، هلا اخبرتنى ؟ ومن تظن نفسك ايها الشاب ؟ طيب ، طيب ، اطلب مائتى جرام كونياك اخرى واعتبر اننى لم اعرض عليك شيئا . واذا غيرت رأيك فأنا هنا يوم الثلاثاء بعد السادسة . ماذا تقول قرينتك ؟ كيف الاحوال لدى سرجى ليونيدوفتش ؟ سمعت ان لديه متاعب ؟ نزاع مع المدير ؟

كانت الساعة حوالى الثالثة . وتوجه ربروف الى المسرح .

---

* اسم تدليل من الاسم الكامل «كونستنتين» . وتقتضى الاصول مخاطبة الكبار باسمهم الكامل واسم الاب احتراما . **المعرب** .

** صحف كانت تصدر قبل ثورة اكتوبر ١٩١٧ . **المعرب** .

لم يذهب الى هناك منذ زمن بعيد ، لم يشعر برغبة ولم يستطع . اما الآن فقد ساقه دافع الى الذهاب الى هناك لآخر مرة ، لانه **كان واقفا على الحافة** . انه لم يتلق ردا حقيقيا على مسرحياته . كذلك لم تجر مناقشة . والمخطوطات ما زالت هناك . وهى فرصة ليرى لالا ، ليسألها فورا . وسيفعل ما تقول به .

انسلَّ عبر الردهة الخالية ، والقى المعطف على خطاف المشجب ، ودلف الى غرفة مكتب المشرف الادبى المشحونة بدخان التبغ .

كان ماريفين جالسا على الكنبة متكوما بصورة لامبالية وقد طوى احدى ساقيه القصيرتين تحته وراح يهز الاخرى ، وبجواره عند طرف الكنبه ، انتصبت سيدة جافة فى عظمة وهى تشبه الجلة الخشبية . وكانا يتحدثان بصوت خافت ، ومارفين يمسك فى يده بمسبحة . وهو دائما يمسك بالمسبحة وكأنه مسلم ورع . ونظر الى ربروف باعياء ودهشة .

— عفوا يا جريشا ، ولكنى اعتقد انه قد دار بيننا حديث ألم يحدث ؟ اعتقد انك مخطئ . . .

— على الاطلاق ! فقط عن طريق لالا . . .

— بل دار حديث ، دار ! انت نسيت . حول «البيت العالى» ، او كيف تسمى عندك ؟ انت سألتنى بالهاتف . . . ونقلت اليك رأى سرجى ليونيدوفتش . . .

— وأين الرد الرسمى المكتوب ؟

— لست افهمك يا جريجورى فيدوروفتش — بدأ السخط يتركز فى عينى ماريفين السوداوين . وتحت عينيه تدلت اكياس سوداء كأنه افرط فى الشراب . هذا القزم المثير للرثاء بقرحته

هو هنا الملك والرب ! — علام تصر ؟ على المناقشة ؟ لقد رأفنا بك . . . ما حاجتك اليها ؟ ان الممثلين واعضاء المجلس اناس لا يتميزون باللباقة ، خشنون ، قد يقولون لك كلمة غير لطيفة فتظل نصف سنة غير قادر على العمل ، وتخور قواك . ان ما فعلناه هو فى صالحك . . . تريد ردا رسميا ؟ تفضل ، ولو فورا . . .

يبدو انه يسخر منه . ولكن ربما يستحق . يستحق السخرية . **يعتبره متكسبا** . ضغط الألم على رأسه وكأن احدا شد فوطة بقوة حول جمجمته . فليكن ، اللعنة على كل شىء ! وفجأة قال بصوت غريب عنه نفسه ، صوت وقح متطاول ، جدير فقط بالمتكسبين :

— يا بوريس ميرونوفتش ، اريد ان احصل على شهادة بأننى كاتبكم واعمل فى مسرحية لمسرحكم . هذا مطلوب ضرورى . .

دق جرس الهاتف . وانزل القزم ساقيه عن الكنبة .

— . . . من اجل ادارة المنزل .

وعندما اخذ يدمدم فى الهاتف انحنت السيدة بجسدها الاشبه بالجلة وهمست لربروف :

— الا تدرى ماذا حدث لبوريس ميرونوفتش ؟ مصاب أليم . زوجته ماتت . انه وحيد . لا أولاد ولا أقارب . . .

واستمر ماريفين يدمدم فى الهاتف :

— التقرير ، نعم ، نعم ، يوم الاثنين ، ارجو ان تجهزوا كل الاوراق ، نعم ، نعم ، نعم ، مهم جدا . . .

وسألها ربروف باهتمام :

— ومم ماتت ؟

— كانت مريضة مدة طويلة . . . — قالت السيدة وهى

تومئ بحزن وتقدير وفى الوقت نفسه بدت عليها مظاهر الاحترام غير المفهوم .

حاول ماريفين ان يفهم عن اى شهادة يتحدث ربروف ، وعندما ادرك نصحه : على لودميلا بتروفنا ان تتحدث مع المدير ، ولن يرفض لها طلبا . وكان بامكانه ان يتحدث هو بنفسه ، ولكن ذلك الآن لا معنى له . فهو سيترك المسرح . والمدير لن يصنع من اجل خاطره شيئا ، بل العكس هو الاقرب الى الصواب ، اما اذا رجته لودميلا بتروفنا فقد يفعل . فهى الآن بالذات تملك رصيدا . وارتجف ربروف من فكرة فقدان الشخص الوحيد لك فى الحياة . والبقاء **وحيدا تماما** . وحدق بنظرة ثاقبة فى وجه ماريفين الصغير المحمر ، وقد رأى الآن انه محمر ، وكان ماريفين قد عاد للجلوس على الكنبة والعبث بالمسبحة ، وادرك ان هذا الشخص فى حالة سيئة . فهو ليس من النوع الذى يستطيع ان يعيش وحيدا تماما . ولن تنقذه السيدات المتكلفات امثال هذه السيدة الجالسة هنا على الكنبة .

«بوب سيموت قريبا — خطر لربروف فجأة هذا الخاطر المخيف — بدون المسرح سيموت . . .»

وقال ماريفين :

— اما فى موضوعك فلتتحدث مع سرجى ليونيدوفتش . اذهب ، اذهب اليه الآن ! انه فى مكتبه ، انا اعرف .

اراد ربروف ان يقول : دعك من مسرحياتى وشهاداتى . كل هذا هراء ، لا يستحق الكلام . وبالفعل هراء . ومن الممكن التكيف من جديد بدونه ومواصلة الحياة . فالحياة عظيمة اما الذى يستحق الكلام فأمر آخر : انه الموت ،

والوحدة . ولكن ذلك بالذات هو الذى يستحيل الكلام عنه . فشد على يد ماريفين وهزها محدقا فى عينيه — كان فيهما عجز ما وفى الوقت نفسه نوع من التعالى — وتلكأ قليلا وهو يفرك اصابعه ، وهكذا خرج دون ان يقول له شيئا .

لماذا يذهب الى كبير المخرجين ؟ لقد بات كل شىء واضحا ، ولن يجنى نفعا . ولكنه مضى الآن — كما كان يحدث له كثيرا — بفعل القصور الذاتى ، غير قادر على التوقف . كان كبير المخرجين يعرف ربروف جيدا بوصفه زوج لالا ، لكن لم تدر بينهما ابدا احاديث جدية ، بل كانت كلها احاديث عابرة ، بضع كلمات على المائدة او فى محطة القطار ، او فى البوفيه ، او عند مشجب المعاطف . . . واذا بهذا الرجل البدين الاشيب — ويا لها من مفاجأة مذهلة — يبوح لربروف بكل همومه الدفينة التى تعذبه . فاتحه ربروف فى الشهادة ، واذ به يتدفق فى الحديث عن انه غاضب على الدنيا كلها ، وهو فى مزاج خطير ، حاقد على البشر ، فالبشرية لم تبرر وجودها ، وسوف تهلك من النفاق . . واشياء اخرى من هذا القبيل . كان يهرول تقريبا فى الغرفة ، بينما وقف ربروف بجوار النافذة محصورا بظهره الى حافتها العالية .

واتضح ان المجلس الفنى قد انفض اجتماعه منذ نصف ساعة ، وان هذا العجوز انهال على الجميع تقريعا : على المدير ، ونائب المدير ومساعد المخرج ! فبالامس ليلا ، وكان يعانى الارق ، ادرك فجأة بوضوح ان الخلاص هو فى شىء واحد : ان يقول لكل انسان الحقيقة فى وجهه . بالطبع — سيبلغون المؤلف اليوم فورا ، لان المعمعة كلها بدأت بسببه . فقد وقف بوريس ميرونوفيتش ضد المسرحية الثالثة للمؤلف

وقفة ضارية . . . اما ما هى المسرحية الثالثة لسموليانوف ، فهى ، اتدرى ، مسألة تحتاج لحديث خاص . . فأحداثها تدور فى شيكاغو وبلغراد وقناة الفولجا-الدون . . .

— ولكن لماذا احكى لك هذا كله ؟ . . ربما لان زوجتك لودميلا كانت الشخص الوحيد فى اجتماع المجلس الفنى الذى حاول — ولتكن محاولة خجولا ! — ان يساعدنى فى انقاذ بوب .

وحدق فى ربروف بانتباه ، وفجأة استطرد يقول بلهجة مختلفة ، بجفاء ونفور :

— والآن فلنتحدث عنك . لقد حذرتك ، انا اليوم لا ارحم . موافق ؟ اتفقنا ؟ حسنا اذن . اننى اقرأ مؤلفاتك واقرأ مؤلفات الشبان الآخرين — وسموليانوف ايضا — واشعر بالدهشة : لماذا يعذب هؤلاء الناس انفسهم ؟ لماذا يكتبون عن اشياء ليس لديهم عنها سوى فكرة ضعيفة ؟ أليس لدى كل منكم شىء خاص به ، قريب منه ، عزيز عليه الى حد البكاء ، مثلما لدى تشيخوف الخال فانيا وامثال الدكتور أستروف ، وكما لدى جوركى ، مثلا ، برجوازيوه الصغار ، وامثال بوليتشوف ودوستيجايف . اما انتم فمن لديكم ؟ ماذا لديكم ؟ ها أنت ذا قد كتبت عن الحرب الكورية . انك لا تعرف كوريا ، ولم تشم رائحة الحرب فيها ، وعموما فأنت لم تشرّق الى أبعد من محطة كازان ، هه ؟ أليس كذلك ؟

— هذه المسرحية ليست واقعية تماما . . هى اقرب الى الحكاية . . . — غمغم ربروف وهو لا يقوى على كبت ابتسامة ، لا بد وان تبدو للرائى حمقاء — بل هى ، على الأرجح ، أمثولة . . .

— امثولة ، اسمع ، ان هذا القول ادعاء فى غاية الغرور ! انا كتبت أمثولة ! الامثولات تكتبها الشعوب لا المؤلفون . والآن فلنتحدث عن مسرحيتك الاخرى ، عن بناء الجامعة . تحمّل ، تحمّل ، فقد جئتنى فى يوم كهذا . ولكن ما هذا ، يا الهى ، فلتتعلموا يا اصدقائى الرائعين ان تكتبوا أولا عن بيوت صغيرة من طابقين ، عن العنابر ، عن غرف بورق جدران مورد ، حيث يعيش امثال بيوتر ايفانوفتش وماريا ايفانوفنا ، وبعدها فلتكتبوا عن عمارات خمسة واربعين طابقا ! انظر الى سموليانوف ، انه شخص لديه مواهب ، جاء أول مرة بمسرحية بسيطة عن الغابات ، وكان فيها شىء طازج ، مأخوذ من الحياة . . . وكان قليل الخبرة ولكنه تجاسر . . . وقد ترددت فى اخراجها ، ولكنهم اقنعونى ، وألحوا علىّ ، فالموضوع مطلوب ، فأخرجتها . هنا يسرى مفعول الابداع الخرافى وتظهر عناصر الموضوع الخرافى . . .

لم يكن ربروف قادرا على التركيز وفهم ما يقال تماما . كان ما يقال عن سموليانوف ، طويلا الى درجة لا تتصور ، معقدا ، طفح به الكيل . ولكنها اشياء لا تستحق ، تافهة . فلماذا يتحدث طويلا ؟ ولم هذه الحمية ؟ الأمر واضح : انه وحيد ، مهضوم الجناح ، وقرر ان يُقدم على خطوة ما ، وهاقد خاف ، ولا يجد من يشكو اليه ، ولا من يبثه شجنه . ما أكثر ما ترك سموليانوف من حزازات . وبلغت ادراكه مزق من عبارات : «جرمان فلاديميروفتش ، استاذ النفاق هذا ، يسعى الى ان يكون مخرجا . . . وفى السابق اتذكر ؟ . . المسرحيتان كلتاها من اخراجى . . الذنب ذنبى ، انا الذى ولدت هذا الغلام ! . . .»

وقال ربروف :

— يا سرجى ليونيدوفتش ، وما رأيك فى قضيتى ؟ ماذا افعل ؟ — ظهرت لديه مرة اخرى الرغبة الفظة للمتكسب كما فى مكتب ماريفين بأن يركز على نقطة واحدة . وما العمل ؟ مادمت قد جئت بهذه الصفة فعليك ان تسلك السلوك المناسب — أود لو حصلت على شهادة .

— شهادة ؟ اى شهادة ؟ — دهش كبير المخرجين — آه ، تلك الشهادة التى تحدثت عنها . خاطب فى ذلك المشرف الادارى .

واضاء مصباح الطاولة وراح يقلب الاوراق هناك ، وعلى الفور اصبح وجهه عجوزا ، متقززا . وعلى غير المتوقع جلس ربروف تحت المصباح وقال :

— حسنا اذن ، هل لديك عشر دقائق من وقتك ؟ اريد ان احكى لك شيئا . لا ، ليس له علاقة بما قرأته ، فذلك محض سخافة ! وليكن فى علمك ، انا لست غاضبا منك ابدا . . .

— لا تبدد الوقت سدى . اعطيتك سبع دقائق .

وامضيا فى غرفة المكتب ساعتين ونصف . روى له ربروف عن نيكولاى فاسيلييفتش كليتوتشنيكوف . حكى له كل ما كان يحترق فى قلبه طوال الشهور الاخيرة وما بدأ يبرد ويتحول الى جليد فى الأيام الأخيرة . ولكنه اشتعل الآن من جديد عندما تحدث عنه . لقد كانت قصة حياة نيكولاى فاسيلييفتش مثالا لما ينبغى ان تكون عليه الحياة عندما يعيشها المرء غير عابئ بسفاسف الحياة العظيمة ، ودون ان يفكر فى الموت والخلود . . . وليس معروفا حتى ان كان ثوريا حقيقيا ،

اى هل كان يدرك ادراكا كاملا المهام والاهداف أم لا . ظهر فجأة ، على غير انتظار ، هزيلا ، شبه مريض ، لا يعرفه احد ، فأرا من فئران الدواوين الحكومية فى الاقاليم فى نظارة مستديرة العدسات ، وعرض على الثورة خدماته . وكانت لديه شكوكه ، وتساؤلاته ، لا شىء بطوليا على الاطلاق ! لا عضلات الكسندر الفولاذية ، ولا خناجر ومسدسات سرجى ، ولا ثقافة ليف ولا رومانسية نيكولاى . ولكن لا بأس ، لا بأس . لقد كان منفذا . كان ينفذ ارادة الآخرين ، تلك الارادة التى سماها عدة اشخاص بـ«الشعبية» . تغلغل فى رحم الشرطة ، وتسلل الى ما تحت الدرع ، وتوغل الى عمق الاعماق ، الى احشاء وقلب القسم الثالث ، ومن هناك أخذ ينقذ وينجد ويقتل . كان ينفذ ارادة ضميره هو . وهذا كل ما هنالك . ان شرح ذلك شبه مستحيل ، لان الضمير مفهوم غامض . ولكنه قوة هائلة . صحيح ان هذه القوة تارة تزداد وتارة تضعف ، ربما فى ارتباط بانفجارات ما فى المادة الشمسية . وفى التحقيق قال اشياء لا تعقل ، وافترى على نفسه ، مدعيا انه كان يحصل على نقود من الثوار مقابل ما يقدمه لهم من معلومات ، فقد كان ينبغى أن يفسر تصرفه بصورة ما . فكيف يفسره ؟ طيب ، كان مريضا ، مسلولا ، ولم يكن ليعيش اكثر من عامين او ثلاثة ، ولكن المرض لا يُظهر بصورة حادة الا ما هو موجود فى اعماق الانسان ، ومن ثم فقد ازدادت حدة ضميره . . عندما كان يلعب الورق مع صاحبة البيت السمينة ، التى كانت أُذناً للشرطة ، ويسعى الى نيل اعجابها لكى يحصل من خلالها على وظيفة فى الدائرة المأمولة . . .

أصغى سرجى ليونيدوفتش بحماسة ونهم كما يصغى الاطفال . كان فيه بلا شك شىء طفولى ، فى هذا العجوز البدين . ولكنه فى سياق الرواية كان يحشر فجأة بعض الكلمات ، مثل «النفاق العالمى» ، واخيرا قال :

— يا للعجب ، ما اكثر الاشخاص الرائعين والمنسيين الذين عاشوا على الارض . وكم كان ذلك قريبا ! كان والدى من معاصرى صاحبك نيكولاى فاسيليفتش ، وهو ايضا من سكان بطرسبرج . . وراح ، مصعوقا ، يتحدث عن ذلك . وكان ربروف شبه متأثر . يبدو ان كبير المخرجين سمع لأول مرة بشخص مثل نيكولاى موروزوف ، اما ليف تيخوميروف فلم يسمع به على الاطلاق — اتدرى ما الأمر : بالنسبة لك فان عام ثمانين هو كليتوتشنيكوف ، والقسم الثالث ، والقنابل ، والسعى لاغتيال القيصر ، اما بالنسبة لى فهو أستروفسكى و«الأسيرات» فى مسرح «مالي» ، وهو يرمولوفا فى دور يفلاليا ، وهو سادوفسكى ، وموزيل . . . نعم ، نعم ، نعم يا الهى ما أقسى ما تشابك كل ذلك ! اتدرى ، ان تاريخ بلادنا هو كالسلك المتعدد الشعرات ، وعندما ننتزع منه شعرة واحدة . . . كلا ، هذا لا يجوز ، صحيح ان ذلك كله متحد فى الزمن ، مجتمع معا : كليتوتشنيكوف وموزيل . . . آه لو أمكن على الخشبة تصوير تيار الزمن هذا ، الذى يحمل الحابل والنابل ! ولكنى اليوم اعلنت : اذا ترك بوريس ميرونوفتش المسرح تركته أنا أيضا ، ومن ثم فعلى السادة ان يقرروا . بعد اجتماع المجلس الفنى عادة يزدحم مكتبى ، ويرتفع الصخب ، وتلقى النكات ، اما اليوم ، كما ترى ، فقد تفرقوا . لقد اوقعتهم فى حيرة . . .

خرج ربروف الى الشارع فى الغسق ، وكانت المصابيح قد اشعلت . كان يشعر بالاعياء من الحديث وبفرحة لا معنى لها . . وبالفعل فلا معنى لها ! فهو لم يحقق شيئا ، ولا اى شىء ، ولم يحصل ولو على ما يحمله طائر فى منقاره ، وراح يهيم فى الشوارع ، من ميدان بوشكين الى ميدان تروبنايا ، ومن هناك الى شارع نيجلينايا هبوطا ، فعاد ثانية الى ميدان بوشكين . غير ان الفرحة خبت شيئا فشيئا وأطل القنـــــوط برأسه . لا ، ليس لأن يوما آخر قد ضاع عليه بلا فائدة ، حتى المكتبة ضاعت . وفجأة خطر له : ان المخرج العجوز ، مثله مثل ربروف ، ليست به رغبة فى العودة الى البيت . وكانت تلك فكرة حزينة . وعندما التقى ربروف عند مدخل مطعم الحمية زميلا قديما ، يدعى توليا شوكين ، كان قد أصبح فى حوزة القنوط تماما . كان ربروف يلقى هذا الشاب ، الذى درس معه فى المعهد ، فى الشوارع دائما . وقد احيل شوكين الى التقاعد بوصفه من معوقى الحرب . كان وحيدا ، يحيا فى شظف ، حياة شبه غامضة ، لا يشرب ولا يدخن ، ويأكل فى المطاعم ، يرتدى دائما معطفا رقيقا لا يتغير ولفاعا مربعات لا يتبدل .

وعندما كان شوكين يلتقى ربروف يكلمه لسبب ما بتعالٍ ، وبابتسامة تعطف دائمة . اما ربروف فكان يحب الالتقاء بشوكين . كان مزاجه يرتفع من مجرد رؤية هذا الرجل الذى كفَّ عن بذل اى محاولة للصعود فوق نقطة الصفر . وكانا يتحدثان عادة عن النساء . فيسأله ربروف : ألم يتزوج بعد ؟ فيقهقه شوكين قائلا : «ماذا تقول ، ماذا تقول ! أبدا !» . كان وجهه احمر حمرة لا تزول ، واسنانه المنظفة

بعناية تلمع . وكانت صديقاته من البائعات وخادمات المطاعم وغاسلات الاطباق ومسجلات الطلبيات فى ورش الخياطة وتنظيف الملابس . وكان يقضى معهن بضع ساعات محددة فى الاسبوع ، فيدعوهن الى غرفته المتواضعة ، ويقدم لهن عشاء متواضعا ، وزجاجة نبيذ ، واحيانا مجرد شاى مع السلامى ويبتهج بما يحصل عليه من جائزة متواضعة . وعنهن كانت تدور بينهما الاحاديث السريعة العابرة . أما الآن فمع التعب والقنوط لم يشعر بميل الى الثرثرة . نظر ربروف الى شوكين شزرا وسأله بصورة آلية :

— حسنا ، الم تتزوج بعد ؟

— ابدا . . . — قهقه شوكين وربت على كتف ربروف بود ولكن بشىء من التعطف . كان يقف فى الصف امام باب المطعم مباشرة ، وامامه لم تكن سوى عجائز ، ومن خلفه اصطف حوالى العشرين شخصا . ويبدو ان الواقفين امضوا زمنا طويلا فى الوقوف وتثلجت اطرافهم ، وعندما لمحوا ربروف يندس فى الطابور شعروا نحوه بالريبة المقرونة بالغيظ . اما ربروف فقد احس انه جائع ، اذ كان قد تغدى فى حوالى الثانية عشرة ، أما الآن فالساعة تدور فى السابعة ! وسأله شوكين :

— يقال ان نجم زوجتك صاعد ؟ هل تشترى سيارة ؟

— من قال لك ؟

— موسكو كلها تتحدث عن ذلك ، ها ، ها . . .

ومن الخلف تردد صوت مستاء :

— ايها المواطن ، قف فى الطابور !

فأعلن شوكين بصوت راعد ان ربروف كان قد حجز

مكانا فى الطابور أمامه فتململ الطابور ، وصاح شخص : «نحن لم نر !» ، وطقطقت شحنات كهربائية فى الجو . ولم يلتفت ربروف الى الوراء ، ثم فتح الباب وانحشرت ثلاث عجائز الى الداخل وتبعهن ربروف تحت حماية عكاز شوكين . واثناء تناول الحساء والبطاطس المخبوزة حكى له ربروف عن مصائبه . وقد ادرك ربروف انه بحاجة الى من يسمعه . واصغى شوكين اليه جيدا . كان يهز رأسه ، ويدس كلمات مواساة بلهاء ، ويتطلع الى ربروف مبتسما فى تعال .

وفجأة قال :

— كم يستولى عليك التكبر يا أخى ! تؤلف مسرحيات ما وروايات عن الشعبيين .

فدهش ربروف وسأله :

— ماذا تقصد ؟

— الغرور عذبك . عبثا تهرول هنا وهناك . انا مثلا ادرِّس الادب فى مدرسة ليلية ، ست ساعات فى الاسبوع . ما ألطف ذلك ! فونفيزين ، بوشكين ، ديرجافين . . . «انا ملك ، انا عبد ، انا دودة انا رب !» . هل تريد أن اشغلك ؟ ستدرِّس التاريخ . وسيعطونك شهادة .

فهز ربروف رأسه سلبا :

— الآن لا أريد .

— طيب ، فلتهرول قليلا . وعموما فعبثا ترفض . هل نأخذ كوبا آخر من مشروب الفواكه ؟

لزم ربروف الصمت محطما .

كان فيما قاله شوكين بصراحة وود ، شوكين الشريف المحدود التفكير — لسبب ما كان ربروف موقنا بأن شوكين

محدود التفكير — قسوة ساذجة قاتلة . هذه هى **الحقيقة فى الوجه** ، لا تلك الوخزات التى وخزه بها سرجى ليونيدوفتش . وبالفعل ، أليس من الافضل ان يفعل هكذا — يستسلم ؟ يدرِّس التاريخ فى مدرسة ليلية . ست ساعات فى الاسبوع . شهادة ، ومركز ، ووجود . وجاء شوكين يعرج ، حاملا كوبين من شراب الفواكه ، وقال شيئا ما عن موزعة الطعام السوداء الشعر ، وان اسمها ريتا ، ومن أسرة طيبة . «استطيع ان اعطيك هاتفها . اتريد هاتفها ؟» . وكان ربروف فى مكان بعيد فلم يرد رغم انه سمع السؤال . وعندما خرجا الى الشارع قال شوكين :

— لا تحزن . بعد عشرين سنة كل شىء سيكون عكس ما هو عليه الآن . وسوف تتبادلان المواقع — انت وهذا المخرج ، سرجى ليونيدوفتش ، اعدك بذلك — وضحك — انا فقط سأبقى فى مكانى القديم !

— بعد عشرين سنة ؟ ومن بحاجة الى ذلك ؟ سأكون حينذاك عجوزا ، مثله تقريبا . . .

— ولهذا اقول : سوف تتبادلان المواقع . وهو سيكون غير موجود ، مثلما أنت الآن ، ها — ها !

— شكرا فقد اسعدتنى .

— لا تبتئس يا عزيزى ! خابرنى . لا تنس بخصوص المدرسة الليلية . هناك ايضا وظيفة رئيس نادٍ فى حى بيرفومايسكى ، استطيع ان اشغِّلك . لا تغب !

ومضى مضيع العمر فى مطاعم الحمية هذا عبر شارع بوشكين الى اسفل ، نحو محطة المترو . اما ربروف فسار فى نفس الشارع الى اعلى . وقد ازعجته تماما كلمات شوكين

الاخيرة رغم انها ، فيما يبدو ، مشبعة بالود . اهى حقا بدون نية سيئة ؟ «ولكنه محق ، هذا الوغد ، فأنا لست موجودا . . .» .

ظل يدور فى الشوارع طويلا وهو يفكر فى ذلك .

لو قضى نحبه فجأة ، فمن سيبكى عليه ؟ بل قل ومن سيلاحظ ذلك ؟ لالا ستبكى . لن يصبح لديها من تشفق عليه . ولكن بعد ثلاثة اشهر سيعرفونها بأحد علماء الفيزياء ، المريض بالسل ، والذى يهوى الموسيقى السيمفونية ، او بشخص رائع ، مسّاح اراض وسكير عربيد ، ومع ذلك ستكون ايرينا اجناتيفنا راضية وستعثر فيه على مزايا . والميزة الرئيسية للمسلول وللسكير انهما **موجودان** . وبدأ الثلج يهطل .

والعودة الى البيت ما تزال مبكرة . ومال الى السير فى البوليفار . فى البداية الى اسفل ، الى ميدان تروبنايا ، ثم الى اعلى ، الى سريتنسكى فوروتا . كان يعرف الى اين تشده قدماه . . الى المنزل القائم فى بوليفار سريتنسكى . كان ترام «آنوشكا» يصعد المرتفع ببطء شديد . وفى الدفء الكهربائى المريح اهتزت وجوه شاحبة . ولحق ربروف بالترام بالخطوة العادية تقريبا ، وقفز الى سلم العربة . وكان قبل هذا زمن ما فيه شتاء ، وثلج يسقط ، وانكمش البوليفار بأشجاره المتثلجة ، وهنا — الى اليمين لاح جدار حصن قديم من الطوب — كان يقفز الى سلم العربة . كان يمسك بالحقيبة فى يده اليسرى ويجرى بسرعة ودقة محاولا ان يجارى ايقاع العجلة ، ثم قفزة نشطة ، ويصبح هناك ! وباليد اليمنى يقبض على الدرابزين . هكذا كان كل يوم ، حتى شهر مارس ذاك ، فى يوم غطى الارض فيه جليد ناعم ، عندما انزلقت

قدمه وهوت فى الفراغ ، وسقطت منه الحقيبة ، وامسكت به يد قوية من ياقته ، وشدته الى الفسحة . وعند سريتنسكى فوروتا ، التى كانت النقطة الاخيرة فى الرحلة القصيرة الممتعة — مسافة محطة ترام واحدة ! — سمع صياحا ، ورأى رجلا يركض من تحت ، من ميدان تروبنايا وهو يلوح بيديه . كان ذلك أباه . كان يحمل الحقيبة التى اعتزم ربروف ان يعود راكضا لاحضارها . وصل أبوه جريا وهو يلهث ، شاحب الوجه ، ودون أن يقول كلمة سدد اليه صفعة ألقت به على الرصيف ، وما ان نهض حتى وجه اليه صفعة اخرى وهو يردد بحقد رهيب : «ايها الوغد ! رأيتُ كل شىء» . وبعد ذلك اليوم ظل أبوه يراقبه خفية لمدة طويلة ، مختبئا كجاسوس حقيقى خلف زاوية المنزل القائم فى روجدستفيينكا ، ويراقبه وهو عائد من المدرسة وهل يقفز الى الترام ام لا . لم يكن لدى ابيه ما يعمله آنذاك . فلم يعد يعمل ، وأصبح عصبيا ، كثير الصراخ ، يتشاجر مع أمه . وكانت أمه تشفق عليه . وعندما اشتكى اليها ربروف من تجسس ابيه عليه ، ومن ان الاولاد لاحظوا ذلك واخذوا يضايقونه ويعايرونه ، قالت له انه لا ينبغى ان يهتم بذلك . «فليفعل ما يشاء — قالت امه — انه يعانى ونحن لا نستطيع ان نساعده» . ولم يفهم ربروف لماذا لا يمكن العثور على عمل آخر وانهاء المعاناة . كان أبوه اخصائيا اقتصاديا ، ولكنه كان آنذاك مريضا ، الامر الذى لم يعرفه ربروف . وفى آخر الصيف نُقل ابوه الى المستشفى الذى لم يعد منه . وكانت الأم تعوده ، ولكنها لم تأخذ معها روبروف او اخاه فولوديا ولا مرة . وذات يوم جاءت متهللة وقالت ان الأب تعرف عليها . كان الاب جالسا فى السرير ،

يخيط من المزق لحافا ، وعندما دخلت الأم العنبر ، حدق فيها فجأة وقال بصوته المتأفف المألوف : «يا فيرا ، ان لدينا فى البيت مزقا عديدة مختلفة ، فلماذا لم تأتينى بها ؟» . وارتبكت الأم وفرحت الى درجة انها لم تعرف ماذا تقول فأجهشت بالبكاء . وعندما بدأت الحرب نقل المستشفى الى محافظة كيروف ، وتوفى ابوه فى بداية عام اثنين واربعين بسبب التهاب رئوى ، ولكن ربروف لم يعرف بذلك الا بعد سنتين . وفى الغالب علمت امه بذلك فورا فقد كانت تكاتب المستشفى . كانت فى مدينة كوزنتسك التى نقل المصنع اليها . وتوفيت امه فى عام ثلاثة وأربعين بنوبة قلبية ، اما فولوديا فتوقف عن كتابة الرسائل من صيف اثنين واربعين — قرأ ربروف عن ذلك فى رسالة أمه — وعندما عاد ربروف من المستشفى العسكرى الى موسكو بدأ يجرى التحريات ويكتب الى شتى الجهات ، ولكن الرد كان واحدا : ليس لدينا معلومات . وفيما بعد ، عندما قارن ربروف بين بعض الوقائع المعروفة وبعض المعلومات من رسالة أمه ادرك ان الوحدة العسكرية التى كان بها فولوديا قد وقعت فى التطويق قرب خاركوف .

ها هو البيت ذو الطابقين ، بأنصاف الأعمدة ووجوه السباع المتسلخة الطلاء . النافذتان الثالثة والرابعة الى اليمين فى الطابق الثانى . هنا انقضت افضل سنوات العمر ، حتى الصف السادس . وعندما فصلوا اباه من العمل لم يستطع لسبب ما ان يبقى هنا — قال ان ضوضاء الشارع تزعجه والأرق يعذبه — فانتقلوا الى باشيلوفكا الهادئة ، خارج المدينة تقريبا . كم قاوم ربروف آنذاك ! كم كان لا يود ترك المدرسة ،

والاتراب ، والبوليفار ، وملعب التزلج على الجليد فى تشيستى برودى ، ومتجر طوابع البريد فى كوزنيتسكى موست الذى كانوا يقصدونه بعد المدرسة ، والذى كانت المعارك القاسية تدور وراء بوابة فنائه ! ذات مرة اخذ من أمه ستة روبلات لشراء سلسلة المستعمرات الفرنسية ، وخرج من المتجر سعيدا ، واذا بأحد يدفعه فجأة الى بوابة الفناء ، وراح ثلاثة صبيان يلوون ذراعيه فى صمت ويحاولون انتزاع المظروف منه ، ولكنه قاوم بجنون ، فألقى بهم جانبا وافلت ، وانطلق راكضا الى اسفل الشارع ، ولم يلاحظ الا عندما وصل الى محطة المترو ان معطفه الربيعى الجديد ممزق من الامام كله بشفرة . ولكن اعتزازه بكونه قد القى بهم وأفلت ، وانقذ المظروف الثمين ، كان أكبر من مجرد منغصات تافهة مثل تمزق المعطف . . .

تساقط الثلج بغزارة ، ولف كل شىء : المقهى الذى كان الهواء الدافئ يندفع من بابه المصطفق ، والناس المهرولين ، والطواقى الفرائية على الرؤوس ، والوجوه ، والذكريات ، والصبى ذا المعطف الاسود من جلد الغنم ، الطويل فى البداية ثم القصير بعد ذلك . خلف هاتين النافذتين فى الطابق الثانى عاش اربعة اشخاص . ولم يبق حيا من الاربعة سوى ربروف ، وها هو يقف ويتطلع الى ما كان قبل الحرب . . . اين اختفوا جميعا ؟ ليسوا هنا وليسوا هناك . . ليسوا فى اى مكان . بهذا جرت المقادير . وهو ممثلهم فى العالم الذى يهطل فيه الآن الثلج ، وتسير الترولى باصات ببطء ، مضيئة مصابيحها . . .

سألته لالا :

— لماذا جئت اليوم ثملا ؟

— الى اين جئت ؟

— أخبرنى بوب . قال : جاء زوجك سكران طينة وأخذ يطالب بمناقشة مسرحياته . ويتكلم عن شهادة ما ، وانت تعلم ان بوب احواله غير سارة . . .

فأشاح بيده بما يعنى انه يعرف ! لم تكن به قدرة للخوض فى كل ذلك . كل ما قاله :

— بلغى شكرى لسموليانوف .

وأويا الى الفراش ، وروى لها ربروف انه ذهب اليوم الى البيت القديم فى البوليفار . كانت حياة ربروف السابقة على باشيلوفكا تثير اهتمام لالا ، فكانت تهوى سؤاله عن أبيه ، وعن الفترة التى كان فيها ربروف صغيرا جدا ، فهما لم يتعرفا الا فى الصف السابع . وها هى الآن ايضا تستلقى فى سكون وتصغى اليه . وحكى لها ربروف ان أباه ، فى زمن بعيد ، فى نحو عام ثلاثة وثلاثين ، اشترى زوجا من كراسى الاطفال المصنوعة من القش ، وربطهما بدراجته ودراجة الأم ، فكانوا يخرجون اربعتهم ايام الآحاد للنزهة ، وربروف وفولوديا على الكرسيين المثبتين على خلفية الدراجتين . وتوجد صورة فوتوغرافية بذلك ، ينبغى العثور عليها . ومست يد لالا فى الظلام جبينه وشعره ، وراحت تمسده . وأمسك بيدها هذه وضغطها الى شفتيه . وقال لها ان شخصا عرض عليه اليوم العمل فى مدرسة للكبار ، مدرسا للتاريخ . ومن الممكن ايضا العمل رئيسا لنادٍ فى حى بيرفومايسكى . وظلت لالا تمسد وجهه فى صمت . وقال لها هناك عرضا آخر بعرض المسرحيتين على شخص له علاقات ويستطيع ان

يساعد . وسيكون عليه ، فى الغالب ، ان يضع اسمه كشريك فى التأليف . وقد يكون هذا افضل من حالة الركود الحالية . رغم ان ذلك كريه . فهمست لالا :

— لا داعى اذن — وأخذت تقبله — لا داعى يا حبيبى ، لا داعى ايها الغالى . لا تفكر فى شىء . كل شىء عندنا سيكون على ما يرام . سنحصل على الشهادة ، وسوف تعمل مطمئنا ، وتحقق كل آمالك ، فأنت موهوب ، لاداعى ، لا داعى . لا تستسلم للضعف . من هو هذا الاحمق الذى عرض عليك وظيفة رئيس النادى ؟

تمدد بلا حراك مصغيا ، متشربا بكل قلبه دمدمتها وهمسها العذب المخدر كالاثير .

— أتدرى ماذا أظن ؟ اظن اننى . . . هل فهمت ؟

— حقا ؟

— أظن ذلك . أريد ان أبقى عليه .

دق قلبه وعادت اليه قواه . الفرحة والرهبة ، الكل معا متحدين . بقدر ما تكون السعادة يكون الشقاء . هذا كل المطلوب . وهذا الكائن الحبيب الدافئ بجوارى هو البرهان الوحيد على اننى موجود !

وكما يحدث فى الحلم ظهرت حقيقة بدت واضحة وقديمة : ليس «انا افكر فأنا موجود» بل انا أحب فأنا موجود ، هذا هو الامر كله ، كيف لم يفطن الناس الى ذلك ؟ لماذا لا يفقهون ؟ ان ذلك واضح وضوح الشمس . «وانا موجود ! موجود رغما عنكم جميعا» — فكر ربروف برقة فوارة غاضبة وهو لا يشعر بشىء سوى طعم الحب على شفتيه ، ومداً هائلا فى قواه .

في حوالى الساعة الحادية عشرة صباحا جاء شخصان من محطة الهاتف وأخذا يفحصان من اين وكيف يمدان الى البيت «سلكا هوائيا» . ولم يكن احد قد استدعاهم . واعتقد الجميع ان هناك خطأ ، ولكن العاملين أظهرا امر التركيب الذى كان مكتوبا فيه اسم تليبنيوفا . وتوقيع رئيس الدائرة . عندئذ فطنت لالا وقالت : «آه ، انا اعرف ما هذا !» ، وكان واضحا انها مرتبكة وكأنما ليست سعيدة تماما . وطالبها ربروف بتفسير . فقالت ان ادارة المسرح تسعى منذ زمن طويل الى تركيب هاتف لها ، لأن الادارة نفسها تلاقى صعوبات فى الاتصال بها ، وتضطر احيانا الى ارسال سيارة لمجرد اخطارها بأمر من الامور . ولكن المساعى لم تنجح ، فليس هناك كابل قريب ، والسلك الهوائى مكلف ، والظاهر ان سموليانوف تدخل فى الامر . فلدى سموليانوف علاقات فى هذا المجال ايضا . وهتفت ايرينا اجناتيفنا بفرح :

— يا للروعة يا لاليتشكا ! شكرا ، شكرا جزيلا له . ابلغى نيكولاى ديميانوفتش انه حبوب ، شاطر . . .

— ماما ، لا أريد ان اكون مدينة لأحد .

— لالا ، ما هذه الحماقة ! ما دخل المدينونية هنا ؟ جميع اقربائنا وجميع معارفنا لديهم هواتف منذ مائة سنة نحن وحدنا بدون هاتف ، كأننا فى قرية . . .

كان فى كل هذه الهرولة ، فى هذه المباغتة ، وفى عدم فرحة لالا ، وتهليل الحماة المبالغ فى حرارته ، كان فيها شىء أثار ريبة ربروف . يا للشيطان ، انه هاتف ! انه شىء مهم ! لم يكن لديه فى حياته أبدا هاتف ، لا فى سيريتينكا ولا فى باشيلوفكا . ولكن لالا ارتبكت بصورة

غريبة ، كأنما تعثرت فى مكان مستوٍ . وسرعان ما جاءت السيارة فرحلت لالا ، وبعد ساعة كانت الحماة تخابر الخال كوليا والعمة جينيا والخال ميشا ، وكل جيش الاقارب ، وتخبرهم برقم الهاتف وآخر اخبار بيوتر الكسندروفتش .

وقد وعدوا باخراج العجوز من المستشفى بعد اسبوع .

سار ربروف من محطة المترو الى البيت — بعد يومين من ظهور الهاتف — وعندما اقترب من السور الريفى الاصفر رأى شيئا أذهله للوهلة الاولى . فعند بوابة الحديقة المجاورة وقف الشرطى كورتوف مع كانونوف ، الذى كان فى معطف اسود طويل ، وهما يتحدثان . واستدار كانونوف نصف دورة متظاهرا بأنه لم ير ربروف . وتظاهر ربروف بأنه لم يلاحظ كانونوف ، رغم انه مر من جواره وهو يكاد يمسه بكتفه .

وتملكه احساس مقزز لا يحتمل بسبب المفاجأة ايضا وشعر بضعف فى ساقيه .

ليس هناك ما يسر كثيرا بأن تعلم ان هناك من يحفر تحتك بعناد واصرار . وبينما انت تعيش تستمر تلك السحنة فى الحفر . وفكر ربروف وهو يقترب من باب الحديقة : «كل شىء انتهى !» وضحك . وعندما التفت رأى ان الشرطى وكانونوف ينظران اليه .

ابطأت فجأة حركة نجم سموليانوف الصاعد باندفاع طوال الاعوام الاربعة الاخيرة . وفى الحقيقة لم يحدث اى شىء خطير فى اموره ولم تقع كوارث ، ولكن ايقاعها تباطأ ، وكان ذلك يمكن ان يعنى نذيرا سيئا . ومهما حاول نيكولاى ديميانوفتش ان يقنع نفسه بأنه حتى افضل فرق كرة القدم ، كفرقة نادى الجيش المركزى مثلا ، تفقد بين الحين والحين

بعض النقاط ، اذ لا يمكن الا يخطئ المرء أبدا والا يتكبد الخسائر فى اى مجال ، رغم ذلك فقد ضاق صبره واعوزته الحكمة . وبدلا من ان يستمر فى التحرك قدما ببرود اعصاب ، غير عابئ بالأنين والاهانات ، لم يتمالك اعصابه وتورط فى فضيحة مباشرة : فقد اخذ يرد وهو يمضى فوق الدرج على صياح وفظاظة الرجل العجوز ، واخذ يهدده وينذره بسبابته ، ونعت المشرف الادبى السابق ماريفين بأنه مرائى . انكشف أمره فظهر غبيا على حقيقته . لقد خانته اعصابه ! وهذا مفهوم ، ففى شهر يناير بالذات وقعت له المصائب الجسيمة : ففى ساراتوف اصيبت أمه بالشلل ، وفقدت القدرة على الحركة والنطق ، ولم يعرف ماذا يفعل بالطفلة وأين يضعها ، وقد استأجر لها مؤقتا عجوزا ، جارتهم ، وبعد عشرة أيام اقدمت مارتا على عملة . ارادت ان تقفز من النافذة ، من شقتهم الجديدة فى الطابق السادس ، ولكن اختها فروسيا رأتها وامسكت بها وهى على افريز النافذة . وكانت هذه ثانى مرة ، المرة الاولى فى اكتوبر ، فى الشقة القديمة . واضطر بالطبع الى الابلاغ فنقلوها الى كاشنكو* . ولم يذكر نيكولاى ديميانوفتش شيئا لأحد ، وخاصة في المسرح . ما الداعى ؟ لن يعطف عليه أحد ، ولكن قد يسببون له أذى . وبسبب ذلك كله كان مزاجه في غاية الاعتلال .

للاسبوع الثاني كانت لودميلا تتجنب نيكولاى ديميانوفتش . كانت تلقاه في المسرح فترد بجفاف على «مرحبا» وتمضى في طريقها . وكان نيكولاى ديميانوفتش نفسه يفكر في بعض

---

* مستشفى للامراض النفسية فى موسكو . **المعرب** .

الاحيان في «انهاء الأمر» ، فلتذهب مع ألف سلامة هي وغضباتها ! ولم يكن على يقين تام ولكنه حدس انها لا بد قد اعتبرت أنه سلّمها لألكسندر فاسيليفتش . صحيح ان الكسندر فاسيليفتش قد رجاه ، بل وطالبه ، ولم يكن بوسعه رفض طلبه بأى حال ، ولكن لو علمت هذه الحمقاء كم عانى من اجلها ، واى كوابيس مفزعة دارت بخياله ، وكيف كان كل أمله في ان تنتصر طبيعتها الاستقلالية التي أغاظته مرات ومرات . انه لم يغمض له جفن **في تلك الليلة** . لم يذق طعم النوم دقيقة واحدة ، وأضنته التهيئوات والهذيان ، فتارة يخطر له الكسندر فاسيليفتش وهو يدق له بقبضته ويركز فيه نظرات ثاقبة بصورة خاصة ، وتارة يتصور لودميلا في منظر لا يطاق مع ذلك الآخر وهي تخرج له لسانها . ومع ذلك آمن بكل قلبه ، بكل جوارحه ، بأن ذلك لن يكون ، كلا ، كلا ، كلا ! ابدا ! كان على ثقة شبه مطلقة ، ومستعدا ان يراهن بألف روبل مقابل روبل على أن الكسندر فاسيليفتش لن ينال منها شيئا . مطلقا ! ليست من ذلك النوع . وعندما اتصل به الكسندر فاسيليفتش في الصباح ، وقال له شيئا ما بصوت غليظ مغتاظ — لم يفهم منه شيئا ولكنه بدا غاضبا كالشيطان — كاد نيكولاى ديميانوفتش يقفز من شدة الفرح بجوار الهاتف : «آه يا مسكين ، تقول الحرقان عذبك وضيق التنفس ، تقبل مواساتي . . .» كان يدمدم مواسيا بينما ينظر في المرآة ويأتى بحركات مضحكة بوجهه . . .

لقد اعتاد على لودميلا وتعلق بها ، وهذه حقيقة . وما أسرع ما حدث ذلك ! رغم انها كانت ترهقه وتثيره بغضبها وتستفزه بزوجها الأحمق جريشنكا ونزقها وتسلطها (أى

ضجة اثارتها بسبب ماريفين ! وهل يمكن الدفاع عن العجوز بطريقة حمقاء ؟) ، وأوصلته الى حد الرغبة في انهاء علاقتهما الى الأبد ، فالنساء حوله كثيرات ، وليست هي حلوة الى هذه الدرجة ، فلا داعي للتعالي ، هناك من هنّ أحلى ، أما هو ، اذا دققنا في الأمر ، فلديه امكانيات غير محدودة ، عليه فقط ان يشير باصبعه ، ورغم انهم عرفوه بمختلف النساء على وجه السرعة ، وكانوا يذهبون الى البيت الصيفي في خيمكي عند الاصدقاء ، ويروحون ويجيئون ، فقد كان يمل ذلك بعد ساعة ويضجر . لأنهم اناس فارغون ، لا عقول لهم . لاهمّ لهم الا انتزاع القشدة ، أما هو فقد شبع من رؤية نازعي القشدة هؤلاء . وهو شخص عسير المصير وصعب الطباع ، لا يتأتي لكل واحد أن يفهمه .

اما لودميلا فكانت تفهمه . امرأة مدهشة ، لم تطلب منه شيئا على الاطلاق ، ولم تعاتبه أبدا ، ولم تأخذ منه نقودا . عرض عليها مرتين فرفضت رفضا قاطعا قائلة : «كيف لا تستحي ؟» وأسعده ذلك واحس بالسرور لا لأنه كان يبخل بالنقود بل لأن امرأة مدهشة كهذه تحبه . كل ما انفقه عليها ثمن حذاء بنعل مطاطي ، ثلاثمائة وثمانون روبلا ، اشتراه لها منذ زمن طويل . هذا بالطبع عدا المطاعم . وصبر نيكولاي ديميانوفتش ، وأرهقه الأمر ، ولم تعد لديه قدرة على الصبر ، فأمسك بيدها في الممر واستوقفها :

— لودميلا ، عندي بلوى .

اتسعت عيناها :

— ماذا حدث ؟

— أمي في المستشفى ، نزيف في المخ . لا أعرف

ماذا أفعل بجالا . . .

ووميض في عيني لودميلا ذلك الشيء الطيب ، الأول ، لا يدري ان كان الفزع ام الشفقة :

— احضر جالا الى موسكو ، والا فسوف تقضي أمك على نفسها اذا ما بدأت تقلق عليها . . .

— وفي موسكو بلوى ، مع مارتا . . .

روى ما حدث باقتضاب . المصائب من جميع الجهات ، وفي المسرح حرب ، ماريفين ، هذا الوغد ، أثار الممثلين ضده ، وحرّض النقاد ، وحسنا اننا تخلصنا منه ، وفي البيت تشن عليه الاقدار حربا ضارية . والمقربون يشيحون بوجوههم عنه ، ولا عون منهم ولا دفء . . .

— انني ارثي لمارتا ، ارثي لها جدا ، جدا . ليست عجوزا بعد ، في الثامنة والثلاثين ، ولكن جهازها العصبي منهك حتى النهاية ، والعلاج يتطلب ما لا يقل عن سنة ، وليس معروفا ماذا ستكون النتيجة . يا للأسف . انها مربٍ ممتاز ، كانت تدرّس الجمباز في مدرسة اطفال . وهي ، كما يقولون ، مريضة بالهذيان الجنوني والافكار المتسلطة . معارك مع فروسيا وصراخ وتهجم ، انك تعلمين . ثم اتضح ان ذلك مرض ، ولا حيلة لنا في الأمر . كم هو مؤسف . . .

كان نيكولاي ديميانوفتش يروي لها بصوت خافت ويتطلع اليها ، فاذا الوجه الحبيب يشحب ، وبدا وكأن الدموع تكاد تطفر من عينيها . وفجأة استدركت قائلة :

— هل أساعدك ؟

فأومأ برأسه :

— فلنذهب اليّ ، الآن فورا !

وفكر : قد تغضب فروسيا ، وسوف تقذف بالاطباق ، لا يهم ، مع الف سلامة . ينبغى ان يرسلها الى مكان ما . الى تراسوفكا ، الى الدار الصيفية . نعم ، فلتذهب لتدفئتها ، اذ لم يدفئوها من زمان .

— اين الهاتف ؟ سأتصل الآن ثم نذهب .

— كلا . . . لن نذهب .

غادرا الممر ووقفا على فسحة الدرج العريضة أمام النافذة . ولاح الفناء بأرضه القذرة ذات الثلج الأسود المدعوك . ووقفت سيارة المدير امام بوابة الكراج ، وكان غطاء محركها مفتوحا . وبجوار الحائط الذى يفصل ارض المسرح عن المنزل المجاور ، انتصبت ديكورات غطاها الثلج ودفنها بلا رجعة . وفكر نيكولاى ديميانوفتش : «ينبغى الا أنسى المرور على الكراج للسؤال عن بطارية» .

وسمع صوتها يقول :

— كل شيء انتهى بيننا يا نيكولاى ديميانوفتش . لقد قررت ذلك .

— لماذا ؟

— هكذا . . .

صفق الباب في الاسفل ، وتناهت خطوات شخص يصعد بصعوبة وحشرجة . وصمتت لودميلا . كان الصاعد عجوزا من متقاعدى المسرح . وحياهما ، فردت لودميلا ، وعندما دلف العجوز الى الباب المفضى الى الممر ، كررت قولها بلهجة أكثر حزما :

— هكذا !

— ألم تجدى وقتا غير هذا ؟

— لم أكن أعرف بمصائبك .

— ولكنك الآن تعرفين ؟

— أعرف ، وأقدّر وضعك . . . — وصمتت قليلا — ولكن سيان .

عيناها غريبتان ، باردتان .

— كنت تبدو لي . . . واذا بك هكذا ! لقد تعودت على الرجال الضعفاء . . . فأنا احميهم ، انا لهم أم ، وزوجة . . . وظننت في البداية انك في حاجة اليّ . . .

— وما الفائدة في الرجال الضعفاء ؟

— انهم لا يرتكبون الدناءات .

— نعم ؟ بل يرتكبونها بجدارة !

— كلا ، لا طاقة لهم بذلك .

— غير صحيح ما تقولين ! حماقة ، تتفوهين بسخافات — دمدم وهو يشعر باضطراب سيئ يتصاعد في نفسه كأنه حمى — انا مثلا ، ما هي الدناءة التي ارتكبتها ؟ من الذى قتلته أو خنقته ؟

— اذا احتاج الأمر فستقتل اى شخص . بوب قد خنقته بالفعل ، والدور الآن على سرجى ليونيدوفتش . . . انني أرى . . .

— ثم ماذا ؟ محقة فيما ترين . بيد أني لست ضالعا في الأمر . زمانه ولّى ، أتفهمين ؟ تعثر هو ولا نفع منه ، تخلف كثيرا .

وضحكت لالا :

— تخلف عن من ؟ عنك يعنى ؟

— عن الزمن يا عزيزتي !

— أوه ، يا الهى . . . — واستمرت في الضحك .

وفجأة أدرك ان الحمى التي اجتاحته كانت هي الخوف ، لأن النهاية حلّت ، وقد رأى ذلك .

— ولماذا مثّلتِ تلك المهزلة ؟

— لم أفطن الى الأمر يا نيكولاى ديميانوفتش ، ما أغبانى ، ما العمل ؟ الذنب ذنبـي ، فلتعاقبني . ها هو جريشا ، شخص غير قوى ، غير قوى بالمرة ، نعم ، وبدوني سيدركه الهلاك ، ولكنه لن يقدم أبدا على الدناءة . . .

— غير صحيح ما تقولين ، غير صحيح تماما ، كلام فارغ — دمدم بصوت خفيض ، فلم تكن به قوة للتحدث بصوت عال — زوجك جريشا شخص عادى ، مثله مثلي . ماذا ، ألا يعرف بعلاقتنا ؟ يعرف ، ولكنه صابر .

— لا يعرف .

— بل يعرف ، ويعرف جدا ، ولكن فيه من العقل أكثر مما فيه من النبل .

— لا يعرف ! . . — صرخت فجأة واطل الشرر من عينيها حتى ان نيكولاى ديميانوفتش تراجع .

— غير صحيح ما تقولين . . . — مضى يهمس بيأس وهو يراها تومئ له وتودعه بحركة من يدها وتستدير وتنصرف .

وبعد يومين ، عندما جاء كوستكا شاخوف الى منزله بجريشا هذا ، وراح الأخير ، في توتر متحجر ، يعرض عليه خزعبلاته في الحوافظ المهترئة المربوطة بالاشرطة ، مرددا بين الحين والحين ودون مناسبة «ولكن المشكلة كلها هي . . .» ، بينما اخذ كوستكا يعبث ويجرع الكونياك بوقاحة على طاولة المجلات كمقدم اتعابه ، راح نيكولاى ديميانوفتش

يتطلع الى جريشا بنوع من الدهشة المقرونة حتى بالأسى ويفكر : «ترى ماذا وجدت فيه ؟ ما السبب ؟» . كان يبدو على جريشا الرهبة والوجل ، وقال كلاما فارغا ، عن شهادة ما لادارة المنزل . وكان نيكولاى ديميانوفتش قد طلب من كوستكا ان يماطل في الكشف عن شخصية من سيذهب اليه مع جريشا ، والا يخبره بذلك الا اليوم ، عند محطة المترو ، حيث تحدد اللقاء . ومع ذلك لم يبصق جريشا ويصيح بسخط : «هكذا اذن ؟» ولم يهرول عائدا الى المترو . لقد جاء صاغرا . يجلس على الكنبة مستريحا ، واضعا ساقا على ساق ، والسيجارة بين شفتيه ، ويتطلع حوله بكرامة ، كانسان نبيل . ربما حقا لا يخمن بالعلاقة ؟ لا ، ابدا ، بل يخمن هذا الكلب . حتما يخمن . لقد روت له لودميلا كيف عثر على القميص الذى اشترته له ، لنيكولاى ديميانوفتش ، لتهديه اياه في عيد ميلاده واحتفظت به في الكمودينو . وسألها آنذاك فتخلصت من الورطة قائلة انها هدية جماعية لأحد العازفين في الأوركسترا . وها قد ارتدى نيكولاى ديميانوفتش هذا القميص عن عمد وفتح الرداء . والظاهر ان جريشا لاحظ القميص فورا ، ولكنه صمت ولم يسأله ، غير ان نظراته تعلقت به . وتحدثوا عن كل شيء . عن النقاد ، وعن كبير المخرجين ، الذى آن له من زمان ان يستريح ويفسح المكان لغيره ولكنه لا يريد ، ويقاوم ، وعن ضرورة اتخاذ اجراءات ، والتحدث في الاجتماع عما يحدث من مهازل وعن التضييق على المؤلفين الشبان («هلا أثرت انت هذه المسألة يا جريجورى فيدوروفتش ؟») بينما عينا جريشا تتحسسان القميص طوال الوقت ، وكما يبدو ، يعذب نفسه بشدة . واخيرا لم يطق فسأله :

— قل لي يا نيكولاى ديميانوفتش ، اين اشتريت هذا القميص ؟

— هذا القميص ؟ أهدته لي لودميلا بتروفنا .

— آه ! . . — قال جريشا .

ولم ينبس بعد ذلك . حقا ، الرجال الضعفاء لا يثيرون ضجة أبدا . هذا بدلا من أن يوجه اليه لكمة في فكه أو على الأقل يصيح : «كيف هذا ؟ لماذا هذا ؟ على اى اساس ؟» . وافترقا بسلام واتفقا على ان نيكولاى ديميانوفتش سينظر في الاوراق ويفكر ثم يخبره بالنتيجة بعد ثلاثة أو أربعة أيام .

— عندكم الآن هاتف ، اعرف ، اعرف . . . — وابتسم ببشاشة وتعال ولوح له بيده وهو يودعه الى الباب .

وفي نفس اليوم قرأ المؤلفات المخطوطة في الحوافظ المهترئة وتشاور مع بعض الاشخاص . واعطاها كوستكا ليقرأها ليوفكا وألينكا . كان يصغى دائما لرأى ألينكا ، زوجة ليوفكا ، فهي امرأة ذكية وحاصلة على الدكتوراة . وقالت ألينكا ان ذلك كله مكتوب بصورة لا بأس بها ، ولكن بدون فكرة كبيرة مسيطرة . ولو أعيد عجنه بشدة وتضريبه كما ينبغى فربما خرج منه شيء . ولكن لا مبرر لأن تضع اسمها عليه مع المؤلف . لو كان سموليانوف هو المؤلف لوضع اى شخص اسمه الى جانبه بالطبع ، ولكن ربروف ؟ من هو ؟ ومع ماذا يؤكل ؟ وقال نيكولاى ديميانوفتش في نفسه : «انه يؤكل مع زوجته . يأكلونه مع زوجته !» بل وضحك . طيب ، طيب ، هذه مزحة ، بسيطة ، لاداعى للقلق ، سوف نساعدك ، وسوف نأكلك ، لا من اجل جمال عينيك ، ولا من اجل **ما كان** ، بل من اجل **ما يجب أن يكون** .

وهنا انقضّت على نيكولاى ديميانوفتش فكرة سريعة مندفعة كأنها طائر حط ذات مساء صيفى على الشرفة فجأة . ينبغي اغلاق جميع النوافذ ، جميع الأبواب ، وسوف يتخبط الطائر ويدق الزجاج — دب ، دب ، دب — الى ان تخور قواه تماما ويسقط على الأرض ، وعندئذ فلتمسكه باليد المجردة .

تخيل نيكولاى ديميانوفتش الصورة كلها بوضوح لدرجة انه احس بجفاف في حلقه ، الأمر الذى كان يحدث له عندما يفكر في امرأة ، وبعد حوالي خمسة أيام ، وبعد أن فرغ من الشئون الأخرى ، اتصل بهاتف لودميلا وطلب استدعاء جريجورى فيدوروفتش . واجابه صوت نسائى بأن جريجورى فيدوروفتش لم يعد مقيما هنا .

لليوم الثالث ظل ربروف يعذب نفسه ، وهو راقد على الرف العلوى في مقصورة القطار ، ويصنع من الحبة قبة . ويكتب على ورقة : حبّة ، رغبة ، ورقة ، سرقة . . . ومن الرف المواجه اعطاه الرجل المدعو موديست بتروفتش جرعة من السم المنقذ ما أن ابتعد بهم القطار عن ضواحى موسكو وتوغل في الثلوج عبر اسوار الدور الصيفية المسودة . وعندما كان ربروف ينحى الورقة ويكف عن ترديد «حفر ، بحر ، قبر . . .» وتصطدم نظرته بالسقف أو تنزلق على الآماد الثلجية المملة خلف النافذة — فقد كان مارس في بدايته ، واكوام ثلوج الشتاء الضخمة ما تزال قائمة — كان يسمع كلام ويرى وجوه الذين ابتعد عنهم الى الأبد متوجها الى المجهول . كان بيوتر الكسندروفتش يبتسم بشفتيه الجافتين الصفراوين ، وهو يقول : «أنت أدرى يا جريشا ، افعل ما تراه . . .» .

لم يعد العجوز يبالى بشيء . حتى البستان — الذى كان

محور حياته في وقت ما — لم يعد يثيره الآن . كان العجوز يجلس اياما بكاملها في المقعد بجوار النافذة ، يستمع الى المذياع وينعس أو يقرأ مجلة «أوجونيوك» ، وعلى شفتيه تجمدت ابتسامة . ابتسامة اللامبالاة بكل ما عدا المرض أى الموت . لم يكن يتحدث الا عن صحته ، وعن الأدوية ، والاطباء ، والممرضات ، وكانت واحدة منهن تحقنه افضل وتتحدث معه بود ، وكان يحبها جدا ، اما الاخرى فعابسة ، كانت تؤلمه اثناء الحقن ولا تصل الى العرق فورا ، وكان يمقتها ويسميها «الحفّارة» . ودهش ربروف في جانب من جوانب وعيه : اذ كيف يمكن ان يتغير المرء هذا التغير الجوهرى ! ولم يكن يعرف بعد ان **بستانه هو ايضا** — الذى كان محور حياته في وقت ما — يمكن ان يهجر الى الأبد . وكان الاوان قد أوشك .

قال العجوز :

— انصحك يا جريشا ألا تلقى بالا . دعك من الأمر ، ابصق عليه ! آه يا الهى . . . — واطلق العجوز تنهيدات خفيفة متقلصة ولكن ليس ابدا بدافع الشفقة على ربروف ، وانما لأن التفكير في المرض ألمّ به فجأة من جديد — انك لا تعرف النساء . . . انهن مخلوقات بطريقة تختلف عنا . ايرينا ، مثلا ، لا تستطيع ابدا أن تدرك انها عندما تفتح باب المطبخ . . . — وفجأة سأله هامسا — ولماذا ذهبت الى سموليانوف ، ما الداعى ؟

فقال ربروف منفعلا :

— وما الفرق ! كنت بحاجة الى ذلك فذهبت . بعد تلك الزيارة الكريهة الى أبعد الحدود (وبالفعل فياله من تصرف شخص ابله ! كلا ، بل شخص جبان .

لقد تملكه الخوف فجأة : المولود القادم ، والسكن مستقلين ، ولا بد من عمل شيء ما فورا ، ينبغى ان يكسب مبلغا كبيرا . كلا ، ليس هذا ، بل ربما كان السبب الرئيسي هو الميل المنحط والمعذب الى خوض هذه المحنة واستطلاع أبعادها الملوثة ، فقد كان يحدس منذ وقت طويل بأن **احد الاشخاص** هو سموليانوف) ، بعد تلك الزيارة ظل ربروف لمدة يومين غير راغب في استقصاء اى شيء . لم يكن يريد ان يثق بأى شيء أو يعرف شيئا . فما الداعى ؟ لن يستطيع ان يثبت شيئا . فاهداؤها قميصا له ، وابتسامه وهو يتحدث عن ذلك ، لا يعنيان شيئا بعد . فهو عموما وقح ، حيوان . ولكن كل شيء تغير في صباح اليوم الثالث . فقد عثر ربروف بالصدفة — فوق ارض السندرة — على رسالة من ايرينا اجناتيفنا الى لالا . لقد اعتاد ربروف هذه المؤلفات المكتوبة على ورق دفاتر التلاميذ ، والموضوعة احيانا في مظاريف وأحيانا بدون مظاريف . وتصبح حماته مصابة بهوس الكتابة عندما تتخاصم مع ابنتها . أما هذه الساهية فتترك تلك الرسائل في كل مكان ، فحتى لو كنت لا تريد فسوف تقرأها ! يبدو ان شيئا وقع بينهما ، فقد كان واضحا أنهما لا تتحدثان ، ولكن ربروف لم يسأل عن السبب . كان يعرف امرا مؤكدا ، وهو ان الخصام يبدأ بينهما وينتهى على رأسه هو ، اذ أن لالا لم تكن تقوى على احتمال خصام طويل مع أمها . ما كان ينبغى ان يرفع من الارض هذه الرسالة ، عليها اللعنة ! وكالعادة كتبت الحماة نثرا حديثا ، مثل دوس باسوس ، بدون نقاط أو فواصل :

«كم أنت حمقاء الحياة لا تعلمك شيئا ايتها البلهاء ما حاجتك الى هذا ؟ ليكن في علمك اننى لن أعنى بالطفل

فلا تعتمدى عليّ اذ ليس لدى قوة ، ويكفينى لو استطعت النهوض بأمر أبيك أنت تعملين من اجله وتشقين ثم هذا الطفل سوف تصبحين مكبلة تماما وتشيخين بسرعة وتتحولين الى فرس عجوز مثل مايكا ابنة الخالة جينيا جلد على عظم انهكها الاطفال اما أنت فلديك موهبة ولكنك حمقاء تبددينها الاطفال لا سعادة من ورائهم بل الحزن وحده وخيبة الأمل انت لا تفقهين الكثير فوعيك وعى طفل وهو يستغلك اسوأ استغلال بينما يتردد هو على مطعم «ناتسيونال» يشرب ويطفح على حسابك وأنت تكدحين كالحصان ولو كان زوجا حقيقيا لما عانيت هذه المعاناة لقد خطب نيكولاى ديميانوفتش ودك ولكنك رفضت لأجل ماذا ؟ اذا لم تستدعى اليكسي ايفانوفتش فلن اعرفك بعد الآن وعيشى انت وهو كما تشاءان ولا تعتمدا علينا انا وأبيك وادفعا ضريبة ايجار الأرض والعقار وجميع نفقات المرافق بالنصف اما الهاتف فعلى حسابكما فلسنا بحاجة اليه تناولا طعامكما في المطاعم فأنا ارفض ان اطبخ لكما اعيدى لي المائتين والاربعين روبلا التي سلفتك لشراء الفراء . . . » .

في هذه العبارات الاشبه بالهذيان صعقته عبارة واحدة : «لقد خطب نيكولاى ديميانوفتش ودك ولكنك رفضت» .

وفي المساء لم يطق ربروف صبرا فسأل :

— حسنا ، هل ستستدعين اليكسي ايفانوفتش أم لا ؟

كان اليكسى ايفانوفتش طبيب امراض نساء عجوزا عالج ايرينا اجناتيفنا نفسها وأجرى للالا عمليتى اجهاض . ورأى ربروف ان لالا متوترة وقد انهكها عداء أمها — كانت

الحماة تعذبها بصمتها لليوم الرابع ، وكان لا بد لذلك كله ان ينتهى نهاية ما ، وكان على ربروف ان يمسك لسانه ، ولكنه فقد توازنه . وكلمة اثر كلمة ، واذا بالجميع ، وكأنهم كانوا لا ينتظرون الا هذا ، قد اندفعوا الى هذه الدوامة . وتبادلت لالا الاتهامات مع الحماة ، وكالعادة كانت الحماة اكثر صلابة ، بينما راحت لالا تنتحب ، وساءت حالها فاعطوها ادوية ، ودمدمت الحماة المفزوعة «يا بنيتى ، انا لن اتركك» ورشت على لالا ماء باردا . وحلت فترة من الصمت البليد وعدم الرغبة فى الكلام . ووقف بيوتر الكسندروفتش صامتا هو أيضا ، معتمدا على عصاه يصغى الى صياح المرأتين . ثم افترقت المرأتان كل منهما الى غرفتها وبقى ربروف مع بيوتر الكسندروفتش .

وفجأة قال العجوز وهو يقترب منه بهدوء :

— أريد ان أقول لك يا جريشا . . . لا فرق عندى . . . انت غدا تسافر وأنا بعد غد أموت . ماذا علي ؟ ولكن منذ خمسة عشر او ستة عشر عاما كان هناك من يدعى فالنتين . . . — وتلفت حوله ثم استطرد فى همس — فالنتين ايفانوفتش سكوبوف . أسطى أول فى مصنعنا . كان شخصا رصينا ، رصينا جدا ، مهيبا . كان فى عنبر الحدادة . وكنا نذهب معا لصيد السمك ، ونتزاور وما الى ذلك . وفجأة أحسست ان ايرينا على علاقة معه ، وانها تهيم به حبا يعنى . . .

فضحك ربروف ضحكة مريرة وقال :

— ليته كان كذلك . . .

— لا أدرى ، ربما لم يكن حبا ، من يدرى ، سمه ما شئت . ولكن انظر الى هذا الأمر ! مرت بى

لحظة فكرت فيها فى الرحيل ، حتما . اخذ ابنتى ونرحل الى اخر الدنيا . . .

— ثم ماذا ؟

— لا شىء . حماقة ، أتفهم ؟ الحماقة تزول ، والحياة طويلة .

فقال ربروف :

— كلا . الأمر هنا مختلف . لو كان بمقدورى لفعلت ، ولكنى لا استطيع . لا استطيع لانه . . . — ودون ان ينهى كلامه لوح بيده وركض على الدرج صاعدا .

وفى اليوم التالى رحل . وادرك وهو يرحل ان الأمر فى هذه المرة ليس مثلما كان فى وقت ما ، عندما كان يندفع مغضبا الى باشيلوفكا . كان ذلك يوما مشمسا ازرق ، من ايام الشتاء الساطعة . ونظر بيوتر الكسندروفتش مبتسما عبر النافذة الى الثلج الذى كان يبهر العيون ، وقال وهو يمضغ بشفتيه :

— افعل ما تراه يا جريشا . . .

وفى الليلة الثالثة جاءت لالا بحقائبها لتعيش معه . تخاصمت مع امها الى الأبد . ينبغى ان يغفر ويصدقها ، لا يجوز أن يفعل ذلك بها ، بلا شفقة ، بلا رحمة . وكان هو تواقا الى فهمها والغفران لها . ومع ذلك ، لماذا هذا ؟ ما السبب ؟ وراحت لالا وهى تبكى وتندم تقول اشياء تافهة ، مخجلة ، حتى انه لم يقو على السماع . نعم ، نعم ، قالت انه كان هناك ربما فى مكان ما من اللاوعى — وهذا افظع ما فى الأمر — دافع الى تحسين وضعها بصورة ما . واراد ان يصرخ فيها «يا الهى ، لماذا تتقولين على نفسك ؟

لا يمكن ان يكون الأمر كذلك !» بل يمكن ، يمكن . هكذا كان بالضبط . لم تكن ترغب فى افساح الطريق للاخرين . وكان هو يأمل عبثا . وهذه الحقيقة ، الحقيقة كلها ، **الحقيقة العارية** ، كانت أشد جنونا وعريا من اكثر الشهوات تجردا . وأخذ يعذبها ويستنطقها ليستخرج منها كل شىء عن هذا وذاك ، عن جميع الرجال الذين عرفتهم فى الماضى ، فروت له كل شىء حتى النهاية واعطته تلك الحقيقة المزرية ، وبدا وكأنهما معا فقدا عقليهما . الآن صار واضحا ان تلك الليلة كانت تعنى النهاية . ولكنهما آنذاك لم يفهما ، وبدا لهما ان شيئا جديدا ، غير عادى ، يبدأ الان .

وفى اليوم التالى ، عندما بقى ربروف بمفرده بعد ذهاب لالا الى المسرح ، أحس بخواء ووحشة شديدين حتى انه فكر : الا يترك لها فى صندوق البريد رسالة قصيرة ويرحل الى مكان بعيد ؟ وجاء شاخوف وقال ان سموليانوف ينتظره من مدة ، ولكن ربروف قال له انه لن يذهب الى اى مكان . ثم جاء سموليانوف نفسه ذات مساء ومعه حوافظ ربروف وزجاجة كونياك وتورتة للالا قائلا : «اذا لم يأت الجبل الى محمد . . . .» .

وقال انه وجد عملا لربروف : مشرفا ادبيا للمسرح بدلا من ماريفين . وقد اتفق مع المدير ومع ادارة المسارح أيضا . وكانت لالا فى المسرح . وشعر ربروف بالخجل من رثاثة الغرفة ومن بكاء اطفال كانونوف خلف الجدار ، ومن هيئته المشعثة ، فقد كان فى الشبشب والبيجاما . لم يكن يتصور بوضوح ما الذى يجب عليه فعله الان : هل يضرب سموليانوف ام يذهب معه الى المدير للاتفاق على العمل ؟

وما صده عن ضرب سموليانوف الا انه جاء اليه مع ذلك بنية خيرة ويريد ان يساعده . فلماذا يندفع الى ضربه ؟ ورفض زجاجة الكونياك . وكانت هناك ايضا مشكلة الشهادة ، لان كانونوف كان يطارده . وكان فى ذلك كله شيء من عدم الواقعية ، وكأنه يجرى فى الحلم . الخجل فى الحلم ، والدهشة فى الحلم .

— ولماذا لم تقل لى لالا شيئا ؟

— انها لا تعرف ، فالاتفاق حتى الان مع المدير وجيرمان فلاديميروفتش فقط . . . جيرمان فلاديميروفتش — هل تعرف ؟ — سيكون كبير المخرجين على الارجح . . . اما سرجى ليونيدوفتش فقد نقل بالامس الى المستشفى ، ذبحة صدرية ، يقال ذبحة متشعبة . وماذا تتوقع ؟ ما كان ينبغى ان يهلك نفسه بهذه الصورة . . . المرتب الـــف وخمسمائة روبل ، وأيام بدون حضور ، والمجيء فى الساعة الواحدة . . .

فى الأيام الاخيرة كان ربروف يشعر بوضوح ان شيئا كان يتغير فيه بصورة مدمرة . وقد حدث ذلك انذاك ، قبيل السفر . وكان التغير الى درجة ان ربروف خيل اليه انه اصبح شخصا آخر ، تجرى فيه دماء اخرى ، وبتركيب جزيئات كيميائى مختلف . وكان بوسع هذا الشخص الاخر ان يسلك سلوكا مختلفا عن سلوك ذاك ، السابق ، اما السابق فكان من حقه الا يتحمل مسئولية الاخر . وقال انه ينبغى التشاور مع لالا .

فضحك سموليانوف :

— وما الداعى للتشاور هنا ؟

ولكن لم يتسن له ان يشاورها ، فقد مرضت لالا ، ولزمت الفراش عند امها ، وزارها ، ثم استدعوه ببرقية بعد يومين ، فعرف ان اليكسى ايفانوفتش كان عندهم ، وان كل شيء الان على ما يرام . كانت لالا ما تزال ضعيفة ، لا تقوى على النهوض ، ومن عينيها شع النور والفرحة ، وكما خيل لربروف ايضا الشعور بالذنب . اراد ربروف القديم ان يندفع الى لالا ويضع جبينه على يدها البيضاء ، لأن السعادة فى العينين المبللتين كانت عذابا تم تجاوزه ، ولكن ربروف الاخر قال بصوت هادئ :

— كيف حالك ؟ انا سعيد لانتهاء كل شيء .

وابتسمت الحماة بمسالمة وهمست :

— ارجوك لا تزعجها الان ، حسنا ؟ جريشا ارجوك ، اسرع الى السوق واشتر فواكه . . .

وفكر ربروف : «سوف تظل فى قبضتها الى الأبد ، الى ان تموت احداهما» . وعندما عاد بعد ساعة من سوق المعوقين كانت لالا قد نامت . ورحل ربروف الى باشيلوفكا . وفى اليوم التالى ، الجمعة ، جاء شاخوف ، وذهبا للغداء فى المطعم ، ومن هناك الى المسرح . شربا كمية كبيرة حتى ان ربروف لم يكن قادرا على تحريك ساقيه الا بالكاد . واستقلا سيارة تاكسى . لكن ذهنه كان صافيا . وفكر ربروف فى ان افظع شيء هو الوداع الطويل . وعند ميدان مایاكوفسكى امر السائق بالتوقف ، وفتح الباب وأنزل شاخوف الى الرصيف . كان يحس بخفة غير عادية وبشيء آسر واحمق . ولو لا خشيته من ان يبدو مضحكا لصعد الى اعلى وحلّق فوق البيوت . كان القطار يغادر فى التاسعة مساء . وربما كانت لالا تتمشى

فى الغرفة فى الروب ، او تشرب الشاى ، اما هو فيطير دون وداع ، محلقا فى السماء الشتوية فوق السطوح ، ويختفى ، ويضيع .

دلّى موديست بتروفتش من الرف قدمين فى جورب رمادى من الصوف المشغول ومضى يهزهما فوق شخص نائم فى الاسفل ، ثم سأل ربروف :

— ماذا يا جريجورى ابن فلان ، هل انت راحل بعد انهاء المعهد ؟

فقال ربروف :

— كلا يا عزيزى ، اننى والحمد لله فى حوالى الثلاثين ، انا بعد انهاء الحياة .

— اه ، هكذا اذن . . .

وضحك موديست بتروفتش . وخلف النافذة ازدادت الزرقة كثافة واشعلوا النور . هاقد انتهت حياة وتبدأ حياة . وعموما فكل انسان — حتى هذا المنقب الجيولوجى موديست بتروفيتش — لا يعيش حياة واحدة بل عدة حيوات . يموت ويبعث حيا ، ويشهد جنازة نفسه ويراقب مولد نفسه . ومن جديد نفس البطء ، ونفس الامال . ولكن بعد الموت يمكن القاء نظرة شاملة على الحياة التى عاشها ، وهذا ما كان يفعله ربروف حين كان القطار يجره نحو الشرق متوغلا فى الثلوج المتزايدة العمق والصقيع المتزايد الشدة . وفى اليوم الخامس للرحلة حدث فى ممر العربة هرج ولغط . وصرخت امرأة بصوت رنان غريب ينذر بشر «اى ، اى ، اى !» وانفتح الباب واطل وجه مهروس احمر رخو ، بعينين جاحظتين وفح بهمس : مات . . . فى الخامسة صباحا . . . وخرج ربروف

الى الممر . ومن احدى المقصورات تناهى نحيب ، وفى المقصورة الاخرى — كان بابها مفتوحا — كانوا يلعبون الورق . وركض فى الممر رجل ما وهو يزيح من طريقه المتجمعين ويحمل امام صدره ترموسا صينيا ضخما . وعاد ربروف الى المقصورة وتمدد على رفه العلوى . كانت العبرات تخنقه ، فاستدار نحو الجدار ، وكز اسنانه واحس على وجهه برطوبة كيس الوسادة الميرى ، وفكر فى الحياة التى عاشها : ما الذى كان فيها ؟

ودمدم من بين اسنانه المزمومة :

— المشكلة كلها فى ان . . . ترى هل ستكون حياة اخرى ؟

وبعد أسبوع رأى ربروف من نافذة بشارع بلشايا سيبيرسكايا ، حيث كان ينتظر رئيس البعثة الجيولوجية هذا المنظر : نشبت معركة فى الشارع ، فقد طعن رجل رجلا بالسكين فى بطنه ثم رجلا اخر وانطلق راكضا ، ولكنهم لحقوا به وطرحوه ارضا ، وانهالوا عليه ضربا ، فى البداية امسك به ثلاثة : عامل فى رداء أبيض من الدقيق (كان يفرغ شاحنة محملة بأجولة الدقيق على الناصية) وجندى كان عابرا ، وامرأة . وعندما هرول ربروف الى هناك كان حشد قد اصبح يحيط بالقاتل . وكان احد الرجلين اللذين طعنهما ممددا يئن ، اما الثانى فكان يدور فى مكانه متقوسا وممسكا ببطنه . ورفع عدة اشخاص الرجل الطاعن واخذوا يدقون رأسه بأسفلت الشارع . كانوا يتعجلون القضاء عليه قبل وصول الشرطة . ووصلت سيارة الشرطة بعد خمس دقائق . وانشق الجمع وظهر القاتل ممددا بلا حراك وبوجه لا حياة فيه ، أسود كالنعل . كان واضحا

ان الحكم عليه قد نفذ . ورفعه اثنان من رجال الشرطة وسحباه ممسكين به من تحت ابطيه نحو باب السيارة الخلفى المفتوح . واذا بالقاتل يسوى فجأة العمرة على رأسه بيديه ويغمدها اكثر فى رأسه الصغير كرؤوس الاطفال ، ويدلف الى السيارة دون معونة احد .

وعاد ربروف الى الفندق وصعد الى الطابق الثانى . وفكر : ما اسهل قتل الانسان . وما اصعب واستحالة قتل الانسان . وسرعان ما وصل رئيس البعثة الجيولوجية بالاشوف ، وكان رجلا طيبا . واصبح الشارع خاليا ، وفى المكان الذى وقفت فيه الشاحنة المحملة بالدقيق تناثرت بقع بيضـــاء . واخبره بالاشوف بالمواعيد الاخيرة : حتى وسط ابريل يبقون للعمل المعملى فى المدينة ، ثم يرحلون فى العشرين منه الى غابات التايجا لمدة خمسة اشهر . وقرر ربروف انه فى طريق العودة من هناك سوف يتمكن من ان يعرج على بتروفسك-زابايكالسكى ، مصنع الحديد سابقا فى بتروفسك ، حيث كان ايفان بريجوف يهلك فى المنفى ومع ذلك كان «يرعش ساقه» . ليرى ماذا كان هناك وماذا اصبح بفعل الزمن .

عندما تمر لالا بالترولى باص بالمنزل ذى الثمانية طوابق ، حيث «متجر اللحوم» فى الطابق الارضى — تذهب لالا احيانا الى بوليفار كاربيشيف الى محل التنظيف السريع — تتذكر فجأة بعض صور الحياة الماضية ، منذ ثمانية عشر عاما : جريشا ، والمسرح ، والمخرج العجوز ، ورائحة البنفسج فى الربيع ، والكلب كانديلكا الذى كان يصلصل بسلسلته بحذاء السور ، فتحس بالم لحظى غريب ، بوخزة فى قلبها ،

لا تعرف ان كان فرحة أم أسى على ان ذلك كله كان فى وقت ما مرتبطا بها . وأحيانا كانت تمر بمنزل «متجر اللحوم» وكأنها تمر بمكان خاو تماما ، ذلك لأن لدى لالا من الهموم ما يكفيها ورأسها محشو بها : اذ لا بد من التفكير فى زوجها ، وفى ابنها تلميذ الصف الثامن ، والامور فى العمل معقدة ، فمدير دار الثقافة يحملها بالاعباء الاضافية ، فهى قوية ستجر ، وعلاة على ذلك لديها اللجنة النقابية ، ثم دروس فى مجموعة التربية البدنية باستاد «دينامو» ، حيث تمارس لالا الجرى فى ايام السبت مع زوجات العقداء الكهلات . فزوج لالا عسكرى ، دكتور علوم ، يدرس فى الاكاديمية . مات ابوها وامها وتوما والخال كولا ، وحتى مايكا المسكينة التى تصغر لالا بخمسة اعوام ، ماتوا جميعا خلال السنين الماضية . واختفى اصدقاؤها القدامى من اهل المسرح ، ولا ترغب فى رؤية احد منهم (عندما فصلوها لجأت الى القضاء وظلت تقاوم طويلا وبجنون ، واصيبت بالربو فى هذه المعركة ، ولكنها اضطرت للاستسلام) ، واصبحت لديها الان دائرة جديدة من العسكريين والمهندسين وهواة السيارات . وفسيفولود نفسه من هواة السيارات المتحمسين ، وكل صيف يسافرون مع اصدقائهم بسيارتين او ثلاث تارة الى القرم ، وتارة الى جبال الكاربات ، او الى البلطيق . أما معارف المسرح فلا يأتيها منهم — عندما تلتقى بهم صدفة — سوى الاشياء الكريهة .

ذات مرة التقت صدفة فى متجر «جوم» فى طابور الواقفين للحصول على وسائد ، التقت بماشا ، صديقتها القديمة . لشد ما تغيرت ماشا ! وجهها شاخ ، وهى كلها

تبدو مكسورة ، سيئة النية . لسبب ما حدثتها عن سموليانوف . فمن يهتم ؟ لم تعد لالا تذكر بوضوح كيف يبدو سموليانوف هذا ، بدين ام نحيف ، بنظارة ام بدون نظارة . يقال انه افتقر ، وساءت احواله ، ولم يعد يكتب مسرحيات ويعيش على تأجير داره الصيفية للمصطافين . طيب ، له الله ، فليعش كما يشاء ، وما الداعى لمعرفة هذا كله ؟

— اما صاحبك ربروف فله قصة غرام مع ابنة احدى معارفى .

— ماذا تقولين ؟

هنا توترت لالا رغم انها اتخذت هيئة اللامبالاة . واخذت ماشا تروى لها ان الفتاة لعبت دورا فى احد الافلام ، ثم سافرت معه الى الارجنتين او البرازيل لحضور مهرجان سينمائى ، وكان معهما احد المعارف . . . ولكن فى هذه الاثناء وصل دورهما الى البائعة فغاصتا فى الحشد وافترقتا ، ثم لم تسع لالا للبحث عنها . كانت تعرف عن ربروف على وجه التقريب ان اموره فى ازدهار ، ويكسب جيدا من كتابة السيناريوهات ويعيش فى الحى الجنوبى الغربى ، ولديه ايضا سيارة ، ويبدو انه تزوج مرتين . وهذا كل ما تعرفه . وكانت فرحة من اجله . فقد كانت دائما تنظر اليه نظرة طيبة جدا . ولكنها لم تكن تعرف شيئا واحدا : انه يفكر كثيرا فى حياته ويحكم عليها من شتى الوجوه ، فهذه هى هوايته المفضلة اينما كان ، وخاصة اثناء السفر . ويبدو له ان الفترة التى كان فيها فقيرا ، عندما كان يضجر ويحسد ويبغض ويتعذب ويكاد يشحذ ، كانت افضل سنوات حياته ، لانه من اجل السعادة ينبغى ان يتوفر نفس القدر . . .

اما موسكو فتتسع ابعد فأبعد ، الى ما وراء الطريق الدائرى ، عبر الاخوار والحقول ، وتقيم الابراج السكنية تلو الابراج ، والجبال الحجرية ذات الملايين من النوافذ المضيئة ، وتعرى التربة القديمة وتدق فيها انابيب اسمنتية عملاقة ، وتردم الحفر ، وتزيل ، وتعلى ، وتغطى بالاسفلت ، وتدمر دون أثر ، وكل صباح ، على ارصفة المترو ومحطات الباصات يتجمع خلق لا عد لهم ، يزدادون عاما بعد عام . وتصيب الدهشة لالا : «من أين كل هؤلاء الناس ؟ اهم الوافدون قد كثروا ، ام ان الصغار كبروا ؟»

١٩٧١

محتويات

هموم عائلية . (ترجمة غائب طعمة فرمان) . . ٥

التبادل . (ترجمة طارق معصراني) . . . ٢٣٨

الوداع الطويل (ترجمة د . ابوبكر يوسف) . ٣٢٧

الى القراء

ان دار «رادوغا» تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب ، وترجمته وشكل عرضه ، وطباعته واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكى بولفار ١٧ ،
موسكو — الاتحاد السوفييتى